

المجلة  
التاريخية  
المصرية

نوفمبر  
2006

المجلد الرابع والأربعون  
العدد الثاني

مكتبة دار العربية للكتاب

## الناشر

مكتبة الدار العربية للكتاب

شارع الطيران: الحى السابع - مدينة نصر  
تليفون: 2878553 - ص. ب: 2022 - القاهرة

رئيس مجلس الإدارة: محمد رشاد

التصميم والغلاف: محمد حجي

التصحيح والمراجعة: محمد قنحى

التوزيع فى مصر

الدار المصرية اللبنانية

16 ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون: 3910250

ص - ب: 2022 - القاهرة

e-mail info@almasriah.com

www.almasriah.com

المراسلات والتوزيع الخارجى

أوراق الشرقية

بيروت - النويرى - شارع العريسى

ص. ب: 11/3031 - هاتف: 630794 - 644422 - برقيًا: Distlevan

المدير المسئول: محمود عطوى

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها  
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو الناشر

رقم الإيداع بدار الكتب - 99/9440

الترقيم الدولى: 9-11-5366-977

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

1427هـ - 2007م



تُصدرُها

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المراسلات - الأستاذ الدكتور / روف عباس حامد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

قطعة ٤ بلك ٧ - المنطقة التاسعة - مدينة نصر - القاهرة

تليفون : ٦٧٠٧٢٩٤ - ٦٧٠٧٢٩٦ - فاكس : ٦٧٠٧٢٩٨

Email: [Egyhisstu@masrawy.com](mailto:Egyhisstu@masrawy.com)

oboeikan.com



o b e i . c o m . c o m

obeyikan.com

## تقديم

يسعد مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية أن يقدم للمهتمين بالدراسات التاريخية على مختلف تخصصاتهم العدد الثاني من المجلد رقم (45) من "المجلة التاريخية المصرية".

ويتضمن هذا العدد ثمانى دراسات متنوعة تتناول عددًا من الموضوعات في مختلف فروع تخصصات التاريخ، والذي قام بكتابتها: نخبة من أساتذة التاريخ في مصر والعالم العربى.

وتأمل الجمعية أن يحوز هذا العدد مثل سابقه رضاء الباحثين والقراء، كما تأمل أن يساهم الباحثون والمتخصصون ببحوثهم في أعداد المجلة القادمة، وأن تتلقى الاقتراحات والآراء حول ما يضيف إلى المجلة الجديد في حقل البحث التاريخى والدراسات التاريخية الجادة.

والله والوطن العزيز من وراء القصد،

أسرة التحرير

oboeikan.com

صدى حوادث السودان عام 1924

فى البرلمان المصرى

الدكتور

عايدة السيد إبراهيم سليمة

مدرس التاريخ الحديث

كلية البنات - جامعة عين شمس

oboeikan.com

## صدى حوادث السودان عام 1924 فى البرلمان المصرى

يمثل عام 1924 مرحلة هامة فى تاريخ الحركة السياسية فى كل من مصر والسودان. فيه تم وضع دستور 1923 موضع التنفيذ الفعلى حينما أجريت انتخابات أسفرت عن فوز حزب الوفد بالأغلبية ووصوله إلى دست الحكم فى يناير عام 1924، وفيه أيضاً تم افتتاح البرلمان المصرى بعد غياب الحياة النيابية ما يقرب من عشر سنوات. وبالنسبة للسودان فقد شهد عام 1924 أحداثاً وتطورات مهمة جاءت كرد فعل على سعى بريطانيا لإنهاء الوجود المصرى وفصل السودان عن مصر إدارياً وعسكرياً، تلك السياسة التى كان لها ردود فعل قوية داخل الشطر الثانى من وادى النيل وظهور جمعيات وطنية حملت لواء المعارضة ضد الوجود البريطانى وسياسة الفصل وأعلنت تمسكها باستمرار العلاقة الأخوية بين البلدين.

### الجذور التاريخية للارتباط المصرى بالسودان:

ترجع بدايات الارتباط التاريخى الوجدوى بين مصر والسودان إلى العهد العثمانى، حيث ترتب على دخول مصر تحت السيطرة العثمانية أن دخلت كذلك السودان ودنقلة وسواكن. وقد تأكدت تلك الوحدة بعد دخول جيوش محمد على سنار وكردفان ودارفور وغيرهم، وبموجب فرمان 13 فبراير عام 1841 أسند الباب العالى لمحمد على إلى جانب ولاية مصر إدارة تلك المناطق، ومنذ ذلك الوقت صار والى مصر حاكماً شرعياً على السودان. وهكذا ارتبط البلدان ببعضهما بعضاً ارتباطاً وثيقاً وصل إلى حد أن قسمت السودان إدارياً فى عهد إسماعيل إلى مديريات على نسق ما هو معمول به فى مصر.

توافرت مجموعة من المقومات زادت من عوامل الترابط بين البلدين لعل أهمها اللغة والدين والتشابه في العادات والطباع والمصالح التي يجمعها وادى النيل<sup>(1)</sup>. وكانت تلك العوامل من الأهمية بحيث تناوها الكتاب الإنجليز أنفسهم في كتاباتهم مثل السيد سدنى بيل الذى نوه في كتابه عن وادى النيل إلى التشابه بين السودانين وقدماء المصريين في العادات "وأن السودان لن ينهض وحده بغير معونة مصر". كذلك أشار بولسون نيومان في مؤلفاته إلى الروابط الوثيقة التي تربط بين مصر والسودان والتي يعتبر النيل أقواها<sup>(2)</sup>. ومن المعروف أن بريطانيا عقب احتلالها مصر استغلت قيام الثورة المهديّة للانفراد بالسودان واستبعاد مصر، ولذلك وقفت حائلاً أمام سعى الحكومة المصرية لإخماد تلك الثورة بل وطالبت بإخلاء السودان، وبهذه المناسبة بادر شريف باشا رئيس الوزراء آنذاك إلى تقديم استقالته احتجاجاً على هذا الطلب الذى يؤدى إلى الإضرار بمصالح مصر سياسياً واقتصادياً واستراتيجياً، "فلو أرادت مصر أن تتخلى عن السودان لما تركها السودان"<sup>(3)</sup>.

وعلى أثر استقالة شريف عرضت الوزارة على مصطفى رياض فرفضها في حين قبلها نوبار الذى بادر باتخاذ الإجراءات الفعلية لإخلاء السودان<sup>(4)</sup>. وقد عد بعض المؤرخين

(1) محافظ وزارة الخارجية المصرية - الأرشيف السرى الجديد - محفظة رقم 299 - ملف رقم 2 جزء أول - مقال د. حامد سلطان: - السودان من حيث مركزه الدولى، ص 1، مقال د. عبد الحكيم الرفاعى: تاريخ السودان قبل 1899 ص 2، جمهورية مصر العربية. - رئاسة مجلس الوزراء: السودان من 3 فبراير 1841 إلى 12 فبراير 1953، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1953 ص و.

John Marlow: Anglo - Egyptian Relation 1800 - 1953, London, 1954, p. 139, P.M.

Holt: The Mahhdist state in The sudan London. 1958, p. 2-3, E.A. wallig Budge:

Egypt and the Egyptian sudan fourth edition, London, 1921, p. 548.

(2) محافظ وزارة الخارجية المصرية - الأرشيف السرى الجديد، المحفظة السابقة، الملف السابق جزء ثان السودان، ص 11، 14.

(3) طارق البشرى: سعد زغلول يفاوض الاستعمار - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1977 ص 82، د. محمد مصطفى صفوت: الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه، دار الفكر العربى القاهرة 1952، ص 249، جمهورية مصر العربية: رئاسة مجلس الوزراء - المصدر السابق، محافظ وزارة الخارجية المصرية. الأرشيف السرى الجديد - المحفظة السابقة، الملف السابق، جزء ثان

السودان ص 15، 140، John Marlow: Op. Cit, p.

(4) محافظ وزارة الخارجية المصرية، الأرشيف السرى الجديد. المحفظة السابقة - الملف السابق - جزء أول، السودان، د. عبد الحكيم الرفاعى: المقال السابق ص 3.

هذا الإذعان الضربة الثانية التي أصيبت بها مصر بعد الاحتلال، لأنه اعتبر ضياع لنصف الدولة المصرية<sup>(5)</sup>.

ومما يلفت النظر أن بريطانيا كانت تلجأ أحيانا إلى الإقرار بحق مصر في السودان عندما كان ذلك يتمشى مع مصالحها، مثلما حدث عندما دخل الفرنسيون فاشودة عام 1898. ولعل في الظروف التي كان عليها هذا الجزء من القارة الإفريقية من حيث احتمال امتداد النفوذ الفرنسي إلى السودان الغربي، ما أثار خوف بريطانيا مما دفعها إلى الإقرار بحق مصر في السودان أثناء مفاوضاتها مع فرنسا حينما اعترفت بأن فاشودة جزء من السودان، والسودان من أملاك مصر وبأن وادي النيل كان ولا يزال ملكاً ثابتاً لمصر. ومن هذا المنطلق تم إرسال حملة مصرية إنجليزية مشتركة عام 1898 عقب انتهاء الثورة المهدية كان من أهم نتائجها عقد اتفاقية الحكم الثنائي عام 1899 التي ضمنت لإنجلترا السيادة الفعلية، في حين لم يعد لمصر سوى بعض المظاهر الشكلية كالعلم والدعاء للخديوي في خطبة الجمعة<sup>(6)</sup>.

لم تجد اتفاقية الحكم الثنائي قبولا لدى الرأي العام المصري وبخاصة الحزب الوطني الذي كان أكثر الأحزاب اهتماما بمسألة السودان إلى حد أن وضع في مقدمة برنامجه الاستقلال التام لشعبى وادي النيل<sup>(7)</sup>.

### السياسة البريطانية وردود الأفعال لفصل السود عن مصر:

كانت اتفاقية الحكم الثنائي فرصة أمام إنجلترا للاستمرار في سياسة استبعاد مصر والانفراد بالسودان، فعملت أولا على صبغ الإدارة السودانية بالصبغة الإنجليزية كي تجعلها مختلفة عن مصر في عديد من المجالات. ففي التعليم مثلا أنشأت كلية غوردون

(5) د. جعفر محمد على بخيت، ترجمة هنرى رياض: الإدارة المصرية والحركة الوطنية في السودان 1919 - 1939 - الطبعة الثانية - المطبوعات العربية للتأليف والترجمة - الخرطوم 1988، ص 12.

(6) د. يواقيم رزق مرقص: تطور نظام الإدارة في السودان في عهد الحكم الثنائي الأول 1899-1924 الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1984، ص 30، د. محمد مصطفى صفوت: المرجع السابق ص 249، إبراهيم الأسيوطى محمد: السودان الشقيق، مطابع الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، 1960 ص 60، رئاسة مجلس الوزراء: المصدر السابق، طارق البشرى: المرجع السابق، ص 82، أحمد شفيق: حوليات مصر السياسية - الحولية الأولى 1924 - القاهرة 1928، ص 557.

(7) طارق البشرى: المرجع السابق، ص 83، 84، 92، 99.

عام 1903 لتكون بديلا عن التعليم المصرى. كما أقامت المدرسة العسكرية بالخرطوم عام 1905 لتحل محل التعليم العسكرى المصرى، هذا الى جانب تأسيسها لمعهد دينى بأمر درمان للاستغناء عن تعليم الطلبة السودانيين بالأزهر<sup>(8)</sup>.

وفى مجال الاقتصاد أقامت ميناء بورسودان عام 1909 بهدف تحويل تجارة السودان عن طريق مصر إلى البحر الأحمر، وفوق ذلك عملت على مد خطوط السكك الحديدية على أساس مقاييس لا تسمح بوصولها بالخطوط المصرية من وادى حلفا الى أسوان<sup>(9)</sup>.

أما أبعد مظاهر الفصل فكانت فى الميدانين الإدارى والعسكرى. فالمعروف أن الإنجليز استأثروا بجميع الوظائف الكبرى، ولم يتركوا للمصريين منها سوى وظيفة المأمور ونائب المأمور، وكان يقع على كاهل هؤلاء المأمير ونوابهم مهمة تحصيل الضرائب مع ما يتبعها من مظالم<sup>(10)</sup>. وحتى هذه الوظيفة حاولت سحبها من المصريين حينما اتجهت بعد تقرير لجنة ملنر إلى نشر لوائح تعطى سلطات لمشايخ القبائل الرحل، وتدريب سودانيين للإدارة حتى يجلوها محل المأمير المصريين<sup>(11)</sup>، بحيث لم يبق للأخيرين سوى المناصب الإدارية الصغرى. كذلك حاول الإنجليز إقناع السودانيين بأن مصر تعمل على الاستئثار بمياه النيل مما يتسبب فى عرقلة التقدم الزراعى عندهم، إلى جانب تعمدتها إسناد مسئولية قمع الانتفاضات الشعبية السودانية إلى وحدات الجيش المصرى<sup>(12)</sup>، حتى يظهر وهم بمظهر العتاة المتجبرين مما يؤدى فى النهاية إلى قناعة السودانيين بأهمية الوجود البريطانى. غير أن تلك السياسة لم تأت بالنتيجة المرجوة منها، إذ إن شغل المصريين

(8) د. يواقيم رزق مرقص: السودان فى البرلمان المصرى 1924-1936 - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1989، ص 40، د. يونان لبيب رزق: السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول 1899 - 1924 - معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة - 1976 ص 423.

(9) طارق البشرى: المرجع السابق، ص 90.

(10) د. أحمد إبراهيم دياب: "العلاقات المصرية - السودانية 1919 - 1924 - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 1985 ص 17، د. عبد العظيم رمضان: تطور الحركة الوطنية فى مصر من 1918 - 1936 - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة، 1968 ص 436، د. يواقيم رزق مرقص:

السودان فى البرلمان المصرى ص 38.

(11) د. مكى شيبة: مختصر تاريخ السودان الحديث - معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة 1963 - ص 130.

(12) د. عبد العظيم رمضان: المرجع السابق ص 436.

للووظائف الصغرى أتاح الفرصة أمامهم للاحتكاك والاتصال المباشر بالقاعدة العريضة من الشعب السوداني والتأثر بهم والتأثير فيهم، ومما عمل على ازدياد التقارب بينهما كانا يواجهان عدوا مشتركا تمثل في الوجود البريطاني بأشكاله المختلفة<sup>(13)</sup>.

لم تأل بريطانيا جهدا في استمرار إنكار حقوق مصر في السودان من ذلك مثلا التقرير الذى وضعه كين بويد الموظف بالإدارة الاستعمارية في أثناء زيارته لمصر في أوائل عام 1920 والذى أشار فيه إلى ضرورة إخراج مصر نهائيا من السودان، وتنازل تركيا في معاهدة السلام عن جميع حقوقها في مصر والسودان لبريطانيا<sup>(14)</sup>. كذلك الزيارة الرسمية التى قام بها المندوب السامى في أوائل عام 1922 لدراسة حدود السودان بين وداى ودارفور والاتفاق مع فرنسا بشأنها دون إشراك الحكومة المصرية بدعوى أن مصر والسودان مختلفان، وربما كانت بريطانيا تبغى من وراء هذا الاتفاق وقف الامتداد الفرنسى إلى تلك المنطقة والامتداد المصرى أيضا. كذلك ما حدث في إبريل عام 1924 حينما دعت الحكومة البريطانية السودان للاشتراك فى معرض ومبلى الخاص بالمستعمرات الإمبراطورية دون معرفة الحكومة المصرية، الأمر الذى أثار استنكار الحكومة والبرلمان ودفع سعد زغلول رئيس الوزراء آنذاك إلى ضرورة الدفاع عن حقوق مصر والحيلولة دون تحقيق الأطماع البريطانية<sup>(15)</sup>. فى نفس الوقت الذى لفت فيه أحد أعضاء مجلس النواب وهو العضو عبد المجيد اللبان نظر الحكومة إلى تلك الأخطار التى تهدد العلاقة بين مصر والسودان، وذلك من خلال السؤال الذى وجهه لرئيس الحكومة مستفسرا فيه عن الإجراءات التى ستتخذها لمواجهة ذلك الخطر<sup>(16)</sup>.

(13) طارق البشرى: المرجع السابق ص 89، 90، د. يونان لبيب رزق: قضية وحدة وادى النيل - معهد البحوث والدراسات العربية 1975 ص5، د. عبد العظيم رمضان: المرجع السابق، ص 346.

(14) د. يواقيم رزق مرقص: تطور نظام الإدارة فى السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول 1899-1924، ص 328.

(15) عباس محمود العقاد: سعد زغلول، سيرة وثقمة، مطبعة حجازى بالقاهرة 1936. ص 441، 444، عبد الرحمن الرفاعى: فى أعقاب الثورة المصرية الجزء الأول، الطبعة الثانية: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959، ص 164: 167، د. يونان لبيب رزق: السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول 1899، 1924، ص 446، 447.

(16) أحمد شفيق: المصدر السابق ص 180.

بيننا تنبه النواب إلى مخططات بريطانيا من وراء دعوة السودان للاشتراك في هذا المعرض، كان من الأجدى على الصحافة أن تقوم بمهاجمة تلك التعديت بدلا من دورها السلبي الذي اقتصر على سرد تفاصيل حفل افتتاح المعرض.

كذلك أوضحت الضجة التي أثارها نواب المعارضة داخل أروقة مجلس النواب على استمرار بريطانيا في سياسة التعدي حينما طالب النائب عبد الحميد سعيد الحكومة بضرورة اتخاذ إجراءات حاسمة تجاه تعدي بريطانيا على كرامة مصر وحقوقها في السودان حينما سمحت لإيطاليا بإقامة سدود على نهر الجاش<sup>(\*)</sup> دون أخذ رأى مصر، وهذا المشروع لو تم لمنع اتصال النهر بالعطبرة وبالتالي منع وصول الماء إلى كسلا مما يحولها إلى صحراء جرداء " وهذا عمل لا يبيحه القانون الدولي ولا يصح لمصر السكوت عليه فيجب على حكومتنا أن ترفع الصوت عاليا محتجة على هذه التصرفات وأن تسجل احتجاجها بكل الوسائل الممكنة" .. وفي النهاية طلب عبد الحميد سعيد من الحكومة التنحي في حالة عجزها عن الوقوف أمام تلك المخططات الاستعمارية لفصل السودان عن مصر. وقد انتهت تلك المناقشات عندما صرح وزير الخارجية بأن الحكومة تعتبر مسألة السودان جزءاً من مسألة مصر وستكون موضوع النظر في المفاوضات المقبلة<sup>(17)</sup>. دون الوصول إلى نتيجة إيجابية.

واستكمالاً لسياسة الفصل عمدت بريطانيا إلى استقلال بريد السودان عن بريد مصر، وذلك حينما انتدبت مدير إدارة بريد السودان لحضور مؤتمر البريد الدولي الذي عقد في ستوكهولم في صيف عام 1924 ممثلاً عن حكومة السودان البريطانية وليس ممثلاً عن مصر، رغم اعتراض الحكومة المصرية على انتدابه. كذلك اعتادت مصلحة البريد المصري توزيع الإعلانات الخاصة بمواعيد سفر ووصول بواخر شركة الملاحة الإيطالية إلى جميع مكاتبها في مصر والسودان على اعتبار أن بريد السودان جزء من بريد مصر. غير أن إدارة بريد السودان احتجاجاً منها على معاملة بريدها كأحد المكاتب الفرعية المصرية قامت برد

(\*) نهر الجاش يبدأ من الحبشة وينحدر جهة السودان ليصب في نهر العطبرة، وهو نهر كبير يبلغ طوله 400 كيلو متر وتكفي ماؤه لرى 300000 فدان ريا صيفياً. وتقع على شاطئيه أرض عالية الخصوبة.  
(17) مجلس النواب: دور الانعقاد العادى الأول 15 مارس - 10 يولية 1924 - مضبطة الجلسة الأربعين 7 يونية 1924 ص 457.

الإعلانات إلى مصلحة البريد المصرى ولم يقتصر الأمر على ذلك بل اتجهت بريطانيا إصدار طوابع بريدية خاصة بالسودان<sup>(18)</sup>.

رغم تلك المحاولات البريطانية لإبعاد السودان عن مصر إلا أن تلك السياسة لم تؤت ثمارها، إذ ظل الشعبان متفاعلين مع بعضهما بعضا، وكان في ردود فعل ثورة 1919 في السودان ما يؤكد هذا التجاوب، تلك الثورة التي كانت إرهابا لظهور حركة وطنية سودانية تولى قيادتها جيل جديد من أبناء السودان الذين تلقوا العلوم العصرية وأصبحوا يكونون طبقة جديدة على المجتمع وهى طبقة (الأفندية)، والتي بحكم ثقافتها استطاعت أن تحل محل الزعامات الدينية القديمة في قيادة العمل الوطنى. وهؤلاء (الأفندية) هم الذين حملوا لواء المعارضة ضد سياسة الفصل وكانوا أشد حماسا في المطالبة بوحدة وادى النيل وربط قضيتهم بقضية مصر.

أثار ظهور تلك الطبقة الجديدة مخاوف بريطانيا لذا اتجهت نحو القضاء عليها مستعينة بالزعامات التقليدية من أصحاب المصالح الذين اعتمدت عليهم الإدارة البريطانية منذ عام 1898 كالسيد على الميرغنى وغيره وهؤلاء بادروا بإيعاز من بريطانيا إلى إعلان رفضهم لثورة 1919 ووصفوها بأنها فوضى، وبحجة أنهم الممثلون الحقيقيون للشعب السودانى لذا طلبوا من بريطانيا ألا تسمح بتسرب تلك الفوضى إلى السودان، والتصريح لهم بالطواف في كافة أنحاء البلاد لأخذ توقعات أتباعهم على عرائض الولاء غير أن هذا الطلب الأخير قوبل بالرفض تحسبا لازدياد نفوذ تلك الزعامة الدينية<sup>(19)</sup>. ولعل في تعليق د. زاهر رياض ما يدل على حقيقة تلك العناصر إذ قال: "بأن هذه الخطابات قد كتبت في مقر الحاكم العام ووقعها هؤلاء السودانيون دون أن يدروا علام يوقعون، فالسودان لم

(18) الأهرام: 12 نوفمبر 1924، ص 4.

(19) د. جعفر محمد على بخيت: المرجع السابق ص 23، د. أحمد إبراهيم دياب: العلاقات المصرية - السودانية 1919 - 1924، ص 51، 54، 55، 79، 89، 102، 104، د. أحمد إبراهيم دياب: دور الوحدات العسكرية السودانية في ثورة 1924 - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مجلد 21، 1977، ص 171، د. عبد العظيم رمضان: المرجع السابق. ص 438، د. مكى شيكة: مختصر تاريخ السودان الحديث، ص 629، د. زاهر رياض: السودان المعاصر 1821 - 1953 - مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1966، ص 226.

يكن قد اجتاز مرحلة التعليم الابتدائي كى ينشأ به وعى يطلب هذا الطلب وإنما هو من عمل بريطانيا<sup>(20)</sup>.

كان من الطبيعى أن تلجأ الحركة الوطنية السودانية الناشئة فى بدايتها إلى العمل السرى، حيث تم إنشاء جمعيات سرية مثل "جمعية الاتحاد السودانى" التى تشكلت عام 1920 عقب عودة وفد الولاة من بريطانيا فى صيف عام 1919. وقد تضمنت برامجها وأهدافها تحقيق الاستقلال التام لمصر والسودان ووحدة وادى النيل، وبأن أعضاء وفد الولاة للحكم البريطانى لا يمثلون إلا أنفسهم. وقد ضمت تلك الجمعية فى عضويتها بعض الطلبة وخاصة من كلية غوردون، وبعض الأعيان والموظفين ورؤساء العشائر. وما يذكر أن تلك الجمعية كانت تشجع الطلبة السودانين سرأ لترك كلية غوردون واستكمال تعليمهم فى مصر<sup>(21)</sup>.

أما جمعية "الولاة الأبيض" فقد أسسها الملازم أول على عبد اللطيف<sup>(\*)</sup> الذى كان يعمل بالجيش المصرى فى السودان. وقد أطلق على تلك الجمعية فى بدايتها اسم "الشبيبة السودانية" التى ظهرت على مسرح الأحداث بصورة علنية خلال المفاوضات الإنجليزية المصرية التى أسفرت عن صدور تصريح 28 فبراير عام 1922. وبهذه المناسبة نظمت تلك الجمعية مظاهرات احتجاج شارك فيها قطاعات مختلفة من موظفين ورجال جيش وتجار وبعض الطلبة ممن يؤمنون بأهمية الارتباط المصرى السودانى. وفى أثناء ذلك أذاع على عبد اللطيف بياناً فى مايو من العام نفسه بعنوان: "مطالب الأمة السودانية" هاجم فيه سياسة حكومة السودان فى التعليم والقضاء والاقتصاد ونادى بضرورة

(20) د. زاهر رياض: المرجع السابق، ص 227.

(21) د. مكى شبيكة: السودان عبر القرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1924 ص 431.

عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق، ص 162، 163، د. أحمد إبراهيم دياب: ثورة 1924 ص 7، 9، 11، د. جعفر محمد على بخيت: المرجع السابق، ص 23، 24.

(\*) ولد على عبد اللطيف فى حلفا من أبوين جنوبيين ينتميان إلى قبيلة الدينكا. تربى بالخرطوم وتخرج من الكلية الحربية عام 1914 وعندما ترقى لرتبة ملازم أول التحق بالجيش المصرى فى السودان. ثم تولى وظائف إدارية إلى أن وصل إلى نائب المأمور. ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث - الطبعة الرابعة 1968، ص 259، د. رأفت غنيمى الشيخ: مصر والسودان فى العلاقات الدولية - عالم الكتب القاهرة، 1979، ص 237.

استقلال بلاده والانضمام إلى مصر. وقد عدت بريطانيا هذا العمل نوع من أعمال الشغب والاضطراب فقبضت على على عبد اللطيف وحكم عليه بالسجن لمدة عام مما تسبب في فصله نهائيا من الجيش.

لم يكد يمر شهر واحد على خروجه في إبريل عام 1923 حتى أعلن في اجتماع عام قيام "جمعية اللواء الأبيض" التي سرعان ما أصبح لها فروع في كل عواصم المديرية وبعض المدن الصغيرة. ومما يلفت النظر أن تلك الجمعية لم تقتصر عضويتها على السودانيون مثل جمعية الاتحاد السوداني بل انضم إليها بعض المصريين العاملين بالسودان. كما أنها تولت قيادة الحركة الوطنية خلال ثورة السودان عام 1924 ضد الحكم البريطاني، تلك الثورة التي نظر إليها بعضهم على أنها امتداد طبيعي لثورة 1919.

وجدير بالذكر أن جمعية اللواء الأبيض تبنت نفس مبادئ الاتحاد السوداني، من حيث التمسك بوحدة وادى النيل وعدم الاعتراف بوفد الولاة لبريطانيا بأنه الممثل الحقيقي للشعب السوداني، وبالتالي ليس له الحق في التحدث باسمه<sup>(22)</sup>.

لم يقف زعماء مصر مكتوفي الأيدي أمام مساعي بريطانيا نحو الانفراد بالسودان بل حاولوا إثبات حق مصر في العديد من المناسبات. فعقب انتهاء الحرب العالمية الأولى أشار سعد زغلول إلى أهمية السودان بالنسبة لمصر وأنه ألزم لها من الإسكندرية، كما تضمنت المذكرة التي قدمها إلى مؤتمر الصلح عام 1919 التمسك بالسودان<sup>(23)</sup>. واستمر على موقفه حتى بعد توليه السلطان ووضح ذلك من خلال التصريحات التي أدلى بها داخل قاعات البرلمان أو في الصحف من ذلك التصريح الذي أدلى به لمراسل التيمس في 21 مايو عام 1924 نوه فيه إلى أن الاتفاق على السودان سهل إذا عدل الإنجليز عن مطامعهم

(22) د. زاهر رياض: المرجع السابق ص 226، 229، د. أحمد إبراهيم دياب: ثورة 1924: ص 13، 16، 20، 23، د. يونان لبيب رزق: السودان في عهد الحكم الثنائي الأول 1899 - 1924، ص 438، 439، ضرار صالح ضرار: المرجع السابق، ص 258، د. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق، ص 371، د. مكي شبكية: السودان عبر القرون ص 432، د. سمير المنقبادي: تطور المركز الدولي للسودان، الطبعة الأولى 1958، ص 28،

F.O. 407 - 198 Enc. No 228, 1924, P. 337, Sir Harold Macmichael: The Anglo - Egyptian Sudan, First Published, London, 1934, p. 152.

(23) د. جعفر محمد على بخيت: المرجع السابق، ص 56.

الاستعمارية، "فالسودان ليس ضروريا لإنجلترا ولكنه حياة مصر فيجب أن يكون السودان لمصر ولمصر وحدها"<sup>(24)</sup>.

كذلك أكد عدلى يكن خلال مفاوضاته مع بريطانيا على أن السودان أرض مصرية ولا نزاع في أن لمصر حق السيادة عليه. هذا إلى جانب الاقتراح الذى تقدم به الوطنيون عند وضع الدستور بضرورة تخصيص عشرين مقعدا للنواب السودانين في مجلس النواب<sup>(25)</sup>، وهذا الاقتراح لم يتحقق إلا أنه دل على مدى تمسك المصريين بارتباط السودان دستورياً بمصر الأمر الذى يؤكد على أنه جزء متمم لها<sup>(26)</sup>.

### صلى الحوادث فى البرلمان:

لم يختلف برلمان 1924 فى قناعته بأهمية ارتباط السودان بمصر عن الهيئات النيابية السابقة عليه. ففى الجلسة السابعة لمجلس النواب وأثناء مناقشة مواد اللائحة الداخلية اقترح النائب أحمد حمدى سيف النصر ضرورة وجود لجنة مستقلة تختص بشئون السودان ضمن لجان المجلس الدائمة. ونظرا لأن مقدم الاقتراح عمل بالسودان مدة أربعة عشر عاما، لذا أورد بعض الأدلة التى تؤكد أهمية اقتراحه منها أولا، أنه بالرغم من وجود وزارة خاصة بالمستعمرات فى إنجلترا ووزارة للهند، فلم يخل البرلمان الإنجليزى من لجنة

(24) محمد شفيق غربال: تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية 1882 - 1936 الجزء الأول، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1952 ص 135، 136، أحمد شفيق: المصدر السابق ص 224، د. سمير المنقبادى: المرجع السابق، ص 27.

(25) د. جعفر محمد على بخيت: المرجع السابق، ص 56.

(\*) لم يكن هذا الاقتراح هو الأول من نوعه فى تاريخ الحياة النيابية فى مصر بل كان امتدادا للوحدة الدستورية التى شهدتها البلاد خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر. فقد نصت المادة 34 من اللائحة الأساسية لمجلس شورى النواب التى أصدرها إسماعيل فى 8 يونية عام 1879 على أن يكون عدد أعضاء المجلس مائة وعشرين نائبا بينهم نواب عن مديريات السودان، وبالتالي جاء فى المادة 35 من قانون الانتخاب الصادر فى 15 يونية من السنة نفسها أن يكون للسودان ست عشرة دائرة من الدوائر الانتخابية غير أن خلع إسماعيل حال دون تحقيق هذا النظام. وعندما عادت الحياة النيابية مرة أخرى فى عهد توفيق نصت المادة السادسة من قانون الانتخاب الصادر فى 25 مارس عام 1882 أن يكون لمصر مائة وخمسة وعشرون نائبا خصص منهم للسودان اثنا عشر، محافظ وزارة الخارجية المصرية الأرشيف السرى الجديد. المحفظة السابقة - الملف السابق - جزء ثان السودان د. السيد صبرى: الوحدة الدستورية لمصر والسودان، ص 3.

خاصة بالهند، وكذا الحال في فرنسا عن الجزائر وتونس مع الفارق. كذلك كان من دواعي وجود تلك اللجنة إمداد المجلس بكل ما يخص السودان من معلومات نظرا لبعده عن مصر ولأهميته الاقتصادية خاصة في مشروعات الري "فمن دون السودان تصبح مصر صحراء لا نبات فيها".

وقد اختلفت الآراء حول وجود لجنة للسودان من عدمه. فقد رأى مقرر الجلسة أن تكون تلك اللجنة في حالة الضرورة القصوى مبررا ذلك بأن "في تخصيص لجنة للسودان ما يشعر بأنه جزء منفصل عنها وهو في الواقع جزء متمم كالعربية والإسكندرية بل هو ألزم منهما". أو وضع شئون السودان ضمن اختصاص وزارات أخرى كوزارة الأشغال أو الحربية والمالية، وقد نظر البعضهم إلى هذا الاقتراح على أنه لا يتفق مع أهمية السودان. على أية حال فبعد أخذ ورد انتهت المناقشة بموافقة أغلبية الأعضاء على تخصيص لجنة للسودان<sup>(26)</sup> تولى رئاستها مقدم الاقتراح وأربعة عشر آخرون من بينهم حمد الباسل ومحمد عبد الجليل أبو سمره وغيرهما<sup>(27)</sup>.

وعندما أثير الموضوع نفسه في مجلس الشيوخ تم الاتفاق على ما جاء في اللائحة الداخلية من وضع شئون السودان ضمن أعمال لجنة الحربية والبحرية والطيران رغم اعتراض أحد الأعضاء وهو أخنوخ لويس فانوس "الذي رأى أنه في حالة وضع شئون السودان ضمن أعمال لجان أخرى فيفضل أن تكون لجنة الأمور الداخلية باعتباره جزءاً متمماً لمصر"<sup>(28)</sup>.

كان لتلك المناقشات ردود فعل لدى الصحف. حيث أيدت جريدة السياسة موقف مجلس النواب ووصفته بأنه "حركة مباركة.. قضت على هذا السكوت وحتمت وجوب تعيين لجنة قائمة بذاتها خاصة بالسودان، فقرر المجلس تأليفها وهو ما يشكر عليه جزيل

(26) مجلس النواب، دور الانعقاد العادى الأول - الجلسة السابعة 23 مارس 1924، ص 66: 68

F.O. 407. 198. Enc. No. 228 June 2, 1924 p.377.

(27) د. أحمد إبراهيم دياب: العلاقات المصرية - السودانية ص 169، 170.

(28) مجلس الشيوخ - دور الانعقاد العادى الأول 15 مارس - 10 يولية 1924 - الجلسة الخامسة 25

مارس 1924 ص 36، 37.

الشكر لأن مسألة السودان يجب أن تتألف لها لجنة خاصة يعرف أعضاؤها أن من واجباتهم تعقب هذه المسألة فيستعدوا لها منذ الآن". في حين انتقدت ما حدث في مجلس الشيوخ من دمج شئون السودان ضمن لجنة أخرى. "وهذا الإدماج غير محمود لأن فيه معنى أن الشيوخ ينظرون إلى مسألة السودان من وجهة الدفاع الحربى وهذه الوجهة هى أقل وجهات النظر أهمية من ناحيتنا نحن المصريين، فوجهة الماء مقدمة على وجهة الدفاع الحربى، وفوق هذا وذلك فإن اعتبار السودان جزءاً لا ينفصل عن مصر لا ينطوى على إدماج السودان ضمن لجنة الشؤون الحربية والبحرية والطيران. لهذا نحن نأسف لأن حضرات الشيوخ لم يعيروا تمام التفاتهم إلى هذه النقطة كما فعل النواب"<sup>(29)</sup>.

كانت مسألة اشتراك السودان في لجان البرلمان الفنية بداية لإثارة العديد من الأسئلة أو الاستجوابات التى أكدت حرص الأعضاء على إثبات حقوق مصر في السودان باعتبارهما أمة واحدة داخل نسيج واحد. من ذلك مثلاً الاستجواب الذى وجهه العضو السيد فودة في مجلس النواب لرئيس الحكومة عن سبب عدم خروج الجيوش الإنجليزية من مصر والسودان خاصة بعد زوال أسباب بقائها من حيث هدوء الأحوال الأمنية واعتراف إنجلترا بمصر دولة مستقلة ذات سيادة<sup>(30)</sup>.

كذلك أعرب النواب عن استيائهم ورفضهم لبقاء سردار الجيش المصرى في السودان أجنبياً لأنه لا يتفق مع كرامة مصر واستقلالها، وقد شارك وزير الحربية ورئيس الحكومة النواب في هذا الأمر وأضاف الأخير رغبته في ألا يقتصر التمصير على رئاسة الجيش بل يمتد ليشمل الضباط والجنود والأسلحة أيضاً<sup>(31)</sup>.

وفى أثناء مناقشة مجلس النواب لميزانية الدولة لعام 1924 - 1925 اعترض بعض نواب المعارضة وهم: محمد شوقى الخطيب وعبد اللطيف الصوفانى على عدم طرح ميزانية السودان مع ميزانية مصر على اعتبار أن السودان جزء من الدولة المصرية. وبهذه

(29) السياسة: 27 مارس 1924، ص 1.

(30) مجلس النواب: مجموعة مضابط دور الانعقاد الأول - الجلسة الخامسة والعشرين، 1 مايو 1924، ص 297، 298.

(31) مجلس النواب: مجموعة مضابط دور الانعقاد العادى الأول - الجلسة التاسعة والعشرين، 17 مايو 1924، ص 344.

المناسبة شهدت قاعات المجلس مناقشات حادة بين الحكومة والمعارضة كل منهما يريد أن يقنع المجلس بوجهة نظره. فبينما رأت الحكومة أن حصول مصر على حقوقها في السودان لن يتم إلا بالمفاوضة مع "واضعى اليد على السودان" وواضعى ميزانيتها أى الإنجليز وهم الأقوياء رفضت المعارضة ومعظمهم من الحزب الوطنى هذا الأسلوب، إذ صرح عبد اللطيف الصوفانى بأن الأحداث الماضية أثبتت أن أسلوب المفاوضات غير مجد. ورغم تسليم رئيس الحكومة بصحة رأى قطب الحزب الوطنى إلا أنه حاول إقناع الأعضاء بأهمية التفاوض مع الإنجليز حتى يصير لمصر حق طرح ميزانية السودان للمناقشة داخل البرلمان مؤكدا على سعيه للعمل على تحقيق مصالح البلاد ورغبات الأمة ولن يتبع ما يخالف ذلك<sup>(32)</sup>. وقد انتهت تلك المناقشات بين المعارضة والحكومة باحتفاظ كل منهما بوجهة نظره.

لم يقتصر موقف مصر الرسمى الراض لمحاولات انفراد بريطانيا بالسودان على الصعيد الداخلى بل كان فى الخطبة التى أدلى بها وزير مصر المفوض فى لندن ما يدل على دفاع مصر عن حقوقها الثابتة فى الخارج، حينما أشار فى المأدبة التى أقامتها جمعية القطن فى منشستر إلى أهمية اتحاد شطرى الوادى، وإذا كان السودان يمثل لإنجلترا مصالح تجارية واقتصادية فهو بالنسبة لمصر مسألة حياة أو موت، وإذا كان الإنجليز ينظرون إلى السودان على أنه مكان يهاجر إليه السكان فلإنجلترا مستعمرات عديدة يمكن أن يهاجروا إليها. "أما نحن فلنا سوداننا الذى هو إحدى مقاطعاتنا وهو يحتوى على أراض شاسعة تكون منفذا طبيعيا شرعيا يجلووا إليها الذين يريدون من سكان مصر ويستثمرونها. فالسودان قسم من مصر وقومها هم قوم مصريون بدين واحد ويتكلمون لغة واحدة فوادى النيل لا يمكن أن يتجزأ". ومرة أخرى يؤكد الوزير المفوض بأن السودان كان يمثل فى البرلمان المصرى عام 1881 بعشرين نائبا وبأن فصله عن مصر يعتبر هلاكاً لكليهما من كافة النواحي الحربية والاقتصادية والطبيعية<sup>(33)</sup>.

وقد أبدى أعضاء مجلس النواب ارتياحهم لتلك التصريحات التى أدلى بها الوزير

(32) مجلس النواب: مجموعة مضابط دور الانعقاد العادى الأول - الجلسة الأربعين، 7 يونيو 1924، ص

المصرى فى لندن ورأى بعضهم مثل: عبد اللطيف الصوفانى وعبد الحميد سعيد ومحمد شوقى الخطيب وعبد الرحمن الراقى وغيرهم وجوب إرسال برقية شكر لهذا الوزير، وبادروا بالقيام بتلك المهمة بصفتهم الشخصية<sup>(34)</sup>. وما جاء فى برقيتهم أن "الأمة المصرية تعجب بخطبتكم الأخيرة وتفخر بمواقفكم المشرفة، ولا غرو فقد برهنتم بهذه المواقف على أنكم من أبر أبنائها ومن خير من ينطقون بلسانها ويدافعون عن مطالبها وحقوقها. وإنا لنهنتكم عن حسن دفاعكم عن قضية الاستقلال لمصر والسودان"<sup>(35)</sup>.

وفى الوقت الذى ازداد فيه اهتمام مصر رسميا وشعبيا بشئون السودان وصار فى مقدمة المطالب الوطنية، تصاعدت موجات التحدى البريطانى ومحاولاته لإثبات رغبة السودانيين بالبقاء تحت الحكم الإنجليزى، من ذلك مثلا حركة جمع التوقيعات بواسطة العمدة والنظار للمطالبة باستمرار خضوعهم للإنجليز، وتشجيع الزعماء الدينين على إظهار ولائهم لبريطانيا سواء داخل السودان أو خارجه. والدليل على ذلك الاجتماع الذى عقد بأمر درمان يوم 10 يونيه 1924 فى منزل السيد على الميرغنى أكبر زعماء الطرق الصوفية وحضره مجموعة من كبار الشخصيات المتعاونة مع الإدارة البريطانية، بحجة أنهم الممثلون الحقيقيون للشعب السودانى.

وقد جاءت قرارات هذا الاجتماع متعارضة تماما مع مطالب الحركة الوطنية ومؤكدة على أنها جاءت بتحريض من بريطانيا، وما تضمنته أولا: توجيه رسالة باسم المجتمعين إلى الحاكم العام تنفيذ إظهار ولائهم للحكم البريطانى، ثانيا: أن تتولى بريطانيا الوصاية على السودان والعمل على تطويره إلى أن يصل إلى الحكم الذاتى، ثالثا: إرسال وفد إلى لندن يفيد رفضهم لاتفاقية الحكم الثنائى لأنهم لم يكونوا طرفا فيها، والتأكيد على أن السودان منفصل عن مصر بدليل مطالبتهم بأن تمثل إنجلترا بلادهم فى مفاوضاتها مع حكومة الوفد. وقد عبرت بريطانيا عن رضائها عن هذا الاجتماع وربطت بينه وبين التصريحات التى أدلى بها كل من اللورد بارمور فى مجلس اللوردات والمستر ماكدونالد فى مجلس العموم فى أواخر شهر يونيه معلنين فيها عن تمسك بريطانيا بالسودان لصالح أهله ورضائهم.

(34) أحمد شفيق: المصدر السابق، ص 225، 266.

(35) السياسة: 19 نوفمبر 1924، ص 5.

كان من الطبيعي أن تثير تلك التجاوزات أعنف المشاعر الوطنية، حيث شهدت السودان مظاهرة وطنية كبيرة تزعمتها جمعية "اللواء الأبيض" وكل السودانيين المخلصين لمصر، وكانوا هم الأكثرية والذين بادروا بجمع توقيعات الشعب السوداني وإرسال وفد إلى مصر ضم الملازم أول زين العابدين كمثل عن الزوج والسيد محمد المهدي التعايشي ابن الخليفة التعايشي كمثل للعرب، لعرض تلك التوقيعات على أساس أنها وثائق تفيد تعلق الشعب السوداني بمصر وانضوائهم تحت عرش الملك فؤاد وحكومته. غير أن السلطات البريطانية حالت دون وصول هذا الوفد إلى مصر عندما قبضت على زين العابدين وزميله في حلفا بعد تفتيشها وأعيدا إلى الخرطوم. ونتج عن ذلك قيام ثورة في السودان ضد بريطانيا استمرت حتى مقتل السيرلي ستاك سردار الجيش المصري بالسودان والحاكم العام بالقاهرة في نوفمبر عام 1924، ذلك الحادث الذي اعتبرته بريطانيا مبررا قويا لانسحاب الجيش المصري نهائيا من السودان واستئثارها به.

لم يقتصر رئيس جمعية "اللواء الأبيض" على تنظيم مظاهرة احتجاج كبيرة لمنع وصول الوفد السوداني الوطني إلى مصر، بل بادر بإرسال برقيات للبرلمان المصري ولعدد من الصحف لحثهم على الوقوف بجانب الشطر الثاني من الوادي<sup>(36)</sup>. ولأهمية البرقية التي وردت إلى مجلس النواب في إظهار مدى تعلق الوطنيين السودانيين بمصر نورد نصها:

"نحتج باسم الأمة السودانية ونسخط مر السخط على سياسة التطويق التي استعملت لمنع الوفد من السفر لعرض وثائق ولاء السواد الأعظم من الأهلين لمليك البلاد، ونطلب بالبحاح تدخل الحكومة في الأمر بكل ما أوتيت من إقدام وعطف لإيقاف ضروب التنكيل، لأن الأمة المصرية قاطبة مسئولة أمام التاريخ عن كل نازلة تحل بخدام العرش المصري أينما كانوا، وأن سفينة يدير دفتها سعد يستحيل أن تصطدم بصخر مهما كانت الزوابع والظلام".

ومما يلفت النظر أن يقتصر رد مجلس النواب على تلك البرقية بالتصفيق الحاد الطويل

(36) د. يونان لبيب رزق: السودان في عهد الحكم الثنائي الأول 1899 - 1924 ص 451، 452، د. جعفر محمد علي بخيت: المرجع السابق، ص 55: 61، د. أحمد إبراهيم دياب: ثورة 1924، ص 41.

والاحتجاج السلبى، كما يتضح ذلك من الكلمة التى أدلى بها عبد اللطيف الصوفانى جاء فيها:

"نحن جميعا نحتج وأصواتنا صدى لشعورهم ونبادلهم هذا الإحساس ونتمنى أن يتخلصوا من كل القيود ونطلب رفع الظلم عنهم"<sup>(37)</sup>.

وقد تعرضت الحكومة لانتقاد شديد من جانب إحدى صحف المعارضة بسبب تلكؤها في إظهار التجاوب مع تلك الأحداث. حيث كتبت جريدة السياسة مقالا بعنوان "الجمع الوطني" قالت فيه: "أثنا ستلوا في البرلمان عن السودان وعما يجرى فيه من بناء خانات تحبس ماء النيل، وعن تمثيله في معرض ومبلى إلى جانب مستعمرات الدولة البريطانية، وعن احتفال حكومة السودان لأخذ عرائض الثقة بإنجلترا أو إكراه نفر من أبنائه على النفور من حكم المصريين. أثنا ستلوا عن هذا كله في مجلس النواب، صاحوا في وجه سائلهم دلونا على الطريقة العملية ليس عندنا تجريدة نمضى بها حكمتنا في السودان. ما فيش عندنا إجراءات."<sup>(38)</sup>.

توالت الأحداث بعد ذلك في السودان وصاحبها بعض أعمال عنف وتخريب وألقت بريطانيا اللوم على المصريين. بأنهم هم المحرضون. وبحجة عدم استفحال الأزمة أصدرت أوامر بمنع التجمهر والتظاهر، إلا أن هذا الإجراء لم يؤد إلا إلى ازدياد الغضب بدليل قيام مظاهرات قوية نظمها جمعية "اللواء الأبيض" في 19 يونيه بأمر درمان وعطبرة وغيرها من المدن.. وكان يتقدم تلك المظاهرات علم أبيض عليه خريطة نهر النيل وفي جانبه الأعلى إلى اليسار الهلال وكان المتظاهرون يهتفون بحياة مصر وملكها. وانضم لتلك الحركة عدد كبير من أهل البلاد كما أيدهم أغلبية كبيرة وجدت في هذه الشعارات تعبيراً صادقا عن رغباتهم واتجاهاتهم. حينئذ لجأت إنجلترا إلى استخدام كافة أنواع العنف لوقف تلك الانتفاضة الوطنية، من ضرب بالسيوف وسجن ثم قامت بإلقاء القبض على زعيم الوطنيين على عبد اللطيف وعلى بعض الموظفين والضباط المصريين في السودان وكثير من السودانيين وقدمتهم للمحاكمة بتهمة التحريض على المظاهرات وحكم على

(37) مجلس النواب: دور الانعقاد العادى الأول - الجلسة الحادية والخمسين، 19 يونيه 1924 ص 621.

(38) السياسة: 30 يونيه 1924، ص 6.

كثير منهم بالسجن. وقد استغلت بريطانيا فرصة اشتراك بعض المصريين في تلك المظاهرات لتعطى لنفسها الحجة الدامغة بضرورة فصل السودان عن مصر<sup>(39)</sup>.

كان لتطور تلك الأحداث وتفاقمها ردود فعل قوية داخل أروقة البرلمان حيث شهدت جلسة 30 يونية بمجلس النواب صدام حاد بين المعارضة والحكومة بدأ بتوجيه عبد اللطيف الصوفانى اللوم للحكومة بسبب تلكؤها في الرد على البرقية التي وردت للمجلس من جمعية "اللواء الأبيض" والتي سبق الإشارة إليها منذ قليل وحاول أن يلفت نظر الأعضاء إلى أنه بعد صدور الدستور وتشكيل البرلمان صارت مصالح الأمة ملقاة على عاتق المجلس وبالتالي فعليهم الترغيب والترهيب مع الشعب السودانى الأمر الذى يتعارض مع المصالح المشتركة. ثم أضاف قائلاً: "ظهر أن أقواما ممن تربطنا معهم المصلحة وأواصر الدم أن يأتوا مصر ليرفعوا إلى جلالة الملك والأمة المصرية ودولة رئيس الوزراء ما تكنه قلوبهم من المحبة والولاء وما يتمنونه من المحافظة على دوام الوحدة التى لا تنفصل، فهل يصح أن يكون هذا ولا تقوم لنا قائمة ولا نظهر رأينا ولا نرفع احتجاجنا على هذا العمل الشائن المخالف لوعود كان يظن بعضها أنها حق وصدق؟! وكان يظن بعضنا أن اللياقة تقضى بإرجاء ذلك لأن التعرض من جهتنا يضر بمصلحة مصر..".

وبناءً عليه تقدم الصوفانى باقتراح يفيد ضرورة احتجاج المجلس على تلك التجاوزات البريطانية، وعلى الحكومة اتخاذ الإجراءات الحازمة للحفاظ على حق مصر والدفاع عن صالح السودانين.

كذلك أدلى عبد الرحمن الرافعى بدلوه في هذا المجال حيث أظهر من الأدلة والأصول التاريخية التى تؤكد حق مصر في السودان ودحض كل أساليب السياسة الاستعمارية لفصل هذين القطرين، وكيف أن هذه السياسة كانت السبب فيما دار في السودان من حوادث خطيرة تتلخص من وجهة نظره في قيام حركتين متناقضتين، حركة وطنية طبيعية أيدها الرافعى وهى التى خرجت كما قال من "أحشاء الشعب السودانى" قوامها مجموعة من الرجال الوطنيين وذوى الرأى فيه، وهؤلاء الذين أرسلوا وفدا للحضور إلى مصر

(39) د. عبد العظيم رمضان: المرجع السابق ص 440، د. أحمد إبراهيم دياب: ثورة 1924 ص 42، 43.

لإظهار ولائهم لها ولملكها ولكنهم منعوا من أداء مهمتهم الوطنية، أما الحركة الثانية فقد وصفها الرافعى بأنها مصطنعة وقد استنكرها قطب الحزب الوطنى وهى التى تمت فى اجتماع أم درمان كى يضرب بها الإنجليز الحركة الأولى. ولذا رأى الرافعى أن هذه الحركة الثانية لا يمكن السكوت عليها لأنها استهدفت الاعتداء على حقوق مصر والسودان وعلى حقوق السيادة المصرية " أى حقوق الولاية العامة التى يشترك فيها المصريون والسودانيون على السواء، والتى هى على النقيض من الاستعمار والتحكم". بعد ذلك أورد الشواهد التى تؤكد حقوق مصر فى السودان، فهى التى قامت بتعميره منذ عهد محمد على باعتباره جزءاً لا ينفصل من البلاد الأمر الذى يدحض ما يدعيه الإنجليز من تعميرهم للسودان. ولذلك رأى الرافعى ضرورة أن يعلن المجلس احتجاجه على تلك الادعاءات البريطانية "لأننا أول من يهيمه عمران السودان وتقدمه وأن التاريخ شاهد عدل على أننا كنا على الدوام عوناً للعمران فى السودان، وما تدعيه السياسة الإنجليزية من أن بقاء سيادتها هو لمصلحة العمران فى تلك البلاد قول مكذوب، لأن المصريين هم الذين مدوا السكك الحديدية، وشيدوا القصور والبنيات وفتحوا المدارس، وشقوا الترع...". ثم أكد الرافعى على أن قيام مصر بذلك العمران يعتبر واجباً وطنياً لأن السودان جزء متمم للبلاد، وتعميره يعتبر تعميراً لمصر، إذ لا فرق بينها، وفى النهاية أعلن تأييده للاقتراح الذى تقدم به عبد اللطيف الصوفانى بخصوص احتجاج المجلس على السياسة الإنجليزية المتبعة فى السودان، وتأييد المعارضة بكل إخلاص الوزارة القائمة فى دفاعها عن حقوق مصر والسودان.

أبدت الحكومة تأييدها لتلك الحقائق والتصريحات التى أدلى بها نواب الحزب الوطنى، حينما أعلن العضو الوفدى حمد الباسل موافقته على ما اقترحه الصوفانى والرافعى بخصوص رفض السياسة البريطانية التى أطلق عليها "سياسة الإفلاس الإنجليزية"، وحاول أن يذكر الأعضاء بأن ما يفعله الإنجليز فى السودان سبق وأن فعلوه فى مصر لكنهم لم يفلحوا بسبب جدية الحركة الوطنية. واختتم كلمته بالتأكيد على أن مصر والسودان كتلة واحدة مهما تعددت ألوان السياسة الاستعمارية.

كذلك أبدى محمود علام موافقته على ضرورة رفع احتجاج البرلمان إلى العالم أجمع لأن

المظالم التي ترتكب في السودان لا تخالف قواعد العدل والشرع والقانون فقط بل تعتبر مساسا للكرامة والشرف الوطني. وقد تضمنت كلمته عبارات أكدت قناعة البرلمان بأن السودان ومصر بلد واحد حينما قال: "لا نعرف مطلقا أن السودان منفصل عن مصر، وإن قيل بضرورة الاحتجاج، فلا يدل احتجاجنا على أنه منفصل عنا بل إنما نحتج كاحتجاجنا على المظالم التي كانت تقوم بها القوة الغاشمة في بلادنا، فلا يصح أن تمر عليها هذه المسائل من السحاب من غير أن تستوقف نظرنا أو تثير احتجاجنا". وأخيراً أعرب هذا النائب عن أمله في أن يرى السودانيون ممثلين في مجلس النواب أسوة بمديريات مصر ثم أعلن تأييده وثقته بالوزارة القائمة.

وبصفته رئيس لجنة السودان أشار النائب أحمد حمدي سيف النصر بأنه سيعرض على المجلس الوثائق التي تحت يده والخاصة باجتماع أم درمان عن الأشخاص الذين ألزمهم الإنجليز بتوقيع عرائض الثقة بهم والتي أكدت صحة ما جاء به الرافعي من أن ما يعمله الإنجليز "إنما هو عمل مصطنع". ولأهمية تلك الوثائق طلب الأعضاء من رئيس لجنة السودان طبعها وتوزيعها عليهم.

بعد هذا العرض الوافي الشامل الذي عكس وجهة نظر النواب فيما يجري في السودان من أحداث. جاء دور سعد زغلول الذي أدلى بتصريحات أثبتت مدى الاتفاق والتلاحم الذي تم بين الحكومة والمعارضة بخصوص رفض مصر للسياسة الاستعمارية التي استهدفت فصل السودان عنه، والإجراءات التعسفية التي اتخذها الإداريون الإنجليز تجاه المواطنين السودانيين، وبطلان عرائض الولاء للإنجليز ثم أضاف بأنه "إذا قدمت هذه الأوراق أمام أى محكمة أو أى هيئة وحصل التمسك بها فلسان مصر يقول إنها أوراق باطلة لأنها لم تؤخذ بالحرية المطلقة، وإنه يجب قبل التمسك بها أن يكون السودان خاليا من كل حكومة أجنبية". ثم أعلن احتجاجه واستنكاره الشديد للإجراءات البريطانية التي وقفت حائلا دون وصول السودانيين المخلصين إلى مصر. وفي النهاية أبدى اغتباطه الشديد بثقة أعضاء المجلس بوزارته التي سوف تتخذ جميع ما في وسعها لحفظ حقوق مصر في السودان، مؤكدا مرة أخرى على أهمية أسلوب المفاوضات في إثبات حقوق مصر داخليا وخارجيا ثم قال: "فيذا تمكنت من الذهاب إلى المفاوضات فلا أقول إن السودان غير

ملوك لنا بل إنه ملكنا... ويجب أن يرد إلينا..." كما طمأن النواب بأنه لن يدخل المفاوضات إلا إذا كانت متفقة مع حقوق مصر وأمنها.

قوبلت كلمة سعد زغلول بارتياح شديد من أعضاء المجلس وكانت دافعا لمبادرة بعض الأعضاء إلى تقديم اقتراحين. جاء الأول من عبد الرحمن الراجحي، والثاني من حسين هلال وراغب إسكندر تضمنا رفض النواب للإجراءات البريطانية لفصل شطرى الوادى والتأكيد على تمسك السودانين بالارتباط الوثيق بمصر، وأخيرا إعلان ثقة المجلس بالوزارة القائمة. وربما تكون البرقية التى وردت إلى المجلس من الخرطوم أثناء انعقاد الجلسة كانت أيضا وراء تقديم هذين الاقتراحين. إذ أرسل خمسة عشر شخصا من الضباط والعاملين السودانين احتجاجهم على إلقاء القبض على المتظاهرين الهاتفين بحياة ملك مصر والسودان وعلى المعاملة التى عوملوا بها وبأنهم غير مسئولين عن تبعة أى حادث تثيره تلك "السياسة الخرقاء"<sup>(40)</sup>.

وفى أثناء انعقاد تلك الجلسة شهدت الخرطوم مظاهرة تأييد كبيرة للملك ولسعد زغلول عبر من خلالها بعض الأعيان عن احتجاجاتهم على السياسة التى اتبعتها بريطانيا للحصول على التوقيعات على عرائض الولاء، ومما جاء فى برقيات الاحتجاج للبرلمان المصرى ما يلى:

"نحن أهالى السودان الحقيقيين نحتج بشدة على الأعمال التى تدور الآن بواسطة المشايخ والعمد والأهالى والتجار المنافقين للتوقيع على عرائض جاهزة مسلمة إليهم من حكومة السودان بإيعاز ووعود وتهديد، نظير دفع جنيه عن كل ختم، والموقعون هم أغراب ولا عشيرة ولا قبيلة تضمهم وتنسبهم أنهم سودانيون أصليون". وبخصوص مسألة الوصاية التى طلبها هؤلاء الموقعون، فقد رأى الأعيان بأن المصريين أحق بها نظرا لاعتبارات الدين والعادات وغيرها من الروابط التى تربط بين الشعبين مؤكداً على أنهم لا يقبلون بديلا للحكم المصرى.

هذا إلى جانب النداء الذى وجهه أكثر من ثلاثين شخصا أعضاء فى مجلس محلى ساحل

(40) مجلس النواب: دور الانعقاد العادى الأول - مضبطة الجلسة الرابعة والخمسين 23 يونية 1924، ص

سليم لحث البرلمان على ضرورة القيام بعمل جدى لإيقاف الافتتاحات على حقوقهم هناك "صونا لحياتهم وحماية إخوانهم السودانيين يضمهم وإياهم وطن واحد".

وقد علقت الأهرام على موقف مجلس النواب وعلى مظاهرة الخرطوم، فقالت: انفتحت هذه المظاهرة التى قامت فى الخرطوم مع مظاهرة مجلس النواب المصرى فى الزمن والغاية فكأنها نوابنا الذين كانوا يهتفون للسودان ويصفقون كانوا مشتركين باسم مصر بتلك المظاهرات حتى إنهم هتفوا لها عاليا، واحتجوا احتجاجا شديدا على إرهاب الناس وضربهم بالسيوف والقبض عليهم وتغييبهم بالسجون<sup>(41)</sup>.

كذلك شارك مجلس الشيوخ مجلس النواب فى استنكاره واحتجاجاته على التجاوزات البريطانية التى ترمى إلى الاستئثار بالسودان وفصل العلاقة التى تربط القطرين الشقيقين، إذ جاء فى الكلمة التى أدلى بها العضو محمد علوى الجزار ما يدل على عمق الروابط التى تربط السودان بمصر "فالسودان لا تحيا دون مصر، ومصر لا تحيا دون السودان". وبناء على ما تم فى مجلس النواب وتثبيتا لحق مصر فى وادى النيل، وعطفا على الإخوة السودانيين الذين استغاثوا بالبرلمان، وافق الأعضاء على اقتراح محمد علوى الجزار بأن يعلن مجلس الشيوخ احتجاجه على الممارسات الإنجليزية فى السودان وثقته بالحكومة القائمة بعد التصريحات التى أدلى بها سعد زغلول أمام مجلس النواب.

وحول ما جاء فى نص الاقتراح المقدم دارت مناقشات الجلسة الثلاثين لمجلس الشيوخ بتاريخ 25 يونيه، إذ اختلفت وجهات نظر الأعضاء بشأن جهة إرسال الاحتجاج. فبينما رأى أحدهم وهو حافظ عابدين بأن يوجه إلى رئيس البرلمان الإنجليزى وأمهات الصحف البريطانية باعتبار أن "البرلمان هو الهيئة الوحيدة التى تعكس وجهة نظر الشعب الذى يعتقد أنه لا يرضى عن المظالم التى ترتكب فى السودان". اعترض آخرون على هذا رأى وهم محمد محمود خليل وعبد الفتاح رجائى لأنه لا يتفق مع كرامة المجلس القيام بتلك المهمة وأعلنا أن يجرى الاقتراح بنفس نص العبارة الأخيرة الواردة فى خطاب محمد علوى الجزار والتى تفيد بأن الإجراءات غير اللائقة التى تنتهجها بريطانيا فى السودان لا تتفق مع "الروح التى ترمى لإيجاد علاقات وئام ومودة بين الشعبين

المصرى والإنجليزى والتي من شأنها أيضًا أن توسع هوة الخلاف بينهما وتقضى على كل أمل فى الوصول إلى حسن التفاهم" على أن يتولى رئيس الحكومة بصفته ممثلًا عن الأمة تبليغ الاحتجاج إلى الحكومة الإنجليزية. كذلك اعترض العضو محمد شفيق على العبارة الواردة فى نص الاقتراح والتي تقول: "إن مصر والسودان قطران شقيقان" مؤكداً على أنها قطر واحد بل عضوان فى جسم واحد، ولذا رأى ضرورة تغيير تلك العبارة. وقد قوبل هذا التعديل الجديد بموافقة جميع الأعضاء بما فيهم مقدم الاقتراح.

وهكذا انتهت الجلسة الثلاثين لمجلس الشيوخ بالموافقة الإجماعية على ما جاء فى الصيغة النهائية للاحتجاج وإعلان الثقة والتأييد للوزارة القائمة. وقد نص على "يحتج مجلس الشيوخ احتجاجاً شديداً على ما تجرته السلطات البريطانية فى السودان من أعمال القمع والإرهاب لمنع السودانيين من إظهار تعلقهم بمصر وولائهم لملكهم صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر والسودان، ويعلن ثقته التامة بالوزارة ويؤيدها كل التأييد فيما أبدته بلسان رئيسها أمام مجلس النواب من التصريحات الخطيرة فى هذا الشأن"<sup>(42)</sup>.

ومرة أخرى تتوالى برقيات التأييد من قبل السودانيين لموقف البرلمان تجاههم، كما توالى فى الوقت نفسه عرائض الاحتجاج. وقد اهتمت الصحافة اهتماماً كبيراً بنشر ورصد كل ما يتعلق بالسودان والتي كانت دافعا قويا أمام مختلف قطاعات الشعب المصرى لإظهار تجاوبهم وتضافر جهودهم مع إخوانهم السودانيين ورفضهم كل ما يعكر صفو العلاقات بينهما. وكان فى المقال الذى نشرته الأهرام فى عدد 9 يوليو بعنوان: "حديث استفتاء السودان فى مجلس العموم البريطانى" ما عكس موقف الرأى العام تجاه التجاوزات التى تمت فى اجتماع أم درمان، ووصفت عرائض الاستكتاب بأنها غير مشروعة وغير مقبولة. وأن الذين قاموا بتوقيعها خونة لملكهم فؤاد ملك مصر والسودان"، لأنهم يخونون راية ترفرف عليهم منذ 124 عاماً، هى راية مصر والسودان معا.. فالسودان ولايه مصرية وإقليم مصرى صرف لا يجوز له أن يطلب تغيير جنسيته، كما لا يجوز لسكان الإسكندرية أو سيناء أو البحيرة أن يطلبوا لهم حكماً غير الحكم المصرى". واستمرت الصحيفة فى تأكيد احتجاجها وإظهار بأن ما يفعله الإنجليز فى

(42) مجلس الشيوخ: مجموعة مضابط دور الانعقاد الأول 15 مارس - 10 يوليو 1924 مضبطة الجلسة الثلاثين 25 يونية 1924 - ص 303، 304، 305. وفيها نص الاقتراح قبل المناقشة.

السودان" لهُو جرأة على التاريخ وعلى القانون والحقوق لا تماثلها جرأة في العالم.. فنحن لا نخشى عاقبة الاستفتاء ولكننا لا نسلم بجوازه، وإذا أردتم الاستفتاء وأن نسلم لكم به ليرى العالم فقط ما هو رأى إخواننا السودانيين، فاسحبوا السيارات المصفحة من شوارع أم درمان والخرطوم وحيثُ يرى هذا العالم المتحد كيف تبدى الأمم والشعوب آراءها. وكيف يبدي السودانيون آراءهم<sup>(43)</sup> ولعل في مقال الأهرام ما يؤكد اتفاق وجهات النظر الرسمية والشعبية بشأن استمرار العمل من أجل استقلال وادي النيل وإحباط محاولات السياسة الإنجليزية لفصل القطرين.

أدت تلك المواقف الرسمية والشعبية إلى مبادرة حكومة العمال لإعلان سياستها تجاه السودان أمام مجلس اللوردات في جلسته بتاريخ 25 يونية، وذلك بمناسبة السؤال الموجه من اللورد ريجلان إلى رئيس الحكومة طالبا فيه توضيح سياستها تجاه مصر والسودان، وعمّا إذا كانت تعترم استشارة البرلمان قبل البت في أى تغيير بشأن الحكم في السودان.

وقد اشترك في تلك المناقشة اللورد جراى وزير الخارجية السابق الذى أعلن بأن بريطانيا لن تترك السودان، منوها بفضل إنجلترا على الوجود المصرى هناك. ثم استطرد قائلا: "إن مصر ما كان لها أن تصل إلى قيد أصعب في السودان ما لم تسترده إنجلترا، وأن مسألة السودان إنما هى مسألة بين البريطانيين والسودانيين، وليس لمصر أن تتدخل فيها بكلمة واحدة".

كما أضاف اللورد بارمور نائب الحكومة في المجلس "بأن الحكومة البريطانية لا تترك السودان بحال، وهى تقدر التعهدات الواجب تحملها، والتى لا يمكن تركها من غير أن تصاب سمعة إنجلترا بخسارة عظيمة، وأستطيع أن أقول من غير تردد: إن نظام السودان لن يسمح بتغييره، ولا أن ينفذ ذلك التغيير من غير موافقة البرلمان".

خيبت تلك التصريحات أمل المصريين في حكومة العمال، وأكدت على أنها لا تختلف عن غيرها من الحكومات الإنجليزية الأخرى في نظرتها الاستعمارية طالما أنها تتفق مع مصالح الإمبراطورية العليا. كما أثبتت أيضا تمسكها بتصريح 28 فبراير كأساس

(43) أحمد شفيق: المصدر السابق ص 230، 231، 232، عبد الرحمن الرفاعي: المرجع السابق ص 170 محمد شفيق غربال: المرجع السابق ص 139، الأهرام: 9 يوليو 1924.

لمفاوضاتها المقبلة، رغم إدراكها التام برفض مصر حكومة وشعبا هذا التصريح وعدم الاعتراف به.

كان من الطبيعي أن توجب تلك التصريحات المشاعر الوطنية، وكانت دافعا قويا أمام الوطنيين السودانيين لإعلان استمرار التمسك بالارتباط والاتلاف حول العرش المصرى. كما أن بركات الاحتجاج لمجلس الشيوخ من بعض أعضاء جمعية "اللواء الأبيض" كانت سببا هاما لكى يؤكد مرة أخرى على الروابط التى تربط مصر بالسودان وخاصة النيل التى هى مصدره ومنبعه، وبهذه المناسبة علق النائب إبراهيم نور الدين فى جلسة 26 يونية على أن الإجراءات البريطانية بفصل القطرين إنما تعنى تغيير وجه الطبيعة، ووصف الإدارة المصرية فى السودان منذ عهد محمد على بأنها إدارة أبوية "إلى الوالد لشئون ولده والأخ الأكبر لشئون أخيه الأصغر". وبالنسبة لتصريح بارمور فبالرغم مما يحمله من تهديد لكن لا يعنى ذلك خضوع مصر له، "بل لا بد من الاستمرار فى الجهاد للاحتفاظ بحقوقها، وأن يسمع العالم صوت نوابها بتصميمهم على التمسك بالسودان وعدم التنازل عنه". وأورد أمثلة لبعض الدول التى تمسكت بحقوقها ووصلت إلى أهدافها، مما يعنى أن مصر لم تكن أول من تمسك بحقه التاريخى فى جزء من البلاد. ثم انتهى إلى حث المجلس على ضرورة الحيلولة دون فصل السودان عن مصر لأن ذلك "معناه القضاء على بلادنا إلى الأبد". وأن يعلن استنكاره واحتجاجه على ما يجرى فى السودان، وكذا على التصريحات الإنجليزية الأخيرة واستمرار التمسك بالاستقلال التام لشطرى الوادى. وقد وافق الأعضاء بالإجماع على ما جاء فى تلك الكلمة من اقتراحات<sup>(44)</sup>.

لم يختلف مجلس النواب عن الشيوخ فى رفضه للتصريحات البريطانية الأخيرة، وفى تأييده للخطوات التى أعلنها سعد زغلول أمام المجلس لمواجهة الموقف المتأزم، وقد أكد على أن تصريحات بارمور لن تغير من حقوق مصر الثابتة فى السودان، "وإنى بالنيابة عن الشعب المصرى جميعه، وعن حضراتكم أصرح بأن الأمة المصرية لا تتنازل عن

(44) مجلس الشيوخ: دور الانعقاد الأول - مضبطة الجلسة الحادية والثلاثين 26 يونية 1924 - ص 326،

السودان.. لا لأنه مستعمر بل لأنه جزء من كيانتنا، ومنبع حياتنا، ولا يمكن لمصر أن تعيش دون السودان أصلاً".

وفي أثناء تعرض سعد زغلول لتاريخ انسحاب مصر من السودان، أثبت بالأدلة على أن استرداده مرة أخرى، تم بأموال ورجال مصريين، ولا زالت القوة المصرية وليست الإنجليزية ترابط لحفظه وحمايته. وبخصوص المفاوضات فقد أكد رئيس الحكومة على رفضه الدخول فيها على أساس تصريح 28 فبراير حتى لو وصل الأمر إلى التخلي عن الحكم.

وعلى الرغم من الاختلاف الشديد في وجهات النظر بين الحكومة والمعارضة في أكثر من موقف إلا أن ذلك لم يصل إلى حد قبول فكرة تخلي رئيس الحكومة عن منصبه حيث بادرت المعارضة قبل المؤيدين بإعلان الثقة بالوزارة القائمة. وفي هذه المناسبة أعرب عبد اللطيف الصوفاني عن أسفه الشديد للظلم الواقع على السودانيون الذين دفعهم حب مصر والقومية والمصلحة المشتركة إلى التمسك بالارتباط بها. وخوفاً من أن تؤدي أعمال الإنجليز إلى تقويض ما قامت به مصر من دعائم الإصلاح والعمران، اقترح الصوفاني بأن يعلن المجلس احتجاجه الشديد على تلك الأعمال، وأن تتحمل السياسة الاستعمارية نتيجة ما يترتب على ذلك من عواقب، وتأليف وفد من بين أعضاء المجلس لتبليغ هذا الاستنكار والاستهجان إلى السفارات. غير أن تلك الفكرة الأخيرة لم تجد قبولا من جانب الأعضاء الذين وافقوا فقط على مبدأ الاحتجاج.

كذلك استهل عبد الرحمن الراجعي كلمته بإسداء الشكر والثناء على التصريحات التي أدلى بها سعد زغلول أمام المجلس لأنه عبر من خلالها عن شعور الأمة أصدق تعبير، وحاول في تعقيبه أن يدحض ما روجه الإنجليز من أن الحكم المصري كان من وراء الفوضى في السودان، أثناء استعراضه لمظاهر الحضارة والعمران والأمن الذي شهده السودان تحت الحكم المصري واعتراف رجال السياسة الإنجليزية أنفسهم به. وبخصوص ما روجه الإنجليز من تخلي مصر عن السودان، نفى الراجعي تلك الشائعات مؤكداً بأنهم هم الذين دفعوا رجاله إلى الثورة ووقفوا حائلاً دون محاولات مصر لإخمادها وأثبت صحة كلامه بحجم المبالغ التي أنفقتها مصر منذ فتح السودان في عهد محمد علي،

والتي بلغت حتى تاريخ تلك الجلسة 26 مليون جنيه مصرى. وأخيراً صرح قطب الحزب الوطنى بأن بريطانيا لا تستطيع بأى حال من الأحوال أن تقيم مشروعات الرى دون العمالة المصرية التى تعتمد عليها البلاد كركيزة أساسية فى العمران هناك، وأضاف قائلاً: "إن فى يدنا أن نعمل عملاً سلبياً وهو ألا نساعدهم على أن يعملوا ضد مصلحتنا وضد مصلحة السودانيين فى تلك البلاد، وفى هذه الحالة لا أظن أن الإنجليز يتجاهلون قوة مصر المعنوية".

كذلك أعلن كل من عبد المجيد نافع وعبد السلام فهمى محمد جمعة استنكارهما للتصريحات البريطانية، منوهين إلى أن الروابط التى تربط مصر بالسودان يفترق إليها الإنجليز مما لا يدع مجالاً لتمسكهم به. وفى هذه المناسبة أهاب عبد المجيد نافع بالأحزاب أن تترك خلافاتها الحزبية ومنازعاتها السياسية للوقوف فى وجه المخططات الاستعمارية "فمصر قبل كل شىء وكل اعتبار"، وأن يعلنوا رفضهم لاستقالة سعد زغلول وثقة الشعب الكاملة به وبوزارته.

وقد انتهت جلسة مجلس النواب بتاريخ 28 يونية بموافقة الأعضاء بالإجماع على رفض تنحى سعد زغلول وإعلان الثقة بوزارته واستمرارها فى العمل والجهد بكل الطرق والوسائل الشرعية لاستخلاص حقوق مصر والسودان كاملة سواء تمت المفاوضات أو لم تتم خاصة بعد البرقيات التى وردت أثناء الجلسة من السودان وأظهرت بشكل واضح مدى سوء المعاملة التى يلاقها الأهالى هناك من الإدارة الإنجليزية بسبب إعلان ولائهم للملك فؤاد، واحتجاجاتهم المتوالية على الأحكام التى صدرت ضد إخوانهم المجاهدين سواء بالسجن أو التعذيب مؤكداً على الاستمرار فى تنظيم المظاهرات السلمية ضد الأعمال البريطانية (المفترية) واستعمالها السلاح الأبيض فى مواجهتها لأعضاء جمعية اللواء الأبيض المخلصين لوطنهم ثم انتهوا إلى مطالبة نواب الأمة بضرورة الإعلان عن تلك السياسة باسمهم لجميع سفراء الدول الموجودة فى مصر وخاصة إنجلترا ونشره بالجرائد<sup>(45)</sup>.

(45) مجلس النواب - دور الانعقاد العادى الأول - مضبطة الجلسة الثانية والخمسين 28 يونية 1924 -

ولعل في ذلك ما يؤكد رغبة السودانيّين في إبلاغ الرأى العام العالمى بالفظائع الإنجليزىة أملا في إظهار التأييد والعطف على قضيتهم واستنكار تلك الفظائع.

رغم مظاهر الارتياح التى أبداه نواب المعارضة تجاه تصريحات سعد زغلول أمام مجلس النواب، إلا أن الأمر اختلف خارج قاعات المجلس. فقد أبدت بعض صحف المعارضة قلقها بما أعلنه رئيس الحكومة بخصوص المفاوضات، وذلك في الكلمة التى كتبها أمين الرافعى على صفحات جريدة "الأخبار" أوضح فيها صراحة رفضه لأسلوب المفاوضات لأنه يعنى ترك السودان للإنجليز، واستطرد قائلاً: "فإذا كانت الوزارة مصممة على التمسك بالسودان فلتعلن أنها لن تدخل المفاوضات في هذه الظروف، وفي ظل تصريحات الحكومة الإنجليزىة التى لا تزال البلاد تحتج على فظاعتها، أما إذا أصرت على المفاوضات فالويل للبلاد وقضيتها، وسلام على مصر وسودانها"<sup>(46)</sup>.

ومن المعروف أنه عقب انتهاء جلسة النواب بادر سعد زغلول إلى تقديم استقالته للملك في يوم 29 يونىة غير أنه أمام رفض النواب، وتأثير الرأى العام، إلى جانب الظروف التى تمر بها القضية الوطنىة في مصر والسودان، رفض الملك الاستقالة وبقيت الوزارة كما كانت.

وإذا أمعنا النظر في كل ما قيل بخصوص ما دار في جلسة مجلس النواب يتبين لنا حرص الملك الشديدا على التمسك بلقب ملك مصر والسودان ووجد في حكومة الوفد ما يحقق طموحاته، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فقد رأى اللنبى أن فكرة الاستقالة كانت مناورة من سعد زغلول للعودة إلى الحكم مرة أخرى. "في مظاهرة يشترك فيها الملك والبرلمان والشعب ليعلم الإنجليز أن الأمة كلها وراءه"<sup>(47)</sup>. ومن المعروف أن استقالة سعد زغلول جاءت كرد فعل على ما دار في مجلس اللوردات الإنجليزى تنفى حقوق مصر في السودان.

وجدير بالذكر أنه على أثر رفض الملك استقالة وزارة سعد زغلول، بادر مجلس الشيوخ في جلسته بتاريخ 30 يونىة إلى إسداء الشكر للملك على موقفه من الوزارة الوفدية لما فيه مصلحة الوطن، كما أعلنوا ارتياحهم التام لموقف رئيس الحكومة تجاه

(46) الأخبار: 7 يوليو 1924 ص 3.

(47) طارق البشرى: المرجع السابق ص 147.

السودان وإصرارهم على ضرورة استمرار الدفاع عنه " لأنه جزء منا، ونحن جزء منه، لا نطالب بالفتح والاستعمار وامتلاك ما وراء الحدود، ولكن نطالب بمنبع الحياة". وشبهوا فصل السودان ببيت الأعضاء من الجسد الواحد. وانتهوا إلى التأكيد مرة أخرى على تأييد سعد زغلول بالإجماع على عدم إجراء أية مفاوضات حتى يعدل الإنجليز عن سياستهم "لكى تعلم بريطانيا أن مصر بأحزابها وهيئاتها وبرلمانها وشعبها تؤيد موقف رئيسها". خاصة بعد أن أعلن رئيس الحكومة فى تلك الجلسة عن عزمه على استمرار العمل فى الطريق الذى يحقق طموحات وتطلعات البرلمان والأمة وهى استقلال مصر والسودان.

وفى تعقيب كل من أحمد زكى أبو السعود وحافظ عابدين وأخنوخ فانوس ما يدل على مدى قناعة المجلس بالتصريحات التى أعلنها رئيس الحكومة، وبأن العقبات التى تعترض البلاد بخصوص السودان تستدعى أن يكون على رأس الوزارة زعيم كسعد زغلول. ثم عاد أخنوخ فانوس بالأحداث إلى الوراء بعض الشيء حينما شبه الظروف التى دفعت رئيس الحكومة لتقديم استقالته بنفس الظروف التى أدت بشريف باشا إلى ترك الوزارة أثناء استفحال الثورة المهدية<sup>(48)</sup>.

وهكذا انفض دور الانعقاد العادى الأول للبرلمان بعد أن عبر فيه النواب تعبيرا صادقا عن موقف الرأى العام المصرى وتعاطفه تجاه السودان وأهله. وكانوا فى مواقفهم الجادة، وبخاصة نواب الحزب الوطنى أثر فى دفع الحكومة إلى اتخاذ الإجراءات الفعالة لمواجهة المخططات البريطانية لفصل السودان عن مصر والانفراد به.

وفى تلك الأثناء نشر حزب الوفد بيانا شديدا للتهجة احتج فيه على التجاوزات البريطانية، وألف لجنة تحت رئاسة وكيله حمد الباسل لجمع التبرعات للسودانيين الذين أصيبوا أثناء المظاهرات. وبهذه المناسبة وجه الأمير عمر طوسون كتاب شكر إلى حمد الباسل، ثم تبرع بمبلغ مائة جنيه مصرى لضحايا المظاهرات<sup>(49)</sup>.

قوبلت حركة التبرعات من قبل الوفد بانتقاد شديد من جانب بعض صحف

(48) مجلس الشيوخ: دور الانعقاد الأول - مضبطة الجلسة الثانية والثلاثين - 30 يونية 1924 - ص 345: 352.

(49) الأهرام: 30 يونية 1924، ص 5.

المعارضة مثل جريدة السياسة التي أبدت دهشتها لتأخر الوفد في اتخاذ الإجراءات العملية على المستوى الحزبي تجاه السودان حينها قالت. "أما عملية اللطم الوطني باسم السودان وبدعوى معونة من جرحوا وسجنوا في حوادثه، فهذه بفضل الله لا تحتاج إلى طريقة عملية، ولا إلى تجريدة عسكرية، ولا إلى إجراءات فعلية أهاب الوفد بالأمة أن تلتقى بالأموال بين يديه الكريمتين ليعث أناسا من رجاله الأبناء يوزعونها على المنكوبين في حوادث السودان ! مرحى! مرحى! الآن اهتديتم إلى الطريقة العملية؟ والآن عبأتم التجريدة العسكرية: والآن تهبأت لكم الإجراءات الفعلية؟"<sup>(50)</sup>.

تطورت أحداث السودان بعد ذلك تطوراً خطيراً، فقد نظمت جمعية اللواء الأبيض في أوائل شهر يوليو مظاهرة معادية للإنجليز في كافة الأنحاء للتعبير عن تمسكها بتحقيق الاستقلال التام لوادي النيل والارتباط بالعرش المصري. وقد عمدت حكومة السودان البريطانية إلى قمع المتظاهرين بوسائل غاية في العنف والقسوة فقامت بجملة اعتقالات واسعة شملت كثيراً من الشباب وزعمائهم، وفي مقدمتهم على عبد اللطيف الذي حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة بتهمة التحريض على الثورة. ونتج عن ذلك ازدياد الغضب وخاصة في الخرطوم الأمر الذي أدى إلى الحكم عليه بسبع سنوات أخرى بتهمة المؤامرة على قلب نظام الحكم، كذلك تم اعتقال عبيد الحاج الأمين وكيل جمعية اللواء الأبيض ورئيسها بعد اعتقال على عبد اللطيف. كما ألقى القبض على بعض الموظفين والضباط المصريين في السودان بتهمة التحريض على التظاهر<sup>(51)</sup>.

لم تحول تلك الإجراءات من استفحال الموقف حيث شهدت الفترة من يوليو حتى مقتل السير لي إلى ستاك في نوفمبر انتفاضة وطنية كبرى شملت جميع أنحاء السودان ضد العنف والتسلط البريطاني والدعوة للوحدة مع مصر. وتكمن خطورة تلك الحركة في اشتراك العسكريين فيها إلى جانب الجمعيات السياسية حيث خرج طلبة المدرسة الحربية بالخرطوم في يوم 9 أغسطس بمظاهرة بدأت من المدرسة تتقدمها صورة للملك فؤاد ووراؤها صورة سعد زغلول وسارت حتى وصلت إلى الأورطة الرابعة المصرية

(50) السياسة: 30 يونيو 1924، ص 6.

(51) عبد الرحمن الرفاعي: المرجع السابق ص 173، 174، د. أحمد إبراهيم دياب: ثورة 1924، ص 48، 49.

وكانوا يهتفون لملك مصر والسودان، ثم اتجهوا إلى منزل على عبد اللطيف وإلى السجن الذى وضع فيه وهم يهتفون بحياته، وعندما عادوا إلى مدرستهم فوجئوا بتجريد السلطات البريطانية مخازن المدرسة من السلاح والذخيرة أثناء مظاهراتهم، ثم ألقى القبض على عدد من زعماء الطلبة وحددت إقامة بعضهم الآخر. ورغم سيطرة بريطانيا على الموقف إلا أنها شعرت بخطورة تلك المظاهرة سياسياً وعسكرياً، خاصة وأن أغلب الطلبة المتظاهرين كانوا من العائلات ذات النفوذ في السودان.

ومما زاد من خطورة الموقف قيام مظاهرة أخرى فى عطبرة انضم إليها معظم العمال الفنيين المصريين بورش السكة الحديد. كما اشترك فيها رجال أورطة السكة الحديد الذين قاموا بتحطيم ورش الهندسة، وتمزيق العلم الإنجليزى وتحطيم مكتب رئيس العمال البريطانى. وقد حاول مدير السكة الحديد إقناع العمال المصريين بالرجوع إلى ثكناتهم لكن دون جدوى. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قامت حامية السكة الحديد مع بعض المتظاهرين باحتلال محطة السكة لمنع نزول أية إمدادات بريطانية أو حتى مصرية. ورغم إطلاق النار على المتظاهرين، إلا أن بريطانيا خوفاً من انتشار الثورة بين رجال هذه الفرقة على طول الخطوط الحديدية سارعت بتجميعهم فى عطبرة وإجلائهم عن السودان فى يوم 17 أغسطس ومحاكمة المحرضين منهم.

كان من الطبيعى أن تعلن الحكومة المصرية احتجاجها الشديد لتعدى السلطات البريطانية على حقوقها فى السودان وعلى خروجها على نصوص اتفاقية "الحكم الثنائى عام 1899. فيما يتعلق بإبعاد جنود مصريين أو تعزيز الحاميات الموجودة هناك قبل الرجوع إليها، غير أن الحكومة البريطانية لم تلتفت إلى هذا الاحتجاج وسارت فى تنفيذ سياستها المرسومة، بل والأهم من ذلك أنها ألقىت مسئولية تلك الحوادث على البرلمان والصحافة المصرية<sup>(52)</sup>. على أساس أن نشر مثل هذه الأخبار كقيل بتأجيج المشاعر الوطنية.

(52) د. يونان لبيب رزق: السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول 1899 - 1924 - ص 458: 464، د. أحمد إبراهيم دياب: ثورة 1924 ص 47: 52، عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق ص 173: 177، أحمد شفيق: المصدر السابق: ص 565: 570.

F.O. 407. 199. No. 103, August 11, 1924, p. 143.

F.O. 407. 199. No. 112, August 12, 1924, p. 153.

F.O. 407. 199. No. 154, August 28, 1924, p. 128: 180.

على أية حال فعلى الرغم من استمرار المظاهرات، وانتقالها إلى مناطق أخرى مثل بور سودان وشندى والأبيض، إلا أن الحركة الوطنية السودانية اضطرت للعودة مرة أخرى إلى اتباع أسلوب العمل السرى لتحقيق مطالبها القومية<sup>(53)</sup>. في نفس الوقت الذى طالبت فيه الحكومة المصرية بضرورة تشكيل لجنة مصرية سودانية للتحقيق في تلك الحوادث، وقد رفض هذا الاقتراح من جانب بريطانيا<sup>(54)</sup> لتناقضه مع سياستها المعلنة بأن السودان ومصر قطران منفصلان.

رغم انفضاض الدورة البرلمانية الأولى إلا أن اهتمام الأعضاء بحوادث السودان لم ينقطع على أساس أنهم عامل مؤثر في دفع الرأى العام المصرى إلى إظهار التعاطف والتجاوب تجاه إخوانهم السودانيين خاصة نواب المعارضة الذين انتقدوا الحكومة على التزامها الصمت تجاه حوادث أغسطس، ولذا طالبوا بضرورة دعوة مجلس النواب لاجتماع غير عادى في 15 أغسطس لمواجهة الموقف، ونظرا لعدم الوصول إلى قرار يوضح رأى البرلمان إزاء تلك الأحداث بسبب حضور مائة عضو فقط وهو عدد لا يكفى لعقد جلسة رسمية، ولذا اتفق الأعضاء الحاضرون على ترك العمل في تلك الأزمات السياسة للسلطة التنفيذية، وقيام الهيئة البرلمانية الوفدية بتشكيل لجنة من 45 عضوا لفحص ودراسة الاقتراحات بخصوص الحالة في السودان وعرض ما تراه منها على الحكومة. كما اقترح فريق منهم وجوب سفر وزير الحربية إلى السودان للتحقيق في الحوادث الجارية هناك واتخاذ ما يجب من الإجراءات، غير أن هذا الاقتراح لم يتم خوفا من أن تمنعه السلطات البريطانية من الدخول مما يعد إهانة لكرامة مصر<sup>(55)</sup>.

هذا إلى جانب البرقيات التى وردت من بعض أعضاء مجلس النواب إلى الملك ورئيس الحكومة معبرين فيها عن استنكارهم للفظائع الواقعة على أبناء السودان، ومطالبين الحكومة بضرورة التدخل "لمنع سفك دماء الأبرياء الذين يطالبون بحريتهم في ظل العرش المصرى"<sup>(56)</sup>.

(53) د. يوتان لبيب زرق: السودان في عهد الحكم الثنائى الأول، ص 464.

(54) سمير المتقبادى: المرجع السابق ص 9، عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق ص 175، جمهورية مصر العربية: رئاسة مجلس الوزراء: المصدر السابق، ص 22.

(55) أحمد شفيق: المصدر السابق ص 290، 291.

(56) الأهرام: 14 أغسطس 1924، ص 6.

كذلك كان لحوادث أغسطس ردود فعل قوية على المستوى الشعبى، حيث قامت الصحافة بدور كبير فى رصد تلك الحوادث وخاصة صحف المعارضة التى انتقد بعضها موقف الحكومة لتلكوها فى اتخاذ الإجراءات الفعالة تجاه التجاوزات الإنجليزية هناك. حيث كتب أمين الرفعى مقالا فى جريدة "الأخبار" قال فيه: "إن هذه الحوادث التى تمجينا أنباؤها كل يوم كانت تتطلب من الوزارة الوفدية والهيئة الوفدية سياسة حازمة تحول بين البلاد وبين التردى فى هاوية الخطر، وتضع حدا لتماذى الإنجليز فى عدوانهم. أما أن تقف الوزارة ذلك الموقف الضعيف القائم على التردد والتراخى. وأما أن تؤيد الهيئة الوفدية سياسة الضعف والتسليم وتنفض فى الأفكار روح الفتور، فذلك ما لم نكن نتوقه بأى حال من الأحوال". ثم قارن الكاتب بين هذا الموقف من حكومة الوفد وموقفها فى المعارضة عندما احتج الحزب بشدة على الاعتقال الأول لعلى عبد اللطيف وانتقاده الوزارة القائمة حينذاك لأنها نشرت وجهة النظر الإنجليزية بشأن حوادث السودان واعتبره معاونة للإنجليز على تحقيق أهدافهم الاستعمارية، ولذا لام أمين الرفعى حكومة الوفد لانتهاجها نفس سياسة الحكومة السابقة تجاه حوادث أغسطس وخاصة فيما يتعلق بإلقاء المسئولية على المصريين وتشويه الغرض القومى للمظاهرات القائمة ونشر كل آراء الإنجليز فى بلاغها الرسمى دون أن تعلق عليه<sup>(57)</sup>.

عمت المظاهرات جميع أنحاء القطر المصرى واشتركت فيها معظم المؤسسات الشعبية وفى مقدمتهم الطلبة على اختلاف مدارسهم، ومجموعة كبيرة من الأهالى بكافة طبقاتهم احتجاجا على حوادث السودان، وقد مر المتظاهرون بمعظم الأحياء الوطنية والأجنبية ثم اتجهوا إلى بيت الأمة ودار البرلمان وهم يهتفون "بحية البرلمان المصرى السودانى".

كذلك شارك الأزهر بدور كبير فى الاحتجاج على حوادث السودان وأسلوب بريطانيا فى قمع المظاهرات الوطنية وقام بتشكيل لجنة أطلق عليها "لجنة الدفاع عن السودان" تولى رئاستها الشيخ على أحمد عامر الذى بادر بتوجيه الشكر إلى الملك لرفض استقالة سعد زغلول، ولرئيس الحكومة على تصريحه فى مجلس النواب لأنه جاء معبرا عن أمانى ورغبات الأمة. وفى أول اجتماع للجنة الأزهر للدفاع عن السودان تم اتخاذ عدة

قرارات منها: أولاً دعوة المصريين إلى مقاطعة البضائع الإنجليزية كنوع من الضغط على إنجلترا للرجوع عن سياسة القمع، والتفاهم مع المصريين على أساس الاستقلال لوادى النيل كله. وأخيراً التبرع لشهداء السودان الذين ينتمون إلى الأزهر<sup>(58)</sup>، وما يلفت النظر أن دعوة لجنة الأزهر لمقاطعة البضائع الإنجليزية كانت الأولى من نوعها منذ أن بدأت حوادث السودان سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي.

لم تكن المرأة بعيدة عن المشاركة في تلك الأحداث السياسية. فقد بادرت السيدة هدى شعراوي زعيمة الحركة النسائية إلى إرسال برقية احتجاج إلى زوجة على عبد اللطيف عندما اعتقلته السلطات البريطانية<sup>(59)</sup>. كما ألفت كلمة عبرت فيها عن قلق الرأي العام المصرى لما تقوم به بريطانيا من تشويه سمعة الإدارة المصرية في السودان، وتوجيه الشكر للبرلمان ورئيس الحكومة لاستنكارهم ورفضهم التجاوزات الإنجليزية، على أن يبلغ هذا الرفض بطريقة رسمية إلى مندوب إنجلترا في مصر ووزير خارجيتها، وأن يقرن الاحتجاج بطلب الكف عن هذه التصرفات حرصاً على استمرار حسن التفاهم مفتوحاً بين الدولتين<sup>(60)</sup>.

وفي الوقت نفسه عقدت جمعية أمهات المستقبل اجتماعاً ألفت فيه رئيسته أنيسة الرشيدي كلمة استعرضت فيها تاريخ السودان المصرى منبع حياة مصر والمظاهرات التي أظهرت مدى تعلق السودانيين بإخوانهم المصريين وموقف وزارة سعد إزاء السودان. كذلك وجهت الشكر لأعضاء البرلمان لإعلان تأييدهم لزعيم الأمة والثقة الإجماعية بوزارته وقررت إلى جانب الاحتجاج تأسيس فرع لجمعيتها في السودان على أن تتولى رئاستها زوجة على عبد اللطيف ومقاطعة البضائع الإنجليزية حتى تعلن إنجلترا عدوها عن تصريحاتها (استعمار السودان)<sup>(61)</sup>.

نتج عن تمسك مصر بحقوقها في السودان إلى قطع المفاوضات التي جرت بين الحكومتين المصرية والإنجليزية خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر، الأمر الذى ترتب عليه

(58) الأهرام: 30 يونية، 1، 2، 3 يولية 1924.

(59) د. أحمد إبراهيم دياب: ثورة 1924، ص 48.

(60) الأهرام: 25 يونية 1924.

(61) الأهرام: 5 يوليو 1924.

محاولات بريطانيا لإقصاء سعد زغلول عن الحكم. ولذلك فبمجرد افتتاح الدورة البرلمانية الثانية في 12 نوفمبر 1924 حتى بادر رئيس الحكومة بتقديم استقالته في يوم 15 من الشهر نفسه متعللاً بأسباب صحية تجعله غير قادر على تحمل مسؤوليات الوزارة. وقد أحدثت تلك الاستقالة ردود فعل قوية داخل أروقة البرلمان الذي لم يقتصر على إعلان الثقة بالحكومة، بل بذل مساعى حثيثة لدى الملك وسعد حتى تم عدول الأخير عن الاستقالة في 17 نوفمبر. ولكن لم يكد يمر يومان على تلك الأحداث حتى وقع حادث مقتل السيرى ستاك سردار الجيش المصرى فى السودان والحاكم العام بالقاهرة فى 19 نوفمبر.

ونظراً لوقوع هذا الحادث عقب التثام البرلمان، لذا كان من أول الموضوعات التى انشغل بها فى جلساته الأولى، خاصة وأن بريطانيا وجدت فى هذا الحادث المبرر القوى الذى دفعها لتحقيق ما كانت تسعى إليه منذ عقد الاتفاق الثانى، وهو الانفرد بالسودان كما يتضح ذلك من خلال الإنذارات التى وجهتها للحكومة المصرية فى معرض ردها على الحادث، وتضمنت سبعة مطالب خص السودان منها الخامس والسادس والسابع التى جاء فيها: ضرورة سحب جميع الضباط ووحدات الجيش المصرى من السودان خلال 24 ساعة، وزيادة مساحة الأراضى التى تزرع فى الجزيرة حسب احتياجات السلطة الإنجليزية، وأخيراً نجحت محاولات إنجلترا لحماية مصالحها فى مصر وعدم التعرض لها بأى شكل من الأشكال<sup>(62)</sup>.

ومن المعروف أن مصر رفضت على لسان رئيس الحكومة فى مجلس النواب تلك التهديدات المتعلقة بحقوقها فى السودان لعدم دستوريتها ولمساسها بكرامة البلاد ومصالحها الحيوية. فقد نصت المادة (46) من الدستور على أن "الملك هو القائد الأعلى للجيش وهو الذى يولى ويعزل الضباط"، وهذا ما يتعارض مع ما جاء فى البند السادس من الإنذار البريطانى.

(62) عبد الرحمن الرفعى: المرجع السابق ص 181، 183، محمد شفيق غربال: المرجع السابق ص 155، د. محمد حسين هيكل - مذكرات فى السياسة المصرية، ج 1، 1912 - 1937 مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1951، ص 204:210.

وقد أدى رضوخ سعد زغلول للمطالب الأولى من الإنذار إلى استياء بعض أعضاء البرلمان، وعدوا ذلك امتهاناً لكرامة الأمة والحكومة وتسليم للإنجليز بالتدخل في شؤون مصر الداخلية، وكذا أعلنوا رفضهم للمذكرة وبأن يكون رد الحكومة حافظاً لكرامة الأمة.

نتيجة للرسائل المتبادلة بين سعد زغلول والنبى والتي تضمنت السياسة البريطانية تجاه السودان للاستئثار به، قدم سعد زغلول استقالته في 24 نوفمبر منوها إلى أن بقاءه في الوزارة ربما يعرض البلاد لخطر أكثر وأعم وأن في قبول الملك لها " ما يقى البلاد شر الأضرار المتوالية"، وأضاف أنه وأصدقائه في المجلس سيواصلون العمل لتحقيق المطالب الوطنية وتأييد كل وزارة تعمل لمصلحة البلاد.

ونستخلص مما سبق أن الظروف أصبحت غير مهيئة أمام سعد زغلول للوصول إلى تفاهم يرضى آمال الوطنيين ويحقق في الوقت نفسه طموحات الإنجليز، فأثر الاستقالة ووافق الملك خوفاً من تفاقم الموقف وإرضاء لبريطانيا.

وعلى ضوء تلك التطورات بادر كل من مجلس النواب والشيوخ إلى تشكيل لجنة خاصة بكل منهما لوضع صيغة الاحتجاج وتبليغه لجميع برلمانات العالم ولسكرتيرية عصابة الأمم لاعتداء إنجلترا على حقوق مصر المقدسة وإعلان تمسك البرلمان بجميع حقوق البلاد الشرعية في شطرى الوادى، والتعبير عن الأسف الشديد للظروف السيئة التي اضطرت الوزارة السعدية للاستقالة، ثم العمل على استقلال مصر والسودان استقلالاً تاماً باعتبارهما وطناً واحداً لا يقبل التجزئة. كما رفض البرلمان استغلال بريطانيا حادث مقتل السيرلى ستاك لتحقيق مظامعها، وإيجاد المبرر للاعتداء على الحقوق الشرعية لمصر " وأن سحب الجيش المصرى من السودان لا علاقة له بالجريمة ولا نظير له في التاريخ ولا يتفق مع روح العصر وحقوق الأمم المقدسة"<sup>(63)</sup>.

(63) مجلس النواب: دور الانعقاد العادى الثانى 12: 24 نوفمبر 1924، الجلسة الخامسة 23 نوفمبر 1924، ص 37، 38، مجلس الشيوخ: مجموعة مضابط الدور الثانى 12 نوفمبر 1924: 23 مارس 1925، الجلسة الأولى 15 نوفمبر، الجلسة الثالثة 24 نوفمبر سنة 1924، ص 20: 25.

ومما يلفت النظر أن سكرتير عام عصبة الأمم رفع احتجاج البرلمان المصرى لمجلس العصبة الذى لم يبلغه للأعضاء لأنه غير صادر عن الحكومة الرسمية، كما أن الوزارة التى خلفت وزارة سعد لم تتخذ أية خطوات عملية للسير فى الموضوع، بل واعتبرت أن البرلمان هو المسئول عن نكبة الإنذارات والمطالب الإنجليزية<sup>(64)</sup>.

ومن المفارقات الغريبة أن تعترف المنظمة الدولية ببرلمانات الدولة الأوربية الكبرى، فى حين لا تعير للبرلمان المصرى أى اهتمام لعدم الاعتراف دوليا بمصر دولة مستقلة وتحيزها الواضح للسياسة البريطانية.

تهيأت الظروف إذن أمام بريطانيا لإنهاء الوجود المصرى من السودان الذى تم بالفعل فى 2 ديسمبر عام 1924، وحل محله "جيش دفاع السودان" الذى أعطى ولاءه لحاكم عام السودان، وذلك بعد أن تخلصت إنجلترا من العقبات التى اعترضتها لتحقيق هذه السياسة، والتى تمثلت فى رفض قسم من القوات المصرية الجلاء بأمر من نائب السردار على أساس أنها موجودة بأمر من الملك ولن تغادر مكانها إلا بإذنه، وبالفعل لم يتم خروجها إلا حينها أوفدت الحكومة المصرية مندوبا خاصا يأمرهم بالانسحاب، كذلك تمكنت بريطانيا من التغلب على الثورة العسكرية التى قامت فى صفوف بعض الفرق السودانية فى الجيش المصرى احتجاجا على قرار جلاء القوات المصرية من السودان<sup>(65)</sup>. ولم تكنف بريطانيا بذلك بل شرعت فى فتح اعتماد بمبلغ ستمائة ألف جنيه لإنشاء خط استحكامات بين مصر والسودان لمنع الجيش المصرى من الدخول مرة أخرى<sup>(66)</sup>.

### الخاتمة:

وهكذا يتضح من خلال تلك الدراسة كيف أن البرلمان جعل من مسألة السودان واقعا ملموسا فى وجدان المصريين، كما أن قضاياها كانت من أولويات اهتمامه حال تشكيله عام 1924 على أساس أن السودان جزء مهم من مصر، بل هو إحدى مديرياته كما صرح بذلك أحد أعضاء البرلمان، وقد جرننا هذا الواقع إلى الخروج ببعض الملاحظات:

(64) محمد شفيق غربال: المرجع السابق، ص 159، 162.

(65) د. يونان لبيب رزق: السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول 1899-1924 ص 478، 479، 486، 487.

487. محمد شفيق غربال: المرجع السابق ص 164، 165.

(66) د. يونان لبيب رزق: المرجع نفسه، ص 488.

أولاً: عمدت إنجلترا بعد مقتل السير لى ستاك إلى استعمال سياسة القوة والأمر الواقع لقطع الروابط التي تربط السودان بمصر والاستئثار به، حيث لم يبق لمصر من مظاهر السيادة سوى العلم المصرى الذى كان يرفع بجانب العلم البريطانى، إلا أن ذلك لا يعنى انتهاء التأثير المصرى الذى ظل موجوداً من الناحية الثقافية، وكان له أثر على كثير من السياسيين الذين تعلموا من التجارب المصرية وسائل العمل والنضال السياسى الحديث.

ثانياً: كان البرلمان والصحافة المصرية يمثلان الوعاء الوحيد الذى كان يصب فيه رجال الحركة الوطنية السودانية والوطنيون المصريون شكواهم ومطالبهم فى التصدى للمخططات الاستعمارية بدليل البرقيات التي وردت من كلا الطرفين للاستنجاد والاحتجاج على ما يعانیه السودانيون من التعنت والعنف البريطانى، الأمر الذى دفع الإنجليز إلى إلقاء تبعه حوادث السودان على البرلمان المصرى والصحافة المصرية.

ثالثاً: إذا كانت حكومة الوفد قد سلكت الطرق الدبلوماسية فى مواقفها تجاه حوادث السودان وتعرضت من جراء ذلك لنقد شديد من جانب المعارضة، إلا أنها على المستوى الحزبى سارت فى اتجاه آخر لا يختلف عن الأحزاب الأخرى فى مواجهة التجاوزات البريطانية من حيث تنظيم المظاهرات التى قادها أعضاء لجنة الوفد المركزية فى كافة أنحاء القطر المصرى، إلى جانب اللجنة التى شكلها وكيله حمد الباسل للتبرع لضحايا المظاهرات.

رابعاً: لا يمكن أن ننكر الدوافع الوطنية وراء مناقشات البرلمان، ولكن كان يوازئها فى الأهمية المصالح الاقتصادية: حيث ركز الأعضاء سواء وطنيين أو وفديين على النيل باعتباره فى مقدمة الروابط التى تربط مصر بالسودان، كما ظهر ذلك من خلال بعض العبارات التى تردت داخل أروقة البرلمان نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: "السودان هو منبع حياة مصر.."، "أن مصر دون السودان تصبح صحراء قاحلة..." إلخ مما يدفعنا إلى القول بغلبة الطابع البرجوازي على المطالبين باستقلال مصر والسودان والذين نظروا إلى أن مصالحهم كملاك للأراضى الزراعية تحتم عليهم ضرورة السعى دون انفراد إنجلترا بالسودان وبالتالى التحكم فى مياه النيل.

خامساً: أدى تلكؤ حكومة الوفد فى المبادرة باتخاذ الوسائل الفعالة للدفاع عن السودان إلى إتاحة الفرصة أمام المعارضة، وخاصة من الحزب الوطنى، لإحراج الحكومة

في أكثر من مناسبة سواء داخل البرلمان أو على صفحات الجرائد. وبذلك يمكن القول إن حوادث السودان كانت مجالا آخر للمزايدات والمباريات الحزبية إلى الحد الذي دفع النائب عبد المجيد نافع أمام تفاقم الموقف إلى حث الأحزاب على ترك خلافاتها ومنازعاتها السياسية والاتجاه نحو إحياء المخططات الاستعمارية.

سادسا: مما يلفت النظر أن حوادث السودان عام 1924 وما صاحبها من أشكال المقاومة المختلفة دلت على نضج الحركة الوطنية السودانية بحيث سارت تحذو حذو رجال ثورة 1919، الأمر الذي أثار المخاوف على المصالح البريطانية، لهذا رأى المسئولون الإنجليز أن الوقت قد حان للتخلص من سعد زغلول ومن المصريين العسكريين والمدنيين، ووجدوا في حادث اغتيال السيرلي ستاك الفرصة المناسبة لتحقيق ذلك.

سابعا: حاول الإنجليز دائما استبعاد الدوافع الوطنية وراء حوادث السودان حينما كانوا يرددون بأن المصريين هم الذين وراء هذه الحوادث، وهذه مغالطة كبرى.

وهكذا يمكن القول إنه على الرغم من أن بريطانيا قد استطاعت أن تحقق أهدافها في السودان قبل مقتل السيرلي ستاك، إلا أنها استخدمت أسلوبا مكشوبا في ردها على هذا الحادث الذي وجدته فرصة لكي تبرهن أمام العالم أهمية إنهاء الوجود المصرى تماما من السودان والانفراد به.

## مصادر ومراجع البحث

### أولاً: وثائق غير منشورة:

- 1- محافظ وزارة الخارجية المصرية - الأرشيف السرى الجديد - محفظة رقم 299 - ملف رقم (2) جزء أول وثان.
- 2- وثائق وزارة الخارجية البريطانية:

Public Record Office, foreign office, Egypt and Sudan:

F.O. 407. 198. No. 228, 247, June, 1924.

F.O. 407. 199. No. 103, 112, 154. August, 1924.

F.O. 407. 199. No. 289, November 24, 1924.

### ثانياً: وثائق منشورة:

- 1- جمهورية مصر العربية - رئاسة مجلس الوزراء: السودان من 13 فبراير 1841 إلى 12 فبراير 1953 المطبعة الأميرية بالقاهرة 1953.
- 2- مضابط مجلس الشيوخ (15 مارس 1924 - 23 مارس 1925).
- 3- مضابط مجلس النواب (15 مارس - 24 نوفمبر 1924).

### ثالثاً: مذكرات شخصية:

- 1- أحمد شفيق: حوليات مصر السياسية - الحولية الأولى 1924 - القاهرة 1928.
- 2- محمد حسين هيكل (دكتور): مذكرات في السياسة المصرية - الجزء الأول - 1912 - 1937 - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - 1951 م.

### رابعاً: المراجع العربية:

- 1- إبراهيم الأسوطى محمد: السودان الشقيق - مطابع الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة 1960.

- 2- د. أحمد إبراهيم دياب (دكتور): ثورة 1924 - الطبعة الأولى - مكتبة تاريخ السودان الحديث والمعاصر الخرطوم 1977م.
- 3- \_\_\_\_\_: العلاقات المصرية - السودانية 1919 - 1924 - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة - 1985م.
- 4- جعفر محمد على بخيت (دكتور) ترجمة هنرى رياض: الإدارة المصرية والحركة الوطنية في السودان 1919 - 1939 - الطبعة الثانية - المطبوعات العربية للتأليف والترجمة - الخرطوم 1988م.
- 5- رأفت غنيمى الشيخ (دكتور): مصر والسودان في العلاقات الدولية - عالم الكتب - القاهرة 1979م.
- 6- زاهر رياض (دكتور): السودان المعاصر 1821 - 1953 - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة 1966.
- 7- سمير المنقبارى (المحامى): تطور المركز الدولى للسودان - الطبعة الأولى 1958م.
- 8- ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث - الطبعة الرابعة 1968.
- 9- طارق البشرى: سعد زغلول يفاوض الاستعمار - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1977.
- 10- عباس محمود العقاد: سعد زغلول، سيرة وتحمية، مطبعة حجازى - القاهرة 1936.
- 11- عبد الرحمن الرفعى: في أعقاب الثورة المصرية - الجزء الأول - الطبعة الثانية مكتبة النهضة المصرية - القاهرة 1959.
- 12- عبد العظيم رمضان (دكتور): تطور الحكمة الوطنية في مصر 1918 - 1936 - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - 1968.
- 13- محمد شفيق غربال: تاريخ المفاوضات المصرية - البريطانية 1882 - 1936 - الجزء الأول - مكتبة النهضة المصرية 1952.
- 14- محمد مصطفى صفوت (دكتور): الاحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه. دار الفكر العربى - القاهرة 1952.
- 15- مكى شببكة (دكتور): السودان عبر القرون - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1964.
- 16- \_\_\_\_\_: مختصر تاريخ السودان الحديث - معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة 1963.

17- يواقيم رزق مرقص (دكتور): تطور نظام الإدارة في السودان في عهد الحكم الثنائي الأول 1899 - 1924 - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1984.

18- \_\_\_\_\_: السودان في البرلمان المصري 1924 - 1936، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1986.

19- يونان لبيب رزق (دكتور): السودان في عهد الحكم الثنائي الأول 1899 - 1924 - معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة (1976).

20- \_\_\_\_\_: قضية وحدة وادى النيل - معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة 1975.

### خامسا: الدوريات

1- الأخبار.

2- الأهرام.

3- السياسة.

4- مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - مجلد 21، 1977. مقال د. أحمد إبراهيم دياب: دور الوحدات العسكرية السودانية في ثورة 1924.

### سادسا: المراجع الأجنبية:

1- Buday, E.A. Wallig: Egypt and the Egyptian Sudan. Foruth edition, London, 1921.

2- Holt, P.M. The mahdish state in the Sudan, London, 1958.

3- Macmichael, sir Harlod: the Anglo Egyptian Sudan, First published, London, 1934.

4- Marlow, Jone.: Anglo-Egyptian Relation 1800 - 1953, first published, London 1954.



oboeikan.com

الخلفية التاريخية والتشكيلة القبلية  
للنزاعات فى إقليم دارفور  
(حتى نهاية الحكم الثانى 1956)

الدكتور

**زكى البحيرى**

أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر

كلية التربية - جامعة المنصورة

obbeikan.com

## الخلفية التاريخية والتشكيلية القبلية للنزاعات فى إقليم دارفور

### مقدمة:

مما لاشك فيه أن مشكلة إقليم دارفور بغرب السودان تعتبر واحدة من أهم المشكلات التى طفت على سطح الأحداث السياسية والعالمية فى السنوات الأخيرة، والتى تردت أخبارها فى وسائل الإعلام والصحافة فى جميع أنحاء العالم، وانشغل بها أهالى دارفور والسودانيون جميعهم وحكومة الخرطوم والبلدان الإفريقية والعربية، بل وجذبت مشكلة دارفور اهتمامات الدول الأجنبية والقوى الخارجية، وأصبحت فى مقدمة المشكلات المطروحة على المنظمات الإقليمية والدولية.

ولقد كان السودان فى عام 2003 قد اقترب من حل مشكلة الجنوب فيه، وأوشك على توقيع الاتفاق النهائى الذى ينهى ما يقرب من خمسة عقود من الحرب الأهلية إذ بمشكلة دارفور هذه تظهر على السطح - لتعيد السودان مرة ثانية إلى مشكلات الحرب والصراع - وهى مشكلة معقدة ذات أبعاد محلية وإفريقية زاد من تعقيدها تدخل قوى أجنبية فيها سعياً وراء تحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية الخاصة.

وقد صور الإعلام الغربى والمنظمات الدولية الأزمة على أنها صراع بين القبائل العربية والقبائل ذات الأصول الإفريقية فى إقليم دارفور، وأن القبائل الإفريقية قد تمردت بسبب اضطهادها من قبل حكومة الخرطوم والعناصر العربية الموالية لها مع أن المشكلة لا تخرج عن كونها مشكلة محلية لها أسبابها التاريخية والطبيعية والاقتصادية والقبلية.

ولهذا كان لابد من البحث عن أصول المشكلة وتوضيح الحقائق أمام الرأي العام السوداني والعربي والعالمي، وعدم ترك الساحة كليةً للغرب لكي يقول ويعلم ما يشاء وفقاً لمصالحه وأهدافه، وفي هذا الإطار تأتي هذه الدراسة التي تتناول الخلفية التاريخية والتشكيلية القبلية للنزاعات في إقليم دارفور حتى 1956.

ويقع إقليم دارفور في غربي السودان، وتبلغ مساحته حوالي نصف مليون من الكيلومترات المربعة أي 20% من إجمالي مساحة السودان الكلية، وهي مساحة كبيرة تعدل مساحة دولة العراق، وأقل قليلاً من مساحة فرنسا، وتمتد ما بين خطي عرض 10° و 20° شمالاً وخطي طول 16° و 27.30 شرقاً<sup>(1)</sup>.

يحد هذا الإقليم شمالاً الصحراء الليبية، وغرباً جمهورية تشاد، وجمهورية إفريقيا الوسطى، وإلى الجنوب منه يوجد بحر العرب ومديرية بحر الغزال وهي إحدى مديريات جنوب السودان، ويحده شرقاً إقليم كردفان<sup>(2)</sup>.

ويتوسط الإقليم هضبة كبيرة يتراوح ارتفاعها في المتوسط ما بين 2000، 3000 قدم فوق سطح البحر، يعلوها جبل مرة - البركاني الخامد - في أقصى الجزء الغربي الذي يبلغ امتداده من الشمال إلى الجنوب 150 كيلومتراً وعرضه 60 كيلومتراً من الشرق إلى الغرب، أي إن مساحة هذا الجبل تبلغ حوالي 9000 كيلو متر مربع، ويبلغ أقصى ارتفاعه حوالي 10000 قدم فوق مستوى سطح البحر<sup>(3)</sup>.

وينقسم إقليم دارفور إدارياً منذ عام 1994م إلى ثلاث ولايات هي: ولاية شمال دارفور وعاصمتها الفاشر<sup>(4)</sup>، وتعتبر المدينة التاريخية والسياسية للإقليم كله، وولاية جنوب دارفور وعاصمتها نيالا وهي تمثل المدينة التجارية والعمرانية، ثم ولاية غرب دارفور وعاصمتها الجنيينة وهي مدينة تجارية بالقرب من الحدود التشادية، وقد بلغ عدد سكان الإقليم بولاياته الثلاث حوالي 4.6 مليون نسمة حسب إحصاء عام 1993، منهم 53% في الولايتين الشمالية والغربية، و47% في الولاية الجنوبية وحدها، وقد زاد عدد سكان إقليم دارفور كله إلى حوالي 6.7 مليون نسمة في الوقت الحاضر، والملاحظ أن متوسط الكثافة السكانية في الولاية الشمالية من دارفور متدن جداً بسبب أنها تضم مناطق صحراوية واسعة قليلة الأمطار، وكان معظم سكان دارفور حتى وقت قريب يعيشون في

الريف ولكن في الخمسين سنة الأخيرة انتقل الكثير من المدن، وحالياً تبلغ نسبة سكان المدن إلى مجموع سكان الولايات حوالى 18.99% في الولاية الشمالية، و12.22% في الولاية الجنوبية، و19.59% في الولاية الغربية وهى نسبة قليلة بالنسبة للمستوى العالمى، بل وحتى قليلة بمستوى السودان الأخرى، وجدير بالذكر أن كل ولاية تحكم بواسطة والٍ هو بمثابة رئيس حكومة الولاية ومعه مجلس وزراء مصغر ومجلس تشريعى يقوم بمهمة التشريع والمراقبة<sup>(5)</sup>.

وتسقط الأمطار في دارفور عامة في أواخر فصل الصيف وخلال فصل الخريف حيث تنحدر على جنبات هضبة دارفور ومرتفعات جبل مرة في شكل متعرج، وفي اتجاهات شتى ووديان كثيرة بسبب طبيعة سطح الأرض، ومن أهم الوديان وأشهرها هناك وداى جولو، ووداى الدور، ووداى أبو سكات، ووداى أبو عرديب، ووداى أبو السنط، ووداى كوية الذى تنحدر مياهه نحو الجنوب حتى تصب في بحر العرب في مواسم الأمطار الغزيرة<sup>(6)</sup>.

ولقد ساعدت ظروف الإقليم المناخية على قيام الزراعة في جنوبه كما تقوم فيه عمليات رعى البقر والماعز والضأن لأنها من الحيوانات ذات الحافر التى لا تعوق الأمطار سيرها، وفي المناطق الواقعة شمال دارفور - شمال خط 13° شمالاً - تسح كمية الأمطار أو تجف لذلك تقوم عملية رعى الإبل التى تتحمل الجوع والعطش، وتتغذى على الحشائش سواء كانت خضراء أو جافة<sup>(7)</sup>.

وتكتسب دارفور - تاريخياً - بأقاليمها الثلاثة أهمية كبيرة بسبب سيطرتها على مناطق تتوافر فيها الإمكانات الزراعية والرعية، وتتنوع فيها سبل العيش ووسائل الحياة، ولوقوعها على طرق التجارة والقوافل بين الشمال والجنوب (طريق درب الأربعين) الموصل إلى مصر، وعلى الطرق المتجه من الغرب إلى الشرق في مسيرة الأفراد والجماعات المتوجهة إلى الحج في الأماكن المقدسة في الحجاز أو الهاربة من السلطات الحاكمة أو الباحثة عن مصدر للعيش والرزق، والتي تكون على الأغلب من دول غرب إفريقيا خاصة من نيجيريا وتشاد<sup>(8)</sup>.

## نشأة سلطنة دارفور:

يحيط بنشأة سلطنة دارفور غموض شديد، غير أنه من المعروف أن الإقليم كان قد تعرض في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين لتحول حضارى بفضل حالة الانتعاش التجارى التى عمت خلال هذه الفترة مما أدى إلى قيام مملكة دارفور<sup>(9)</sup>.

وتشير الروايات إلى أن أول من أسس مملكة في الإقليم هم شعب الداوجو ولكن دولتهم كانت على الأرجح محدودة الاتساع، ومنحصرة في الجزء الجنوبي الشرقى فقط ولم يمتد نفوذهم إلى الشمال أو إلى الغرب، كذلك لم تشمل دولتهم جبل مرة، ثم قام شعب التنجور - كما يرى البعض - بتأسيس دولة أخرى في شمال دارفور ربما بعد زوال دولة الداوجو<sup>(10)</sup>.

وتدل بقايا آثار المساجد والقصور الملكية المبنية بالطوب الأحمر على أن الإسلام قد دخل دارفور في عهد التنجور، ومن المحتمل أن مملكتى الداوجو والتنجور قامتا جنباً إلى جنب حتى القرن السادس عشر الميلادي<sup>(11)</sup>، مما يدل على أن كل دولة منهما لم تكن بالضرورة تحكم جميع مناطق دارفور.

أما السلطنة التى سميت بمملكة دارفور وشملت جبل مرة ومعظم بلاد إقليم دارفور، فقد أجمعت الروايات السودانية على أنها "ترجع إلى أصول عربية"، واختلفت الروايات حول منابع هذا الأصل فمن قائل أن الفور ينتمون إلى بنى هلال بتونس، ومن قائل بأن سلاطين الفور ينتمون إلى سلالة بنى العباس - وهذه أكثر الروايات شيوعاً - التى انتشر رجالها وأمرؤها في بلاد المشرق بعد أن انقرضت دولتهم<sup>(12)</sup>، حيث ذهب منهم شقيقان إلى بلاد تونس في شمال إفريقيا وهما "على" و"أحمد" أولاد سفيان، وقد وقعت خلافات بينهما بسبب زوجة "على" الذى قام بعقر رجل أخيه أحمد فسمى المعقور، وخرج أحمد مهاجراً من تونس مع خاصته وعبيده حتى بلغ جبل مرة ببلاد الفور التى كان يحكمها ملك يدعى "شاو دور شيت"، فأعجب بأحمد واستخدمه في تنظيم مملكته وزوجه ابنته الوحيدة التى أنجب منها ابنه الذى بايعه شعب الفور سلطاناً عليه بعد وفاة والده أحمد وجده السلطان "شاو دور شيت" حوالى سنة 1445م، حيث أسس أسرة

"الكيرا"<sup>(13)</sup>، وكان هو أول سلاطينها الذين حكموا دارفور حتى خضوعها للحكم المصرى التركى عام 1874م<sup>(14)</sup>.

وفى فترة لاحقة تمكن سليمان سولونج (أى العربى بلغة الفور)، والذى تولى الحكم سنة 1640 من إقامة سلطنة دارفور الإسلامية التى أصبح معظم قاطنيها يتكلمون اللغة العربية ويدينون بالدين الإسلامى، وكان الإسلام قد زاد انتشاره قبل تولية عرش البلاد ودخل بلاد الفور على نطاق واسع مع قبائل التنجور المهاجرة، وظهور سلطنة دارفور ككيان سياسى يرجع فى الحقيقة إلى انتشار الإسلام، وإلى صبغ البلاد بالصبغة الإسلامية ونشر الثقافة العربية بين شعب الفور، ذلك الشعب الذى أصبح هجيناً وجامعاً للدماء العربية مع دماء الفور الإفريقية<sup>(15)</sup>.

وكانت نقطة البداية لقيام هذه السلطنة الإسلامية الكبيرة هى "جبل مرة"، فاتخذ سولونج من "طرة" فى الطرف الشمالى من الجبل مر قاعدة لحكمه، وانطلق منها إلى جميع أنحاء دارفور، وتحالف مع القبائل العربية الأخرى فى الإقليم، وقاد كثيراً من المعارك لضم قبائل: البرقد والزغاوة والبرتى والبيقو والمسالت، وقد تمكن خلفاء سولونج من السيطرة على ديار قمر، وتامه، وكوبى<sup>(16)</sup>، ومعظم أنحاء دارفور.

وقد استمر حكم السلطان سليمان سولونج حتى عام 1670م، ثم تولى بعده عشرة سلاطين حتى مجيء الحكم المصرى التركى للإقليم عام 1874م كان أولهم ابنه موسى، وآخرهم السلطان إبراهيم بن محمد حسين كما يظهر فى القائمة الآتية<sup>(17)</sup>.

1682 - 1670	موسى بن سليمان سولونج
1722 - 1682	أحمد بكر بن موسى
1732 - 1722	محمد (دوره) بن أحمد بكر
1739 - 1732	عمر (ليل) بن محمد دوره
1752 - 1739	أحمد قاسم بن أحمد بكر
1787 - 1752	محمد تيراب بن أحمد بكر
1802 - 1787	عبد الرحمن الرشيد بن أحمد بكر

1802 - 1839

محمد فضل بن عبد الرحمن

1839 - 1874

محمد حسين بن محمد فضل

1874

إبراهيم بن محمد حسين

**الحكم التركي المطر في دارفور**

استمرت سلطنة دارفور مملكة قائمة بذاتها تحت حكم سلاطينها حتى بعد منتصف القرن التاسع عشر، وكان محمد علي - نتيجة لظروف سياسية تتصل بعلاقته بالمهاليك، وموقفه من إنجلترا، وعلاقته ببعض الأمراء السودانيون الذين كانوا في صراع مع غيرهم حول الحكم واستعانوا به في دخول السودان، ونتيجة لظروف اقتصادية تتصل بالزراعة والرى والنيل - قد قام بغزو السودان، حيث جهز حملة قوامها 5400 مقاتل مسلحون بأحدث الأسلحة والمدافع بقيادة ابنه إسماعيل، ثم أرسل حملة أخرى بقيادة محمد بك الدفتردار ثم حملة ثالثة بقيادة إبراهيم باشا، حيث تم له الاستيلاء على معظم بلاد السودان<sup>(18)</sup>.

وعلى الرغم من أن من ضمن الزعماء السودانيون الذين ذهبوا لمحمد علي للاستنجاد به لكي يساعدهم على تولى الحكم في ممالكهم "أبو مدين" - الذي طلب من محمد علي أن يساعده على تولى عرش دارفور من معتصبه السلطان محمد فضل<sup>(19)</sup> - فإن جيوش محمد علي لم تدخل دارفور، فبعد أن وصلت هذه الجيوش إلى كردفان، التي كانت تابعة لسلطان دارفور وقتها، تحت قيادة محمد بك الدفتردار ودخلت الأبيض عاصمة كردفان في 20 أغسطس عام 1821م لم يجرك محمد فضل سلطان دارفور ساكناً لاسترجاع سلطته على كردفان، وظلت مصر في نفس الوقت تتحين الفرصة لمد نفوذها إلى دارفور، وعلى الرغم من أن فرمان 13 فبراير سنة 1841 قد ذكر دارفور ضمن الأقاليم السودانية التي صارت لمحمد علي وأولاده من بعده فإن دارفور قد ظلت مستقلة بأمرها حتى عام 1874<sup>(20)</sup>.

وفي هذا الوقت كانت تجارة الرقيق معروفة في القارة الإفريقية، واستمرت حتى بعد منتصف القرن التاسع عشر، وانتشرت في بعض أجزاء السودان الجنوبي والغربي وعملت في هذه التجارة عناصر متعددة منها العرب والألمان والإنجليز والنمساويين، والطلبان، والأمريكان... إلخ، وكان من أكبر تجار الرقيق الذين ظهوروا في هذا الوقت

الزبير رحمت من سكان شمال السودان الذى كون جيشاً قوياً غزا به جهات بحر الغزال وسار به نحو الغرب، وكان الزبير قد عقد معاهدة مع زعماء قبائل الرزيقات<sup>(21)</sup>. وكانت هذه المعاهدة التى عقدت بينهما سنة 1866م تنص على أن تحافظ قبائل الرزيقات على أمن الطريق التجارى الذى يمر ببلادهم، وأن يؤمنوا مرور تجارة الزبير مقابل مبلغ من المال يدفعه لهم، إلا أنهم نكصوا بما تعهدوا به، واعتدوا على قوافل الزبير التجارية وهددوا مصالحه فحاربهم<sup>(22)</sup>.

وكان الزبير بعد سيطرته على بحر الغزال قد أظهر ولاءه للحكومة الخديوية المصرية، وأبلغ المسئولين والحاكم العام بالسودان بانتصاراته على عرب الرزيقات وعلى بعض البلاد التى فتحها فى جنوب دارفور، وعرض على الحكومة المصرية وضع المناطق التى فتحها تحت تصرفها، فأنعمت عليه الحكومة الخديوية بالمرتبة الثانية مع لقب بك، وبأن يتولى إدارة البلاد التى فتحها باسم الحكومة الخديوية<sup>(23)</sup>.

وكانت الحرب بين الزبير والرزيقات هى سبب استيلائه على دارفور، وذلك لأن اثنين من زعماء الرزيقات قد هربا بعد فشلها فى الحرب ضد الزبير إلى سلطان دارفور "إبراهيم" واحتميا به، وكان السلطان صغير السن وحديث العهد بالحكم يتحكم فيه غيرة الشباب وحماسه، ويفتقر إلى الخبرة، وكانت سلطنته تواجه وضعاً سياسياً واقتصادياً صعباً بعد الضغط عليه من القوى المجاورة، وكان سلاطين الفور يعتبرون المنطقة الجنوبية لبلادهم تابعة لهم وهى تلك المنطقة التى أصبح الزبير يتحكم فيها، ولذلك أصبح الصدام بين الزبير وسلطان دارفور لا مفر منه، وقد كانت الحكومة المصرية ترغب فى ضم دارفور بعد أن أمدهت ببعض الأسلحة والمدافع، وأمرت إسماعيل أيوب حكمدار السودان بالزحف عليها أيضاً من ناحية الشرق لكى يلتقى الجيشان فى الفاشر عاصمة دارفور<sup>(24)</sup>.

فلما وقعت تحرشات من قبل قوات الزبير على حدود سلطان دارفور ثار وحاول أول الأمر أن يجد من يتوسط له لدى الباب العالى الذى تتبعه الحكومة الخديوية وإدارة السودان من الناحية الرسمية، ولكن دون جدوى، فعزم على ملاقاته الزبير - هذا القائد الذى لا يهزم - ولكنه لم ينجح فى التصدى له، فتعرضت جيوشه للهزيمة، ولم يسكت السلطان إبراهيم على ما لحق بجيشه من هزيمة بل زاد تصميمه على إخراج الزبير من

بلاده، فجهز جيشاً آخر أرسله تحت قيادة رابح فضل الله، فهزمه الزبير أيضاً وقتل قائده رابح، فهنا الخديوى الزبير ومن معه على هذا الانتصار وحثهم على المضى في هذا الطريق<sup>(25)</sup>.

وكان الزبير قد أرسل رسالة إلى السلطان إبراهيم في دارفور قبل بدء الحرب بينهما طالباً منه التسليم ولكن دون فائدة فلما حقق كثيراً من الانتصارات عليه، وقرر الزحف على دارفور ودخول عاصمتها أرسل رسالة أخرى إلى السلطان إبراهيم ذكره فيها برسالته الأولى وبها حوته وبالمعارك التى وقعت بينهما، وعن انتصاراته عليه، وكيف ناه عن الاعتداء على مصالح الحكومة المصرية، وأعلمه بما يهدف إليه من إدخال السلطان وكل أراضي دارفور تحت طاعة الدولة الخديوية، وختم الزبير رسالته مطالباً السلطان بأن يسلم نفسه حقناً للدماء، ووعده أن يؤمنه على نفسه وأمواله، ولكن السلطان أبى، ولما قرر الزبير الزحف على دارفور قام من جانبه بإبلاغ حكمدار السودان بما نما إلى علمه من أن سلطان دارفور سوف يقود بنفسه حملة عسكرية ليحارب الزبير فبدأ الحكمدار يعد نفسه هو الآخر وجمع عدداً كبيراً من الجنود المزودين بالأسلحة، وقرر الزحف من الأبيض نحو دارفور، ولكن علم الحكمدار بعد ذلك أن الزبير دخل دارفور وسيطر على مدينة "دارا"، وأصبح في طريقه إلى الفاشر عاصمة الإقليم، وبعد عدة معارك خرج الزبير في شهر أكتوبر 1874 مقتفياً أثر السلطان إبراهيم فأدركه عند بلدة "منواشي" وقتله ودخل الفاشر في 3 نوفمبر سنة 1874، ثم وصلها إسماعيل أيوب بعد أسبوع من سقوطها، وبذلك خضعت دارفور للإدارة المصرية، وأصبح قائماً على إدارتها الزبير نفسه، وظلت دارفور تحت إدارة الحكم التركى المصرى حتى 1884 عندما سيطرت الثورة المهديّة على أملاك الحكومة الخديوية المصرية في السودان في يناير عام 1885<sup>(26)</sup>.

### دارفور تحت حكم الدولة المهديّة:

لما قامت الثورة المهديّة عرض أمر دعوتها على قبائل الرزيقات - المنتشرة في كردفان وجنوب دارفور - فقبلتها، وأخذ زعمائها البيعة على يدى محمد أحمد المهدي في مدينة "قدير" ووافق زعيم الرزيقات "مادبو" على الانخراط في عداد الأنصار حيث عينه المهدي أميراً على الرزيقات أكبر قبائل البقارة، والواقع أن كل قبائل البقارة ناصبت

الإدارة المصرية العداء، وتحول عداؤها إلى صراع دموى مسلح، وتمكن "مادبو" من هزيمة "سلاطين باشا" أحد كبار قادة الجيوش المصرية التركية في أم وريقات في أكتوبر 1882، فامتدت رقعة الثورة على الإدارة المصرية التركية في دارفور، وتطورت الأحداث بعد هزيمة الجنرال "هكس" قائد الجيوش المصرية في السودان في 5 نوفمبر عام 1883م حيث استسلم سلاطين باشا لجيوش المهديّة تحت قيادة محمد خالد زقل في ديسمبر من نفس العام، ودخل زقل الفاشر منتصراً في يناير عام 1884 وبذلك سيطرت المهديّة على سلطنة دارفور<sup>(28)</sup>. وقتل غوردون بعد سقوط الخرطوم في يناير 1885، وأصبح المهدي سيد الموقف في بلاد السودان بلا منازع<sup>(29)</sup>.

وكانت جيوش الفور منذ أن هزمت أمام قوات الزبير سنة 1874 قد لجأت إلى جبل مرة في دارفور الذى ظل خارجاً عن طاعة حكمدارية السودان من الناحية الفعلية، وظل يتعاقب على حكم جبل مرة سلاطين من أصول أسرة "كيرا" الذين لم يتوقفوا عن المطالبة بعرش دارفور، ودخلوا في صراعات مع الحكومة الخديوية، ومن هؤلاء - بعد موت محمد الفضل - حسب الله، وبوش، وهارون بن سيف الدين، وعبد الله دود بنقة، فلما سيطر القائد المهدي محمد خالد زقل على دارفور أحس بخطورة وجود عبد الله دود بنقة المتمركز في جبل مرة، فأحاط بالجبل وقبض عليه، ولكن بنقة هرب متوجهاً إلى محمد أحمد المهدي في أم درمان طالباً منه العفو، فعفا عنه<sup>(30)</sup>.

وبعد وفاة المهدي سيطر الخليفة عبد الله التعايشى - وهو من قبيلة التعايشة في جنوب غرب دارفور - على شؤون الدولة المهديّة، واستمر محمد خالد زقل حاكماً على دارفور حيث قسمها إلى خمس وحدات إدارية، وجعل على كل وحدة منها رجلاً من أبناء الفور بعد أن تعهدوا بطاعة المهديّة، ثم انتقل "زقل" إلى أم درمان عاصمة الدولة، وهنا وجد يوسف بن السلطان إبراهيم أن الفرصة قد تسنح لاستعادة سلطان أجداده فاتخذ لنفسه لقب سلطان وبسط نفوذه على جبل مرة، واتضح تمرده على الخليفة التعايشى حينما لم يذهب إليه لتجديد العهد معه، فأرسل له الخليفة حملة بقيادة عثمان آدم عامله على كردفان انتهت بهزيمة يوسف وعودة السيطرة المهديّة على دارفور<sup>(31)</sup>.

ونقل الخليفة عبد الله عدداً من أبناء الفور وقبائل غرب دارفور إلى أم درمان، ثم

نشبت بعض الحروب بين المهديين والفور هزمت فيها قوات المهديين، فأرسل التعايشي ابن عمه محمود أحمد عاملاً على كردفان ودارفور، أما في وسط جبل مرة فقد اختارت قبائل الفور على دينار سلطاناً عليهم في وقت كانت فيه حالتهم غاية في السوء<sup>(32)</sup>، وأحس على دينار بمحاولات حاكم دارفور من قبل الدولة المهديّة - محمد أحمد - للغدر به، غير أن حكومة الخرطوم المهديّة عينت حاكماً آخر على الفاشر ودارفور، ولكن على دينار تدل على أنه لازال طامعاً في ملك دارفور ويسعى لتحقيق مطامعه، وخوفاً من احتمالات تصرف دينار ضد مصلحة الحكومة دعاه الخليفة عبد الله إلى أم درمان فوصلها عام 1895، ونتيجة للضعف التدريجي الذي اتصفت به حكومات المهديّة، وتضائل نفوذها في دارفور قامت ثورة في الإقليم كله فهرب على دينار إليه ليسيّطر على زمام الأمور هناك<sup>(33)</sup>.

### خضوع دارفور للحكم التناثري (1916 - 1956):

بعد إخلاء مصر للسودان 1885 بأمر الإنجليز أصبح السودان خالياً من وجهة نظر الدول الاستعمارية، فلما ظهر طمع بعض هذه الدول وفي مقدمتها فرنسا وإيطاليا في بلاد السودان غيرت الحكومة البريطانية من سياستها تجاه المسألة السودانية، وقررت غزو السودان وأعدت جيشاً معظمه من الجنود المصريين، مع قيادات إنجليزية لاسترجاع السيطرة على هذا البلد، وواجه الخليفة عبد الله التعايشي الهجوم الإنجليزي المصري الذي كان يقوده الجنرال الإنجليزي "كتشنر" ولكنه لم يصمد أمام الجيوش المهاجمة وهزم التعايشي في موقعة "كرري" واحتلت الجيوش الغازية أم درمان عاصمة المهديّة، وفي دارفور استرد على دينار ملك آبائه، وأسس سلطنة دارفور الثانية التي تمتعت بقدر وافر من السلطة، وكانت هذه السلطنة غير تابعة لحكومة السودان، واستمر وضع دارفور على تلك الحال حتى قامت الحرب العالمية الأولى، ووقف على دينار إلى جانب الدولة العثمانية وضد الحلفاء، وهنا قرر الإنجليز وحكومة السودان الثنائية الاستيلاء الكامل على دارفور حيث أصبحت خاضعة خضوعاً فعلياً للحكم الثنائي - كباقي أقاليم السودان - منذ ذلك الوقت في عام 1916 بعد القضاء على جيوش على دينار ومقتله نتيجة قوة الجيوش المهاجمة التي كانت قيادتها إنجليزية<sup>(34)</sup>.

وبذلك دخل هذا الإقليم الغربى النائى تحت الإدارة الثنائية حتى نهاية الحكم الثنائى 1956، ولعل أهم السمات التى اتسم به هذا الحكم فيما يتصل بإقليم دارفور - من وجهة نظرنا فى ضوء المصادر والدراسات المتوفرة فى هذا المجال - هى:

أولاً: أهملت الإدارة الثنائية شؤون الإقليم الاقتصادية وفى مقدمتها الزراعة، كما أهملت الشؤون التعليمية والصحية فلم تهتم بإقامة مشروعات تساعد على تنمية أحوال الإقليم والسكان، ولم تسع بالقدر الكافى لحفر الآبار لزوم أعمال الزراعة والرعى وتوفير مياه الشرب، ولم تنشئ الطرق اللازمة بل وأوقفت الحكومة خط السكة الحديد المنشأ حديثاً والمتجه غرباً عند مدينة الأبيض عاصمة إقليم كردفان، وبذلك حرمت دارفور من هذا الخط الحديدى الذى كان بإمكانه أن يربط دارفور الخرطوم، وكان التقصير واضحاً من جانب الحكومة الثنائية فى تنمية الإقليم.

ثانياً: أن دارفور قد ظلت إقليمياً منعزلاً، واتباع الإنجليز فى إدارته - كما اتبعوا ذلك فى باقى أنحاء السودان - الحكم غير المباشر أو الإدارة الأهلية، وذلك بأن يولى الإنجليز على إدارة المدن والقرى والقبائل زعماءها، وراهنّت سياسة الإنجليز على تقوية الزعامات المحلية لكى تحكم الأقاليم والقبائل عن طريقها دون أن يتعرض الرجل الأبيض (الإنجليزى) لمواجهة سكان البلاد الأفارقة والعرب، ولعل هذه السياسة قد ساعدت على ترسيخ الفكر القبلى وبالتالي العنصرى فى دارفور والسودان، وأصبح لكل قبيلة أو دار زعيم يدير شؤونها ومسئول مسئولية مباشرة عنها أمام مسئولى إدارة الحكم الثنائى، فكان هناك زعيم لكل قبيلة أو دار مثل دار المساليت، ودار زغاوة، ودار الرزيقات، ودار الهبانية.. إلخ، وكان دور هؤلاء الزعماء - فضلاً عن إدارة أقاليمهم - إقناع أهل القبائل والعشائر بقبول حكم الإنجليز والإدارة الثنائية<sup>(35)</sup>.

ثالثاً: ظلت بلاد الفور مصدراً هاماً من مصادر المحاصيل المختلفة خاصة المحاصيل الغذائية كالذرة والدخن والسمسم والفول السودانى والثروة الحيوانية التى كانت لازمة لأسواق الخرطوم، والتى كانت سبباً أساسياً لغنى تجار العاصمة، الذين كانوا يشترون المحاصيل بطريقة "الشيل" من مزارعى دارفور بأسعار محدودة ثم يبيعونها بأسعار عالية فيجنون من وراء ذلك الأموال الضخمة.

رابعاً: ظل إقليم دارفور يتعامل على المستوى الاقتصادي والاجتماعى مع القبائل والدول المجاورة وكان دارفور بلداً قائماً بذاته، فطريق الأربعين كان يوصل منتجات الإقليم إلى مصر من الجمال وخلافه، وعلاقات دارفور كانت منفتحة مع إفريقيا الاستوائية الفرنسية (تشاد) على مستوى التنقل والترحال دارفور والشراء خاصة وأن بعض قبائل دارفور كانت ممتدة في أراضي دارفور وتشاد مثل بنى هلبة وقبائل الزغاوة، وكان أمر التداخل والامتداد القبلى أيضاً قائماً بين قبائل جنوب دارفور وقبائل منطقة جنوب السودان.

خامساً: لقد ظل الدين هو العامل الحاسم في سلوك أهالى وقبائل دارفور، فالملاحظ أنه لما كان سكان هذا الإقليم مناصرين لقيام الدولة المهديّة منذ محمد أحمد المهدي فقد ظلوا يدينون بالولاء للمهديين - رغم مطالبات سلاطينهم بحكم الإقليم - حتى بعد زوال حكم المهديّة، ففي عهد الحكم الثنائى كانت أعداد كبيرة من قبائل تشاد ونيجيريا وكذلك بعض قبائل دارفور تسعى لزيارة الزعيم الروحى عبد الرحمن المهدي في جزيرة أبا وقد تستقر لبعض الوقت في مزارعه وتشارك في جنى محصول القطن الخاص به، وتحصل على بعض الأموال التى قد تعينها في العودة إلى بلادها، وفي أواخر الحكم الثنائى، وإبان ظهور الأحزاب السياسية كان إقليم دارفور مجالاً للنشاط السياسى لحزب الأمة بزعامة عبد الرحمن المهدي، وكان معظم المرشحين للمجالس النيابية ينضون تحت لواء حزب الأمة حتى بعد استقلال السودان عام 1956، وذهبت كثير من الوعود - بخدمة أهالى دارفور وتقديم المشروعات والمدارس لهم وتحسين أحوالهم - سدى دون أن تتحقق فظل هذا الإقليم مهملاً، وكأنه ليس جزءاً من عملية تطوير بلاد السودان<sup>(36)</sup>.

### التوزيع القبلى فى دارفور:

لما كان الصراع القائم حالياً في إقليم دارفور ذات أبعاد متعددة وأسباب كثيرة، وأن السبب الظاهر والمعلن من قبل حركتى التمرد الرئيسيتين في دارفور هو أن القبائل العربية تضطهد القبائل الإفريقية ذات الأصول الزنجرية وتعتدى عليها وتُغير على مناطق زراعتها وتحرق قراها وتبدد ثرواتها بل وترغمها على ترك مناطق استقرارها، فتلجأ إلى مدن السودان الأخرى وإلى تشاد وإلى بعض مناطق جنوب دارفور، لذلك فإننا نتصدى هنا

لدراسة التشكيلة القبلية في دارفور متتبعين أصولها وجذورها واختلاطها أو انفصالها وتغيراتها الاجتماعية، ونشاطها الاقتصادي الذى تركز تاريخياً ما بين الرعى والزراعة لكى نحدد ما إذا كانت المحركات الفعلية للنزاعات في دارفور هى العنصر والجنس والاختلاف ما بين الأصول العربية والأصول الإفريقية الزنجية - مع أن جميع سكان الإقليم من المسلمين - أم أن السبب هو الظروف الطبيعية والتغيرات الجوية وحالة الجفاف التى تسود شمال إفريقيا الآن، وانعكاس ذلك على الأوضاع الاقتصادية وعلاقة القبائل الرعوية في الشمال بالمزارعين في الجنوب، فضلاً عن سياسات الحكومات المتوالية التى أهملت إقليم دارفور إهمالاً شديداً ليس فقط خلال الحكم الثنائى وإنما حتى خلال الحكومات الوطنية المتتالية؟

ومن الثابت علمياً أن كل المخلوقات الإنسانية من أصل واحد لتساوى الأجناس البشرية في قدراتها العقلية والجسدية، وقد تكونت ملامح البشر العرقية نتيجة التزاوج والمواءمة الدائمة التى استغرقت زمناً طويلاً بين الكائن الإنسانى والظروف الطبيعية المحيطة به<sup>(38)</sup>.

وكان الاستعماريون قد ابتدعوا نظريات غير علمية لتبرير سياستهم، ومؤدى هذه السياسات تفوق العنصر الأبيض على العناصر السوداء والملونة، وأن التمييز العنصرى هو مفتاح لتفسير انحطاط وتخلف شعوب العالم الثالث الذى استعمروا معظم بلدانه، ولو أن التاريخ قد أعطى براهين كافية على وجود تطور لدى هذه الشعوب الملونة قبل مجيء الإمبرياليين إليهم حيث أوقفوا التطور الطبيعى لتلك الشعوب وحطموا منجزاتها الحضارية السابقة<sup>(38)</sup>.

وباتضح الطابع الإيديولوجى المبتذل للنزعات العرقية أصبح الحديث عن "عروق نقية" في المجتمعات الإنسانية مدعاة للرفض والإدانة على الصعيد العالمى، وجرى الكشف عن عقم هذه النزاعات خلال الإجابة على التساؤلات الأساسية المتصلة بشيء المجتمعات البشرية وتطورها، وأخطأ المؤرخون والباحثون حين أعطوا كل الاعتبارات للدراسات التى أخرجها علم الأجناس الذى اعتبروه مصدرهم الأساسى لتطوير حياة الشعوب، ولو أنه مصدر ثانوى لا يفيد إلا في التفصيلات فقط. ويرى ساطع الحصرى أن

الناس تعتقد عادة أن كل أمة تنحدر من أصل واحد، ولكن هذا الاعتقاد لا يستند إلى أساس صحيح لأنه لا توجد على الأرض أمة خالصة الدم لأن وحدة الأصل والدم من الأوهام التي استولت على العقول بلا أساس<sup>(39)</sup>.

ولقد أدى استمرار عملية التمازج بين الشعوب والقبائل إلى انعدام صفاء دم أى شعب أو أمة أو قبيلة، والواقع أن اختلاف الشعوب في طريقة التفكير وفي الثقافة والعادات والتقاليد ليس مرده اختلاف الجنس وإنما مرجعه اختلاف الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبعد التاريخي والموقع الجغرافي لكل شعب<sup>(40)</sup>.

والدراسات التاريخية والاجتماعية المتعددة حول مراحل التاريخ المختلفة ترفض هي الأخرى فكرة النقاء العرقي، ولذلك فإن رفض هذه الفكرة يصبح أمراً لا مناص منه على صعيد البحث العلمى بل ويعتبر الحديث عن الجذور العرقية النقية نقاءً كاملاً لا صلة له بالدراسة المنهجية على الإطلاق<sup>(41)</sup>.

وانطلاقاً من هذه الفكرة يرى محمد إبراهيم أبو سليم "أن الشخصية السودانية وليدة بيئات متعددة وعوامل مختلفة مثل: النيل وفروعه والمياه الجوفية والجبال والسهول، وأن أطراف السودان متصلة ببلاد مأهولة، وظل السودان طوال القرون يستقبل أفواجاً من المهاجرين من أجناس شتى من زنوج وساميين وحاميين ومن عناصر مختلفة أخرى، وكانت هذه الأفواج ذات حضارات متفاوتة داخل إطارها الطبيعي والبشري"، ويستطرد أبو سليم في حديثه عن اختلاط القاطنين في السودان بالمهاجرين إليه بشكل أدى إلى انصهار ساكني البيئات السودانية أياً كانت مواطنهم، وفي ذلك يقول: "لقد استقبلت هذه البيئات... عناصر جديدة أو تيارات جديدة وفدت إليها من الخارج واستجدت عليها ولكنها ظلت تبلغ هذه العناصر في جوفها وتمضم ثقافتها وتردها إلى وجدانها هي، فلا العرب الذين وفدوا إليها ظلوا عرباً خالصاً، ولا الحضور أقباطاً ولا المولودون مصريين، ولا الأفارقة بقوا عناصر نقية، لقد تركوا في الغالب أعراقهم وأصبحت كل بيئة جديدة تدخل في إطار البيئات المتعددة وتسير معها نحو الانصهار"<sup>(42)</sup>.

وقد ذكر العالم الأنثروبولوجي "كنيسون" أنه لا يوجد في السودان أى سلالات ثابتة

ونقية إذ تميزت التغييرات داخل تلك السلالات بحذف أجيال بأكملها، ودمج الفروع ذات القرابة البعيدة إلى الأصل، واستيعاب الغرباء داخل السلالات القائمة، واستبعاد بعض الجماعات التي انتقلت بعيدا عن موطن الأسلاف، ومع ذلك ظلت تتردد الأساطير المتعلقة بنقاء السلالات وكأنها حقائق ثابتة تستهوى فكر الناس ووجدانهم ولم يقبلوا لها في بعض الأحيان بديلا<sup>(43)</sup>.

ويقرر مدثر عبد الرحيم أن العروبة تمتزج بالإفريقية في الأقاليم الشمالية وغيرها من بلاد السودان امتزاجا تاما، بحيث يستحيل التمييز بينهما نظريا فيشعر السكان أنهم عرب وأفارقة في آن واحد<sup>(44)</sup>.

ومن منطلق هذه الآراء والمقدمات تأتي دراستنا عن القبائل في دارفور بهدف تبيان أوجه الالتقاء داخل هذه القبائل، ومظاهر تحللها إلى مستويات قرابية أصغر خلال تتبعنا الفعلى لاختلاطها، وإلى استجلاء المسرح الحياتى المشترك لكل من سكنوا دارفور في غرب السودان من قبائل وعشائر، وعلاقة ذلك بأوضاعهم الاجتماعية وأصول الصراع الذى ظهر على نطاق واسع حاليا في دارفور.

ولا يوجد في السودان كله إقليم يتميز بالتنوع العرقى والثقافى مثل دارفور فعشرات القبائل والشعوب ذات الأصول العربية والإفريقية تعيش في بواى هذا الإقليم وأريافه ومدنه، وكل هذا العدد الكبير من القبائل والشعوب عاشت وتداخلت مع بعضها البعض وتصاهرت وأوجدت إنسان دارفور بكل خصائصه وثقافته الحالية<sup>(45)</sup>.

ومن حيث طبيعة التقسيم الإثنى لسكان دارفور فإنه يصعب اختيار معيار معين له، وذلك نسبة إلى طبيعة الديناميات القبلية التى تجعل السكان في حالة حركة مستمرة وتغييرات دائمة، ولذلك اختلف الباحثون في مجال الدراسات الأنثروبولوجية والتاريخية الاجتماعية في وضع هذه المعايير فمنهم من اعتمد على الناحية اللغوية، ومنهم من وقف على الناحية الاقتصادية وطبيعة النشاطات البشرية، ومنهم من أخذ بالهوية الثقافية من عادات وتقاليدها وغيرها من الطرق<sup>(46)</sup>.

ويعتقد هارولد ماكمايكل - الباحث والسياسى الإنجليزى الذى عمل كسكرتير إدارى (وزير داخلية) في الحكومة الثنائية في ثلاثينيات القرن العشرين - في دراسته القيمة

عن القبائل العربية في السودان أن التركيبة العرقية لدارفور هي عبارة عن التركيبة التي جاءت نتيجة التمازج بين قبائل وادي النيل الإفريقية مع المهاجرين القادمين من الممالك الإسلامية عبر بحيرة تشاد<sup>(47)</sup>.

وعلى مستوى حركة السكان والبشر في دارفور، فإن الإقليم كان ميداناً واسعاً تقابلت فيه تلك الهجرات العربية والإفريقية عبر طرق القوافل التي كانت تأتي من الشمال والغرب والشرق، كذلك كانت دارفور ملجأ للأسرات الحاكمة التي هاجرت من وادي النيل الأدنى (صعيد مصر)، حيث تحركت قبائل عربية من مواطنها في شمال أسوان نحو السودان وبصفة خاصة إلى دارفور، كما هاجرت قبائل أخرى من شمال غرب إفريقيا، خاصة ليبيا إلى هذا الإقليم نفسه<sup>(48)</sup>. وقد اعتاد الباحثون عند حديثهم عن التشكيلية القبلية في دارفور إلى تصنيفها إلى قبائل عربية وقبائل إفريقية.

وسوف نتبع هذا الأسلوب في تصنيف القبائل في دارفور بغرض تسهيل الدراسة، وليس ذلك من منطلق عنصرى أو جنسى، وإنما فقط بهدف بحث الأبعاد الجنسية والظروف الاجتماعية لسكان هذا الإقليم وعلاقتها بالنزاعات التي طفت آثارها على سطح أحداث دارفور في الوقت الحاضر.

### القبائل العربية في الإقليم:

تؤكد الدراسات التاريخية والواقع الحياتي أن قبائل البقارة هي من أقوى القبائل العربية في السودان وأغناها، وأكثرها نزوعاً إلى الحرب، وهي تنتشر في إقليم دارفور وكردفان ويهمننا هنا القسم الموجود منها في دارفور، ولقد يسرت النزعة الحربية لهذه القبائل التوسع في جنوب دارفور البقارة سواء المنتشرة منها في كردفان أو دارفور تجعل الصدام مع غيرها أمراً لا مفر منه، لأن البقارة - تاريخياً - في فصل الجفاف كانوا ينزحون بماشيتهم نحو الجنوب، حيث يختلطون بالقبائل الإفريقية هناك ويقضون فصلاً طويلاً من المصايف وفيه قد يتزوجون من النساء الإفريقيات ويصيدون الفيلة وغيرها، وكانوا في السابق يسترقون الزوج ويختطفون ماشيتهم، وكانت العادة أن يتحرك البقارة نحو الشمال في فصل الخريف حين يبدأ نزول المطر هرباً بقطعانهم من المستنقعات التي ينتشر فيها الناموس وذبابه تسي تسي التي تقتل الماشية، ويتجهون نحو الأراضي المتوسطة المطر في

الشمال، ولما كانت الأراضي الزراعية ملكاً للقبائل الإفريقية المزارعة والمستقرة في سلطنة دارفور كان على البقارة أن يؤدوا ضريبة عن إقامتهم أو مرورهم للرعى في هذه الجهات زمن الأمطار، ولما كانت قبائل البقارة غير مستعدة لدفع هذه الضرائب رغم تعدى قطعانهم على مزارع القبائل المستقرة، لذلك كان التصادم لا مفر منه بينها وبين القبائل الإفريقية المزارعة في جنوب وغرب دارفور والدائمة الاستقرار هناك<sup>(49)</sup>.

والكثرة الغالبة من قبائل البقارة استقرت في أوطانها الحالية منذ وقت طويل في غرب السودان ووادى وبورنو في تشاد، وقد أتت بعض تلك القبائل من أقاليم نهر النيل ومصر، والقليل منها جاء من أقصى شمال غرب إفريقيا حيث هاجروا إلى فزان في ليبيا وإلى تونس ثم نزلوا إلى السودان من شمال دارفور واختلطوا بالقبائل العربية هناك خاصة بعد الغزوة الهلالية، وهذا ما وصل إليه هارولد ماكميل واتفق معه في ذلك محمد عوض محمد<sup>(50)</sup>.

ويمكن تقسيم البقارة إلى عدد من القبائل هي:

أ - الرزيقات: وهي أكبر قبائل البقارة عدداً وأوسعها وطناً، وتقع بلاد الرزيقات في أقصى الجنوب الشرقى من دارفور بين قبائل الحمر شرقاً والهبايثة غرباً والدنكا جنوباً، أى بين خطى عرض 10° و 11.5° شمال خط الإستواء، بين منطقة بحر العرب وجنوبه قليلاً وخط سكة حديد نيالا الخرطوم ماراً بالضعين حالياً، وتوجد شمال بلاد الرزيقات جماعات وقبائل من أصول إفريقية مستقرة تعمل في الزراعة في جبل مرة، وتوجد داخل دار الطويشة، ويتسبون أيضاً إلى فزارة، وأحد بطونها يعمل برعى الإبل، إلا أن معظم قبائل المعاليا الجنوبيين يعمل بالزراعة ويستقر حول مدينة "شيكاً" في الجنوب<sup>(51)</sup>.

والرزيقات عامة رعاة متحركون، تمتد حركتهم شمالاً حتى مدينة الضعين وجنوباً حتى جنوب بحر العرب، والقليل منهم يحترف الزراعة، ولقبائل الرزيقات بطون أهمها النوايبة والمحاميد والماهرية، ولما كانت قبائل الرزيقات أقوى قبائل البقارة وأخطرها من حيث القوة والثروة فقد تحدوا سلاطين الفور ومنعوا استبدادهم لهم مما دفع كثيراً من القبائل الأخرى الأقل قوة إلى محاولة الاحتواء بهم، ولقد كان سلاطين الفور مستبدين بالفعل، حتى إن كثيراً من قبائل بنى هلبة هاجرت إلى وادى في تشاد خوفاً من

استبداهم، ولم يعودوا إلا بعد سقوط على دينار وسلطنة الفور عام 1916 خلال الحرب العالمية الأولى.

والقسم الذى بدأ فى الاستقرار من قبائل الرزيقات بدلاً من الترحل قام باستغلال المنطقة الجنوبية فى زراعة المحاصيل المختلفة كالدخن والفول السودانى وأشجار الفاكهة خاصة المانجو<sup>(52)</sup> والخريطة المرفقة بالبحث تبين مواقع هذه القبيلة كما تبين مواقع القبائل الأخرى الواردة فى البحث.

وبخلاف قبائل الرزيقات الجنوبية هناك الرزيقات الشمالية التى تسكن جماعاتها فى شمال دارفور وتعمل فى رعى الإبل، ويعتمد نمط اقتصادها على الترحال شمالاً فى فترة الخريف، وجنوباً فى الصيف، وهم من القبائل التى احتلت مرتبة كبيرة فى المشاركة فى النزاعات القبلية فى دارفور بسبب تعرض مناطق استقرارهم للجفاف وندرة الأمطار، واضطرارهم إلى النزول جنوباً للرعى، مما يؤدى فى الغالب إلى احتكاكهم بالمزارعين<sup>(53)</sup>.

ومن قبائل البقارة أيضاً البهانية ويوجد معظمهم فى دارفور ويميلون إلى الاستقرار والزراعة، وأوطانهم تقع بين الرزيقات فى الشرق والتعايشة فى الغرب، والمساليث فى الشمال والدنكا فى الجنوب<sup>(54)</sup>.

ب - بنو هلبة: وكانوا فيما مضى قبيلة كبيرة، ووطنهم الأصلي فى منطقة "عد الغنم" إلى الجنوب الغربى من جبل مرة، وتعيش جماعة منهم شرق هذا الجبل وجنوب جبل حريز وأخرى فيما وراء حدود دارفور فى وادى وهم يجاورون التعايشة، وقد تعرض بنو هلبة فى دارفور مبكراً لضغط سلاطين الفور الذين كانوا يطالبونهم بدفع إتاوات ضخمة مما اضطر جماعات منهم إلى الهجرة إلى تشاد والاستقرار هناك كما سبق أن أشرنا<sup>(55)</sup>.

ج - التعايشة: وهى من قبائل عرب دارفور، وتقع ديارهم إلى الغرب من أوطان الهبائية فى الركن الجنوبى الغربى من دارفور بين ديار الهبائية شرقاً وحدود تشاد غرباً ودار فرتيت جنوباً وبنى هلبة شمالاً.

وهناك قبائل عربية أخرى فى دارفور ولكنها محدودة العدد والمكان مثل بنى خزام، والمسيرية، والشعالبه. كذلك توجد قبائل الكبابيش وهم قبائل ترعى الإبل وتوجد فى إقليم كردفان ويتحركون بإبلهم حتى مناطق شرق دارفور، وهم من أصول عربية من جهينة مختلطة بعناصر من البجا والنوبة<sup>(56)</sup>.

أما قبائل شرق دارفور من العرب فتتمثل في البديرية قرب حدود كردفان، وقد جاءوا أصلاً من "دراو" في صعيد مصر، وهناك اختلاف حول نسبهم ما بين جهينة وفزارة، والبديرية ينقسمون إلى مجموعات متعددة هي الشويحات، والرياش، والدعماش، وأولاد موسى وأولاد حليب، وهناك جماعات بنى عامر الذين قدموا من صعيد مصر أيضاً واستقر بعضهم في شرق دارفور وهناك قبيلة فزارة التي كان اسمها يطلق حتى القرن التاسع عشر على أكبر مجموعة من رعاة الإبل في دارفور وكردفان، ومن المعروف أن أصلها من العدنانيين والتفسير الراجح أن أوطان قبيلة فزارة كانت متاخمة لأوطان قبيلة جهينة في الجزيرة العربية، وأن هجرة القبيلتين من الجزيرة العربية تمت في وقت واحد وكانت بينهما مصاهرات وعلاقات، وهناك قبائل عديدة تنتسب إلى مجموعة قبائل فزارة، مثل: قبائل المجانين في شرق دارفور وهم أبالة<sup>(57)</sup>، وكذلك الزيادية التي كان القسم الأكبر منها يعيش فيما مضى في دارفور، ولكنهم تعرضوا لاضطهاد شديد زمن المهديّة، ثم زمن السلطان على دينار واضطر معظمهم للهجرة إلى كردفان ولم يبق منهم في دارفور سوى عدد قليل وهم من قبائل الأبالة<sup>(58)</sup>.

ولما كان دارفور بوابة أساسية للهجرات العربية من الشمال عبر مصر، ومن الشمال الغربى عبر ليبيا فقد ضم التجمع الإثنى العربى في شمال دارفور كذلك عدداً من القبائل الأخرى مثل بنى جرار المنحدرة في أصولها من صعيد مصر في القرن الخامس عشر، وتتمركز هذه القبائل في شمال دارفور حتى منطقة الطويشة في الشرق، وكانوا في تنافس شديد من الكبابيش، وفي ذات النطاق يسكن العطيفات، وهى إحدى بطون الماهرية. أما العريقات فهى قبيلة عربية أبالية كانت في شمال غرب دارفور، وتشنتت بسبب الصراعات المتكررة مع سلطنة الفور، ولذلك توزعت حول الفاشر ودار تامة والبدديات<sup>(59)</sup>، والملاحظة الجديرة بالتنويه هى أنه رغم توزيع القبائل العربية في كل أنحاء دارفور إلا أنهم أكثر تركيزاً في الشمال.

### القبائل غير العربية:

يمكن تقسيم القبائل غير العربية في دارفور إلى المجموعات الآتية:

أولاً: مجموعة مصدرها إقليم تبستى وما يجاوره من مناطق، خاصة البلاد التي تقع إلى

الغرب منه في أواسط الصحراء الكبرى، وتشتمل على مجموعات قبائل الزغاوة في جنوب دارفور - وسنفضل الحديث عنهم بعد ذلك - وإلى الشمال منها توجد البدايات ثم القرعان، وتمتد مناطق انتشار تلك المجموعات حتى المنحدرات الشمالية لجبل مرة<sup>(60)</sup>.

ثانياً: مجموعة تشتمل على قبائل ذات أصول نوبية وأهمها الميدوب والتنجور، والميدوب هو اسم جبل يقع في الركن الشمالي الشرقي من دارفور على بعد 400 ميل من مدينة الخرطوم و350 ميلاً جنوب غرب بلدة الدبة وعرف سكان هذا الجبل باسمه، ويرجع جماعة الميدوب إلى أصل نوبى ويتكلمون لغة تشبه لغة النوبيين المقيمين على النيل، الأمر الذى يرجح هجرتهم من بلاد النوبة الشمالية إلى منطقة جبل ميدوب.

أما التنجور فقد جاءوا من تونس واخترقوا بلاد بورنو ووادى حتى وصلوا إلى دارفور، وبعد قدومهم اختلطوا بالسكان الأصليين ونتج عن ذلك الاختلاط بين التنجور القادمين والداجو المقيمين في دارفور قبلهم مجموعة شعب الفور، والداجو - في رأى بعض الباحثين - أساساً عبارة عن جماعات قدمت من منطقة الواحات المصرية، ثم أصبحوا قبيلة كبيرة يعيش بعضها في دارفور والبعض الآخر في كردفان، ومن المعتقد أنهم من أقدم قبائل دارفور، بل وإنهم أول من أسس الداجو حالياً في شرق وجنوب شرق جبل مرة وتعيش جماعات منهم في وادى وجماعات أخرى في دار مسيرية في جنوب غرب كردفان. ويذكر بعض الباحثين أن الداجو أو التاجو قد ورد ذكرهم في مؤلفات الإدريسي وابن خلدون، وأن مواطنهم الأصلية ربما كانت بين الكانم في تشاد وبلاد النوبة<sup>(61)</sup>، وهذا يعكس مدى التداخل والاختلاط بين القبائل كما يعكس اختلاف الآراء حول نشأة هذه القبائل والمناطق الأصلية التى قدمت منها.

ومن القبائل غير العربية الهامة في دارفور أيضاً قبيلة التنجر التى جاء زعمائها إلى حكم دارفور بعد الداجو، وهيمنوا على الحكم في الفترة من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر الميلادى، ويبدو أن القبائل المحلية أصحابها الوهن والضعف، وأفلت من بين يديها زمام الحكم منذ القرن الثالث عشر حيث داهمتها جيوش كانم، وانقسمت السلطنة الدارفورية على يد الداجو إلى ثلاث ممالك وتركز وجود التنجر في وادى وجزء من دارفور<sup>(62)</sup>.

ثالثاً: مجموعة عناصر إفريقية قديمة ذات أصول نوبية أيضاً: وأولهم البرتى وهم من أهم قبائل المنطقة الشرقية لدارفور، ويتمركزون حول منطقة مليط، وهم من أصول مختلطة، وكانوا قد هاجروا من موطنهم الأصلي في شمال الفاشر بسبب ضغط سلاطين الفور عليهم، وهناك مجموعة البرقو وأصلهم من سكان واداي وبرنو ويأخذون أحياناً اسم المراريت ربما لانهم تزامنوا في الهجرة من واداي وبرنو مع المراريت، وربما للتشابه في بعض السمات والخواص خاصة المورفولوجية والثقافية<sup>(63)</sup>.

رابعاً: مجموعة القبائل الغربية - غير العربية - وترجع أصولها إلى الأقاليم الجنوبية من ليبيا، ومن أقاليم تشاد وتشتمل على عناصر الفلاتة والميمة والبرنو والتكارنة والمراريت وغيرها، والفلاتة من العناصر التي هاجرت إلى دارفور قادمة من أقصى جنوب الصحراء الكبرى من السودان الغربى الممتد حتى المحيط الأطلنطى حيث بلاد نيجيريا وغانا ومالى وتشاد، وهم من العناصر الفولانية المنتشرة في أقاليم السافانا في نيجيريا الشمالية، وهم من القبائل الحامية المختلطة بالدماء العربية، وقد ساعدت قبائل الفولانى على نشر الإسلام في غربى إفريقيا، وكثير منهم كانوا يتوجهون إلى بلاد الحجاز لزيارة الأماكن المقدسة، ولكنهم كانوا يتمهلون أحياناً لعام أو بعض عام فيشتغلون في أراضي السودان في مجال الزراعة والرعى، ثم يواصلون رحلتهم وقد يستقرون في السودان بما فيه دارفور بشكل نهائى قبل الذهاب للحج أو بعد عودتهم من زيارة الأماكن المقدسة<sup>(64)</sup>.

خامساً: مجموعة القبائل الأصلية أو القديمة: وجاءت إلى الجنوب من دارفور منذ وقت مبكر وهى قبائل: المساليت، وتامة، والإرنجا، ودار قمر، والفور<sup>(65)</sup>.

وقبائل المساليت (أو المساليط) خليط من الزنوج والعرب يتكلمون لغة تختلف عن لغة سكان دارفور، وتبلغ المساحة التى ينتشرون فيها ما بين 7000 - 7500 ميل مربع، تحدها من الغرب واداي، ومن الجنوب دار صليح في جمهورية تشاد حالياً، ومن الشمال دار قمر ودار تامة ومن الشرق قبائل الفور. وبلاد المساليت فقيرة ثروتها الأغنام والماشية، وهى كثيرة التنقل والترحال<sup>(66)</sup>. أما دار قمر فتقع في شمال بلاد المساليت وشرق دار تامة وهى فقيرة أيضاً في مواردها الطبيعية، ويعيش سكانها على زراعة الدخن ورعى الأغنام والماشية، وعلى الرغم من أن جماعات دار قمر تدعى الانتساب إلى الأصول العربية،

ويتكلم معظمهم اللغة العربية فإنه ليس هناك ما يؤيد هذه الدعوى. أما القبائل دار تامة فتقع إلى الغرب من دار قمر على حدود واداي، وكانت دائماً همزة وصل بين دارفور وواداي<sup>(67)</sup>.

ومن المعتقد أن قبائل الفور هم أقدم القبائل التي سكنت دارفور، لكن لا ندرى أصولهم القديمة غير أن هناك كثيراً من الظن أنهم فرع من فروع الزنوج الذين سكنوا السودان القديم خاصة في غرب إفريقيا<sup>(68)</sup>.

وقبائل الفور هي العنصر الأكثر بروزاً في دارفور، وتنقسم هذه القبائل إلى ثلاثة أقسام هي: الكنجارا والتباركا والكراريت، ولما كان الفور هم العنصر البارز في التكوين الجنسي لسكان الإقليم لذلك سمي الإقليم كله باسمهم، ولما نشأت سلطنة هناك سميت سلطنة دارفور بالرغم من أن الفضل في إنشائها يرجع لعنصر يختلف بعض الاختلاف عن الفور الأصليين، وتحدث قبائل الفور لغة شفوية غير مكتوبة تنتقل من جيل إلى آخر، والنشاط الاقتصادي لها يتركز في الزراعة خاصة في منطقة جبل مرة<sup>(69)</sup>.

وإلى الجنوب من مناطق انتشار عرب البقارة نجد قبائل إفريقية أخرى هي قبائل الفريت وهي من القبائل الزنجية الوثنية التي تسكن في أقصى جنوب دارفور وشمال غرب بحر الغزال وفي إقليم واداي في تشاد، ويرى المؤرخون أن الفريت كانوا من سكان جبل مرة الأصليين ثم أزاخوا الداجو ثم التنجور والعرب عن مواطنهم الأصلية نحو الجنوب، والفريت قبائل شتى منها فروع: رونجه وبندلا وشت وبنجا وفراوجيه. وفي جنوب دارفور أيضاً يوجد قبائل البيقو وموطنهم الأصلي هو بحر الغزال، وقد هاجروا منه إلى دارفور منذ زمن بعيد حيث كان يمنحهم سلطان دارفور أرضاً ينزلون بها بشرط أن يقدموا فتاة كل عام ضمن حريم السلطان، ثم ألغى السلطان محمد فضل (1802 - 1839) هذه العادة لأن أمه أصلاً من هذه القبائل<sup>(70)</sup>.

ومن أهم القبائل ذات الأصول الإفريقية في دارفور قبيلة الزغاوة وهم خليط من الزنوج والتبو والليبيين، ويبدو مما ورد في كتب المؤلفين العرب كالمسعودي، وابن سعيد، والإدرسي، وابن خلدون أن أوطان الزغاوة كانت تمتد غرباً حتى إقليم النيجر غير أنهم يعيشون حالياً في شمال وشمال غرب دارفور، ولهم شعبة تسكن في إقليم كاججار

Kamagar في غرب كردفان، ومعظمهم يتكلم اللغة العربية إلى جانب لغتهم الأصلية وهي لغة التبو، وهم فريقان "زغاوة كيا" في شرق دار قمر وهم أصحاب أفيال وحمير، و"زغاوة الدور" وهم أبالة شمال الفاشر، ومجموعة قبائل الزغاوة هي الأعلى مشاركة في النزاعات القبلية (بنسبة 14.4٪)، وفي الاحتكاك بالقبائل الزراعية مما يؤكد على أن الذين يرحلون بمواشيهم، والذين قد يغيرون على القبائل المزارعة ليسوا تاريخياً فقط من القبائل العربية - خاصة الرزيقات - كما يدعى بعض المتمردين ف عوامل الجفاف والتصحر ترغم الجميع على الرحيل وما يترتب عليه<sup>(71)</sup>.

ومن الضروري أن نشير إلى أن العرض السابق عن نشأة القبائل وتوزيعها في دارفور هو من قبيل الدراسة النظرية المجردة، والطريقة التي عرضنا بها المعلومات هي محاولة لإدراك شكل التكوينات البشرية في هذا الإقليم الكبير وآثارها على الأوضاع الحياتية والاجتماعية خاصة في الصراع القائم حالياً.

### الاختلاط القبلي والثقافي في دارفور:

الواقع أن القبائل التي يقال عنها قبائل دارفور غير العربية تأثرت من ناحية النسب بالدماء العربية واختلطت بها وتأثرت بلغتها، واختلطت الألفاظ والتراكيب والمصطلحات العربية بغيرها، وأصبحت اللغة والثقافة العربية هي السائدة باعتبارها لغة القرآن الكريم خاصة من مجتمع يدين كله بالدين الإسلامى سواء كانت قبائله من عناصر إفريقية أو عناصر عربية وقوقازية، وتختلط في إقليم دارفور كل القبائل اختلاطاً كبيراً حتى إنه لا يوجد خطوط كاملة التحديد في التمايز بين القبائل بعضها البعض<sup>(72)</sup>. وما التوزيع السابق للقبائل سوى توزيع نظري فقط لزوم الدراسة والبحث.

وفي أزمة دارفور الحالية نجد أنه من الصعوبة أن نفرق بين قبيلة عربية وأخرى غير عربية مشتركة في الصراع، حتى إن المتمردين في دارفور فيهم عرب وغير العرب، بل إن بعض المتمردين الذين هاجموا بعض مناطق جنوب الإقليم كانوا من العرب فالذين هجموا على مدينة "برام" التي يقطنها عرب بنى هلبة مثلاً كانوا من عرب الرزيقات، مما يؤكد أن قضية دارفور ليست كما تدعى الأوساط الغربية قضية تطهير عرقي أو إبادة جماعية للعناصر الإفريقية، خاصة وأن عمليات السلب والنهب والقتل لها جذور تاريخية،

وعصابات التمرد موجودة أساساً في دارفور ومضابط مراكز الشرطة والقضاء ترصد ذلك منذ أزمنة بعيدة<sup>(73)</sup>.

ومن المؤكد أنه في إقليم دارفور لا نستطيع الحديث عن تمايز عرقى على نحو دقيق - كما أشرنا من قبل - إلا أن يكون ذلك لأغراض سياسية خاصة وأن الدين الإسلامى الذى هو دين جميع سكان الإقليم يدعو إلى العدل والمساواة وعدم التمييز بين العناصر والأجناس، ولذلك فالشائع وجود علاقات مصاهرة وتزاوج - فضلاً عن وجود العلاقات الإنتاجية والاقتصادية بالطبع - بين قبائل عربية وقبائل أخرى غير عربية. أما مسألة وجود تمايز قبلى أو عرقى أو طبقى فأمر يرجع لسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية إجمالاً خاصة في السنوات الأخيرة التى شاهدت دارفور فيها حالة من الجفاف والتصحر وما ترتب عليه من الجوع والفقر، والتخلف العام بها فيه التخلف الثقافي مما يساعد على استمرار التقاليد البالية مع غياب هبة الدولة المركزية<sup>(74)</sup>.

ويقول الخبير الاستراتيجى اللواء طلعت مسلم: "أزعجنى كثيراً النغمة التى يرددها البعض بما فيها قوى دولية، بل والاتحاد الإفريقى أن الصراع فى دارفور بين قبائل عربية وهم الرعاة، وقبائل ذات أصول إفريقية تعمل بالزراعة". واستطرد فى قوله بأن: "العرب الموجودين فى دارفور أفرقة بالطبيعة والذى أدى إلى ذلك هو عمليات المصاهرة الدائمة بين كل القبائل باعتبارها مسلمة<sup>(75)</sup>"، ولذلك فإن الصراع فى دارفور هو بين قبائل الرعاة وقبائل المزارعين بصرف النظر عن أصولهم.

ويشير محمد سليم العوا أنه خلال زيارته لدارفور - بمناسبة الأحداث الجسيمة التى وقعت فى عام 2004 - اكتشف أنه لا يوجد فرق بين العربى والإفريقى فى اللون أو الملامح أو اللغة فكلهم يتحدثون اللغة العربية لغة القرآن بما يفهم القبائل ذات الأصول الإفريقية كالزغاوة والفور والمسالىت، ويقول العوا أيضاً: "لقد أخبرنى الوزير السودانى الذى رافق كولن باول عند زيارته لدارفور أيضاً فى عام 2004 لشدة الاهتمام الأمريكى بالمشكلة، أن وزير الخارجية الأمريكى كان يردد أنه إفريقى، وكلما أشار لشخص على أنه إفريقى تبين أنه عربى واستمر الوزير الأمريكى حتى الشخص السادس وبعدها توقف عن محاولة معرفة العربى من الإفريقى"<sup>(76)</sup>.

وهذا يوضح أن محاولة تقسيم السكان من خلال الألوان ودلالاتها إلى أسود وأبيض لا يمكن انطباقها على دارفور، فالأبيض لا يوجد بين أهلها، والأسود يمثل قلة منهم، وأن غالبية القبائل المحلية تقع بين ألوان متعددة منها الأحمر كبعض القبائل ذات الأصول العربية، والأسمر كبعض القبائل غير العربية، والأصفر مثل القرعان، والأخضر كالمرايرت والأزرق مثل الزغاوة<sup>(76)</sup>، وفضلا عن ذلك فإن تحديد الألوان والسحنات لكل قبيلة على حدة أمر مستحيل بسبب الاختلاط الواسع بين القبائل التي يربطها الإسلام وتجمعها اللغة العربية والمصالح المشتركة، والدليل على ذلك أن التونسي يدرج الفلان ضمن القبائل العربية بينما هم في الحقيقة من القبائل غير العربية القادمة من غرب إفريقيا وعددهم محدود، كذلك نجد أن الباحث ناخيتجال - وهو مستشرق زار دارفور في القرن التاسع عشر يصنف النواية ضمن القبائل الإفريقية وهم ليسوا كذلك، ولم يكن ذلك نتيجة خطأ من التونسي أو ناخيتجال بل هو نتيجة أمور تتعلق باختلاط السحنات وتقاربها، كما تتصل بالهوية والانتماء الفعلي وأسلوب الحياة، ونظرة الناس لأنفسهم، ونظرة الآخرين لهم<sup>(78)</sup>.

ومما لاشك فيه أننا نقع في خطأ فادح إذا بالغنا في أمر القبيلة والقبلية، لأن ذلك مدعاة للتقوقع والانكفاء على الذات، كما أننا نقع في خطأ أكثر فداحة إذا ما أغفلنا القبيلة والقبلية في السودان بما فيه دارفور حيث إنها لاتزال تشكل واقعاً اجتماعياً وسياسياً. وبعبارة أخرى ينبغي ألا يكون سعينا لتحقيق التوحد القومي على حساب التنوع والاختلاف، والواقع أن التوحد القومي يتم تدريجياً وبسياسة بعيدة المدى من خلال عملية تنمية اقتصادية واسعة، وهندسة اجتماعية ثقافية<sup>(79)</sup>.

### الاستقطاب السياسي لقبائل الإقليم:

يذكر التيجاني مصطفى أن كلا من الحزبين الكبارين، حزب الأمة والحزب الاتحاد الديمقراطي ظللا يغريا ويساوما زعماء القبائل الإفريقية الكبرى كالفور والزغاوة والبرتي والمسالت، والقبائل العربية كالرزقات والمعاليا والتعايشة والهباتية.. إلخ، للوقوف معها في الانتخابات لقاء وعود بتعيين بعض أبنائها في مناصب سياسة إذا ما فاز أي حزب منهما في الانتخابات وكلف بتشكيل الحكومة<sup>(80)</sup>.

وكانت قبائل وبيوت أو أسر معينة هي التي تفوز في انتخابات المجالس التشريعية والبرلمانية في السودان، وغالبا ما كانت هذه الأسر هي أسرة زعيم القبيلة أو شيخها، وقد راهن حزب الأمة في جميع الانتخابات البرلمانية على كسب زعماء وشيوخ قبائل وبيوت معينة في إقليم دارفور الذي يسكنه مسلمون بسطاء دخل معظمهم الإسلام عن طريق الطرق الصوفية، ولديهم تراث انبهارى بالمهدى وأسرته وحزب الأمة الذي سيطر على معظم الدوائر الانتخابية في مناطق دارفور من سنة 1948 وحتى سنة 1986، فكان له ممثلون في هذه الدوائر حيث سيطرت عائلة آدم في كتم وسط وكتم الشمالية من سنة 1953 حتى سنة 1965، وسيطرت عائلة ضوالبيت في شرق دارفور وأم كدادة من سنة 1948 إلى سنة 1960، وسيطرت عائلة بحر الدين في دار مساليت جنوب ودار مساليت الوسطى من سنة 1953 إلى سنة 1965، وسيطرت عائلة منصور على زالنجي وسط وزالنجي وكاس من 1958 حتى 1986، وسيطرت عائلة على دينار من 1948 حتى 1965 على منطقة شمال دارفور وزالنجي<sup>(81)</sup>.

وفي ظل هذا الاستقطاب السياسي للقبائل والإدارات الأهلية وتحويلها من كيانات ومؤسسات اجتماعية متعايشة إلى كيانات سياسية متنافسة على السلطة محلياً ومركزياً تحولت الصراعات من صراعات مهنية وإنتاجية إلى صراعات عرقية وسياسية، وأصبحت القبيلة عنصراً أساسياً في مكونات الشراكة في الحكم، ودخلت الموازنات القبلية في توزيع المناصب الدستورية والتنفيذية، وأصبح الطامحون في العمل السياسي بكل مناطق التخلف ودارفور على وجه الخصوص أكثر تشبهاً بقبائلهم وأعرافهم حتى يتمكنوا من الوصول إلى المناصب من خلال انتماءاتهم القبلية<sup>(82)</sup>، وبذلك تقلص دور منظمات المجتمع المدني المتجاوزة للقبليات، وعادت دارفور مرة ثانية إلى الوراثة تحكمها موارث القبلية والعصبية التي تجاوزتها المجتمعات المتمدينة.

### النزاعات قديمة قدم السلطنة:

بسبب مشكلات المياه، والرغبة في إيجاد مناطق للرعى نشأت النزاعات والصراعات بين سلاطين وقبائل الفور الزراعية وبين القبائل الرعوية مثل الرزيقات من قبائل البقارة القاطنة في جنوب دارفور، وحياة الرعاة من البقارة خشنة وتعتمد على الترحال لأنهم في

فصول الجفاف يرتحلون بماشيئهم نحو الجنوب كما أشرنا فى جهات بحر العرب ويعودون فى فصل المطر إلى الشمال، وكان سلاطين الفور يرون أن الأراضى التى ينزل فيها الرزىقات ملك لهم، وبالتالي فإن عليهم أن يدفعوا ضرائب عن فترة إقامتهم فيها، وكان الرزىقات يتهبون من دفع الضرائب المفروضة عليهم، وأدى هذا إلى قيام صراع طويل بين الرزىقات وغيرهم من الرعاة الذين يجوبون الإقليم بحثاً عن الماء والكأ من جانب وبين المزارعين الذين قد تتعرض مزارعهم لانتهاكات الرعاة من جانب آخر، وبخلاف رعاة البقر من بقارة جنوب دارفور هناك رعاة الإبل الذين يستوطنون شمال هذا الإقليم، وينزلون أو يغيرون أحياناً على مناطق تواجد قبائل الفور الزراعية حول جبل مرة<sup>(83)</sup>.

ولقد اعتادت حكومات دارفور عبر التاريخ أن ترسم للرعاة مسارات معينة بحيث لا يعتدوا على أراضى المزارعين ومع ذلك فكثير ما كان يحدث التعدى من جانب الرعاة مما كان يستوجب عقد المجالس العرفية، والمؤتمرات القبلية التى يحكم فيها شيوخ القبائل والأجاويد لفض النزاعات التى تنشأ بسبب تعدى قطعان الرعاة على الأراضى الزراعية، واعتاد كبار رجال القبائل فيما بينهم على فرض "دية" يدفعها المتعدى أو المتعدون على المحاصيل الزراعية أو على أصحابها من المزارعين خاصة فى حالة وقوع حوادث قتل<sup>(84)</sup>.

### النزاعات القبلية فى دارفور خلال الحكم الثنائى:

ذكرنا أنه عبر التاريخ كانت النزاعات بين قبائل الرزىقات المنتشرة فى نواحي دارفور وكرفان وجيرانها تنشأ بين الرعاة والمزارعين فى الغالب وكانت هذه النزاعات يتم تسويتها سلمياً عن طريق مجالس القبائل خاصة فى المشاكل التى تكون بين قبائل الرزىقات العربية وقبائل الفور أو قبائل الدنكا ملوال الجنوبية والتى كانت تنشأ بسبب النزاع على أراضى المراعى والصيد إلا أن هذه المشاكل تعمقت خلال الحكم الثنائى (1899م - 1956م) خاصة بعد صدور قانون المناطق المقفلة عام 1922م بأمر الحكومة الثنائية، والذى نص على "منع نزول القبائل العربية الشمالية إلى جنوب خط 1° 0 شمال خط الاستواء، أو صعود القبائل الجنوبية الزنجية إلى شمال هذا الخط إلا بأمر الحاكم العام أو مثله"، ولقد خلق هذا القانون فاصلاً جغرافياً وبشريا ونفسياً بين القبائل الشمالية العربية والعناصر الزنجية أو غير العربية. وفى سنة 1924م تم رسم الحدود بين الدنكا ملوال والرزىقات

بموجب اتفاقية اعترفت بحق الرزيقات التاريخي في التواجد في البقعة من الأرض الممتدة جنوب بحر العرب بـ 14 ميلاً، وقد أعطت الاتفاقية في نفس الوقت الدنكا الحق في الورد إلى بحر العرب والصيد فيه وفي سنة 1931م طالب المسئولون في بحر الغزال بإعادة النظر في الاتفاقية لاعتبارات سياسية بينما رفض مدير دارفور ذلك حرصاً على مصالح الرزيقات، ثم أعيد النظر فيها بالفعل عام 1935م، ثم أدخلت عليها تعديلات في سنة 1937 لضمان حق رعاة الرزيقات في الوصول إلى الضفة الجنوبية لبحر العرب مبكراً في وقت الحريف من كل عام<sup>(85)</sup>.

وكانت النزاعات والمعارك متكررة - نتيجة عمليات الرعي في مناطق الزراعة ولم يتم حسمها أو إيجاد مخرج لها، وترصد تقارير حكام عموم السودان من الإنجليز خلال الحكم الثنائي هذه النزاعات والمعارك بين القبائل بسبب رعي الجمال أو الأبقار أو الأغنام في مناطق الزراعة وتعديها على المحاصيل الزراعية خاصة في الأعوام قليلة الأمطار قبل نضج المحصول - الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالظروف المناخية ومدى وفرة الأمطار - لأن هذا التعدي يضر بمصالح القبائل المزارعة المستقرة التي تعتمد في حياتها الاقتصادية بشكل أساسي على ناتج المحاصيل الزراعية<sup>(86)</sup>.

وكانت النزاعات والاشتباكات تتكرر حتى بين القبائل الرعوية في دارفور بعضها وبعض، بل وكانت النزاعات تقع في الصحراء الشمالية في موسم الجزء الممتد من شهر أكتوبر إلى شهر مارس بين القبائل التي تعمل بالرعي التابعة لإفريقيا الاستوائية الفرنسية (تشاد) والرعاة من قبائل دارفور وكردفان<sup>(87)</sup>.

وتسجل تقارير حكام عموم السودان الأحداث المرتبطة بذلك بدقة كبيرة مما يؤكد أن النزاعات والحروب في دارفور ليست شيئاً مستجداً أو مبتكراً، وإنما هو جزء من التراث الحياتي التاريخي للقبائل هناك. ففي عام 1940م يرصد تقرير الحاكم العام أن قبائل شمال دارفور الرعوية، وهي قبائل عربية، قامت بالنزوح إلى الجنوب بسبب قلة الأمطار وندرة أراضي المرعى، وعادت إلى أوطانها عندما تحركت الأمطار نحو الشمال<sup>(88)</sup>.

وفي عام 1939م وقعت حوادث الشغب بين دار المساليت وقبائل الفور في منطقة زالنجي ثلاث مرات، وجدير بالإشارة هنا أن هذه الحوادث وقعت بين القبائل الإفريقية ذاتها سواء المساليت أو الفور، ولا دخل للقبائل العربية فيها، وقد اضطر البوليس

لاستخدام الأعيرة النارية لفض الاشتباكات، وقام أفراد من قبائل البرتا بالهجوم على قوات البوليس ذاتها<sup>(89)</sup>.

وفي عام 1941م وكما ورد في تقرير الحاكم العام لنفس السنة وقعت حوادث خطف للأطفال، ولكن تم القبض على المعتدين، وتمت إعادة الأطفال المخطوفين عن طريق ناظر قبائل الكبايش، ويرصد التقرير المشار إليه أن عدد الأشخاص الذين حكم عليهم في حوادث القتل بلغ 26 شخصاً في عام 1939م/ 1940م، وتكررت الحوادث في الأعوام التالية<sup>(90)</sup>.

ويذكر الحاكم العام للسودان في تقريره لعام 1945م "أن المشاكل تأتي من العداء الذى يحدث بين قبائل الفور المختلفة، مما يؤدي إلى قيام الحروب والصراعات المسلحة بين القبائل، وإلى تدخل الإدارة المحلية"<sup>(91)</sup>.

وورد في تقرير الحاكم العام 1947م كيف أن حالات السرقة قد زادت نتيجة ندرة المياه وقلة العمل وزيادة البطالة من 516 حالة عام 1944م إلى 836 حالة عام 1945، وإلى أكثر من ذلك في عام 1947م.<sup>(92)</sup>

ويذكر تقرير سنة 1947م أيضاً أن "الناس بدأوا يهاجرون إلى الجنوب كما هي عادة القبائل في الأعوام التى تندر فيها الأمطار"<sup>(93)</sup>، ويرصد التقرير نفسه أن هناك حالات من الهجوم والتعدى والسرقات التى وقعت بين قبائل دارفور السودانية، والقبائل التشادية<sup>(94)</sup>.

ويذكر الحاكم العام في تقريره نفسه لعام 1947م "أنه قد وقعت الهجرة السنوية للعرب والرعاة (من غير العرب) من الشمال إلى الأقاليم الجنوبية الوفيرة المياه والمطر حول جبل مرة"<sup>(95)</sup>. وهذا يوضح أن حركة النزوح والهجرة الموسمية نحو الجنوب للبحث عن المراعى كان يقوم بها جماعات من القبائل العربية وغير العربية على حد سواء.

وقد ورد كذلك في تقرير حاكم عام السودان لسنة 1949م "أنه بسبب مشكلات نقص المياه فشلت المراعى الشمالية، ونتيجة لذلك حصلت هجرة واسعة في ذلك العام من قبل القبائل الموجودة في شمال دارفور نحو الجنوب"<sup>(96)</sup>.

ويذكر نفس التقرير أن "المشكلة الأساسية لاستقرار الأمن في دارفور ما زالت هي كيفية مراقبة الوحدات التي ترعى في دار قبائل أخرى"<sup>(97)</sup>.

وجاء في التقرير نفسه أيضا "أن قبائل الزغاوة (وهي قبائل إفريقية) قد تعرضت بالأذى لقبائل عرب كردفان، وزادت عمليات سرقتها للذرة والجمال كما هي عاداتها"<sup>(98)</sup>، وهذا يؤكد على أن عملية الهروب أو اللجوء إلى تشاد - التي وقعت في السنوات الأخيرة ولو أنها في الواقع أشد من ذي قبل - ليست حدثاً جديداً أو ظاهرة لا سابق لها، وفي المركز الجنوبي لدارفور وقعت في نفس عام 1949م منازعات على الحدود بين قبائل الهبانية وقبائل الرزيقات، وبين قبائل الهبانية وقبائل البيجو، وبين التعايشة ودار قمر مما شكل انشغالا تاماً لرجال الإدارة في محاولة إقرار الأمن في إقليم دارفور وحكومة السودان<sup>(100)</sup>.

وبعد أن وقعت موجات من الخطف وقطع الطريق بواسطة القبائل الرحل في الطريق الرئيسي للحجاج إلى مكة في عام 1940م قامت الحكومة بإنشاء نقطة بوليس في أم فريت، وأبيض<sup>(101)</sup>، وهو عمل يهدف إلى تطوير الإدارة الأهلية حتى تقوم بدورها في إقرار الأمن، ولهذا الغرض أيضا تم إنشاء محكمة ذات سلطات قضائية على قبائل البقارة الخمسة الرئيسية في جنوب دارفور وهي: الرزيقات والهبانية والغلاتة وبنو هلبة والتعايشة والقبائل الصغيرة التي تجاورها وهي المعاليا وحرر والمسلات<sup>(102)</sup>.

وفي عام 1946م تم عقد محكمتين خصوصيتين لتسوية الخلافات التي وقعت بين قبائل الرزيقات والدنكا والرزيقات والبرقو<sup>(103)</sup>.

وورد في تقرير الحاكم العام لسنة 1949م أنه قد "انطوى دخول قبائل العرب البقارة السابق لأوانه في مركز زالنجي وقبل أن يتم حصاد محاصيل قبائل الفور على تعدد كبير، ولذلك استولت شرطة الفور على أعداد كبيرة من الأبقار مما أدى إلى وقوع صدامات عديدة"<sup>(104)</sup>.

ولم تكن المشاكل قائمة بين قبائل الفور من جانب والقبائل العربية الرعوية من جانب آخر بل إن هذه المشاكل كانت تقع من حين لآخر بين عناصر تنتمي جميعها إلى قبائل

الفور. وأكثر من ذلك فإن النزاعات والمشاكل كانت تنشأ بين القبائل السودانية والقبائل التشادية بسبب التنقل وعبور الحدود بين مناطق غرب السودان ومناطق شرق تشاد، ولذلك كان يجتمع حكام المراكز الدارفورية على الحدود مع أمثالهم من رجال الإدارة من أقاليم شرق تشاد لحل هذه المشاكل، كما كانت تحدث هذه الاجتماعات لفك القيود المفروضة على حرية التنقل على جانبي الحدود، أو لاستعادة السلطات التشادية (التي كانت فرنسية) للنازحين التشاديين إلى الأراضي السودانية، خاصة من قبائل بنى هلبة والفلاتة والمحاميد<sup>(105)</sup> المنتشرة على جانبي الحدود السودانية التشادية<sup>(106)</sup>.

## خاتمة

لقد استمرت عمليات النزاع في إقليم دارفور بين القبائل الرعوية ومعظمها من العرب والقبائل المزارعة ومعظمها من العناصر الإفريقية نتيجة الظروف المناخية المرتبطة بهذا الإقليم - والتي أشرنا إليها من قبل - والتي ازدادت سوءاً منذ عقد الثمانينات وحتى الآن، ولذلك وقع النزاع بين قبائل الزغاوة والرزيقات الشمالية في شمال دارفور في الستينات، وبين التعايشة ودارسلامات بجنوب دارفور في الثمانينات، وبين الفور والعرب بجبل مرة 1978 - 1989، وبين الزغاوة والرزيقات الشمالية بشمال دارفور سنة 1994، وبين الرزيقات والزغاوة في جنوب دارفور 1997 - 1999، والنزاع بين الميدوب والكبابيش، وبين الزغاوة ودار قمر بغرب دارفور 1999، وبين العرب والمساليت بغرب دارفور في نفس العام، والصراع بين العرب والفور بمنطقة جبل مرة 2002، وكان يعقب هذه النزاعات دائماً عقد اتفاقات الصلح التي يقوم بها زعماء القبائل والأجاويد تحت رعاية الإدارات الحكومية إلا أن قرارات هذه الاتفاقات والمؤتمرات كانت غالباً ما تظل حبراً على ورق<sup>(107)</sup>.

ولذلك يمكننا أن نقرر أن أسباب النزاع في إقليم دارفور ليست صراعا بين قبائل عربية وقبائل إفريقية كما أشيع، وإنما ترجع إلى أن القبائل الرعوية - بصرف النظر عن أصولها - تضطر للترحال بقطعانها من مناطق استقرارها في شمال دارفور في فصل الصيف بسبب الجفاف وقلة المطر نحو المناطق الجنوبية من دارفور التي يتوافر فيها المياه والكأ، والتي تقوم قبائل جنوب دارفور ومناطق جبل مرة فيها بالزراعة، ويكون سبب النزاع تعدى قطعان الماشية على المناطق المزروعة بالمحاصيل المختلفة بقصد - في قليل من الأحيان - أو بغير قصد في معظم الأحيان مما قد يدمر بعض المحاصيل.

كذلك فإن سبب النزاع يرجع إلى إهمال حكومات السودان المتوالية للإقليم، فلما جاء الحكم الثنائى (1899 - 1956) لم يدخل الإقليم ضمن مشروعات التنمية فى السودان، فأهملت شؤون الزراعة والرعى وما يرتبط بهما من حفر الآبار، كما أهملت شؤون المواصلات والخدمات... إلخ، ومما زاد الأمر سوءاً أن الحكومات الوطنية التى تولت الحكم بعد سنة 1956 قد استمرت فى نفس مسلسل إهمال هذا الإقليم الثنائى، واعتادت كل الحكومات والإدارات على استخدام زعماء بعض القبائل فى تحقيق برامجها، وتفضيل بعض العناصر على غيرها فى تولي المناصب الإدارية مما زاد من شدة الصراع بين القبائل.

ولذلك ومن خلال دراسات يقوم بها كاتب هذه المقالة حول السودان ومشكلات الجنوب والغرب فيه<sup>(108)</sup>، اتضح أن السبب فى أن مشكلة دارفور قد طفت على سطح الأحداث العالمية وأخذت الحجم الذى هى عليه الآن هو:

1- استغلال ما وقع من النزاعات والصراعات القبلية بين الرعاة والمزارعين والتى زادت فى السنوات الأخيرة بسبب الجفاف خاصة بعد أن ظهرت مليشيات عربية تسمى بـ "الجنجويد" فى مواجهة المليشيات التى كونتها حركات التمرد من العناصر الإفريقية، فقامت الحروب والصراعات بينهما مما أدى إلى تدخل الحكومة وتعقد المشكلة.

2- إن دارفور تعتبر من أهم مناطق توفر البترول حيث تقوم شركات صينية باستخراجه الآن فى جنوب الإقليم، كما يتوفر خام اليورانيوم والنحاس بكميات كبيرة بالإضافة إلى معادن هامة أخرى، مما سأل له لعاب الدول الغربية خاصة الولايات المتحدة الأمريكية التى أقحمت نفسها فى المشكلة وضخمتها كمبرر لتدخلها هى وغيرها من الدول الأوروبية الأخرى مثل: بريطانيا وفرنسا وألمانيا... إلخ.

3- كان للحرب الأهلية فى جنوب السودان وما ترتب عليها من عقد اتفاقات بين حكومة الخرطوم والحركة الشعبية فى الجنوب - ضمنت للجنوبيين حقوقهم فى الثروة والسلطة المركزية والمحلية - أثر على استعمار الحرب والنزاع فى دارفور لرغبة المتمردين فى إرغام الحكومة على التفاوض معهم وأخذ حقوقهم كما حدث مع الجنوبيين لتعويضهم عن سوء الحرمان والتجاهل والمعاناة.

4- إن الانتخابات الأمريكية قد دفعت الرئيس جورج بوش الابن لإصدار عدد من

القرارات ضد الحكومة السودانية - التي اتهمت بأنها ضربت حركات التمرد في دارفور بالطيران والقنابل، بل وإن هذه الحكومة مع جماعات الجنجويد العربية قد ارتكبت عمليات إبادة جماعية ضد العناصر الإفريقية - والتهديد بالتدخل الإمبريكي في دارفور وذلك لإرضاء العناصر الأمريكية السوداء لكي يكسب بوش أصواتها في انتخابات الرئاسة الأخيرة.. تلك العناصر التي رأت سبب النزاع هو اضطهاد العناصر العربية للعناصر الزنجية.

5- وما ساعد على تعقد المشكلة دعم بعض الدولة الغربية للمتمردين، إضافة إلى الدور الذي قامت به بعض الدولة الإفريقية لدعم المتمردين خاصة إريتريا التي أمدتهم بالسلاح الذي جاء إليهم من إسرائيل عن طريقها.

## هوامش البحث

- (1) محمد الرشيدى: دارفور تحت حكم على دينار، ماجستير غير منشور، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة.
- (2) مديرية دارفور، قصة الإنسان والأرض، وزارة الثقافة السودانية، الخرطوم، 1974، ص3.
- (3) محمد عوض محمد، السودان الشمالى، سكانه وقبائله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1951، ص 263 - 266.
- (4) الفاشر هى العاصمة التاريخية لإقليم دارفور، وكان يطلق لفظ الفاشر أول الأمر على مجلس سلطان الإقليم الذى ينعقد فى ميدان واسع أمام قصر اسمه الفاشر، فصار هذا الاسم يطلق على مكان استقرار السلطان ومحل إدارته، لذلك أصبحت مدينة الفاشر مكان الحكم وعاصمة دارفور.
- (5) مصطفى خوجلى، ورقة بعنوان: "دارفور: البيئة والإنسان" مقدمة فى المنتدى العلمى لمستقبل وادى النيل حول أزمة دارفور، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، بالاشتراك مع مركز البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم، فى 13 - 14 ديسمبر 2004، ص 8 - 9، الأهرام 1 أغسطس 2004م.
- (6) السيد يوسف نصر، جهود مصر الكشفية فى إفريقيا فى القرن التاسع عشر، ماجستير غير منشورة فى التاريخ الحديث، معهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، 1974، ص 62 - 63.
- (7) محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 225 - 226.
- (8) نفس المكان، ص 225 - 226.
- (9) محمد إبراهيم أبو سليم، الفور والأرض، وثائق تمليك، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، 1975، ص 13 - 14.
- (10) محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 278 - 279.

- (11) محمد محمود الرشيدى، مرجع سابق، ص 2.
- (12) كانت نهاية الدولة العباسية على أيدى المغول 1258 م.
- (13) الكير: هى اسم ابنة الملك "شاو دور شيت" والتي تزوجها أحمد المعقور، وأنجب منها مؤسس هذه الأسرة ويدعى "سليان".
- (14) نعوم شقير، تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، مطبعة المعارف، القاهرة (بدون تاريخ)، ص 111 - 113.
- (15) عبد الفتاح مقلد، مرجع سابق، ص 174 - 175.
- (16) محمد محمود الرشيدى، مرجع سابق، ص 4.
- (17) محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 279.
- (18) عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة 2001، ص 160 - 162.
- (19) محمد فؤاد شكرى، مصر والسودان، تاريخ وحدة وادى النيل فى القرن التاسع عشر 1820 - 1899، دار المعارف، القاهرة، سنة 1957م، 7 - 8.
- (20) محمد محمود الرشيدى، مرجع سابق ص 12 - 14.
- (21) منصور خالد، السودان - أهوال الحرب... وطموحات السلام، قصة بلدين، دار تراث للنشر، لندن 2003، ص 83.
- (22) محمد إبراهيم أبو سليم، الفور والأرض، مرجع سابق، ص 44 - 63.
- (23) محمد محمود الرشيدى، مرجع سابق ص 13 - 14.
- (24) محمد إبراهيم أبو سليم، فى الشخصية السودانية، دار جامعة الخرطوم، 1979م، ص 44 - 63.
- (25) عز الدين إسماعيل، الزبير باشا ودوره فى السودان فى عصر الحكم المصرى، سلسلة تاريخ المصريين رقم 113، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص 304 - 305.
- (26) عثمان عمر فضل، العلاقات بين دارفور والحكم التركى المصرى 1821 - 1884، ماجستير غير منشورة معهد الدراسات الإفريقية جامعة القاهرة 1983، ص 184 - 187. - هولت، ب.م.، المهديّة فى السودان، ترجمة جميل عبيد، دار الفكر العربى، القاهرة 1987، ص 62 - 75 إبراهيم فوزى باشا، السودان بين يدى غردون وكتشتر، ج 1، القاهرة 1393هـ، ص 255 - 290.

Macmichael, H.A., The Sudan, Ernest Benne Limited. London, 1954, p.p 37-41-48-62.

- (27) محمد محمود الرشيدى، مرجع سابق، ص 14 – 15.
- (28) نفس المرجع، ص 19 – 33.
- (29) نفس المرجع، ص 14 – 15.
- (30) نفسه، ص 19 – 30.
- (31) نفسه، ص 30 – 33.
- (32) هو على دينار بن زكريا بن السلطان محمد فضل، ولد ما بين عامى 1865 – 1870 فى قرية الشوية قرب الملمة جنوب غرب نيالا، وهو الذى أصبح سلطاناً فعلياً على دارفور منذ 1898 وحتى 1916.
- (33) محمد محمود الرشيدى، مرجع سابق، ص 29 – 33.
- (34) محمد إبراهيم أبو سليم، فى الشخصية السودانية، مرجع سابق، ص 44 – 63.
- (35) المركز السودانى للخدمات الصحفية، دارفور: الحقيقة الغائبة، كتاب صادر عن المركز على موقعه على الانترنت ([www.smcsndan.net](http://www.smcsndan.net)).
- (36) لم نر أن من المناسب هنا أن نستطرد فى الحديث عن الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى من عام 1988 إلى عام 1956 لسببين أساسيين (أولهما) أن الدراسة تركز هنا على بحث الوضع الاجتماعى فى دارفور وعلاقته بالتزاع القائم فى هذا الإقليم حالياً من خلال دراسة التشكيلة القبلية فى هذا الإقليم (وثانيهما) أن لى دراستين سابقتين خلال فترة الحكم الثنائى الحكم الإنجليزى 1924 – 1936، ماجستير غير منشورة بكلية الآداب جامعة عين شمس عام 1983 (2) نفس المؤلف، التطور الاقتصادى والاجتماعى فى السودان 1930 – 1956، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1987.
- ولزيد من التفاصيل راجع أيضاً:
- مكى شيبكة، السودان فى قرن 1818 – 1919، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1947 ص 83 – 85.
- ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث، الدار السودانية للكتب، الخرطوم 1975، ص 223 – 234.
- محمد عمر بشير، الحركة الوطنية فى السودان، 1900 – 1969 ترجمة هنرى رياض وآخران، الدار السودانية، الخرطوم 1980، ص 66 – 75.

- المعتصم أحمد الأمين، ورقة بعنوان: "أزمة دارفور - المقدمات - النتائج - الحلول" مقدمة في المنتدى العلمي لمستقبل وادي النيل حول أزمة دارفور، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم في 13 - 14 ديسمبر 2004.

(37) ف. كيروف وآخرون، موجز تاريخ مجتمعات ما قبل الرأسمالية، ترجمة محمد يوسف الجندي، الشركة المصرية للطباعة، القاهرة، بدون تاريخ، ص 20 - 21.

(38) طيب تيزني، مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بداياته حتى المرحلة المعاصرة في 12 جزء، الجزء الثاني، الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى، دمشق 1981، ص 36 - 37.

(39) ساطع الحصري، أبحاث مختارة عن القومية العربية، دار المعارف، القاهرة، 1964 ص 39.

(40) طيب تيزني. مرجع سابق، ص 40 - زكي البحيري، التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان، ص 315 - 320.

(41) نفس المرجعين والمكان، ص 315.

(42) محمد إبراهيم أبو سليم، في الشخصية السودانية، ص 12 - 13.

(43) منصور خالد، السودان - أهوال الحرب، مرجع سابق، ص 67.

(44) مدثر عبد الرحيم، الإمبريالية والقومية في السودان، ص 8 - 17.

(45) إبراهيم بوشة أحمد (الأستاذ الجامعي ورئيس مجلس أمناء شبكة منظمات دارفور الطوعية) ورقة بعنوان: "أزمة دارفور والأرض - ودعة نموذجاً" مقدمة في المنتدى العلمي لمستقبل وادي النيل حول أزمة دارفور، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة بالاشتراك مع مركز البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم في 13 - 14 ديسمبر 2004م، ملحق مسودة المبادرة الموحدة.

(46) عبد الوهاب الطيب البشير، ورقة بعنوان: "أوضاع النازحين في دارفور في ضوء ديناميات الصراع بين الدولة والمعارضة والمجتمع الدولي" مقدمة في المنتدى العلمي لمستقبل وادي النيل حول أزمة دارفور، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة بالاشتراك مع مركز البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم في 13 - 14 ديسمبر 2004م، ملحق مسودة المبادرة الموحدة.

(47) إبراهيم بوشة أحمد، مرجع سابق، ص 15.

(48) عبد الفتاح مقلد، مرجع سابق، 170 - 172.

- (49) محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 226 - 228 - 238.
- (50) نفس المرجع، ص 232.
- (51) نفس المرجع، ص 232 - 233 - عبد الغفار محمد أحمد، شريف حرير، المجتمع الريفي السوداني، ص 64.
- (52) محمد إبراهيم أبو سليم، في الشخصية السودانية، ص 36 - 42 - محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 228 - 230 - 238 - نعوم شقير، تاريخ السودان، ص 62.
- (53) على أبو زيد على، ورقة بعنوان: "النزاعات القبلية في ولايات دارفور" مقدمة في المنتدى العلمى لمستقبل وادى النيل حول أزمة دارفور، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة، بالاشتراك مع مركز البحوث والدراسات الإفريقية جامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم في 13 - 14 ديسمبر 2004م، ص 6.
- (54) محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 236 - 240. - عبد الغفار محمد أحمد، شريف حرير، المجتمع الريفي السوداني، ص 64 - 65. - نعوم شقير، مرجع سابق، ص 62.
- Mac Michael. H.A, A History of the Arabs in the Sudan, Cambridge University Press, 1922 PP. 278 - 279.
- (55) محمد بن عمر التونسي، كتاب تحييد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، حققه وكتب حواشيه، خليل محمود عساكر، ومصطفى محمد مسعد، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الدارة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1965، هامش ص 139 - وقد تنقل التونسي بين تونس ومصر ودارفور، وعاش في مجتمع دارفور لمدة سبع سنوات في عهد السلطان محمد الفضل بن عبد الرحمن (حكم ما بين 1802 - 1839)، وكتب التونسي كتابه الشهر هذا عن رحلته في دارفور، واستقر أخيراً في مصر حيث إن والدته مصريه، وعمل لدى إدارة محمد على. - Mac Michael, H.A, Op. cit. PP. 293.
- (56) محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 240 - 245.
- Mac Michael, H.A, Op. cit. PP. 307 - 315.
- (57) عبد الوهاب الطيب بشير، مرجع سابق، ص 6. - التونسي، مصدر سابق، هامش، ص 100، 139.
- (58) محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 221. - التونسي، تحييد الأذهان، مصدر سابق، ص 283.
- Mac Michael, H.A, Op. cit. PP. 262 - 263.

- (59) عبد الوهاب الطيب بشير، مرجع سابق، ص 283.
- (60) محمد بن عمر التونسي، مصدر سابق، ص 137.
- (61) مصطفى محمد خوجلي، مرجع سابق، ص 11. عبد الفتاح مقلد، مرجع سابق، ص 171 - 172. سيد حامد حريز، ورقة بعنوان: "دارفور انثروبولوجيا - البعد الإثنى للمصراع السياسي" مقدمة في المنتدى العلمي لمستقبل وادي النيل حول أزمة دارفور، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، بالمشاركة مع مركز البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة إفريقيا العالمية في 13 - 14 ديسمبر 2004م، ص 6. - عبد الوهاب الطيب بشير، مرجع سابق، ص 5.
- Mac Michael, H.A, Op. cit. PP. 71 - 79.
- (62) مصطفى خوجلي، مرجع سابق، ص 11 - سيد حامد حريز، مرجع سابق، ص 6.
- (63) التونسي، مصدر سابق، هامش ص 100. عبد الوهاب الطيب بشير، مرجع سابق، ص 6.
- (64) محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 281 - 282. - نعوم شقير، مرجع سابق، ص 48. التونسي، مصدر سابق، هامش، ص 63.
- Mac Michael, H.A, Op. cit. PP. 38.
- (65) محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 268 - 271 - 274.
- (66) التونسي، مصدر سابق، هامش، ص 126.
- Mac Michael, H.A, Op. cit. PP. 58 - 60.
- (67) التونسي، مصدر سابق، هامش، ص 136.
- Mac Michael, H.A, Op. cit. PP. 84 - 85.
- (68) مصطفى خوجلي، مرجع سابق، ص 11 - 12.
- (69) محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 270 - 274. مدير دارفور، قصة الإنسان والأرض، مصدر سابق.
- (70) محمد عوض محمد، مرجع سابق ص 227، نعوم شقير، مرجع سابق، ص 47. التونسي، مصدر سابق، هامش ص 54، 102.
- Mac Michael, H.A, Op. cit. PP. 80 - 81.
- (71) علي أبو زيد علي، مرجع سابق، ص 6. - عبد الوهاب الطيب بشير، مرجع سابق، ص 5.
- (72) الأهرام 4، 11 أغسطس 2004 - محمد عوض محمد، مرجع سابق، ص 266.
- (73) صلاح فضل، مشكلة دارفور والسلام في السودان، كتاب الجمهورية، القاهرة 2004، ص 32 - 33.

(74) الأهرام، 4 أغسطس 2004، مقال لأمانى الطويل بعنوان: أخطاء الترابى تهدد وحدة السودان.

(75) العربى الناصرى، 29 أغسطس 2004.

(76) الأسبوع، 27 سبتمبر 2004، مقال لخالد محمد على بعنوان: "ما يحدث فى دارفور مؤامرة صهيونية تستهدف مصر والسودان" - سيد حامد حريز، دارفور: أنثروبولوجيا البعد الاثنى والثقافى للصراع السياسى، مرجع سابق، ص 17.

(77) سيد حامد حريز، نفس المرجع، ص 17 - 18.

(78) نعوم شقير، مرجع سابق، ص 48 - سيد حامد حريز، مرجع سابق، ص 15.

(79) سيد حامد حريز، نفس المرجع، ص 14.

(80) نفس المرجع، ص 20.

(81) بنك المعلومات، تاريخ الانتخابات البرلمانية فى السودان، الخرطوم 1986، ص 36 - 70، ص 127 - 143 - زكى البحيرى، تطور الحركة الديمقراطية فى السودان، مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة، 1996، ص 405 - 406.

(82) إبراهيم بوشة أحمد، مرجع سابق، ملحق مسودة المبادرة الموحدة.

(83) محمد محمود الرشيدى، مرجع سابق، ص 4، 5. - الأهرام، 26 أغسطس 2004م مقال لأنور ماجد عشقى (سعودى) بعنوان: الأزمة السودانية وتسييس القيم.

(84) حسن نجيلة، ذكرياتى فى البادية، دار مكتبة الحياة، بيروت 1964، ص 62. - الأهرام 13 مايو 2004.

(85) محمد إبراهيم أبو سليم، فى الشخصية السودانية، مرجع سابق، ص 63 - 64.

(86) تقرر حاكم عام السودان لعام 1939م - 1941م، ص 240. كان يصدر فى نهاية كل سنة تقرير عن حاكم عام السودان، ويعرض كل تقرير سنوى من هذه التقارير لشئون الأمن العام فى السودان، والحكومة المحلية، والقضاء والمالية، والاقتصاد والتجارة والنقل والمواصلات، والزراعة والغابات والرى، والأحوال الطبية والصحية، والأشغال العمومية والتعليم، وأحوال المديرىات والأقاليم والقبائل والمدن. وكان التقرير الواحد فى حدود 300 صفحة، ويقدم إلى صاحبة الجلالة بالمملكة المتحدة وإلى الحكومة المصرية، وعنوان التقرير: "حكومة السودان - تقرير - قدمه الحاكم العام لحكومة جلالة الملكة البريطانية والحكومة المصرية" كان يطبع فى مطبعة شركة ماكور كوديل (السودان).

(87) تقرير حاكم عام السودان لعام 1984، ص 3، 4. - صلاح الدين الشامى، أرض الجزو فى غرب السودان، قيمتها كمنطقة من مناطق الرعى الشتوى وهجرة رعاة الإبل الفصلية،

حوليات كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد 24، الجزء الأول، مايو 1962م، طباعة ونشر جامعة القاهرة، 1966م، ص 91 - 102.

(88) تقرير حاكم عام السودان، لعام 1939م - 1941م، ص 245.

(89) نفس المصدر، ص 237 - 238.

(90) نفس المصدر والمكان.

(91) تقرير حاكم عام السودان، لعام 1945م، ص 261.

(92) تقرير حاكم عام السودان، لعام 1947م، ص 271 - 275.

(93) نفس المصدر، ص 271.

(94) تقرير حاكم عام السودان، لعام 1948م، ص 223.

(95) نفس المصدر ص 330.

(96) تقرير حاكم عام السودان، لعام 1949م، ص 309.

(97) نفس التقرير، 1949م، ص 312.

(98) نفس التقرير، ص 312.

(99) نفس المصدر والمكان.

(100) نفس المصدر والمكان.

(101) تقرير حاكم عام السودان، لعام 1939 - 1941.

(102) نفس التقرير، ص 236.

(103) تقرير حاكم عام السودان، لعام 1947م، ص 277.

(104) تقرير حاكم عام السودان، لعام 1949م، ص 312.

(105) القبائل المذكورة - لها فروع في السودان وفروع أخرى في تشاد.

(106) تقرير حاكم عام السودان، لعام 1939م - 1941م، ص 234 - 245.

(107) المركز السوداني للخدمات الصحفية، دارفور: الحقيقة الغائبة، كتاب صادر عن المركز

على شبكة الإنترنت مرجع سابق. [www.smcsndan.net](http://www.smcsndan.net)

(108) للباحث دراسة في سبيلها للنشر في حدود 380 صفحة بعنوان: "مشكلة دارفور -

الجذور التاريخية - الأبعاد الاجتماعية - التطورات السياسية".

## قائمة المصادر والمراجع

- تقارير حاكم عام السودان: وهى مجموعة من التقارير الصادرة عن حاكم عام السودان سنويا، وقد استخدمنا التقارير لسنوات 1939، 1941، 1945، 1947، 1948، 1949، وهو تقرير سنوى يعرض لشئون السودان فى الأمن العام والحكومة المحلية، والقضاء، والمالية، والاقتصاد والتجارة، والنقل والمواصلات، والزراعة والغابات والرى، والأحوال الطبية والصحية، والأشغال العمومية، والتعليم وأحوال المديرىات والأقاليم والقبائل والمدن، وكان التقرير الواحد فى حدود حوالى 300 صفحة، ويقدم إلى صاحبة الجلالة بالمملكة المتحدة إلى الحكومة المصرية، وعنوان التقرير: "حكومة السودان - تقرير - قدمه الحاكم العام لحكومة جلالة الملكة البريطانية والحكومة المصرية"، ويطلع باللغتين الإنجليزية والعربية وكان يطلع فى مطبعة شركة ماكور كوديل (السودان).
- بنك المعلومات السودانى، تاريخ الانتخابات البرلمانية فى السودان، الخرطوم، 1986.
- ملخص المداولات لمضابط جلسات مجلس النواب السودانى بجلسة 21، 22 فبراير 1955.
- وزارة الثقافة السودانية، مديرية دارفور - قصة الإنسان والأرض، الخرطوم، 1974.
- محمد بن عمر التونسى، تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، حققه وكتب حواشيه، د. خليل محمود عساكر، ود. مصطفى محمد مسعد، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965.
- محمد إبراهيم أبو سليم، الفور والأرض، وثائق تملك، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم، 1975.
- جريدة الأهرام، سنوات 2003 - 2005.
- جريدة الأسبوع أعداد فى سنتى 2004 - 2005.
- إبراهيم بوشة أحمد: الأستاذ الجامعى ورئيس مجلس أمناء شبكة منظمات دارفور الطوعية "ورقة بعنوان: "أزمة دارفور والأرض - ودعة نموذجا" مقدمة فى المنتدى العلمى لمستقبل وادى النيل حول أزمة دارفور، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة بالاشتراك مع مركز البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم، فى 13، 14 ديسمبر 2004.

- السيد يوسف نصر، جهود مصر الكشفية في إفريقيا في القرن التاسع عشر، ماجستير غير منشورة في التاريخ الحديث، معهد الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، 1974.
- زكى البحيرى، السودان تحت الحكم الإنجليزى 1924 - 1936، ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة عين شمس، 1983.
- زكى البحيرى، التطور الاقتصادى والاجتماعى في السودان من الأزمة العالمية حتى الاستقلال 1930 - 1956، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1987.
- زكى البحيرى، تطور الحركة الديمقراطية في السودان 1943 - 1985، مكتبة نهضة الشرق بجامعة القاهرة، 1996.
- ساطع الحصرى، أبحاث مختارة في القومية العربية، دار المعارف، القاهرة، 1964.
- سيد حامد حرير، ورقة بعنوان: دارفور إثنوبولوجيا - البعد الإثنى للصراع السياسى، مقدمة في المنتدى العلمى لمستقبل وادى النيل حول أزمة دارفور، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة بالاشتراك مع مركز البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم، في 13، 14 ديسمبر 2004.
- صلاح الدين على الشامى، أرض الجزو في غرب السودان، مستخرج من حوليات كلية الآداب جامعة القاهرة، 24، ط، مطبعة جامعة القاهرة، 1966.
- صلاح فضل، مشكلة دارفور والسلام في السودان، كتاب الجمهورية، القاهرة، 2004.
- ضرار صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث، الطبعة الثالثة، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، 1975.
- طيب تيزينى، مشروع رؤية جديدة للفكر العربى منذ بدايته وحتى المرحلة المعاصرة في 12 جزءا، الجزء الثانى الفكر العربى في بواكره آفاقه الأولى، الطبعة الأولى دمشق، 1981.
- عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، دار المعارف، الطبعة السادسة، القاهرة، 2001.
- عبد الغفار محمد أحمد، شريف حرير، المجتمع الريفى السودانى، عنصر حركته واتجاهاتها، مركز الدراسات والبحوث الإنمائية، كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، جامعة الخرطوم، 1982.
- عبد الفتاح مقلد، الإسلام والعروبة في السودان، المركز العربى للنشر والتوزيع، القاهرة 1985.
- عبد النعيم ضيفى عثمان، الأزهر ودوره في الممالك الإسلامية في إفريقيا في عصر سلاطين المالك، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ بمعهد الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، 2002.

- عبد الوهاب الطير بشير، ورقة بعنوان: "أوضاع النازحين فى دارفور فى ضوء ديناميات الصراع بين الدولة والمعارضة والمجتمع الدولى"، مقدمة فى المنتدى العلمى لمستقبل وادى النيل حول أزمة دارفور، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة بالاشتراك مع مركز البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم فى 13، 14 ديسمبر.
- عثمان عمر فضل، العلاقات بين دارفور والحكم التركى المصرى 1821 - 1884، ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، 1983.
- عز الدين إسماعيل، الزبير باشا ودوره فى السودان فى عصر الحكم المصرى، سلسلة تاريخ المصريين رقم 112، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1998.
- على أبو زيد على، ورقة بعنوان: "النزاعات القبلية فى ولايات دارفور"، مقدمة فى المنتدى العلمى لمستقبل وادى النيل حول أزمة دارفور، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، بالاشتراك مع مركز البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم فى 13 - 14 ديسمبر، 2004.
- كيروف وآخرون، موجز تاريخ مجتمعات ما قبل الرأسمالية، ترجمة محمد يوسف الجندى، الشركة المصرية للطباعة، القاهرة (بدون تاريخ).
- محمد إبراهيم أبو سليم، فى الشخصية السودانية، دار جامعة الخرطوم، 1979.
- محمد عوض محمد، السودان الشمالى سكانه وقبائله، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951.
- محمد محمود الرشيدى، دارفور تحت حكم على دينار، ماجستير غير منشورة فى التاريخ الحديث من قسم التاريخ بمعهد الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة.
- مدثر عبد الرحيم، الإمبريالية والقومية فى السودان 1899 - 1956، ترجمة المؤلف، دار النهار، بيروت، 1971.
- مصطفى خوجلى، ورقة بعنوان: "دارفور: البيئة والإنسان"، مقدمة فى المنتدى العلمى لمستقبل وادى النيل حول أزمة دارفور، بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة بالاشتراك مع مركز البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم، فى 13، 14 ديسمبر 2004.
- منصور خالد، السودان - أهوال الحرب... وطموحات السلام، قصة بلدين، دار تراث للنشر، لندن، 2003.

- نعوم شقير، تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، مطبعة المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

- Mac Michael. H.A, A History of the Arabs in the Sudan, Cambridge University Press, 1922.

- المركز السوداني للخدمات الصحفية، وقد أصدر المركز كتاب دارفور الحقيقة الغائبة، في مارس 2005، حيث تم الرجوع إلى موقعه على الشبكة الدولية للمعلومات هي:

[www.smcsudan.net](http://www.smcsudan.net)

\* \* \*

الضربة الجوية الإسرائيلية فى حرب الخامس  
من يونيو 1967  
دراسة وثائقية تحليلية

الدكتور

فطين أحمد فريد على

أستاذ التاريخ الحديث المساعد

كلية التربية - جامعة قناة السويس

obbeikan.com

## الضربة الجوية الإسرائيلية فى حرب الخامس من يونيو 1967

إنه من النادر فى التاريخ الحديث والمعاصر أن نعثر على حرب لعبت فيها السياسة دورا حاسما فى تقرير مصيرها من بدايتها وحتى قبل أن تبدأ كحرب الخامس من يونيو 1967.

وإذا كان تعريف الحرب أنها امتداد للسياسة ولكن بطريقة أخرى فإن حرب الخامس من يونيو تبدو لبعض المراقبين وكأنها سياسية كلها من بدايتها لنهايتها، والجزء العسكرى فيها كان العنصر الأقل أهمية إلا إنه العنصر الذى ترتب عليه حسم الصراع \_ والعنصر الذى ترتب عليه فداحة المأساة والهزيمة \_ بالرغم من أن الجيش المصرى كان من ضحايا هذه الحرب ولم يكن أبدا من أسبابها ولم يعط الفرصة للقتال، وكانت الضربة الجوية الإسرائيلية وتدمير الطيران المصرى من الأسباب الرئيسية فى عدم إعطاء القوات البرية والبحرية الفرصة لتحارب معركتها دفاعا عن الوطن وشرفه، ولم يهزمها عدوها ولكن قهرتها الظروف، كما لعبت قيادتها العسكرية التى لم تكن على المستوى المطلوب دوراً كبيراً فى الهزيمة النكراء التى حاقت بالجيش المصرى.

لقد تميزت بداية حرب الخامس من يونيو 1967، بهجوم جوى مفاجئ قامت به القوات الجوية الإسرائيلية ضد القواعد الجوية والمطارات والطائرات المصرية، وهو هجوم خططت له إسرائيل بعناية فائقة وتدرجت قواتها الجوية على القيام به عدة مرات وخلال أحد عشر عاما. وحقق هذا الهجوم نجاحا ساحقا ومدمرا فاق بكثير كل التوقعات التى كانت ترجوها هيئة الأركان الإسرائيلية. وكان لهذا الهجوم الجوى

المفاجئ والكبير دور حاسم إلى أقصى درجة في التأثير على مجرى الحرب فيما بعد، مبقيا القليل من الشك في النصر الإسرائيلي النهائي.<sup>(1)</sup>

### جر ماطر للحرب

في أوائل عام 1967 أعطى الرئيس ليندون جونسون تعليماته إلى المخابرات المركزية بأن قراره السياسى هو "إطلاق العنان لإسرائيل" في الشرق الأوسط، وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أكثر من جاهزة لتنفيذ هذه السياسة، كما أن رئيس قسم العمليات الخاصة فيها جيمس انجلتون اعتبر التوجيهات الرئاسية الجديدة تصديقا كاملاً على المنهج الذى كان ينادى به في مواجهة الرئيس جمال عبد الناصر منذ سنة 1956، وأكد ذلك في أوائل 1966، والآن أصبحت الأمور ملك يديه لينفذ ما كان ينادى به ويحقق نتائجه التى كان ييشر بها.<sup>(2)</sup>

وقام انجلتون بفتح كل أبواب المخابرات المركزية الأمريكية لإسرائيل، فقد أتاح لها كل موارد المعلومات التى كانت تحت تصرف المخابرات الأمريكية. كذلك أتاح لها إمكانية حل معظم مفاتيح الشفرة المصرية المدنية والعسكرية، ووفر لها كذلك إمكانيات الحرب الإلكترونية من التشويش إلى الإعاقة، وإلى ما هو أكثر من ذلك بكثير. وزاد وأضاف جيمس انجلتون على ذلك أنه قام في أوائل 1967 بإجراء اتصالات مع إدارة المخابرات البريطانية M.I.6، ونتيجة لهذه الاتصالات فإن إسرائيل حصلت على كل أوراق الخطة البريطانية للضرب الجوى الاستراتيجى الذى قامت به القاذفات البريطانية ضد الطيران المصرى في عدوان 1956. وإضافة إلى هذا فإن انجلتون أعد بالتعاون مع إسرائيل قائمة جاهزة بأسماء مائة وأربعين طياراً من الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا وعدد من الدول الأوروبية - يكونون جاهزين ضمن السلاح الجوى الإسرائيلى إذا ما نشأت ظروف أرغمت إسرائيل على شن الحرب.<sup>(3)</sup>

(1) أوبالانس، إدجار: الحرب الثالثة بين العرب وإسرائيل يونيو 1967، ترجمة مازن البندك، ص 43.

(2) Green, Stephen, Taking Sides, PP.215-222, See Also

محمد حسنين هيكل، انفجار 1967، ص ص 497-498.

(3) محمد حسنين هيكل، المرجع السابق، ص ص 498-499.

وطوال الشهور الأولى من عام 1967 كانت الجبهة السورية مع إسرائيل قد اشتعلت بنيران متقطعة، وكانت اشتباكات المدفعية وغارات الطيران وتسلسل وحدات الفدائيين الفلسطينيين من ناحية، ووحدات الكوماندوز الإسرائيلية من ناحية أخرى - تتزايد مع كل يوم. وأخذ قادة إسرائيل يهددون سوريا ويتعدونها بضربة انتقامية كبيرة، وفي يوم 5 إبريل 1967، وقف رئيس الوزراء الإسرائيلي ليفى أشكول في الكنيست الإسرائيلي يعلن أمام المجلس " أن إسرائيل قررت أن ترد بالطريقة التي تراها ملائمة على سوريا، وأن الطريق إلى دمشق مفتوح " (4).

وفي يوم 7 أبريل 1967 قام سلاح الطيران الإسرائيلي بهجوم جوى كبير على الأراضي السورية خسرت فيه سوريا ما لا يقل عن ست طائرات مييج. ومع ذلك كان قادة الجيش الإسرائيلي وأنصاره المتطرفون غير راضين، لأنه على الرغم من معاقبة سوريا والأردن فإن عبد الناصر لم ينل عقابه بعد. ولذلك صمموا على استدراجه لتحطيم صورته كزعيم للعرب. (5)

ولجر عبد الناصر إلى المعركة شرع القادة الإسرائيليون فيما يبدو عن عمد وبعلم الرئيس جونسون بل وبالتنسيق مع أجهزة المخابرات الأمريكية في إقناع الروس، ومن ثم المصريين بأن هجوماً ضخماً يوشك أن يقع على سوريا، وباستخدام طريقة ذكية تجمع بين تسريب محسوب للأبناء تستفيد منها السفارة السوفيتية في تل أبيب وإذاعة رسائل لاسلكية زائفة لتلتقطها السفن الحربية السوفيتية في البحر المتوسط، ويتم نقلها بعد ذلك إلى القاهرة. وبالفعل حدث ذلك فقد وصل أنور السادات إلى موسكو يوم 28 أبريل 1967 في طريقه إلى زيارة كوريا الشمالية حيث التقى يوم 29 أبريل 1967 برئيس وزراء الاتحاد السوفيتي كوسيجن الذى وضح لأنور السادات أن إسرائيل تستفز سوريا وتحشد قواتها ضدها. (6)

(4) محاضر الكنيست، جلسة 5 أبريل 1967، بيان رئيس الوزراء أشكول يوم 5 أبريل 1967، ص ص 553-559.

(5) ناتنج، أنتوني: ناصر، ص ص 444-445، انظر كذلك محمود رياض، مذكراته - البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط، ص 36.

(6) وثائق القصر الجمهورى بعبدين، محضر جلسة المباحثات بالكرملين بين أنور السادات وإليكسى كوسيجن يوم 29 أبريل 1967، ص 8، انظر كذلك ناتنج، أنتوني، ناصر، ص 447، سافران، ناداف: من حرب إلى حرب المواجهة العربية - الإسرائيلية 1948-1967، القسم الثاني، ترجمة المخابرات العامة، ص 285.

وفي مساء 10 مايو التقطت المخابرات الأمريكية برقية سرية تم حل شفرتها من السفير السوفيتى بالقاهرة بوجيدايف موجهة لوزارة الخارجية في موسكو، وكانت أهم فقرة تنص على: "لقد أبلغنا اليوم السلطات المصرية بالمعلومات المتعلقة بحشود القوات الإسرائيلية على الحدود الشمالية التى تهدف إلى القيام بهجوم مفاجئ ضد سوريا، وقد نصحننا حكومة الجمهورية العربية المتحدة باتخاذ التدابير الضرورية في هذا الصدد".<sup>(7)</sup>

وواصلت إسرائيل تهديداتها لسوريا، ففي 12 مايو 1967 أعلن إسحاق رابين رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى "أنا سوف نشن هجوماً خاطفياً على سوريا وسنحتل دمشق لنسقط الحكم فيها ثم نعود"، كما أعلن ليفى أشكول أن "إسرائيل مستعدة لاستخدام القوة ضد سوريا"<sup>(8)</sup>، ألم يكن هذا التصريح بمثابة إشارة واضحة لنوايا إسرائيل في قلب نظام الحكم السورى؟!<sup>(9)</sup>

وعندما شعرت سوريا بنوايا إسرائيل العدوانية وهدفها المبيت قامت في 13 مايو بإبلاغ أعضاء مجلس الأمن بأن التهديدات الإسرائيلية هى تمهيد للعدوان الإسرائيلى ضد سوريا.<sup>(10)</sup> ونقلت الحكومة السورية إلى مصر معلومات على درجة كبيرة من السرية قالت إنها استقتها من مصدر موثوق به مؤداها أن إسرائيل تنوى الهجوم على سوريا يوم 17 مايو.<sup>(11)</sup>

كما أرسل اللواء أحمد سويدان رئيس أركان الجيش السورى إلى الفريق أول محمد فوزى رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية، يبلغه أن إسرائيل استدعت

(7) بارزوهار، ميشيل: التاريخ السرى لحرب إسرائيل، القسم الأول، ترجمة الهيئة العامة للاستعلامات رقم 664، ص ص 3-4.

(8) وثائق الخارجية المصرية، إدارة الصحافة، الموجز اليومي للبرقيات الصحفية عن يوم 13 مايو 1967، انظر كذلك رابين، إسحاق - مذكراته، الاستعلامات الترجمة العربية، ص ص 86-88.

(9) بارزوهار، ميشيل: التاريخ السرى لحرب إسرائيل، القسم الأول، ترجمة الاستعلامات رقم 664، ص 16.

(10) وثائق الخارجية المصرية، إدارة الصحافة، موجز لأهم الأنباء الصحفية والإذاعية عن يوم 13 مايو 1967.

(11) أمين هويدى - الفرص الضائعة، ص ص 67-68، انظر كذلك محمد حسنين هيكل - انفجار 1967، ص 447.

القسم الأعظم من احتياطياتها وتحشد جزءا كبيرا من قواتها المسلحة أمام الجبهة السورية تقدر بحوالى 15 لواء، وأنها تنوى الهجوم على سوريا وسوف تستخدم فيه قوات المظليين بكثافة.<sup>(12)</sup>

كانت الصورة واضحة في ذهن عبد الناصر، فسقوط النظام في سوريا نتيجة لعمل مباشر من إسرائيل سوف يؤثر على العراق، وبالتالي فإن الدور سوف يكون على بغداد بعد الفراغ من دمشق، وبعد ذلك فإن الجبهة الشرقية في المواجهة مع إسرائيل سوف تنهار. وإذا حدث ذلك فإن مصر سوف تجد نفسها في عزلة حقيقية لأنها ستكون وحدها أمام إسرائيل، ومن بدأ بسوريا فسوف يثنى بمصر.<sup>(13)</sup>

وفي صباح 14 مايو اجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة المشير عبد الحكيم عامر، حيث توصل المجلس إلى مجموعة من الإجراءات تتلخص في رفع حالة الاستعداد في القوات المسلحة، اعتباراً من الساعة الثانية عشرة ظهر اليوم نفسه وإتمام التعبئة العامة للقوات المسلحة وحشد القوات في جبهة سيناء قبل يوم 17 مايو، مع تجهيز الخطط التعرضية والدفاعية المشتركة المقررة بالاتفاق مع القيادة العامة السورية. وقد وافق الرئيس عبد الناصر على كل هذه الإجراءات بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة.<sup>(14)</sup>

بعد ذلك حضر المشير عامر اجتماعاً محدوداً في منزل الرئيس جمال عبد الناصر حضره نواب رئيس الجمهورية وصلاح نصر مدير المخابرات العامة. وقد عرض صلاح نصر مجموعة من التقارير تؤكد اعتزام إسرائيل الهجوم على سوريا. ثم عرض تقارير أخرى عديدة تؤكد هذه المعلومات التي أيدتها المخابرات اللبنانية، كما أيدتها المخابرات السورية. وكان يكفى من جهة أخرى إلقاء نظرة على الصحف الإسرائيلية التي كانت مليئة بالتهديدات والتحذيرات الصادرة من المسئولين الصهيونيين. وفي نهاية الاجتماع أصدر

(12) وثائق وزارة الحربية، وثائق حرب يونيو 1967، إشارة رقم 993 مسجلة بالقيادة العامة تحت رقم 6415/130 بتاريخ 13/5/1967.

(13) محمد حسنين هيكل، انفجار 1967، ص ص 448-449.

(14) وثائق وزارة الدفاع، وثائق حرب 1967 - غير منشورة - وزارة الحربية، تعليقات عمليات حربية صادرة بتاريخ 14 مايو 1967 موقعة بتوقيع الفريق أول محمد فوزى رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة.

الرئيس عبد الناصر تعليماته إلى المشير عبد الحكيم عامر لكى ينظم فوراً مناورة رادعة ضد إسرائيل في سيناء بحيث تهدد صراحة حدود إسرائيل الجنوبية فيصبح من المستحيل عليها القيام بأية مبادرة في الشمال.<sup>(15)</sup>

وفي الوقت الذى كانت الأمور في إسرائيل تمضى نحو قرار الحرب الهجومية، كانت الأمور في مصر تمضى نحو تفادى القيام بهذه الحرب مهما كان الثمن. وكان هذا هو رأى القيادة السياسية ممثلة في الرئيس جمال عبد الناصر، وتلك هى مسئوليتها التاريخية.<sup>(16)</sup>

وفي الحقيقة أن رأى المؤسسة العسكرية المصرية كان ماثلاً لرأى المؤسسة الإسرائيلية، وهو أنه إذا كان لا مفر من الحرب، فلتكن حرباً هجومية. وبمعنى آخر أنه إذا كان الاحتفاظ بالمكاسب السياسية الممثلة في إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية، وحرمانها من منفذها إلى البحر الأحمر، من شأنه حتماً أن يؤدى إلى الحرب، فلتكن هذه الحرب حرباً هجومية تكون المبادرة فيها في يد مصر.<sup>(17)</sup>

لقد أوضح جمال عبد الناصر في اجتماعه بالطيارين المصريين في قاعدة أبو صوير الجوية ظهر يوم 22 مايو 1967 أن مصر لا تستطيع أن تقوم بالهجوم أولاً خشية تدخل الولايات المتحدة إلى جانب إسرائيل. وفي هذا الاجتماع أعلن عبد الناصر قرار إغلاق مضائق تيران في حضور زكريا محي الدين وحسين الشافعى وعلى صبرى والمشير عبد الحكيم عامر نواب الرئيس والفريق أول محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية وقادة وضباط القوات المسلحة.<sup>(18)</sup>

وكان إغلاق مضائق تيران رداً على جميع تهمة التراخى بل والتواطؤ مع الصهيونية التى

(15) بارزوهار، ميشيل، المرجع السابق، ص ص 17-19، انظر كذلك رودنسون، مكسيم-إسرائيل والرفض العربى، ص ص 125-154،

Home, Douglas, The Arabs On Israel, P.83.

(16) عبد العظيم رمضان: تحطيم الآلهة - قصة حرب يونيو 1967، ص 71.

(17) المرجع السابق، ص ص 71-72.

(18) وثائق وزارة الحربية المصرية - القيادة العليا للقوات المسلحة، محضر اجتماع الرئيس جمال عبد الناصر بالقيادة والضباط بقاعدة أبو صوير الجوية ظهر يوم 22 مايو 1967.

كانت توجه إلى ناصر - بل والتي كانت التلميحات تكثر بشأنها في العالم العربي كله وفي مصر نفسها، ومحا الزعيم ناصر بذلك آخر أثر لحملة السويس واستعداد لمصر سيادتها التامة على جميع أراضيها.<sup>(19)</sup>

وبعد عودة الرئيس جمال عبد الناصر من لقاء أبوصوير اجتمع بالسفير السوفيتي ديمتري بوجيدايف في الساعة الثامنة والنصف من مساء 22 مايو بمنزله، حيث أبلغ السفير أنه قد أعلن منذ ساعات قفل خليج العقبة، ثم طلب من السفير أن ينقل للقادة السوفيت رسالة منه تلخص في أن مصر تعتبر الاتحاد السوفيتي عاملاً رئيسياً مؤثراً في كل ما حدث في المنطقة الآن، لأنه كان أول من أكد لمصر عن الحشود الإسرائيلية ونتج عن ذلك تحريك عجلة الحوادث، ولذا فإن مصر تريد أن تكون هذه الحقائق أمام القادة السوفيت لكي يرتبوا عليها تصرفاتهم في الأيام القادمة. ثم طلب الرئيس عبد الناصر توجيه تحذير سوفيتي للولايات المتحدة الأمريكية للتوقف عن تأييد إسرائيل في حملتها العدوانية على العرب.<sup>(20)</sup>

وبدأت الإدارة الأمريكية في القيام بنشاط كبير وأصدر الرئيس الأمريكي ليندن جونسون بياناً علنياً قوياً يفيد بأن الولايات المتحدة تعتبر الخليج ممراً مائياً دولياً، وتشعر بأن فرض حصار على الملاحة الإسرائيلية هو أمر غير مشروع، ويحمل في طياته كارثة كامنة تهدد قضية السلام. كما أن حق الملاحة الحرة البريئة في الممر المائي الدولي يشكل اهتماماً رئيسياً للمجتمع الدولي.<sup>(21)</sup> وكانت التزامات الولايات المتحدة تجاه الوضع الدولي للمضائق واضحة وشعرت إسرائيل بأنها تستطيع الاعتماد على مساندة الولايات المتحدة لعمل تقوم به من أجل الإبقاء على المضائق مفتوحة.<sup>(22)</sup>

(19) رودنسون، مكسيم: إسرائيل والرفض العربي، ص ص 158 - 159.

(20) وثائق القصر الجمهوري بعبايدن - غير منشورة - محضر اجتماع الرئيس جمال عبد الناصر بالسفير السوفيتي بالقاهرة المستر ديمتري بوجيدايف بمنزل الرئيس بمنشية الكبرى الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم 22 مايو 1967

(21) Department of state, section of official publications Issued by department of state on june 12, 1967, p.870, see also, Bar zohar, Michael, embassies in Irisis, p.60

(22) محمد فوزي: حرب الثلاث سنوات، ص 82، انظر كذلك أمين هويدى: مع عبد الناصر ص 245، سيجيف، صموئيل: حرب الستة أيام، ص ص 52-53.

Quandt, William B, Decade of Decisions American policy Toward the Arab- Israel conflict 1967, p. 76.

إلا أن فرنسا بقيادة الجنرال ديغول رأت أن إغلاق المضائق لا ينطوي على اعتداء خطير على إسرائيل لأن ديغول ومعه الحكومة الفرنسية كانا يعرفان جيداً أن عدد السفن الإسرائيلية التي تستخدم خليج العقبة قليل جداً. لذلك فإن إغلاق المضائق لا يبرر إذن القيام بأعمال حربية. أما فيما يتعلق بحق إسرائيل في مرور سفنها في المضائق فإن هذه المسألة يمكن حلها عن طريق محكمة العدل الدولية أو عقد اجتماع بين الدول الأربع الكبرى التي تستطيع وحدها أن تفرض حلها على الأطراف المتنازعة.<sup>(23)</sup>

وفي مساء 25 مايو حضر الرئيس جمال عبد الناصر مؤتمراً عسكرياً عقده المشير لقادة أفرع القوات المسلحة برية وبحرية وجوية ورئيس أركان حرب القوات المسلحة ورئيس هيئة العمليات وقائد جبهة سيناء وقائد الجيش الميداني ومدير المخابرات الحربية، وحضر المؤتمر أيضاً زكريا محيي الدين وأنور السادات، وعرض في هذا المؤتمر فكرة الخطة التعرضية الهادفة إلى عزل منطقة إيلات والاستيلاء عليها.<sup>(24)</sup>

وبعد عرض فكرة الخطة التعرضية ظهر عدم الاقتناع على الرئيس جمال عبد الناصر بالنسبة للهدف المرجو من هذه العملية التعرضية المحدودة ومدى الكسب الذي ستحصل عليه القوات المسلحة، وتساءل: هل مثل هذه العملية تتساوى من حيث النتائج مع سقوط غزة مثلاً في يد العدو الإسرائيلي؟. ثم لفت النظر إلى أهمية قطاع غزة، وأن سقوطه يعنى الكثير بالنسبة لمصر ويؤثر على هيبتها بدرجة كبيرة، وأنه يرى أن أضعف نقطة في النظام الدفاعي هي هذا القطاع، وأنه من السهل أن يقع في يد الجيش الإسرائيلي، إذ إن القوات المخصصة له أضعف من أن تقف أمام أى هجوم، وأنه يرى ضرورة تقوية هذا القطاع بقوات أكثر وذات كفاءة قتالية مناسبة حتى تجبر إسرائيل على التفكير أكثر من مرة لو راودتها نفسها على مهاجمة القطاع، ثم أشار الرئيس على الخريطة نحو "شرم الشيخ"،

(23) بارزوهار، ميشيل: التاريخ السري لحرب إسرائيل، القسم الثاني، الترجمة العربية رقم 665، الهيئة العامة للاستعلامات، ص 4.

(24) وثائق وزارة الدفاع، وثائق حرب 1967، ملف بدون رقم خاص باجتماعات الرئيس جمال عبد الناصر بالقادة العسكريين خلال أزمة حرب 1967، اجتماع الرئيس بالقادة العسكريين بمقر القيادة العامة بمدينة نصر مساء 25 مايو 1967، انظر كذلك محمد فوزي، مذكراته، ص ص 113-114، عبد المحسن مرتجي، مذكراته، ص 79. والفريق عبد المحسن مرتجي حضر هذا المؤتمر وكان يشغل منصب قائد الجبهة وقائد القوات البرية.

وقال: هذه أيضا ينقصها القوات خصوصا الأسلحة المضادة للدبابات، وأكد على ضرورة تأمين المرتفعات الغربية لمنطقة شرم الشيخ واحتلال الطور واتخاذ جميع الإجراءات الأخرى التي تضمن صمودها، والقضاء على أى قوات إسرائيلية معادية قد تهاجمها... وأضاف عبد الناصر بأنه إذا حاولت السفن المرور من مضيق العقبة من الممر المجاور للأراضي السعودية فلا نتعرض لها لأننا سنتخذ من هذا المرور مادة للدعاية اللازمة... ثم نوقش تلغيم هذا الممر، ثم عدل عن الفكرة بسبب الخسائر المتوقعة.<sup>(25)</sup>

وفي هذا المؤتمر ظهرت نوايا الرئيس جمال عبد الناصر بالنسبة للضربة الأولى بصفة أكيدة.. إذ قال أعتقد أن الضربة الأولى ستوجهها إسرائيل نحو قواتنا الجوية بهدف الحصول على السيطرة الجوية، ويجب أن نستعد لها. فتدخل الفريق أول محمد صدقي محمود قائد القوات الجوية في ذلك الوقت قائلاً: إن منظرنا سيختلف كثيراً فيما لو تركنا المبادأة للعدو، وأنا أستصوب أن نكون البادئين بالضربة لانتراع السيطرة الجوية منهم... فرد الرئيس جمال حاسماً الموضوع: إننا اتخذنا قراراً سياسياً بأن لا نكون البادئين بالضرب وعليكم أنتم تفادى ضربة العدو الأولى.<sup>(26)</sup>

بعد انتهاء المؤتمر تم لقاء بين الرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر منفردين في مكتب الأخير بالقيادة العامة للقوات المسلحة، خرج على أثره المشير ليصدر أوامره بإلغاء توجيهاته السابقة والأمر الإنذارى الذى كان قد أصدره لقائد القوات الجوية للاستعداد لتنفيذ الخطة الجوية "أسد"، وذلك بعد مرور ساعتين تقريباً من الإصدار الأول. ويبدو أن المشير اقتنع بتحليل الرئيس السياسى فى الاجتماع المغلق بينهما.<sup>(27)</sup>

(25) وثائق حرب 1967، المصدر السابق، انظر كذلك عبد المحسن مرتجى، المصدر السابق، ص ص 79-80.

(26) وثائق وزارة الدفاع، اجتماع الرئيس عبد الناصر بالقادة العسكريين مساء 25 مايو 67، انظر كذلك عبد المحسن مرتجى، مذكراته، ص ص 80-81.

(27) محمد فوزى: مذكراته - حرب الثلاث سنوات، ص 114، انظر كذلك عبد المحسن مرتجى، المصدر السابق، ص 81.

## اجتماع القيادة السياسية العسكرية العليا مساء يوم 2 يونيو

كان أهم الاجتماعات التي تمت بمكتب المشير عبد الحكيم عامر، بالدور السادس من مبنى القيادة العامة بضاحية مدينة نصر. وشهد هذا الاجتماع الرئيس عبد الناصر والمشير عامر وحسين الشافعي وزكريا محيي الدين نواب رئيس الجمهورية وأنور السادات رئيس مجلس الأمة وشمس بدران وزير الحربية وقادة الأفرع الرئيسية الفريق أول صدقي محمود قائد القوات الجوية والفريق أول سليمان عزت قائد القوات البحرية والفريق صلاح محسن قائد الجيش الميداني والفريق أنور القاضي رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة والفريق أول محمد فوزي رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة ومدير ومكتب المشير عبد الحكيم عامر جميعهم ولم يحضره الفريق أول عبد المحسن مرتجى قائد القوات البرية وقائد جبهة سيناء.<sup>(28)</sup>

بدأ الرئيس جمال عبد الناصر الحديث محلاً الموقف السياسي العالمي، ثم الموقف السياسي والعسكري داخل إسرائيل. كما أشار إلى الرأي العام العالمي، وخص بالذكر اتجاه الولايات المتحدة من حيث احتمال تقديمها مساعدة مباشرة لإسرائيل في حالة تعرض أمنها العسكري للخطر.<sup>(29)</sup>

وأنهى الرئيس جمال عبد الناصر حديثه التحليلي بالتأكيد على قيام إسرائيل بالضربة الأولى الوقائية بعد أن أنهت إجراءاتها الداخلية المعتادة، وأشار في هذا الصدد إلى تجربة حرب 1956، وتوقع أن تبدأ الحرب خلال يومين، أو ثلاثة على الأكثر، أى في يوم 4 أو 5 يونيو، إلا أنه عاد فأكمل حديثه الذي كان أقرب إلى تأكيد إنذارى، بأن إسرائيل ستبدأ هجومها يوم 5 يونيو.<sup>(30)</sup>

(28) وثائق وزارة الدفاع المصرية، ووثائق حرب 1967 غير منشورة، ملف بدون رقم خاص باجتماعات الرئيس جمال عبد الناصر بالقيادة العسكريين خلال أزمة حرب 1967، اجتماع الرئيس جمال بالقيادة العسكريين بمكتب المشير عبد الحكيم عامر بمبنى القيادة العامة يوم الجمعة 2 يونيو 1967، وقد حضر الرئيس جمال عبد الناصر ثلاثة اجتماعات مع القيادة العسكرية الأول كان يوم 25 مايو 1967 والثاني يوم 28 مايو 1967 والثالث والأخير كان يوم 2 يونيو 1967.

(29) المصدر السابق.

(30) المصدر السابق.

وقد تحول الحديث بعد ذلك إلى تفصيل إجراءات الحرب الوقائية وحتمية قيام إسرائيل بالضربة الأولى، ثم حدث نقاش بين الرئيس جمال عبد الناصر والفريق أول صدقي محمود، انحصر في الخسائر المحتملة لقواتنا الجوية وإمكانية توفير القدرة لها لشن ضربة مضادة، وقد قدر الفريق أول صدقي محمود الخسائر المتوقعة في القوات الجوية من 15 إلى 20 في المائة، لكنه قال: إن هذا الإجراء يعنى فقد المبادأة من جانبنا، وربما أدى هذا إلى تكسيح قواتنا الجوية.<sup>(31)</sup>

تطورت المناقشة التي اشترك فيها الرئيس والمشير والفريق أول صدقي محمود إلى استحسان ملاقاتة الضربة الجوية من إسرائيل أولاً، بدلاً من فقد عطف العالم وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية والتي قدر الرئيس عبد الناصر احتمال دخولها الحرب إلى جانب إسرائيل، في حالة قيام مصر بتوجيه الضربة الأولى لإسرائيل، كما إنها ستقوم بتسجيل وفضح اعتداء مصر على إسرائيل، وما سيترتب على ذلك من موقف سيء بالنسبة لمصر عالمياً.<sup>(32)</sup>

وفي نهاية المناقشة تم الاتفاق على اتخاذ الإجراءات الوقائية الضرورية في القوات الجوية المصرية للتقليل من تأثير الضربة الجوية الأولى من إسرائيل، وتوفير القدرة لها لشن ضربة جوية مضادة، وهي العملية أو الخطة المجهزة لهذا الغرض - الخطة فهد.<sup>(33)</sup>

ويذكر الفريق أول محمد فوزى، أن المشير عبد الحكيم عامر وافق على ذلك مصدراً وأمره للفريق أول صدقي محمود باتخاذ إجراءات تأمين القوات الجوية ضد الضربة الجوية الأولى، خصوصاً وأن واجب القوات المصرية أصبح دفاعياً بشكل عام وإن عجز 20٪ من الضربة الأولى ونحارب إسرائيل أفضل من أن نبدأ الضربة الأولى ونحارب أمريكا وإسرائيل معاً إلا أن المشير لاحظ علامات الضيق على الفريق أول صدقي محمود، فتعمد اختصار الجلسة على ما تم من مناقشة، مما لفت أنظار الحاضرين. فقد كان الجميع ينتظرون دور المشير نفسه في الحديث. لكن الرئيس عبد الناصر أنهى الاجتماع بتأكيد على نية إسرائيل في شن هجومها صباح يوم 5 يونيو، وقال إنه يعلم تماماً الخطوات التي

(31) المصدر السابق.

(32) المصدر السابق.

(33) المصدر السابق.

تتخذها إسرائيل داخلياً وخارجياً في مثل هذه الأحداث والظروف متمثلاً بما تم عام 1956. أى مفاجأة عسكرية، وحرب قصيرة المدى ونقل المعركة إلى أرضنا.<sup>(34)</sup> ولم يخرج تنبؤ رئيس الجمهورية إلى أى قيادة من القيادات الميدانية واقتصر على حيز المجتمعين في المؤتمر. ولذا لم يكن له أى صدى في وسط القوات، ولم تتخذ له أية استعدادات خاصة.<sup>(35)</sup>

بعد الاجتماع مباشرة اتصل المشير تليفونياً بالفريق أول جمال عفيفى نائب قائد القوات الجوية والدفاع الجوي، وكان جالساً بمكتب الفريق أول صدقى محمود، وأخطره بقراره الذى يقضى بتأمين القوات الجوية ضد الضربة الأولى.

وفي صباح اليوم التالى الثالث من يونيو 1967 حضر الفريق أول صدقى محمود وأخطر المشير، بعدم إمكانية التغيير الشامل في أوضاع أسراب المقاتلات في سيناء، بإعادة تمركزها، وأخبره بأنه اقتصر على نقل سرب واحد من مطارات سيناء، إلى مطار كبريت. وكان الفريق صدقى قد بدأ كلامه عن تحوفه من إعادة الطيارين للخلف مما يؤثر على روحهم المعنوية، ووافق المشير على هذا رأى بأنه مازالت هناك فرصة للمراجعة على الطبيعة عند زيارته لسيناء يوم الخامس من يونيو 1967، وإنه أخطر قائد الجبهة الفريق أول مرتجى بهذه الزيارة.<sup>(36)</sup>

ورغم تأكيد رئيس الجمهورية القائد الأعلى للقوات المسلحة مع القيادة العليا للقوات المسلحة مساء 2 يونيو، ببدء إسرائيل الحرب في ظرف يومين جاء ملخص المخابرات المصرية في الثانى من يونيو وعقب اجتماع الرئيس مباشرة "يرجح أن إسرائيل لن تقوم بأى عمل عسكري تعرضى، وأن الصلابة العربية الراهنة ستجبر العدو بلا شك على أن يقدر العواقب المختلفة المترتبة على اندلاع شرارة الحرب في المنطقة".<sup>(37)</sup>

(34) محمد فوزى: مذكرات الفريق أول محمد فوزى، ص ص 125-126، انظر كذلك مقابلة مع الفريق أول محمد فوزى بمنزله بمصر الجديدة يوم 19 أكتوبر 200.

(35) محمد فوزى، المصدر السابق، ص 126.

(36) محمد فوزى: مذكراته، ص 126، انظر كذلك مقابلة مع الفريق فوزى سبق ذكرها.

(37) وثائق وزارة الدفاع المصرية، دار المحفوظات المركزية غير منشورة، ملخص تقرير المخابرات

الحربية المصرى رقم 20 بتاريخ 2/6/1967، انظر كذلك محمد فوزى: مذكراته، ص 127، عبد

المحسن مرتجى: الفريق مرتجى - قائد جبهة سيناء في حرب 1967 يروى الحقائق، ص 110.

لقد أوضح الرئيس عبد الناصر تطورات المعركة المتوقعة، ونية العدو تماماً، كما حدد توقيت وتاريخ بدء المعركة مع إسرائيل، وحدد أن بداية المعركة ستكون بضربة جوية أولى من إسرائيل. أما المشير عامر، فمن خلال مواقفه في الاجتماع نستطيع أن نقول إنه لم يقتنع بتقديرات الرئيس السياسية والعسكرية، كما أنه لم يبال بالإنداز الصريح من الرئيس بميعاد المعركة يوم الخامس من يونيو 1967، بدليل أنه استمر في تنفيذ برنامجه المعتاد، وقيامه بزيارة سيناء في نفس اليوم الذي حدده هذا الإنذار.

وكان موقف الحاضرين سلبياً، فهم لم يتلقوا من المشير أى تحذير أو إنذار باحتمال قيام إسرائيل ببدء عملياتها يوم الخامس من يونيو، بل إن هذا الكلام سمعوه من الرئيس عبد الناصر، وبالتالي فهم لم يخطر وأحداً بها سمعوه من الرئيس.<sup>(38)</sup>

وفي مساء يوم الثالث من يونيو عقد الفريق صلاح محسن قائد الجيش الميداني اجتماعاً بمقر قيادة الجيش في "ريشات لحمان" بسيناء وحضره جميع قادة التشكيلات من فرق وألوية مستقلة متمركزة في سيناء. وقد أذاع قائد الجيش نبأ زيارة نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة يوم 5 يونيو، بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة صباحاً، وهو الميعاد المنتظر لوصوله إلى مطار "بئر تمادا"، وقد حدد في هذا الاجتماع عدد المستقبلين ووظائفهم التي تتراوح بين الفريق أول، والعميد، وهم 28 قائداً يحضر بعضهم بهليكوبتر للاستقبال.<sup>(39)</sup>

واستكمل قائد الجيش خطة مرور المشير، كذلك برنامجه خلال هذه الزيارة بأن قال: "يحضر المشير بعد الاستقبال في المطار، مؤتمر تنظيم التعاون للتشكيلات الميدانية، الذي سيديره قائد الجبهة الفريق أول مرتضى الساعة 12 ظهراً، ثم يتوجه المشير بعد ذلك إلى مقره في الميثان".<sup>(40)</sup>

وفي مساء 4 يونيو أكدت القيادة العليا على أن المشير عامر سيصل يوم 5 يونيو "باكر" إلى مركز القيادة المتقدم وتحدد لحضور المشير هدفان أساسيان... الأول: قيامه بتنظيم

(38) مقابلة مع الفريق أول محمد فوزى بمنزله، مقابلة سبق ذكرها.

(39) محمد فوزى: مذكراته، ص ص 127-128.

(40) المصدر السابق، ص 128.

التعاون للضربة المضادة المتوقعة وتنسيق جميع جهود القوات المشتركة بما يكفل الانسجام لاستغلال مميزاتها، والاطمئنان على أن كل قائد يفهم مهامه تماماً وطريقة تنفيذ هذه المهام وأسلوب عمله لمقابلة أعمال العدو المتوقعة حسب تصور القائد العام، والثاني: المرور على باقي أنحاء المسرح وتفقد الحالة بنفسه.<sup>(41)</sup> ومن المحتمل أن تكون المخابرات الإسرائيلية قد نجحت في معرفة زيارة المشير لسينا.<sup>(42)</sup>

### تقدم العدو إلى خطوط الفتح

وفيما بين الساعة الواحدة والساعة الرابعة من فجر يوم الخامس من يونيو 1967، بدأت قوات المنطقة العسكرية الجنوبية الإسرائيلية تتقدم إلى خطوط الفتح للهجوم على سيناء قرب الحدود وخطوط الهدنة دون تدخل أو إجراء مضاد من القوات المصرية، وعلى الفور تم إرسال البلاغات إلى القيادة المصرية، لكن لسوء الحظ لم تصل هذه البلاغات إلى القيادة إلا بعد أن نفذت إسرائيل ضربتها الجوية.<sup>(43)</sup>

أما بالنسبة للتشكيلات والوحدات الجوية المصرية فقد أتمت تنفيذ مخططاتها النمطية الذي كانت تنفذه في الأيام السابقة ليوم الخامس من يونيو. وبدأت الاسترخاء بعد نزول الطائرات والطيّارين من المظلات الجوية اليومية التي كانت تبدأ من أول ضوء وتنتهي بعد ساعتين منه.<sup>(44)</sup>

كانت خطة القوات الجوية تقضى بشغل مناطق المظلات حسب موقف العمليات، وحسب ما يترامى لقادة المناطق مع التقيد بوجود المظلة الجوية في فترتين أولها من أول ضوء ولمدة ساعة، والثانية قبل آخر ضوء بمدة ساعة وفي أثناء النهار حسب المواعيد في تدريب الطيارين، وعلى أن تشغل منطقتي مظلة البردويل وشمال نخل بصفة مستمرة بالتناوب بين اللواءات الجوية المختلفة المتواجدة بفايد والمليز وأبوصوير.<sup>(45)</sup>

(41) عبد المحسن مرتجي، المصدر السابق، ص 115، انظر كذلك محمد فوزي، مذكراته، ص 129.

(42) عبد المحسن مرتجي، المصدر السابق، ص 136.

(43) وثائق وزارة الدفاع، وثائق حرب يونيو 67- غير منشورة - إدارة المخابرات الحربية والاستطلاع، ملف رقم 5/157/5، أوضاع القوات الإسرائيلية قبل الحرب مباشرة وتحركاتها ليلة الخامس من يونيو 1967.

(44) وثائق حرب يونيو 67، ملف رقم 242 / 225 / 3، موقف استعداد القوات الجوية والدفاع الجوي من وقت إعلان الطوارئ.

(45) المصدر السابق.

كما كانت هناك أوامر عمليات تنسق عمل المظلات الجوية في المنطقة الشرقية الجوية في أوقات متفرقة، مع الاستفادة من هذه الطلعات كتدريب للطيارين. وكانت آخر مظلة قد أفلعت قبل الضربة الجوية الإسرائيلية هي المظلة التي أفلعت من قاعدة أبو صوير في تمام الساعة 622 وعادت في الساعة 722 من صباح يوم الخميس من يونيو 1967.<sup>(46)</sup>

إلا أن المصادر الأجنبية قد أشارت إلى أنه كانت هناك حالة تاهب للقوات الجوية والدفاع الجوي صباحي 3، 4 يونيو إلا أنها ألغيت صباح الخميس من يونيو 67.<sup>(47)</sup>

وبالرغم من تحذير رئيس الجمهورية يوم 2 يونيو والذي أكد فيه أن إسرائيل سوف توجه ضربتها إلى مصر والقوات الجوية بوجه خاص خلال يومين أو أكثر قليلاً، لم يتخذ الفريق أول صدقي محمود قائد القوات الجوية قراراً بتكثيف المظلات الجوية على الحدود وعلى الساحل شمال سيناء لمواجهة مشكلة الكشف الراداري على الارتفاعات المنخفضة جداً حتى لا تتعرض القواعد الجوية للضربة المفاجئة.

وفي الوقت الذي كان فيه قادة الميدان في سيناء والبالغ عددهم 28 قائداً مصطفىين في أرض مطار تمادة انتظاراً لوصول نائب القائد الأعلى المشير عبد الحكيم عامر ومرافقيه، اقتربت العناصر الأممية لمجموعات العمليات الشمالية والوسطى والجنوبية الإسرائيلية في الساعة 8.30 من صباح الخميس من يونيو لخطوط الهدنة والحدود الدولية الشرقية واتصلت بالقوات المصرية في نطاق الأمن.<sup>(48)</sup>

## 1- بدء الحرب

كان نذير الحرب هو إرسال إنذارين تعبويين في غاية الأهمية، الأول من مكتب مخبرات العريش بقيادة المقدم إبراهيم سلامة، إلى جهة غير معنية بالعمليات "مكتب

(46) وثائق حرب يونيو 67، ملف رقم 242 / 3/225، أمر عمليات رقم 67/13 بتاريخ 67/5/21، الخاص بتنسيق عمل المظلات الجوية في المنطقة الشرقية الجوية، انظر كذلك دفتر أحوال المقاتلات لقاعدة أبو صوير الجوية، نفس الملف - المظلة التي أفلعت ساعة 622 وعادت الساعة 722 من صباح 5 يونيو 1967.

(47) أوبلانس، إدجار - الحرب الثالثة يونيو 1967، ص 57.

(48) وثائق حرب يونيو 1967، ملف رقم 5/157/5، انظر كذلك مقابلة من الفريق أول عبد المحسن مرتجي قائد جبهة سيناء بمنزله، مقابلة سبق ذكرها.

وزير الحربية شمس بدران بكوبرى القبة" في الساعة السابعة صباحاً، بينما وصل إلى هيئة عمليات القوات المسلحة بالقيادة العامة في الساعة التاسعة وأربعين دقيقة من صباح يوم 5 يونية 1967. واشتمل هذا الإنذار على أن هناك معلومات مؤكدة قد تجمعت لدى الدوريات الأمامية لوحداث نطاق الأمن على الحدود المصرية مع إسرائيل، مشاهدات أنوار وسماع أصوات عربات جنزير في مناطق فتح وحدات العدو الإسرائيلي واستعداده للهجوم حوالى الساعة الرابعة من صباح يوم 5 يونيو 1967.<sup>(49)</sup>

عرضت هذه الإشارة على المشير عبد الحكيم عامر في حوالى الساعة 7 صباحاً، ولم يعلق عليها. ثم أرسلت هذه الإشارة إلى هيئة عمليات القوات المسلحة في الساعة 940 صباحاً.<sup>(50)</sup> كما أن قيادة الجيش الميدانى وقيادة الجبهة، لم تبلغ القيادة العامة بأى هجوم على القوات الأمامية، إلا حوالى الساعة 830 في نفس وقت الضربة الجوية الإسرائيلية تقريباً.<sup>(51)</sup>

وأرسل الإنذار الثانى من الفريق عبد المنعم رياض الذى كان بالقيادة المتقدمة لنائب القائد الأعلى بعمان بالأردن في الساعة السابعة صباحاً أيضاً، ولكنه لم يستقبل بالجبهة المعنية، وهى غرفة عمليات الدفاع الجوى بمنطقة الجيوشى بالمقطم. وقد اشتمل هذا الإنذار على معلومات هامة عن وجود موجات متتابعة من مقاتلات إسرائيل، تتجه نحو الجنوب الغربى "نحو مصر" مترجمة باللفظ الكودى "عنب، عنب، عنب".<sup>(52)</sup> ولم

(49) وثائق وزارة الدفاع المصرية - غير منشورة - ملف بدون رقم خاص بتقارير وإشارات مكتب خبابرات العريش، مذكرة عن تحركات العدو الإسرائيلي أمام جبهة سيناء خلال يوم 4 يونيو وليلة 4 / 5 يونيو 1967.

(50) وثائق وزارة الدفاع المصرية دفتر إشارات القيادة العليا، إشارة مرسلة من مكتب وزير الحربية بكوبرى القبة إلى مكتب المشير عامر بالقيادة العامة بمدينة نصر حوالى الساعة 7 صباحاً، انظر كذلك مقابلة مع الفريق محمد فوزى، مقابلة سبق ذكرها.

(51) مقابلة مع الفريق صلاح محسن يوم 17 سبتمبر 1996 بمنزله بمصر الجديدة، انظر كذلك مقابلة مع الفريق اول عبد المحسن مرتجى، مقابلة سبق ذكرها، مقابلة مع الفريق أنور القاضى بمنزله بمصر الجديدة يوم 5 مايو 1995.

(52) وثائق وزارة الدفاع المصرية، تقرير الفريق عبد المنعم رياض عن معارك الجبهة الأردنية، ص 3، انظر كذلك محاكمات الطيران، ملف رقم 67/25 خاص بمحاكمة ضباط وعمال الإشارة بمحطة الإشارة بكوبرى القبة ومحطة الإشارة بالجيشى.

تستقبل محطة الاستقبال الرئيسية بالجيشى الإنذار نتيجة خطأ شخصى من عامل الإشارة، وبالتالي لم يصل الإنذار المبكر إلى المركز الرئيسى للطيران والدفاع الجوى.<sup>(53)</sup>

عدا ذلك لم يصل أى إنذار آخر من أى محطة إنذار فى داخل مصر باقتراب طائرات العدو، وذلك لسببين أولاً: أن طيران العدو فى الاقتراب تم على مستوى منخفض جداً، ثانياً: أن محطات الإنذار والرادار كانت هى الهدف الأول للعبوى للتدمير أو التعطيل بواسطة طائرات العدو.<sup>(54)</sup>

وبالإضافة للإشارة التى أرسلها الفريق عبد المنعم رياض من عجلون قام أيضاً فى الساعة العاشرة من صباح يوم 5 يونيو بإرسال رسالة أخرى من عمان تشتمل على تواجد عدد 2 حاملتا طائرات على بعد 20 إلى 100 ميل غرب تل أبيب تشترك فى العمليات الحربية، و16 طائرة قادمة من الحملات فى البحر الأبيض المتوسط غرب تل أبيب هبطت فى مطار رامات دافيد، كما أسقطت طائرة للعدو فى قطاع غزة وأسر قائدها، واثنان من قوارب الطوربيد للعدو أمام غزة.<sup>(55)</sup>

### زيارة المستشار لجبهة سيناء

قامت من مطار المأظلة طائرتان من طراز اليوشن 14 بين الساعة 8.15 والساعة 8.30 صباح يوم 5 يونيو 1967 تحمل المشير عبد الحكيم عامر والفريق أول صدقى محمود قائد القوات الجوية والدفاع الجوى والفريق أنور القاضى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة ووزير الحربية شمس بدران وبعض معاونين والمساعدين، بالإضافة لبعض ضباط مكاتبهم متجهة إلى مطار بئر تمادا فى سيناء، والطائرة الثانية تحمل طاهر يحيى رئيس وزراء العراق يرافقه حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية متجهة إلى قاعدة فايد لزيارة القوات العراقية الرمزية بمنطقة فايد، حيث أعلن العراق استعداده للمشاركة العسكرية فى المعركة ضد إسرائيل.<sup>(56)</sup>

(53) محاكمات الطيران ملف رقم 242/225/3.

(54) المصدر السابق.

(55) تقرير الفريق عبد المنعم رياض عن معارك الجبهة الأردنية، ص 7.

(56) وثائق وزارة الدفاع، ووثائق حرب يونيو 67، ملف رقم 242/225/3، قضية الطيران، موقف استعداد القوات الجوية والدفاع الجوى من وقت إعلان الطوارئ، انظر كذلك عبد المحسن مرتضى، المصدر السابق، ص 116، مقابلة مع الفريق أنور القاضى، مقابلة سبق ذكرها، مقابلة مع الفريق أول محمد فوزى، مقابلة سبق ذكرها.

ونظراً لأهمية سلامة هذه المسارات الجوية، علاوة على زيادة نشاط نقل قوات المدفعية المضادة للطائرات جواً إلى المطارات المختلفة في سيناء ومنطقة القناة لتعزيز الدفاع الجوي بها، لذلك صدرت تعليمات القيادة العليا بتقييد نيران الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات من الساعة الثامنة صباح 5 يونيو وإلى حين صدور تعليمات أخرى.<sup>(57)</sup>

طار المشير بطائره حتى عبر قناة السويس حيث أخطره قائد الطائرة بمشاهدة نيران في مطارات القناة. وبعد الاتصال مع أحد هذه المطارات تأكد المشير بأن الضربة الجوية الإسرائيلية بدأت، وأن جميع المطارات تضرب في وقت واحد ولم تمض على إقلاعه من مطار المازة سوى 20 أو 30 دقيقة فقط.<sup>(58)</sup>

وقد وصلت الطائرة الثانية إلى قاعدة فايد قبل ضربه بدقيقة أو بدقيقتين. وقد شاهد رئيس وزراء العراق، وحسين الشافعي واقعة الهجوم على قاعدة فايد، بأكثر من هجمة جوية تم فيها تدمير جميع الطائرات المرصوفة على ممر المطار صفواً واحداً. كما لاحظا عدم محاولة إطلاق طلقة واحدة من عناصر الدفاع الجوي المحيطة بالمطار، والسبب هو الذهول وعدم السيطرة.<sup>(59)</sup>

وقبل بداية الهجوم الجوي بدأ العدو بمعاونة أجهزة السفينة الأمريكية "ليبرتي" في إعاقة خطوط المواصلات السلوكية واللاسلكية الموجهة، وكذا إعاقة أجهزة الرادار للتتبع والتوجيه. كما تمكنت هذه السفينة بأجهزتها الإليكترونية الحديثة التعرف على الترددات التي تعمل عليها أجهزة الجيش المصري اللاسلكية والقنوات الإشارية، كما تمكنت من تحديد أماكن تركز جميع القيادات الميدانية الكبيرة المؤثرة، سواء في الجيش الميداني في جبهة سيناء أو المطارات وعناصر الدفاع الجوي، خاصة أجهزة الرادار سواء الإنذار أو التوجيه.<sup>(60)</sup>

وقبل بدء المعركة بدقائق، وجهت هذه السفينة بأجهزتها الخاصة، موجات ذات تردد عال جداً إلى المحطات اللاسلكية والقيادية ومحطات الرادار المصرية فتم التشويش على

(57) المصدر السابق.

(58) المصدر السابق.

(59) مقابلة مع حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية بمنزله بالدقي يوم 28 يونيو 2003.

(60) محمد فوزي، مذكراته، ص 139.

الأجهزة اللاسلكية المصرية، وكان أهمها قيادة الفرقة الرابعة المدرعة، كما تم تداخل لاسلكى بين كل محطتين تابعتين على تردد واحد مثل قائد فرقة وقائد لواء من نفس الفرقة، أوقائد سرب جوى، وطائرات تشكيلة وهى فى الجو. بالإضافة إلى التشويش الرادارى على أماكن واتجاه محطات الرادار حيث تظهر شاشة الرادار بيضاء. وعلى ذلك فشلت عملية توجيه الطائرات فى الجو من المحطة الرادارية فى القاعدة التى كانت توجهها إلى مناطق القتال.<sup>(61)</sup>

### عودة المتشير

عادت طائرة المشير عبد الحكيم عامر على ارتفاع منخفض جداً إلى مطار المأظة فشاهد قائد الطائرة الطائرات الإسرائيلية وهى تقذف المطار فتحول إلى مطار القاهرة الدولى حيث هبط بطائرة المشير. توجه المشير ومعه الفريق أنور القاضى إلى مقر القيادة العامة بضاحية مدينة نصر حوالى الساعة 10:30 صباح يوم 5 يونيو.<sup>(62)</sup>

وتوجه الفريق أول صدقى محمود على الفور إلى مقر قيادته بمنطقة الجيوشى، وهناك علم بعد اتصالات تليفونية مع معظم القواعد الجوية والمطارات، أنها جميعاً هوجمت، أو انتهى تدميرها، والطائرات على الأرض، كما علم أنه فقد حوالى 85% من قواته الجوية ولم تبق لديه سوى 30 طائرة مقاتلة "ميج 17 وميج 21" وأن جميع القاذفات الثقيلة والخفيفة قد دمرت نهائياً.<sup>(63)</sup>

أصدر المشير عبد الحكيم عامر أوامره إلى الفريق أول صدقى محمود، بتنفيذ الخطة الجوية "فهد" وهى الخطة التى جهزت عقب التصديق على الخطة "قاهر" الدفاعية منذ عام 1966. ولكن لم يتم تنفيذ هذا الأمر لتدمير القوات الجوية المصرية.<sup>(64)</sup>

(61) المصدر السابق، ص ص 139-140.

(62) مقابلة مع الفريق أنور القاضى، سبق ذكرها.

(63) مقابلة مع اللواء يحيى أحمد فؤاد بمكتب الباحث بقيادة الدفاع الجوى يوم 15 أكتوبر 1994، انظر كذلك مقابلة مع اللواء إبراهيم المجدوب بمكتب الباحث بقيادة الدفاع الجوى يوم 2 نوفمبر 1994. واللواء يحيى أحمد فؤاد كان قائد المدفعية المضادة للطائرات أثناء حرب 1967، واللواء إبراهيم المجدوب كان القائد المناوب فى غرفة عمليات قيادة القوات الجوية والدفاع الجوى صباح 5 يونيو 1967.

(64) مقابلة مع الفريق أول محمد فوزى، مقابلة سبق ذكرها.

وفي حوالي الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم 5 يونيو طلب الفريق عبد المنعم رياض من مركز قيادته المتقدم في عمان من القيادة السورية قيام الطيران السوري بضرب مطارات شمال إسرائيل حسب التنسيق السابق. إلا أن تصرف القيادة السورية كان سلبياً.<sup>(65)</sup>

وفي حوالي الساعة 11 صباحاً كلف المشير عامر الفريق أول محمد فوزى الاتصال بالقيادة السورية لإخطارها بالموقف، ومحاولة تنفيذ خطط القصف الجوي على مطارات إسرائيل الشمالية وهي جزء من الخطة "رشيد" التي سبق أن نسقها مع اللواء أحمد سويدان رئيس أركان الجيش السوري.<sup>(66)</sup>

اتصل الفريق أول محمد فوزى باللواء أحمد سويدان لاسلكياً، وطلب منه تنفيذ الخطة التعرضية "رشيد"، إلا أنه لم يحصل على رد إيجابي، وكان كل ما نطق به هو جملة واحدة "نحاول سيدي"، ثم علم الفريق أول محمد فوزى بعد ذلك إنه لم يصدر أية أوامر من الجانب السوري باتخاذ أى موقف مضاد أو تعرضي، وأحتى تدخل في أى عمليات إطلاقاً ضد إسرائيل.<sup>(67)</sup>

هكذا بدأت حرب الخامس من يونيو 1967 بضربة جوية إسرائيلية مفاجئة، رغم أن حالة الاستعداد في القوات المسلحة المصرية كانت مرفوعة للحالة القصوى.

ولكى نعرف حقيقة الموقف وحقيقة الضربة الجوية الإسرائيلية وكيف تمت يجب أن نوضح الأسلوب الذي تم به إعداد الطيران الإسرائيلي لهذه الضربة والخطة التي وضعت وكيفية تنفيذها، كما يجب أن نوضح كيفية إعداد الطيران المصري والخطة التي وضعت ليصبح جاهزاً للقتال في أى وقت، وحجم قوات الطرفين، وموقف القوات الجوية المصرية وأماكن تركزها صباح الخامس من يونيو 1967، وشكل الهجوم الجوي الإسرائيلي، وتصرف القوات الجوية والدفاع الجوي المصري حياله، وخسائر الطرفين.

(65) وثائق وزارة الدفاع المصرية - وثائق المحفوظات العسكرية - غير منشورة، تقرير الفريق عبد المنعم رياض عن معارك الجبهة الأردنية، ص 4.

(66) للمصدر السابق، انظر كذلك محمد فوزى، مذكراته، ص 144.

(67) محمد فوزى: مذكراته، ص 144.

## إعداد | الطيران | الإسرائيلي

ما إن انتهت حرب العدوان الثلاثى عام 1956 حتى بدأ سلاح الجو الإسرائيلي في دراسة أوضاعه ومعداته بطريقة نقدية. واقتنت أجهزة التخطيط الإسرائيلي بحاجة إسرائيل إلى سلاح جوى يعتمد على الطائرات النفاثة، كما يعتمد على النفس كأهم نتيجة لحرب 1956.<sup>(68)</sup>

ولم يكن أمام الأركان العامة الإسرائيلية وقد استوعبت دروس حرب 1956 من سبيل إلا أن تضع نصب عينيها هدفاً أساسياً، هو خلق قوات مسلحة حديثة ومنتطورة تتركز قواتها الضاربة أساساً في القوات الجوية والمدرعة.

لذلك عين الجنرال حاييم لاسكوف في عام 1958 رئيساً للأركان العامة خلفاً لموشى ديان، وكانت المهمة الرئيسية المكلف بها هي وضع السياسة الحربية الجديدة موضع التنفيذ. لذلك قام لاسكوف بوضع ما أسماه برنامج الردع لإعادة تشكيل القوات المسلحة وزيادة حجمها وتدعيمها وتدريبها على الأسلحة الحديثة، وضم هذا البرنامج مجموعة كبيرة من النقاط كان ضمنها التركيز على بناء قوة جوية كبيرة من الطائرات القاذفة المقاتلة، وإنشاء قوات ضاربة مدرعة ميكانيكية وسلاح متخصص للمهندسين وقوة اقتحام جوى رأسى وجنود جو ذوى كفاءة عالية.<sup>(69)</sup>

وعلى هذا نالت القوات الجوية الأسبقية الأولى في برنامج لاسكوف، وبالتحديد قوات جوية تعتمد على المقاتلات القاذفة من أجل إحراز السيطرة الجوية عند بداية أى معركة قادمة مع العرب.

وعندما تولى عايزر وايزمان قيادة القوات الجوية الإسرائيلية عام 1958، وجد إن إسرائيل تحتاج لطائرة متعددة المهام من المقاتلات والمقاتلات القاذفة بدلا من القاذفات المحدودة والتي استخدمت في حرب 1956، يتوفر فيها مدى عمل كبير يمكنها من الوصول إلى أعماق مصر بأجهزة ملاحية متطورة مع القدرة على قذف الأهداف بكميات

(68) روبنشتاين، مورى: قصة القوة الجوية الإسرائيلية، ص ص 80-83.

(69) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام: العسكرية الصهيونية، المجلد الأول، ص

كبيرة من القنابل والصواريخ بدرجة عالية من دقة الإصابة، بالإضافة إلى القدرة على المناورة العالية. ووجد وايزمان كل تلك المزايا في الطائرة الميراج التي كان لها دور حاسم في حرب يونيو 1967 والتي تم تعديلها بخزان وقود إضافي - لم يعلن عنه لزيادة المدى، بالإضافة إلى تعديلات في جهاز التشين لزيادة دقة الإصابة. ولم تتمكن المخابرات المصرية من معرفة هذه التعديلات حتى نشبت حرب يونيو 1967، فكانت المفاجأة للسلاح الجوي المصري.<sup>(70)</sup>

وفي نفس الوقت وضعت خطة لإعداد الطيارين بأعداد كبيرة تكفل استخدام الطائرات بأعلى معدل ممكن، واعتماداً على نظام الاحتياط نجحت إسرائيل قبل الحرب في الوصول بأعداد الطيارين إلى الضعف على عدد الطائرات. وكانت خطة تدريب هؤلاء الطيارين خطة واقعية على أساس دورهم في خطة الحصول على السيطرة الجوية، فكانت مهام التدريب مماثلة لما هو مطلوب منهم تماماً حتى ارتفع مستوى التدريب إلى تنفيذ خطط مشابهة وباستخدام الذخيرة الحية على مطارات هيكليّة أنشأت في النقب مطابقة للأهداف المحددة لهم في العمليات.<sup>(71)</sup>

كذلك لم يغفل القادة دور الأطقم الفنية وأثره الهام في أعمال قتال القوات الجوية، فتم تدريب تلك الأطقم على أعمال تجهيز الطائرات والصيانة السريعة في أقل وقت ممكن. وقد نجحت تلك الأطقم في رفع نسبة صلاحية الطائرات قبل العمليات كذا في أعمال إعادة الملئ والتجهيز للطلعات التالية بصورة واضحة، مما كان له الأثر الأكبر في زيادة معدل طلعات الطائرات.<sup>(72)</sup>

وفي أواخر عام 1958 طلبت إسرائيل 24 طائرة من طراز "سوبر مستير بي 2" وتمكنت من الحصول عليها في وقت وجيز، وكان ظهورها لأول مرة في عيد إنشاء دولة إسرائيل في مايو 1959.<sup>(73)</sup>

(70) جاكسون، روبرت: تاريخ القوات الجوية الإسرائيلية، ص 43.

(71) المرجع السابق، ص ص 45-46.

(72) المرجع السابق، ص 47.

(73) روبنشتاين، موري: قصة القوة الجوية الإسرائيلية، ص 85.

وتمكن سلاح الطيران الإسرائيلي في عام 1959 من الحصول على سبع طائرات مروحية من طراز "سيكورسكى إس 58" من الولايات المتحدة الأمريكية، ثم حصل على 24 طائرة أخرى من النوع ذاته بعد تحويلها من ألمانيا الغربية إلى إسرائيل في عام 1960.<sup>(74)</sup>

ثم حصلت إسرائيل على أحدث الطائرات الفرنسية وهي الطائرة "داسوميراج 3". فبعد كثير من المساومة والمناورات السياسية وافقت فرنسا على بيع 72 طائرة من هذا الطراز لإسرائيل، ثم دخلت إلى السلاح الجوي الإسرائيلي في مايو 1963، ثم ظهرت في سماء تل أبيب وحيفا والقدس بمناسبة عيد إنشاء دولة إسرائيل، ثم حصلت بعد ذلك في عام 1963 على 40 طائرة ميراج.<sup>(75)</sup>

ولم يكتف عايزر وايزمان بإعداد وتطوير القوات الجوية الإسرائيلية من ناحية الطيارين والطائرات، وإنما كان الهدف واضحا أمامه وهو أن الحرب مقبلة لا محالة مع العرب. فانكب على دراسة خطة العمليات القادمة حتما، وهي الخطة "كولومب"، التي سنتناولها فيما بعد.

وفي عام 1963 صرح وايزمان بأنه في حالة الحرب مع العرب فإن أفضل أساليب الدفاع هو تجنب العمليات فوق أرض إسرائيل والعمل على تهديد دمشق واحتلال الضفة الغربية والاندفاع نحو قناة السويس، فلو اكتفت إسرائيل بالدفاع عن تل أبيب فسيكون ذلك انتحارا جماعيا إذ ليس أمامها أى عمل استراتيجي، لذلك فإن العمل الاستراتيجي يجب أن يكون هو العمق الجوي.<sup>(76)</sup>

وبدراسة هذا التصريح نجد أن عايزر وايزمان قد حدد الهيكل الأساسي للاستراتيجية الإسرائيلية في جولة يونيو 1967 قبل بدء الحرب بأربعة سنوات.

وبما إن طائرة الميج 21 الموجودة في مصر ولدى أطراف عربية أخرى كانت لا تزال مجهولة لإسرائيل. لذلك لم يكن هناك من مجال للتأكد من أن الميراج تستطيع أن تنافس

(74) المرجع السابق، ص 91.

(75) المرجع السابق، ص 87.

(76) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، العسكرية الصهيونية، المجلد الأول، ص

هذه المقاتلة الروسية وحتى انكشف سرها في أغسطس 1966 عندما وصل طيار عراقي بطائرة "ميج 21 إف 13" الحديثة إلى إسرائيل.<sup>(77)</sup>

ثم اختبر الطيارون الإسرائيليون مقدره الميج 21 على الطيران وقارنوها مع طائرات الميراج فكشفوا عن عيوب تلك الطائرة السوفيتية، إذ وجدوا أنها قليلة القوة على الرغم من مقدرتها على المناورة عند انطلاقها بسرعة عادية أوفوق صوتية على ارتفاعات شاهقة. ومع إنها تتمتع بقدرة على تغيير معدل سرعتها بسبب صغر حجمها إلا أنها في الوقت ذاته محدودة المدى جداً.<sup>(78)</sup>

وعندما بدأت سياسة فرنسا تميل نحو العرب إثر تولي الرئيس شارل ديغول السلطة، لذلك رفضت فرنسا تسليم 50 طائرة من طراز "ميراج" على الرغم من أنها استوفت ثمنها بالكامل.<sup>(79)</sup>

وحصلت إسرائيل عام 1966 على اثنتي عشرة طائرة "سوبرفريلون" الفرنسية "دخلت الخدمة في فرنسا عام 1964" ليتم استخدامها في عمليات حرب يونيو 1967. ثم حصلت على عشر طائرات نقل بعيدة المدى من طراز "ستراتوكرويزر" قبل حرب يونيو 1967.<sup>(80)</sup>

واهتمت القيادة الإسرائيلية قبل بدء العمليات في حرب يونيو بالحصول على معلومات تفصيلية دقيقة عن القوات المصرية والعربية وأماكن تركزها ونظام العمل اليومي السائد فيها وخاصة القوات الجوية، وذلك عن طريق مصادر المخابرات الإسرائيلية والأمريكية والغربية واستخدام الوسائل المتقدمة الحديثة كالأقمار الصناعية الأمريكية في هذا الشأن وكذا الاستطلاع الإلكتروني الأمريكي.<sup>(81)</sup>

كما اهتمت إسرائيل بالاستطلاع ومحاولة اكتشاف ترددات رادارات المدفعية ومحطات

(77) روبنشتاين، موري: قصة القوة الجوية الإسرائيلية، ص 90.

(78) المرجع السابق، ص 91.

(79) المرجع السابق، نفس المكان.

(80) المرجع السابق، ص 94، ص 98.

(81) جاكسون، روبرت، مرجع سبق ذكره، ص ص 44-45.

التوجيه بكتائب الصواريخ وكذا رادارات الإنذار الجوى العام بأساليب عديدة. ففي ليلة 23/24 مايو 1967 اخترقت طائرة استطلاع معادية المجال الجوى المصرى على ارتفاعات عالية جدا ووصلت إلى منطقة القناة، وكذا كثرة ظهور الأقمار الصناعية فوق مصر ومنطقة القناة وسيناء بوجه خاص في الفترة التى سبقت 5 يونيو 1967، وكانت هذه الأقمار ترسل معلوماتها أولاً بأول إلى القيادة الإسرائيلية.<sup>(82)</sup>

كما ظهرت طائرة استطلاع من نوع خاص خارج المياه الإقليمية المصرية من ناحية الساحل الشمالى، وقد ظهرت هذه الطائرة حوالى 28 مرة في المدة من 19 مايو 1967 وحتى 5 يونيو 1967، واستمرت بانتظام في العمل ليلاً ونهاراً وفي أوقات مختلفة، وهذه الطائرة في الغالب أمريكية.<sup>(83)</sup>

وذكر ادجار أوبالانس: "ومع أن المخابرات الإسرائيلية هي بلا شك على درجة عالية من الكفاءة إلا أن سلاح الطيران الإسرائيلي نفسه كان يقوم برحلات استطلاع يومية فوق الأراضي العربية مدة خمسة أيام قبل بدء المعركة، ورغم أن قيادة القوات الجوية المصرية عرفت بهذه الرحلات الاستطلاعية أو بعضها على الأقل، فإنها فضلت السكوت ففعل أحداً لم يكن مستعداً لإبلاغ عبد الناصر أو لأن عبد الناصر إذا عرف لم يرض الاعتراف بأن الطائرات الإسرائيلية تستطيع الطيران بحرية في المجال الجوى المصرى، ومن الممكن أن عملاء المخابرات الإسرائيلية استطاعوا كشف عدة فجوات في نظام الدفاع المصرى الرادارى، وكانت هذه المعلومات ذات أهمية كبيرة".<sup>(84)</sup>

ونظام الدفاع الجوى الإسرائيلى ضعيف في مواجهة هجوم جوى لسبب مهم، وهو ضيق مساحة البلاد وصغر حجمها، فلا يجدى فيها شبكة رادار فعالة للإنذار الذى يمكن الاستفادة منه. فمثلاً المسافة الزمنية بين العريش وتل أبيب هي أربع دقائق ونصف دقيقة في حين أن المسافة الزمنية ما بين القاهرة وتل أبيب حوالى 25 دقيقة. كذلك فإن كتائب الهوك المضادة للطائرات كانت قليلة العدد. بسبب هذا الوضع فإن الاستراتيجية

(82) المرجع السابق، ص 45.

(83) روبنشتاين، مورى، مرجع سبق ذكره، ص ص 98 - 99.

(84) الحرب الثالثة يونيو 1967 بين العرب وإسرائيل، ص 67.

الإسرائيلية بنيت على أساس القيام بالهجوم الجوي كوسيلة للدفاع الرئيسى. وكان هدف السلاح الجوى الأول هو تحقيق تفوق جوى فورى سواء لحماية إسرائيل من الهجوم الجوى العربى أو لتزويد القوات الإسرائيلية الأرضية بمظلة جوية تتيح لها حرية القتال. وكان مبدأ الهجوم الجوى المفاجئ ضد المطارات المصرية والعربية هو المبدأ الذى تبنته بتصميم القوات الجوية الإسرائيلية، والتى كانت تعتقد بأن أحسن وسائل الدفاع عن إسرائيل يجب أن تكون فوق القاهرة.<sup>(85)</sup>

وأكثر من ذلك، فإن القوات الجوية الإسرائيلية خططت وقامت بعدة تجارب وتدرجات لضرب نماذج للمطارات المصرية والعربية فى صحراء النقب لعدة سنوات، كما قال قائد القوات الجوية الإسرائيلية الميجور جنرال هود: "لمدة إحدى عشرة سنة عشنا مع الخطة ونمنا مع الخطة وأكلنا مع الخطة، وهكذا بلغنا درجة الإتيقان".<sup>(86)</sup>

وكان أحد المهندسين الرئيسيين فى بناء السلاح الجوى الإسرائيلى عيزراوايزمان الذى عين مديراً للعمليات سنة 1966، وكان قبل ذلك ولدة ثمانى سنوات قائداً للقوات الجوية، وإليه يعود الفضل فى بناء القوة الجوية الإسرائيلية كما أثبتت نفسها. وقد وضع وأتقن فكرة الهجوم المفاجئ الصاعق، وقام بعده الميجور جنرال موردخاي هود باستئناف عمله وشحذ السلاح الجوى أكثر من ذى قبل.<sup>(87)</sup>

### إعداد القوات الجوية المصرية

لقد مضت فترة أحد عشر عاما ما بين عمليات حرب العدوان الثلاثى على مصر عام 1956 وحرب يونيو 1967، دون استكمال تجهيز مسرح العمليات، بسبب عدم توفر القوات والاعتمادات المالية اللازمة لتجهيز مسرح العمليات، كما أنه لم يتم إعداد اقتصاد الدولة والشعب والقوات المسلحة للحرب حتى عمليات يونيو 1967.

لقد خرجت القوات الجوية المصرية من عمليات حرب 1956 وقد فقدت معظم طائراتها، ووضح للقيادة المصرية خلال فترة الخمسينيات مدى أهمية دور القوات الجوية.

(85) أوبالانس، ادجار، المرجع السابق، ص 47.

(86) المرجع السابق، ص 47

(87) المرجع السابق، نفس المكان.

وانطلاقاً من هذه الأهمية اندفعت القيادة المصرية نحوالاتحاد السوفيتى لعقد صفقات جديدة من الطائرات شملت مقاتلات طراز ميغ 15، 17، وقاذفات متوسطة طراز اليوشن 28، والتي بدأت تصل تباعاً إلى مصر خلال عام 1957.<sup>(88)</sup>

وفي مطلع الستينيات بدأت سياسة التسليح المصرية تتجه بكل ثقلها إلى الشرق. وكان لهذا أثر كبير في تغلغل العقيدة الشرقية حيث كان تدريب الطيارين وعقد الدورات الدراسية العليا للضباط يتم في الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا، حتى أصبحت هي عقيدة القتال للقوات الجوية المصرية.<sup>(89)</sup>

وفي مطلع عام 1963 تقدمت قيادة القوات الجوية بطلباتها إلى الجانب السوفيتى، وكانت هذه الطلبات تتضمن رادار التغطية المنخفضة وطائرات استطلاع إلكترونى وحاسب إلكترونى لتوجيه المقاتلات والصواريخ الموجهة من الأرض للجو ذات الوقود الجاف التي تعمل على الارتفاعات المنخفضة جداً، والرشاشات 23 مم المزدوجة التي تعمل بالرادار، بالإضافة إلى مقاتلات جميع الأجواء الأحدث من الميغ 21 لتلافي العيوب الموجودة في النوع المتيسر لدى القوات الجوية.<sup>(90)</sup>

وفي عام 1964 تم إبرام اتفاقية التسليح ولم يستجب الجانب السوفيتى إلى كثير من هذه الطلبات ولم يوافق إلا على توريد رادار التغطية المنخفضة ب 15. وكان المتفق عليه توريد من 4-6 أجهزة خلال عام 1966 والباقي خلال عام 1967، ولكن هذه الأجهزة وردت في فبراير 1967 ولم يصل خبراء التدريب إلا في نهاية شهر إبريل 1967 أى قبل إعلان حالة الطوارئ مباشرة. هذا علماً بأنه اتضح أخيراً أن هذه الأجهزة لا تحقق مطالب الكشف الرادارى على الارتفاعات المنخفضة جداً على الوجه الأكمل.<sup>(91)</sup>

كما وافق السوفيت في هذه الصفقة على توريد الميغ 21 ليلية بدلاً من المقاتلات في جميع الأجواء، كما تم التعاقد على 40 طائرة سوخوى 7 وهى مقاتلات قاذفة.<sup>(92)</sup>

(88) مقابلة مع الفريق مدكور أبو العز بمنزله بمصر الجديدة يوم 5 ديسمبر 2002.

(89) المصدر السابق.

(90) وثائق وزارة الدفاع، دار المحفوظات، ووثائق حرب يونيو 67 - غير منشورة - ملف رقم 242/225 تقرير مجلس التحقيق في أوضاع القوات الجوية والدفاع الجوى، الباب الأول، ص 5.

(91) المصدر السابق، ص 6.

(92) المصدر السابق، نفس المكان.

وعندما زار الرئيس جمال عبد الناصر الاتحاد السوفيتى فى نوفمبر 1965 أعيدت الطلبات مرة أخرى، وقد وافق الجانب السوفيتى عليها جميعها مضافا إليها صفقة أخرى من القاذفات المقاتلة سوخوى 7. وكان الاتفاق مع الجانب السوفيتى أن يورد جزء من أجهزة الرادار خلال عام 1966.<sup>(93)</sup>

وفى أوائل عام 1967 حضرت لجنة من الخبراء السوفيت لدراسة موقف الدفاع الجوى فى الجمهورية العربية المتحدة برئاسة الجنرال بودجورنى، حيث أفاد بأن هناك عدد 8 أجهزة رادار بميناء أوديسا جاهزين للشحن، علما بأن خبراء التدريب على هذه الأجهزة وصلوا إلى مصر فى يناير 1976، أى قبل وصول الأجهزة التى لم تصل حتى بدء الحرب فى 5 يونيو.<sup>(94)</sup>

وعند سفر وزير الحربية شمس بدران إلى موسكو خلال الفترة من 24-28 مايو 1967 تكرر طلب هذه الأجهزة مرة أخرى على أن ترد بأطقم روسية لتشغيلها، وكذلك طلب طائرات الاستطلاع الإلكترونية بالأطقم الروسية والصواريخ الموجهة من الأرض للجو على الارتفاعات المنخفضة جدا ولكن لم يرد شىء.<sup>(95)</sup>

أما عن مشروعات التدريب التى أجريت خلال العام التدريبى 66/67 للقوات الجوية والدفاع الجوى فقد تمت بواقع مشروع كل ثلاثة شهور على مستوى شعبة عمليات الدفاع الجوى بأهداف حقيقية، وهى مشروع فخر ومشروع عاصم، وكذا تم إجراء مشروعات هيكلية وبأهداف حقيقية لاختبار مناطق الدفاع الجوى تقوم بإجرائها مناطق الدفاع الجوى.<sup>(96)</sup>

(93) المصدر السابق، نفس المكان.

(94) وثائق وزارة الدفاع - سخ دار المحفوظات المركزية العسكرية، وثائق حرب يونيو 1967، غير منشورة، تقرير الجنرال بودجورنى عن موقف الدفاع الجوى فى الجمهورية العربية المتحدة عام 1967.

(95) وثائق وزارة الدفاع، وثائق حرب يونيو 1967، غير منشورة، تقرير عن مهمة شمس بدران فى موسكو، كتبه عضوا الوفد السفير أحمد حسن الفقى وكيل وزارة الخارجية المصرية.

(96) وثائق وزارة الدفاع، وثائق حرب 67، غير منشورة، قيادة القوات الجوية، شعبة الدفاع الجوى، التعليقات التنفيذية للتدريب على القتال وخطة التدريب التعبوى والتكتيكي عن العام التدريبى 66 / 67 لتشكيلات ووحدات الدفاع الجوى.

كانت المشروعات تهدف إلى التدريب على صد هجوم الطائرات المنفردة والمجموعات من طائرات العدو من اتجاهات وارتفاعات مختلفة، وكانت الارتفاعات التي أجريت عليها هذه المشروعات تبدأ من 1000 متر، 2000 متر، 5000 متر، 8000 متر، 10.000 متر، 12.000 متر، وعلى أهداف حقيقية تى 16 واليوشن 28 وميج 17،21 لتمثل الأهداف المعادية.<sup>(97)</sup>

وهكذا نستطيع القول إنه لم تكن هناك جدية فى إعداد القوات الجوية والدفاع الجوى للعمليات والقتال، وأنه منذ عام 1956 وحتى بدء العمليات الحربية فى صباح يوم الخامس من يونيو 1967 لم يمكن خلق جهاز دفاع جوى متكامل وفعال وقادر على الدفاع الجوى عن أراضى وساء الجمهورية العربية المتحدة بكفاءة ضد العدو رغم الإمكانيات التى أعطيت للقوات الجوية للإعداد والقيام بمهامها على الوجه الأكمل، وذلك بأنه كان هناك تقصير فى إعداد الدشم الخرسانية والاهتمام بالإخفاء والتمويه لتوفير الحماية للطائرات رغم أن ذلك كان ممكنا على مدى 11 عاما تقريبا، وكذا التقصير فى إنشاء ممرات الهبوط التبادلية وإنشاء شبكة مراقبة جوية بالنظر يعتمد عليها وضعف مستوى التدريب فى مراكز العمليات بالمناطق والقواعد الجوية، وكل هذه من الإجراءات التى تقلل من آثار الضربة الجوية المفاجئة.

وبذلك نستطيع أن نحدد أى القوتين كان قادراً على حسم المعركة عندما تبدأ.

### الخطة " كولومب "

وضعت القيادة العسكرية الإسرائيلية الخطة كولومب عام 1957، واستغرق التدريب على تنفيذها عشر سنوات.<sup>(98)</sup>

(97) وثائق حرب يونيو 67، ملف رقم 242/225/3، مجلس تحقيق فى أوضاع القوات الجوية والدفاع الجوى قبل حرب 5 يونيو 1967، التقرير النهائى، ص 8.

(98) وثائق وزارة الدفاع المصرية، غير منشورة، ملف الخطة الإسرائيلية " كولومب " حصلت عليها المخابرات المصرية بوسائلها الخاصة بعد انتهاء حرب 5 يونيو 1967، والخطة كولومب هى نفسها خطة الضربة الجوية الأنجلوفرنسية التى استخدمتها بريطانيا وفرنسا فى حربها عام 1956 ضد مصر.. وهذه الضربة الجوية مشتقة من الخطة العامة موسكيتير المعدلة النهائية، وقد لعبت الولايات المتحدة الأمريكية دوراً كبيراً فى حصول إسرائيل على صورة منها.

وبعد اتخاذ القيادة السياسية الإسرائيلية قرار الحرب، اختارت القيادة العسكرية الإسرائيلية الوقت المناسب للقيام بضربة جوية كبيرة ضد القواعد والمطارات المصرية، لتكون الساعة 7:45 صباحاً بتوقيت إسرائيل أى الساعة 8:45 صباحاً حسب التوقيت المصرى يوم الخامس من يونيو، وقامت حسابات هيئة الأركان الإسرائيلية على أساس أنها تملك أربع ساعات تستطيع خلالها تدمير أو تجميد السلاح الجوى المصرى قبل أن تستطيع العودة لمواجهة القوات الجوية السورية والأردنية والعراقية.<sup>(99)</sup>

وضعت الخطة "كولومب" على أساس خروج الطائرات الإسرائيلية من المطارات الرئيسية الخمسة داخل إسرائيل على ارتفاع منخفض جداً من 30 إلى 50 متراً فوق سطح البحر، متجهة غرباً فوق مياه البحر الأبيض المتوسط، إلى نقطة ما تمركزت فيها سفينة الإرشاد والتوجيه والتشويش "ليرتى" الأمريكية وكانت هذه السفينة مجهزة بأجهزة إلكترونية حديثة لالتقاط الإرشادات اللاسلكية على قنوات وترددات كثيرة في المنطقة ومدى عملها يصل إلى 500 ميل وأجهزة توجيه إلكترونية من اتجاهات بحرية وأرضيه دقيقة جداً وأجهزة تداخل وتشويش لاسلكية على قنوات وترددات متعددة، وأجهزة إلكترونية لفك وحل أى شفرة كودية، وأجهزة اتصال دولية تربطها مع قيادتها في الولايات المتحدة الأمريكية والتنسيق مع قيادة القوات الجوية الإسرائيلية، وذلك في اتصال كودى دائم.<sup>(100)</sup>

حينما وصلت أسراب الطائرات الإسرائيلية فوق هذه النقطة الإرشادية في الجزء الجنوبي الشرقى من البحر الأبيض المتوسط، وهى نقطة ثابتة أخذت السفينة "ليرتى" بمساعدتها باتجاه ملاحى آخر إلى الهدف على الأراضى المصرية.<sup>(101)</sup>

جاءت هذه المساعدة الملاحية من السفينة لييرتى كمساعدة فنية كبيرة جداً لجميع الطيارين الإسرائيليين لعدم فقد اتجاههم الملاحى نحو هدفهم. إذ إنه لا يوجد طيار فى العالم يطير بطائرته على ارتفاع 50 متراً على سطح البحر، ويمكنه أن يضمن بقاءه فى اتجاهه

(99) المصدر السابق، انظر كذلك: أوبالانس، إدجار - الحرب الثالثة يونيو 67 بين العرب وإسرائيل، ترجمة مازن البندك، ص 56.

(100) وثائق وزارة الدفاع - غير منشورة - ملف الخطة "كولومب" سبق ذكره.

(101) المصدر السابق.

السليم، مهما كان متقيدا بعددات وأجهزة الطائرة الملاحية طوال المسافة بين إسرائيل وبورسعيد، وهى مسافة كبيرة نسبيا. ويجب أن لا ننسى أن الطائرة المقاتلة "الميراج" بها طيار واحد يقوم بمهمتين قائد وملاح فى نفس الوقت، لذلك قامت نقطة الإرشاد "ليبرتى" بمهمة توجيه وتصحيح اتجاه الطائرات الإسرائيلية وتوزيعها على أهدافها المحددة فى سيناء ومنطقة القناة. وكانت هذه المهمة هى مفتاح الضربة الجوية الإسرائيلية التى ساعدت على نجاحها.<sup>(102)</sup>

وقد خططت الضربة الجوية الإسرائيلية المفاجئة (الخطة كولومب) لتنفيذ فى نسقين يهاجم النسق الأول منها على امتداد 75 دقيقة القواعد الجوية والمطارات المصرية فى وقت واحد على قدر الإمكان وعلى موجات متلاحقة، على أن تعطى الأسبقية لضرب الممرات بقنابل خاصة وقنابل زمنية لإعاقة أعمال الإصلاح فى الأجزاء الرئيسية منها، ثم تدمير طائرات الاستعداد الأول والثانى ثم تدمير باقى الأهداف... ويعقب ذلك قيام النسق الثانى على امتداد 75 دقيقة أخرى لزيادة التدمير الذى حققه النسق الأول. ونصت الخطة على عدم تشتيت الموجات الأولى ضد وسائل الدفاع الجوى الأرضية أو الدخول فى معارك جوية، وذلك لتوفير أكبر قدر من التأثير.<sup>(103)</sup>

وحوت خطة كولومب دقائق كافة الأهداف المصرية المطلوب تدميرها وزودت القوات الجوية الإسرائيلية بها، كما تضمنت تفصيلات الرحلة الجوية من مطارات الإقلاع فى إسرائيل إلى القواعد والمطارات المصرية، وكذا رحلة العودة بحيث تتم داخل ممر جوى غير مغطى بشبكة الإنذار أو الدفاع المصرى، وذلك استناداً إلى نجاح وسائل المخابرات الإسرائيلية فى تحديد أوضاع وقدرات ومدى عمل وسائل ونظم الدفاع الجوى المصرى، الذى كان عاجزا عن اكتشاف أى أهداف جوية يقل ارتفاعها عن 500 متر.<sup>(104)</sup>

(102) المصدر السابق ، انظر كذلك محمد فوزى: مذكراته ، ص 139 ، مقابلة مع الفريق أول محمد فوزى ، سبق ذكرها.

(103) ملف الخطة كولومب ، مصدر سبق ذكره، انظر كذلك ، جاكسون ، روبرت: تاريخ القوات الجوية الإسرائيلية ، ص 65.

(104) ملف الخطة كولومب ، مصدر سبق ذكره، انظر كذلك ، روبنشتاين ، مورى وجولدمان ، ريتشارد: قصة القوة الجوية الإسرائيلية ، ترجمة محمد عبد الرحمن عطوة ، ص ص 88-95.

وحددت خطة كولومب ممرات الاقتراب من مطارات الإقلاع الإسرائيلية الموجودة في وسط إسرائيل لتكون في اتجاه الغرب وعلى ارتفاع يتراوح بين 20-30 متراً، وعند الاقتراب من المياه الإقليمية المصرية بين العريش ودمياط ينقسم النسق إلى ثلاث مجموعات معتمدا على منارات إرشاد لاسلكية من سفن مجهزة لذلك ومنارات إرشاد عائمة (سفينة الإرشاد والتوجيه والتشويش الأمريكية ليبرتي).. فالمجموعة الأولى تنسلك من الممر عندما تصل شمال العريش وتتجه طائراتها لتهاجم في وقت واحد مطارات سيناء: العريش، السر، الميلز، وتمادا.. والمجموعة الثانية تنسلك من الممر أمام بور سعيد وتتجه طائراتها لتهاجم في وقت واحد مطارات منطقة القناة: أبوصوير، فايد، وكبريت. والمجموعة الثالثة تنسلك من الممر شمال شرق دمياط وتتجه طائراتها لتهاجم في وقت واحد مطارات المنطقة المركزية: انشاص، ألماتة، القاهرة الدولي، وغرب القاهرة، ثم تهاجم مطارات قويسنا والمنصورة وبنى سويف والأقصر.<sup>(105)</sup>

واعتمد نجاح الضربة الجوية الإسرائيلية المفاجئة على مباغته كافة المطارات المصرية في وقت واحد ما أمكن. ومن هنا وضعت توقيتات إقلاع الطائرات المشتركة في الضربة من المطارات المختلفة مع مراعاة زمن الرحلة لكل مجموعة واختلاف سرعات وأنواع وأطرزة الطائرات بما يحقق ذلك.<sup>(106)</sup>

وجهزت خطة المناورة بالمطارات الإسرائيلية البالغ عددها 58 قاعدة جوية ومطاراً وأرض هبوط بحيث تقلع الطائرات المغيرة في الأوقات المحددة من مطارات: رامات دافيد، وعكبر، وقسطينة، وحاتسور، وبير السبع، وتمناع، وعوقدة، وحاتسوريم في وقت واحد منسق يضمن وصولها فوق الأهداف المحددة في وقت واحد تقريبا، رغما عن أن زمن الرحلة كان يتراوح بين 20-40 دقيقة!<sup>(107)</sup>

ونصت خطة كولومب على مهاجمة المطارات المصرية في اليوم الأول للقتال بما يضمن تدمير مطارات: العريش، والسر، والميلز، وتمادا، وأبوصوير، وفايد، وكبريت،

(105) ملف الخطة كولومب، مصدر سبق ذكره، انظر كذلك، جاكسون، روبرت: تاريخ القوات الجوية الإسرائيلية، ص 167.

(106) ملف الخطة كولومب، مصدر سبق ذكره.

(107) ملف الخطة كولومب، مصدر سبق ذكره.

والمنصورة، وانشاص، وقويسنا، وغرب القاهرة، وأماظة، وبنى سويف، والغردقة، والأقصر، ورأس بناس، كما نصت الخطة على تدمير محطات الرادار وكتائب الصواريخ المضادة للطائرات البالغ عددها 27 كتيبة. (108)

وتحقيقاً لأهداف خطة كولومب ارتضت أجهزة التخطيط الإسرائيلية أن تحشد كل ما تملكه من طائرات لشن الضربة الجوية المفاجئة وقبلت المخاطرة بترك سماء إسرائيل عارية دون غطاء جوى، إلا أنها عهدت للمظلات الأمريكية المنطلقة من حاملات الطائرات الأمريكية للدفاع عن سوائها. كما حرمت تقريباً قواتها البرية القائمة بالهجوم في الجبهة المصرية في نفس الوقت من معاونة جوية تكتيكية مستمرة. (109)

ولم تغفل خطة كولومب الاحتمالات غير المتوقعة التي قد تؤدي إلى الفشل، كأن تتصدى لطائراتها المغيرة مظلة جوية قوية لم تكن في الحسبان أو أن تكشف نية الضربة قبل شنها، فنصت في هذه الأحوال على عودة الطائرات فوراً إلى سماء إسرائيل للدفاع عنها. (110)

كما أوضحت الخطة الاستراتيجية الهجومية الإسرائيلية مدى أهمية نجاح الخطة كولومب على سير ونتائج الأعمال الحربية عامة، فربطت البدء في شن الأعمال البرية التعرضية الرئيسية بدرجة تحقيق النجاح المنشود من الضربة الجوية المفاجئة. (111)

ولم تأل الخطة جهداً في انتخاب أفضل توقيت لشنها وكانت القيود التي أمامها تفرض ضرورة إتاحة ضوء نهار يوم كامل لتنفيذها بأشد تأثير ونجاح، وضرورة انقشاع ضباب الصباح المعتاد فوق المطارات المصرية. فكان حتماً أن تبدأ الضربة الجوية في النصف الأول من النهار. وعزز من ذلك الاختيار وحدد التوقيت الدقيق لهذه الضربة إمام إسرائيل بدقائق نمط الحياة في القوات الجوية المصرية حيث كانت على يقين من أن درجة النشاط واليقظ تبلغ أدنى حالاتها فيما بين الساعة الثامنة والتاسعة صباحاً. ففي هذا الوقت يكون

(108) ملف الخطة كولومب، مصدر سبق ذكره.

(109) ملف الخطة كولومب، مصدر سبق ذكره.

(110) ملف الخطة كولومب، مصدر سبق ذكره.

(111) ملف الخطة كولومب، مصدر سبق ذكره.

طيارو الميغ الذين انتهوا من فترة التأهب عند الفجر قد عادوا إلى قواعدهم بعيدا عن طائراتهم وذهب معظم الطيارين والعاملين في الأطقم الأرضية لتناول إفطارهم. كما يكون معظم قادة القوات الجوية المصرية داخل سياراتهم في الطريق من منازلهم إلى قواعدهم.<sup>(112)</sup> ولا يستبعد أن تكون أجهزة المخابرات الإسرائيلية قد نجحت في معرفة موعد زيارة نائب القائد الأعلى المشير عبد الحكيم عامر وقائد القوات الجوية والدفاع الجوي ورئيس هيئة عمليات القوات المسلحة ورئيس شعبة الدفاع الجوي لجهة سيناء وأنهم يكونون جميعا في الجو فيما بين الساعة 800 - 900 صباحا، بالإضافة لوجود كل قادة الميدان في تمادا في استقبال المشير، وكذا معظم القادة في القاهرة في مطار ألماتة لتوديع المشير.<sup>(113)</sup>

#### الخداع في الخطة كولومب

أولت القوات الجوية الإسرائيلية وأجهزة تخطيطها اهتماما كبيرا بخداع القوات الجوية المصرية تحقيقا لمفاجأة الضربة الجوية، هذا بالإضافة إلى توفير الوسائل الرادعة الكفيلة بمنع استطلاعها الجوي من الحصول على معلومات حقيقية عن أوضاع وحجم القوات الجوية الإسرائيلية.<sup>(114)</sup>

وكان من أبرز ترتيبات الخداع الإسرائيلية يتركز في إخفاء تعديل مدى عمل طائرات الميراج، بإضافة خزانات وقود إضافية تزيد مسافاتها التكتيكية بمقدار الثلث بما يمكنها من الوصول إلى أبعد المطارات المزمع تدميرها.. وكذا الحد من النشاط الجوي الإسرائيلي في فترة التحضير للعملية المقبلة بما يعطى استنتاجات خاطئة عن حقيقة حجم ونوايا القوات الجوية الإسرائيلية. بالإضافة إلى مداومة المناورة بالمطارات مع تعمد إظهار بعض الطائرات فوق أماكن لا توجد بها مطارات حقيقية أو عاملة لإيقاع البلبلة في أجهزة الرصد والمتابعة والتخطيط المصرية.<sup>(115)</sup>

(112) أوبالانس ، ادجار: الحرب الثالثة بين العرب وإسرائيل ، ص56 ، انظر كذلك ، هرتزوج ، هايم: الحروب العربية الإسرائيلية 1948 - 1982 ، ص 178 .

(113) وزارة الدفاع المصرية - الجولة الإسرائيلية الثالثة صيف 1967 ، كود 16/11 ، ص 111 .

(114) المصدر السابق ، ص ص 145 - 147 .

(115) المصدر السابق ، ص ص 145 - 147 .

## الخطة قاهر

وضعت أسس الخطة قاهر بمعرفة قيادة المنطقة العسكرية الشرقية في بداية عام 1966، وأضافت هيئة عمليات القوات المسلحة بعض التعديلات عليها، وعرضت على المشير عبد الحكيم عامر، وصدّق عليها في أول ديسمبر 1966. (116)

وقامت القوات الجوية بوضع خطة جوية اشتقت من الخطة قاهر أطلق عليها اسم كودي "فهد" وهى للمعاونة المباشرة والاستطلاع، كما وضعت القوات البحرية خطة مساعدة وإسناد للقوات البحرية لحماية جنبات القوات البرية فى الدفاع عن سيناء ونظمت الفتح التعبوى لقواتها فى البحرين الأبيض والأحمر مسبقاً. (117)

وكانت المهمة التى خصصتها القيادة العليا للقوات المسلحة لقيادة المنطقة العسكرية الشرقية فى هذه الخطة تقضى بتركيز الجهود الرئيسى للقوات المسلحة المصرية للدفاع عن سيناء بغرض التثبيت بنطاقات دفاعية تكتيكية وتعبوية فيها، تقع على امتداد الاتجاهات التعبوية التى تؤدى من النقب إلى قناة السويس وإيقاع أشد الخسائر بالعدو المهاجم، مع تحمل بعض الخسائر فى القوات المدافعة، وذلك أثناء القيام برفع درجات الاستعداد والفتح التعبوى لباقي القوات، ثم خلق الظروف المناسبة للتحويل إلى الهجوم العام ودفع الاحتياطات التعبوية والاستراتيجية لنقل المعركة إلى أرض العدو والاستيلاء على المناطق الحيوية بها طبقاً لما يمليه الموقف عندئذ. (118)

(116) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، وثائق حرب يونيو 1967 - غير منشورة - ملف رقم 9 / 251 / 5 الخاص بالخطة قاهر.

(117) وثائق وزارة الدفاع المصرية ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب يونيو 1967 - غير منشورة - ملف رقم 8 / 251 / 5 ، خطة عملية القوات الجوية والدفاع الجوى " فهد " عن الخطة " قاهر " وهى موقعة من الفريق عادل أمين حافظ رئيس أركان القوات الجوية والدفاع الجوى وتصديق الفريق أول محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية والدفاع الجوى.

(118) وثائق وزارة الدفاع ، دار المحفوظات المركزية العسكرية ، وثائق حرب يونيو 1967 - غير منشورة - ملف رقم 9 / 251 / 5 ، فكرة العملية "قاهر" مستخرج من قرار نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة المشير عبد الحكيم عامر.

وكانت فكرة الدفاع في هذه الخطة، ترمى في جوهرها إلى السماح للعدو بالتورط في هجمات قوية، حيث يمكن للقوات المدافعة أن توقع به خسائر كبيرة. من هنا كان فرض قبول الضربة الجوية الأولى على مصر، وتقبل المبادأة من العدو في المرحلة الافتتاحية من العملية البرية، عاملاً مؤثراً على فكرة قرار قائد المنطقة العسكرية الشرقية، وكانت تقديرات القيادة بالنسبة لحجم قوات العدو التي ستقوم بالهجوم أقرب لما حدث فعلاً في الخامس من يونيو 1967.<sup>(119)</sup>

ورغم وجود الخطة " قاهر " وهي الخطة المعتمدة والتي تم التدريب عليها، إلا أن المشير عبد الحكيم عامر أخذ يصدر توجيهاته التي كان لها أسوأ الأثر، والتي لم يكن لها أدنى علاقة بالخطة التي صدق عليها في ديسمبر 1966.<sup>(120)</sup> وبذلك تم زوال الخطة " قاهر "، وتم معه خلخلة الدفاع عن سيناء كلياً نتيجة دفع جزء من القوات إلى منطقة رفح ودفع جزء آخر إلى منطقة الكونتلا.<sup>(121)</sup>

### الخطة "فهد"

وقد ربطت الفكرة الدفاعية كلا من القوات البرية والجوية والدفاع الجوي والبحرية بقيود التسليم للعدو بالمبادأة، وقبول تلقي الضربة الأولى وركزت على ضرورة تخفيف آثارها وتقليل الخسائر المترتبة عليها، ثم العمل على امتصاص الصدمة وإحباط القوة المدافعة لها توطئة لانتزاع المبادأة والتحول للهجوم العام.<sup>(122)</sup>

وقد بنى قرار الفريق أول صدقي محمود قائد القوات الجوية والدفاع الجوي في العملية "فهد" على أنه من المنتظر أن تقوم إسرائيل بعمل عسكري نشط ضد سوريا، وذلك باستخدام القوات الجوية الإسرائيلية بغرض تدمير القوات

(119) محمد فوزى، مذكراته، ص 100.

(120) وثائق وزارة الدفاع، ووزارة الحربية، ووثائق هيئة عمليات القوات المسلحة، توجيهات عمليات المشير رقم 67/15 بتاريخ 1967/5/20، ورقم 67/16 بتاريخ 1967/5/23، ورقم 67/17 بتاريخ 1967/5/26.

(121) محمد فوزى، مذكراته، ص 105.

(122) المصدر السابق، ص 105 - 106.

المسلحة السورية مركزة مجهودها على القوات الجوية السورية، وكذا انتزاع منطقة كمنطقة طبرية. (123)

وكانت مهام القوات الجوية والدفاع الجوي في العملية "فهد" أنه عند التأكد من أن عمليات القوات الجوية الإسرائيلية ضد الجمهورية السورية هي عمليات شاملة وليست عمليات جوية بسيطة على الحدود، وذلك خلال مدة الأربع وعشرين ساعة من بدء هجوم العدو الجوي على سوريا.. تكون مهام القوات الجوية هي تدمير القوات الجوية الإسرائيلية في قواعدها الجوية بالمنطقة الوسطى، وصد أي هجوم جوي معادٍ مضاد ضد القواعد الجوية والأهداف العسكرية والحوية المصرية. (124)

وبعد حشد القوات المسلحة في سيناء وتطور الأوضاع السياسية والعسكرية صدّق الفريق أول محمد صدقي محمود على خطة عمليات القوات الجوية والدفاع الجوي "فهد" يوم 19 مايو 1967 لتكون جاهزة للتنفيذ، إلا أن وثائق هذه الخطة قد خلت من تصديق المشير عبد الحكيم عامر نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة. (125) وربما يكون قد صدّق عليها شفاهة، ولكن هذا لا يجوز في أمور العمليات العسكرية.

وتلخص قرار الفريق أول صدقي محمود قائد القوات الجوية والدفاع الجوي في خطة العمليات "فهد" في استخدام المجهود الرئيسي للقوات الجوية في ضرب مطارات العدو الجوية بغرض تدمير القوات الجوية الإسرائيلية، وذلك بضربات مركزة متتالية على

(123) وثائق وزارة الدفاع، ووثائق حرب يونيو 1967 - غير منشورة - ملف رقم 21 / 251 / 5، قرار قائد القوات الجوية والدفاع الجوي عن عملية "فهد". وهذا القرار موقع من الفريق عادل أمين حافظ رئيس أركان القوات الجوية والدفاع الجوي، وكذا موقع من الفريق أول صدقي محمود قائد القوات الجوية والدفاع الجوي، ومصدق عليه من المشير عبد الحكيم عامر نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة.

(124) المصدر السابق.

(125) وثائق وزارة الدفاع - غير منشورة، ووثائق حرب يونيو 1967، ملف رقم 21 / 251 / 5، خطة عمليات القوات الجوية والدفاع الجوي "فهد"، وهذه الخطة موقع عليها الفريق أول جمال الدين عفيفي رئيس أركان القوات الجوية والدفاع الجوي والذي حل محل الفريق عادل أمين حافظ وموقع عليها أيضا من الفريق أول محمد صدقي محمود قائد القوات الجوية والدفاع الجوي بتاريخ 19 / 5 / 1967، وفي المكان المخصص للمشير عبد الحكيم عامر لا يوجد توقيع له.

المطارات وضرب محطات الإنذار والتوجيه ودفاعاته المضادة للطائرات. وكذا يركز المجهود الرئيسى فى صد وتدمير قوات العدو الجوية عند قيامها بضرباتها الجوية الانتقامية.<sup>(126)</sup>

ويعتبر اعتداء إسرائيل على سوريا هو الأمر الإنذارى للاستدعاء وتمام الاستعداد بعد 6 ساعات. ويتم تنفيذ الضربة المركزة الأولى عند صدور الاسم الكودى "فهد".<sup>(127)</sup> وبينما كانت القيادة العسكرية الإسرائيلية وخاصة قواتها الجوية تضع اللمسات الأخيرة لتنفيذ خطة تم الإعداد لها والتدريب عليها لسنوات طويلة مضت، كانت الصورة على الجانب المصرى تتميز بالتغير المستمر فى الخطط التى وصل عددها فى القوات الجوية إلى خمس خطط لا تقدر العدو الإسرائيلى التقدير السليم، لأنها اعتمدت على معلومات غير سليمة.

#### حجم قوات الطرفين

لقد قامت القوات الجوية الإسرائيلية بالفتح التبعوى لتشكيلاتها ووحداتها الجوية فى أضيق الحدود، حيث ظلت هذه التشكيلات فى قواعدها التى كانت تتمركز بها قبل الرابع عشر من مايو 1967.

وكان حجم القوات الجوية الإسرائيلية فى ربيع 1967 - حسب المصادر الأجنبية - حوالى 337 طائرة موزعة كالتى: 3 سرب ميراج بقوة 72 طائرة، سرب سوبر مستير بقوة 18 طائرة، وسربين مستير 14 بقوة 40 طائرة، وسربين أوريان بقوة 40 طائرة، وسرب فوتور بقوة 24 طائرة، وسربين فوجا ماجستير بقوة 60 طائرة، وتستخدم فى تدريب طلبة الطيران، وسربين نقل داكوتا ونور أطلس وستراتوكروزر بقوة 38 طائرة، بالإضافة إلى حوالى 20 طائرة هليكوبتر، 25 طائرة مواصلات خفيفة.<sup>(128)</sup>

أما عن حجم وأوضاع القوات الجوية والدفاع الجوى الإسرائيلية حسب المصادر

(126) المصدر السابق.

(127) المصدر السابق.

(128) جاكسون، روبرت - تاريخ القوات الجوية الإسرائيلية، ص 165.

المصرية وقبل حرب الخامس من يونيو 1967 مباشرة، فقدرت بحوالى 517 طائرة على الوجه الآتى: (129)

- مقاتلات اعتراضية: 3 سرب ميراج 3 ج 72 طائرة، سرب مستير ب 2 24 طائرة، وسرب ميتور 13، 8، 24 طائرة.
- مقاتلات قاذفة: 3 سرب مستير 14 72 طائرة، 3 سرب أورانجان 72.
- القاذفات: سربان فوتور 2 24 طائرة، بالإضافة لصفقة القاذفات سكاى هوك الأمريكية.
- طائرات التدريب والهجوم الأرضى: 4 سرب فوجا ماجستر 100 طائرة.
- طائرات النقل: 3 سرب نور أطلس 48 طائرة، 3 سرب داكوتا وكوماندوز 24 طائرة، سرب سترا توكروزر 5 طائرات، 3 سرب هليكوبتر 36 طائرة، وسرب نقل من 12 - 16 طائرة.

إلا أن اللواء طيار إسماعيل لييب رئيس شعبة عمليات الدفاع الجوى قدر حجم القوات الجوية المعادية بحوالى 255 طائرة الصالح منها حوالى 215 - 220 طائرة، وتخصص من هذا العدد حوالى 48 طائرة للدفاع الجوى المحلى فى إسرائيل وتجميد جبهتى الأردن وسوريا، وبذلك يكون العدد المتبقى فى مواجهة الجبهة المصرية حوالى 172 طائرة. (130)

ولكن العقيد طيار على منصور رئيس فرع الاستطلاع والمعلومات بقيادة القوات الجوية والدفاع الجوى، كان لديه علم بصفقة طائرات السكاى هوك وعددها 50 طائرة، حيث طلب من اللواء طيار إسماعيل لييب رئيس شعبة عمليات الدفاع الجوى وضعها فى

(129) وثائق وزارة الدفاع، دار المحفوظات المركزية، ملف رقم 5/251/25، حجم وأوضاع القوات الإسرائيلية خلال المدة من 15/5/1967 الى 5/6/1967، وقدر الفريق أول محمد فوزى حجم القوات الجوية الإسرائيلية بحوالى 523 طائرة منها 390 طائرة مقاتلة، مقاتلة قاذفة وقاذفة، 77 طائرة نقل مظليين ومواصلات، و56 طائرة هليكوبتر. ارجع لذكرات الفريق أول محمد فوزى، ص 90.

(130) وثائق وزارة الدفاع، وثائق حرب يونيو 1967 - غير منشورة - ملف رقم 3/225/242، قضية الطيران والدفاع الجوى، أقوال اللواء طيار إسماعيل لييب.

الاعتبار عند تقدير الموقف.<sup>(131)</sup> إلا أن اللواء طيار إسماعيل لبيب لم يضعها في الاعتبار، فجاء التقدير مخالفاً للواقع والحقيقة.

وقد نجحت القوات الجوية الإسرائيلية في الوصول بنسبة صلاحية الطائرات الى 98% قبل بدء حرب يونيو 1967. ووضح تقرير المخابرات المصرية أن القواعد والمطارات الإسرائيلية تنقسم إلى أربعة أنواع هي:<sup>(132)</sup>

- 1- القواعد الجوية الرئيسية، وهي القواعد التي تتواجد بها أسراب السلاح الجوي بصفة مستمرة وهي: عكير، حاتسور، رمات دافيد، وحتسريم.
  - 2- مطارات رئيسية درجة أولى، وهي مطارات رئيسية تصلح لاستقبال أسراب السلاح الجوي في أي وقت ودون أي ترتيبات وهي: اللد، تل أبيب، وحيفا.
  - 3- مطارات رئيسية درجة ثانية - متكاملة إدارياً، وتحتاج لتشغيلها 6 - 12 ساعة لحين وصول أفراد تشغيلها وهي: مجدو، عين شمير، كفار سركسين، تيمان، وإيلات.
  - 4- مطارات تستخدم وقت العمليات والطوارئ، وتحتاج لتجهيزات فنية وإدارية وهي: سان جين، هرتسليا، البصة، روشينا، القدس، بيت داراس، ديمونا، متسادا، والرملة.
- وقد تأكد بعد توقف القتال أن إسرائيل كانت تملك صباح 5 يونيو 1967، 58 قاعدة جوية ومطار وأرض نزول، وكذا كانت تملك 12 محطة رادار في المنطقة الشمالية، 10 محطات في المنطقة الوسطى، و4 محطات في المنطقة الجنوبية.<sup>(133)</sup>

وقد قدر العقيد طيار على منصور رئيس فرع المعلومات والاستطلاع بقيادة القوات الجوية والدفاع الجوي أنه في أي الحالات، سواء كانت إسرائيل ستقوم بعمل عدواني شامل ضد الجمهورية العربية المتحدة أو القيام بعمل عدواني ضد إحدى الدول العربية مع اتخاذ وضع الدفاع ضد الجمهورية العربية المتحدة، فإنها ستقوم بضربة جوية مفاجئة

(131) المصدر السابق، أقوال العقيد طيار على منصور، انظر كذلك تعليقات عمليات رقم 67/61 بتاريخ 15/5/1967.

(132) وثائق وزارة الدفاع، دار المحفوظات المركزية العسكرية - غير منشورة - ملف رقم 251/25/5، تقرير إدارة المخابرات الحربية المصرية.

(133) وزارة الدفاع، هيئة البحوث العسكرية، الجولة العربية الإسرائيلية الثالثة، كود 6/11، ص 95.

ضد الجمهورية العربية بقصد تدمير قواعد الصواريخ ومحطات الرادار، والمطارات والطائرات، والمعابر المائية على القناة والمدرعات ومناطق الحشد.<sup>(134)</sup>

وبالنسبة لتقدير قوة العدو الجوية وقدرة جهاز الدفاع الجوي المصرى بما فيه من مصاعب على صد الضربة الجوية المفاجئة، فقد قدرها الفريق أول محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية والدفاع الجوي بأنها قادرة على العمل على ثلاث جبهات في مصر وسوريا والأردن، فقد توقع صدقى محمود أن تكون الضربة الأولى موجهة ضد مطارات سيناء، وأن وحدات الدفاع الجوي بما فيها من مصاعب كان يمكنها أن تتعامل بالمدفعية المضادة للطائرات من مطارات سيناء وبالمقاتلات من قواعد القناة في حالة مهاجمة مطارات سيناء.<sup>(135)</sup>

كما قدرت قيادة القوات الجوية وعلى رأسها الفريق أول صدقى محمود قوة إسرائيل الجوية بحوالى 250 طائرة منها 25٪ عدم صلاحية 25٪ للدفاع الجوي فيتبقى ما مقداره 130 طائرة لمواجهة ثلاث دول، وكان في تقديره أن حوالى 30٪ تخصص أمام جبهات سوريا والأردن، وأن المنتظر استخدامه أمام الجبهة المصرية هو 80 - 90 طائرة تستخدم في أنساق، وأن النسق الأول من هذا العدد ليس أكثر من 50 - 60 طائرة. ومن هنا جاء تقديره وتقدير قيادته على أساس أن الهجوم الذى ستوجهه إسرائيل ضد الجبهة المصرية لا يمكن أن يكون ذات تأثير إلا ضد مطارات سيناء وحدها فقط، وبذلك يمكنه التعامل مع هذه الأعداد بواسطة القواعد الجوية في منطقة القناة والمنطقة المركزية الجوية.<sup>(136)</sup>

كما وضح الفريق أول صدقى محمود أن جهاز الدفاع الجوي يستطيع أن يقوم بصد الضربة المفاجئة إذا كانت من قوة إسرائيل فقط وبإمكانياتها حسب المعلومات المتوفرة لدى قيادة القوات الجوية، وكان فعلا في مقدور القوات الجوية صد الضربة الجوية

(134) وثائق وزارة الدفاع، دار المحفوظات المركزية العسكرية - غير منشورة - ملف رقم 25/251/5، تقرير العقيد طيار على منصور رئيس فرع المعلومات والاستطلاع بقيادة القوات الجوية والدفاع الجوى.

(135) وثائق وزارة الدفاع، دار المحفوظات المركزية، وثائق حرب يونيو 1967 - غير منشورة - ملف رقم 242/225/3، قضية الطيران والدفاع الجوى، أقوال الفريق أول محمد صدقى محمود.

(136) المصدر السابق.

المفاجئة بالرغم من المصاعب الموجودة في جهاز الدفاع الجوي، وأن تقديره للخسائر المتوقعة من 15 إلى 20٪ تحدثها إسرائيل بالقوات الجوية المصرية وبعدها يستطيع التعامل مع إسرائيل، وأن قبوله للضربة الأولى من قوة إسرائيل فقط كان سيسبب للقوات الجوية بعض النقص في القوة ولكن لا يقعدها تماما عن العمل.<sup>(137)</sup>

وأوضح الفريق أول صدقي محمود أن السبب الرئيسي لنكسة القوات الجوية المصرية هو أنه هوجم فعلا بإمكانيات علمية وفنية وأسلحة جديدة تستخدم لأول مرة وبأعداد كبيرة من الطائرات تفوق ما تملكه إسرائيل بكثير، علاوة على المساعدات الفنية من استطلاع إلكتروني وتشويش على شبكات الاتصال والتداخل الرادارى، وهذا لا يأتي إلا بتدخل الولايات المتحدة الأمريكية والأسطول السادس لما يملكه من إمكانيات تكنولوجية حديثة ومتقدمة.<sup>(138)</sup>

وهكذا نجد أنه كان هناك العديد من الأخطاء التي وقعت فيها قيادة القوات الجوية والدفاع الجوي من ناحية تحليل قدرة العدو وإمكانياته الحقيقية والتي تعتمد بالدرجة الأولى على المعلومات الواردة من إدارة المخابرات والاستطلاع أو فرع المعلومات والاستطلاع بقيادة القوات الجوية والدفاع الجوي. حيث كان الكثير من هذه المعلومات متضاربا أو قاصرا عن كشف مواطن القوة والضعف في إمكانيات العدو.

ولم تكن القوات الجوية المصرية تعاني من القصور الشديد في المعلومات فقط، وإنما كانت تبتلع المعلومات المضللة بصورة غريبة. وقد ترتب على ذلك الوقوع فى أخطاء فادحة فى أثناء دراسة العدو وتقدير الموقف، مما ترتب عليه الخروج بقرارات خاطئة تماما.

ومن هذه المعلومات ما ورد فى مذكرات فرع المعلومات والاستطلاع، فقد ورد فى بند نشاط القوات الجوية الإسرائيلية ونياتها المستقبلية.. "ونظرا لإمكانيات إسرائيل فإنه لا يمكنها الحصول على السيطرة الجوية الشاملة فى جميع قطاعات مسرح العمليات، ولكن يمكنها حشد مجهود جوى كبير للحصول على السيطرة المحلية الوقتية فوق قطاع معين

(137) المصدر السابق.

(138) المصدر السابق.

ولفترة وجيزة".<sup>(139)</sup> وما حدث بالفعل كان عكس ذلك تماما حيث تمكنت إسرائيل من تحقيق السيطرة الكاملة على كامل مسرح العمليات.

كما جاء في الاستنتاجات أن إسرائيل ستحاول جاهدة بدء هذه العمليات قبل آخر ضوء بحوالى 7 - 8 ساعات، حتى يمكنها استغلال فترة الليل في التجهيز لعمليات أول ضوء اليوم التالي مع القيام بعمليات من القاذفات ليلا.<sup>(140)</sup>

وكذا ستقسم إسرائيل القوات الجوية إلى طائرات للدفاع المحلى وتحدد عددها من 30 - 32 طائرة، وطائرات للهجوم على الجمهورية العربية المتحدة وتحدد عددها من 120 - 132 طائرة لهذا الغرض.<sup>(141)</sup>

كما جاء أيضا أن فترة إعادة الملئ بالوقود والذخيرة تستغرق من 2 - 3 ساعات، وأن مدى الطائرات الإسرائيلية على الارتفاعات المنخفضة جدا كان 240 كم للطائرات الميراج، 120 كم للطائرات السوبر مستير، 160 كم للطائرات المستير، 125 كم للطائرات الأورجان، و270 كم للطائرات الفوتور.<sup>(142)</sup> ومن استعراض هذا المدى للطائرات يتضح أن السلاح الجوى الإسرائيلي لن يتمكن من الوصول إلا إلى مطارات سيناء على الارتفاعات المنخفضة جدا.

وقد استغلت القوات الجوية الإسرائيلية فترة التوتر في تنفيذ طلعات استطلاع مخططة ولتحقيق أهداف محددة. ولكى تتعود أجهزة الدفاع الجوى المصرى على أسلوب روتينى فقد ظلت القوات الجوية الإسرائيلية تدفع ببعض طائراتها لتطير بمحاذاة ساحل سيناء صباحا ليبدو الأمر وكأنه استطلاع يومى نمطى. وقد استمر ذلك حتى الرابع من يونيو 1967 حين اكتشفت طائرات إسرائيلية بين بور سعيد وبلطيم وأقلعت أربع طائرات ميج 21 من انشاص للاشتباك معها، لكن عادت طائرات العدو شرقا. ولم يتنبه أحد في هذا

(139) المصدر السابق.

(140) المصدر السابق.

(141) المصدر السابق.

(142) وثائق وزارة الدفاع، دار المحفوظات المركزية - غير منشورة - مذكرة فرع المعلومات والاستطلاع الجوى الصادرة في 17/5/1964 والمعدلة في 1/3/1965.

الوقت إلى تكرار مثل هذا العمل وفي توقيت ثابت بين الثامنة والنصف والتاسعة صباحاً وهو نفس ميعاد الضربة الجوية.<sup>(143)</sup>

لقد دار التخطيط للقوات الجوية والدفاع الجوي المصري فيما بين 14 مايو، 5 يونيو 1967 من مركز القيادة الرئيسي بالجيش في انعزال تام عن القوات البرية والبحرية، كما وضعت الخطط بمعرفة المنطقة الجوية الشرقية والمنطقة الجوية المركزية. وتوالت الخطط في هذه المرحلة من "فهد" التي تقضى بتلقى الضربة الجوية الأولى ثم القيام بالضربة المضادة حيث تكون فيها الطائرات المصرية فوق أهدافها المحددة بعد ساعتين من صدور الأمر لها بذلك. ثم الخطة "أسد" الخاصة بضرب مطار ايلات جواً. ثم الخطة "شامل" التي قضت بإعادة تمركز الطائرات بالمطارات بما يضمن اتخاذها أوضاعاً أنسب لتلقى الضربة الجوية الأولى بأقل خسائر. وكانت هذه الخطط مجرد خطط على ورق لم تدخل حيز التدريب عليها وإتقانها، ثم حيز التنفيذ.<sup>(144)</sup>

ورغم تعدد الخطط وكثرة التغيير فيها من الدفاع إلى الهجوم فلم يتم تغيير كبير في تمركز الوحدات الجوية إلا في أضيق الحدود، وحتى بعد توجيه القيادة السياسية في الثاني من يونيو 1967 بضرورة الاستعداد لتلقى الضربة الأولى المنتظرة من إسرائيل. وكان من الصعب إعادة تمركز الوحدات الجوية المنتشرة في مطارات سيناء والقناة حيث كانت كلها مشتركة في خطة الدفاع الجوي، نظراً لعدم وجود كتائب صواريخ مضادة للطائرات في كل منطقة سيناء، علاوة على أن شبكة المطارات نفسها لم تكن تكفى لمثل هذا الانتشار. ونتيجة لكل هذا قامت قيادة القوات الجوية والدفاع الجوي بتوزيع وحداتها الجوية لتكون صباح الخامس من يونيو 1967 في الأوضاع الآتية:<sup>(145)</sup>

(143) هيئة البحوث العسكرية، الجولة الثالثة، كود 6/11، ص 186.

(144) وثائق وزارة الدفاع، دار المحفوظات المركزية العسكرية - غير منشورة - وثائق حرب يونيو 1967، ملف رقم 3/185، وثائق شعبة العمليات الجوية.

(145) وثائق وزارة الدفاع، المصدر السابق، وثائق شعبة العمليات الجوية، ملف رقم 3/181، حجم وأوضاع وتمركز القوات الجوية المصرية.

م	القاعدة/ المطار	عدد الطائرات ونوعها	عدد الطيارين
1	مطار العريش	6 طائرات ميغ 15، ميغ 17	8 طيارين
2	مطار السر	6 طائرات ميغ 15	9 طيارين
3	مطار تمادا	8 طائرات ميغ 17	9 طيارين
4	قاعدة المليز	14 طائرة ميغ 21+3 طائرات ميغ 19+4 طائرات هليكوبتر مي 6+2 طائرة ميغ 15	18 طيارا
5	قاعدة أبو صوير	19 طائرة ميغ 21+31 طائرة اليوشن 28	18 طيار ميغ 21+34 طاقما
6	قاعدة فايد	17 طائرة سوخي 7+12 طائرة ميغ 21	18 طيارا+طيار فرقة سوخي عقدت يوم مايو 1967
7	قاعدة كبريت	22 طائرة ميغ 15 من طائرات اللواءات التي سحبت من مطارات سيناء يوم 3/6/1967 لتخفيف القوة بهذه المطارات	14 طيارا
8	قاعدة الغردقة	6 طائرات ميغ 21+12 طائرة ميغ 19	8 طيارين ميغ 21+15 طيار ميغ 19
9	قاعدة أنشاص	16 طائرة ميغ 21 نهاري+20 طائرة ميغ 21 ليلي	10 طيارين+16 طيارا
10	قاعدة غرب القاهرة	26 طائرة ميغ 15، 17+13 طائرة سوخي 7+3 طائرات سوخي 7 تحت التركيب+7 طائرات تي-16	52 طيارا
11	قاعدة بنى سويف	17 طائرة تي-16	17 طاقما، والطاقم يتكون من 6 أفراد
12	قاعدة المأظة	45 طائرة اليوشن 14+23 طائرة هليكوبتر	22 طاقما
13	قاعدة شرق القاهرة	22 طائرة أنتنوف 12	

وكان حجم القوات الجوية المصرية في صباح الخامس من يونيو 1967 391 طائرة، منها 278 طائرة مقاتلة ومقاتلة قاذفة خفيفة ومتوسطة، وكان بيانها كالاتي: (146).

م	نوع الطائرة	القوة	صالح	غير صالح	ملاحظات
1	ميج 21	91	76	15	12 طائرة بجناح الصيانة- طائرة حادث-2 بالورش.
2	سوخوي 7	16	15	1	كان هناك 16 طائرة أخرى تحت التركيب.
3	ميج 17	69	47	22	14 طائرة بالورش - 6 طائرات بجناح الصيانة.
4	ميج 15	26	12	14	6 طائرات بالورش - 8 طائرات بجناح الصيانة.
5	ميج 19	26	19	7	2 طائرة بجناح الصيانة - 5 طائرات متوقفة بسبب قطع الغيار.
6	اليوشن 28	27	24	3	3 طائرات بالورش.
7	تي- يو 16	24	24	-	
8	اليوشن 14	49	43	6	3 طائرات بالورش - 4 طائرات بجناح الصيانة.
9	انتوف-12	22	21	1	طائرة بالورش حادث.
10	هليكوبتر	42	34	8	4 طائرات بالورش - 4 بجناح الصيانة.

وقدر الفريق أول محمد فوزي حجم القوات الجوية المصرية بحوالى 260 طائرة مقاتلة قاذفة وقاذفة خفيفة وثقيلة، منها 200 طائرة صالحة للاستخدام يقودها 150 طياراً فقط تمركزت في 10 قواعد ومطارات رئيسية منها 4 مطارات في سيناء (34 طائرة مقاتلة قاذفة)، 3 مطارات في منطقة القناة (66 طائرة مقاتلة قاذفة، 24 طائرة قاذفة خفيفة)، وباقي الطائرات المقاتلة القاذفة في مطارات المنطقة المركزية والدلتا. (147)

(146) المصدر السابق.

(147) محمد فوزي، مذكراته، ص 88.

أما القاذفات الثقيلة تى - 16 وعددها 24 طائرة فكانت متمركزة في قاعدتى غرب القاهرة وبنى سويف. وظلت 74 طائرة سوخى وميج 21 جديدة تحت التركيب في مخازنها ولم يكن لها طيارون.<sup>(148)</sup>

كان تمركز جميع الطائرات في 10 مطارات ومعظمها ذات ممر واحد فقط، قد سهل على العدو مهاجمتها وتدميرها في أقصر وقت ممكن، وخلت مطارات أخرى كثيرة في عمق الدولة فلم تشغلها طائرات القوات الجوية مثل: المنيا - دراو - أسوان - الوادى الجديد - رأس بناس - وكان السبب في ذلك هو نقص عدد الفنيين، ونقص المساعدات الفنية وأفرادها في القوات الجوية.<sup>(149)</sup>

### شكل الهجوم الجوى الإسرائيلى

قدرت إسرائيل هذا الأسلوب النمطى للقوات الجوية المصرية واستغلته أحسن استغلال في تحديد موعد الضربة الجوية. ففي الساعة السابعة وخمس عشرة دقيقة بتوقيت إسرائيل الثامنة والربع بتوقيت القاهرة من يوم الخامس من يونيو 1967، بدأ إقلاع طائرات القوات الجوية الإسرائيلية من مطارات إسرائيل متجهة غربا فوق البحر المتوسط على ارتفاع منخفض جدا. ولم يبق في إسرائيل سوى اثنتى عشرة طائرة للحماية، ثمان منهم في مظلات جوية وأربع طائرات على الأرض في حالات الاستعداد الأولى. كانت إسرائيل تقامر على أن تكسب أو تخسر كل شىء، ولكنها كانت مخاطرة محسوبة بدقة. ثم انقسمت الطائرات المتجهة غربا إلى ثلاث مجموعات:<sup>(150)</sup>

المجموعة الأولى، وقد انفصلت طائراتها من التشكيل أمام سواحل شرق سيناء، وبدأت هجومها ضد مطارات: سيناء، العريش، السر، تمادا والمليز، فيما بين الساعة 842 - 843.

والمجموعة الثانية، وقد انفصلت طائراتها عن التشكيل أمام سواحل غرب سيناء عند منطقة رمانة، وبدأت هجومها ضد مطارات: القناة، أبو صوير، فايد، وكبريت فيما بين الساعة 848 - 850.

(148) المصدر السابق، نفس المكان.

(149) المصدر السابق، نفس المكان.

(150) راندلوف، ونستون تشرشل: حرب الأيام الستة، ص 82، انظر كذلك هرتزوج، حاييم: الحروب

العربية الإسرائيلية، ترجمة بدر الرفاعى، ص 178.

والمجموعة الثالثة، دخلت الأراضي المصرية من الساحل في المنطقة بين بورسعيد ودمياط، وبدأت هجومها ضد مطارات: وادي النيل، انشاص، غرب القاهرة، وبنى سويف، فيما بين الساعة 855 - 910.

وبهذا كان إجمالي المطارات التي هوجمت في الضربة الأولى عشرة مطارات، منها ست قواعد جوية رئيسية هي: أنشاص، غرب القاهرة، كبريت، أبوصوير، فايد، والمليز في التوقيتات التي يوضحها الجدول التالي، والباقي ضرب بعد ذلك: (151)

م	القاعدة/ المطار	التوقيت	ملاحظات
1	مطارات سيناء: • العريش - تمادا - المليز • السر	842 843	
2	قواعد منطقة القناة: • قاعدة أبوصوير الجوية • قاعدة فايد الجوية • قاعدة كبريت الجوية	848 849 850	
3	قواعد المنطقة المركزية: • قاعدة انشاص الجوية • قاعدة غرب القاهرة الجوية • قاعدة بنى سويف الجوية	855 855 910	
4	قواعد المنطقة الجنوبية: • مطار الغردقة الجوى • مطار الأقصر الجوى	1300 1400	لجأت لمطار الأقصر بعض طائرات تى- 16 (5 طائرات) التي كانت في طلعات تدريب وأنتينوف 12 التي كانت قادمة من اليمن.
5	مطار برنيس الجوى	1830	لم يكن به طائرات.. وكان العدو يقصد تدمير الممرات لتصعيب عودة أى قاذفات اليوشن 28 قادمة من اليمن.

(151) وثائق وزارة الدفاع - دار المحفوظات المركزية العسكرية - ملف رقم 5/157/5، انظر كذلك وثائق وزارة الدفاع - غير منشورة - ملف رقم 3/225/242، قضية الطيران.

وقد اختيرت توقيت الهجوم الجوي بذكاء وفطنة حين يكون المصريون في أقل حالات الاستعداد ويكون ضباب الصباح قد بدأ في الانقشاع، بالإضافة إلى أن معظم قادة القوات الجوية المصرية يكونون في الطريق إلى قواعدهم. كما توافق مع ساعة الهجوم الفعلي وجود طائرة المشير عبد الحكيم عامر في الجو، وما نتج عن ذلك من تقييد لنيران المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات. كما كانت هناك حالة تأهب صباحى يومى 3، 4 يونيو إلا أنها ألغيت صباح الخامس من يونيو 1967.<sup>(152)</sup>

وفي الساعة 7:30 بتوقيت إسرائيل ظهرت على شاشات الرادار الإسرائيلي طائرة المشير عبد الحكيم عامر اليوشين 14 في اللحظة التي كانت تنطلق فيها الطائرات الإسرائيلية إلى أهدافها، وقد سبب هذا بعض المخاوف لدى الميجور جنرال موردخاي هود قائد القوات الجوية الإسرائيلية فلما أنها طائرة استطلاع مصرية سوف تستطيع خلال دقائق اكتشاف مجموعات الطائرات المهاجمة وإنذار القوات الجوية المصرية وأجهزتها الدفاعية الجوية.<sup>(153)</sup> وعلى أى حال فإن هذا لم يحدث بالرغم من مشاهدة قائد القوات الجوية المصرية وكذا المشير عبد الحكيم عامر وباقي المرافقين الهجوم الجوي الإسرائيلي على قاعدة أبوصوير. وعادت طائرة المشير عامر على ارتفاع منخفض جدا إلى المأظرة، ثم تحولت إلى مطار القاهرة الدولي حيث هبطت هناك وبعدها توجه قائد القوات الجوية إلى مركز عملياته بالجيشى والمشير عامر إلى مركز العمليات بمدينة نصر.<sup>(154)</sup>

وبعد انتهاء هذه الهجوم الرئيسية الأولى قام العدو بهجمة مماثلة تماما بفواصل زمنى

(152) أوبالانس، ادجار: الحرب الثالثة بين العرب وإسرائيل، ص 56-57، انظر كذلك مقابلة مع اللواء أركان الحرب يحيى أحمد فؤاد قائد المدفعية المضادة للطائرات إبان حرب يونيو 1967، بمكتب الباحث بقيادة الدفاع الجوى يوم 15 أكتوبر 1994. ذكر اللواء يحيى فؤاد أن حالة التأهب قد ألغيت في مساء يوم 4 يونيو 1967، انظر كذلك مقابلة مع اللواء أركان الحرب حسن البدرى يوم 4 سبتمبر 1994 بمتزله بمصر الجديدة، حيث أكد للباحث أن حالة التأهب قد ألغيت مساء يوم 4 يونيو 1967، وأن مركز العمليات الرئيسى بالمقر العام للقوات المسلحة بمدينة نصر قد أغلق مساء يوم 4 يونيو 1967، وأن جميع القيادات تركوا المركز وذهبوا للمبيت في بيوتهم.

(153) أوبالانس، ادجار، المرجع السابق، ص 57.

(154) وثائق وزارة الدفاع - دار المحفوظات المركزية - غير منشورة - ملف رقم 242/225/3، مجلس التحقيق في أوضاع القوات الجوية والدفاع الجوى.

قدره من 10 - 15 دقيقة. وبذلك تكون الهجمة الجوية المركزة على المطارات الرئيسية قد استغرقت حوالى 150 دقيقة.<sup>(155)</sup> استطاعت القوات الجوية الإسرائيلية خلالها إخراج القوات الجوية المصرية من المعركة بعد أن دمرت خلال هذه الدقائق عشر قواعد ومطارات وحوالى 70٪ من إجمالى الطائرات بها، تتلخص فى تدمير 79 طائرة ميج 21، 17 طائرة ميج 19، 46 طائرة ميج 17، 28 طائرة ميج 15، 23 طائرة تى يو 16، 34 طائرة اليوشن 28، 7 طائرات انتينوف 12، 20 طائرة اليوشن 14، 13 طائرة هليكوبتر.<sup>(156)</sup>

ثم استمرت الهجمات على القواعد والمطارات المصرية بصورة أخف طيلة يوم 5 يونيو بفواصل زمنية من 20 - 30 دقيقة. وقد تم ما يقرب من 5 - 6 هجمات متتالية.<sup>(157)</sup>

تميزت الفترة ما بين الساعة 10:35 وظهر يوم الخامس من يونيو، وهى الفترة التى قضتها الطائرات الإسرائيلية فى التزود بالوقود وإصلاح الطائرات المعطوبة بالترقب القلق، خوفاً من أى هجمات جوية ضد إسرائيل يمكن أن تقوم بها قاذفات القنابل الاستراتيجية المصرية أو أية قوة عربية أخرى. وبدون شك تنفس الإسرائيليون الصعداء حين لم يحدث ذلك. وطار فى سماء إسرائيل عدد من الطائرات لمواجهة أى احتمال.<sup>(158)</sup>

وللأسف الشديد كان التصرف السلبي من القيادة السورية فى عدم تنفيذ طلب الفريق عبد المنعم رياض فى الوقت المناسب وهو حوالى الساعة التاسعة والنصف من صباح 5 يونيو بقيام الطيران السورى بضرب مطارات شمال إسرائيل حسب التنسيق السابق. كما أن القيادة السورية أيضاً لم تستجب لطلب المشير عبد الحكيم عامر عندما كلف الفريق أول محمد فوزى فى حوالى الساعة 11 صباح 5 يونيو بالاتصال بالقيادة السورية لتنفيذ خطط القصف الجوى لمطارات إسرائيل الشمالية، وهى جزء من الخطة "رشيد" التى سبق أن نسقها الفريق فوزى مع اللواء أحمد سويدان رئيس أركان الجيش السورى.

(155) المصدر السابق.

(156) وثائق وزارة الدفاع - وثائق المحفوظات العسكرية - غير منشورة - وثائق حرب يونيو 1967، ملف خسائر القوات الجوية المصرية.

(157) وثائق وزارة الدفاع - غير منشورة، وثائق حرب يونيو 1967، ملف الضربات الجوية الإسرائيلية يوم 5 يونيو 1967.

(158) أوبالانس، ادجار: الحرب الثالثة، ص 65.

وأضاع السوريون الفرصة الذهبية لتدمير الطيران الإسرائيلي أو على أقل تقدير إلحاق خسائر فادحة فيه وفي قواعده، مما أعطى إسرائيل الفرصة لتدمير السلاح الجوي السوري والقضاء على السلاح الجوي الأردني، وذلك خلال الفترة ما بين الساعة العاشرة والنصف وظهر يوم الخامس من يونيو.<sup>(159)</sup>

وبعد أن فرغ الإسرائيليون من ضرب السلاحين الجويين السوري والأردني أعادوا جل اهتمامهم مرة أخرى إلى مصر واستأنفوا غاراتهم ضد المطارات المصرية التي ضربوها في الصباح بالأساليب نفسها، ولكن ليس بالكثافة والتتابع نفسيهما. وفي هذه المرة أغاروا على محطات الرادار المصرية التي لم يتعرضوا لها من قبل. وبنهاية اليوم دمروا 16 محطة رادار في سيناء وفي مناطق أخرى من الدلتا والقناة. واستمرت الغارات الإسرائيلية من فترة لأخرى بعد الغسق وخلال ساعات الليل لتعطيل محاولات إصلاح المطارات وإنقاذ الطائرات. وتأثرت هذه المحاولات من انفجار القنابل الزمنية في لحظات غير متوقعة. وانتهت المقاومة الجوية العربية وسيطرت الطائرات الإسرائيلية سيطرة كاملة على الأجواء طوال بعد الظهر والليل، وكانت تواجه أحيانا كثيرة بنيران المدفعية المصرية المضادة للطائرات.<sup>(160)</sup>

أما أيام 6، 7، 8 يونيو 1967 فقد واصل العدو غاراته الجوية، إلا أن أغلبها كان للاستطلاع وإضعاف الروح المعنوية وإزعاج القائمين بإصلاح المطارات والقواعد الجوية.. بينما تحول إلى المعركة البرية وركز قواته الجوية لمعاونة قواته البرية، وفي تدمير القوات البرية المصرية أثناء ارتدادها في وضوح نهار يوم 7، 8، 9 يونيو.

### تصرف القوات الجوية والدفاع الجوي

ونتيجة للمفاجأة التي حققتها القوات الجوية الإسرائيلية جاء رد فعل تصرف القوات الجوية ووسائل الدفاع الجوي المصرية عفويا، واعتمد على التصرف الفردي لقائد القاعدة الجوية أو المطار المهاجم أو الطيارين، وكذا لقائد الفوج أو الكتيبة المضادة للطائرات.

(159) المرجع السابق، نفس المكان.

(160) المرجع السابق، ص 66.

لقد تلقى نائب ورئيس أركان القوات الجوية والدفاع الجوي نبأ الهجوم على قواعد ومطارات سيناء فور حدوثه، وتلقت غرفة عمليات الفردان النبأ ساعة 846، وتلقى مركز القيادة بالجيش نبأ الهجوم في الساعة 850، وغرفة عمليات القضاء الساعة 853. ورغم هذا لم يصل للطيارين أى إنذار عن الهجوم الإسرائيلي، وكذا قادة وحدات الدفاع الجوي لم يصلهم أى إنذار إلا بعد أن تم الهجوم الجوي الإسرائيلي. كما لم تقم غرفة عمليات واحدة بتبليغ أى قاعدة أو مطار أو كتيبة دفاع جوى إلا بعد أن تعرض للقصف المعادى. فكأنه قد حدث شلل فكري لكل قادة القوات الجوية والدفاع الجوي منعهم تماما من القيام بأى تصرف سليم. فلم يتخذ أى قرار على مستوى القيادة لمجابهة الموقف، بل كان التردد سمة القرارات القليلة التى صدرت عن القيادة. وليس أدل على ذلك من أن قاعدة مثل غرب القاهرة أو بنى سويف قد هوجمتا بعد مطارات سيناء بفترة زمنية بلغت حتى 27 دقيقة، ورغم ذلك لم تبلغ هذه القواعد بالهجوم فظلت طائراتها قابضة على الأرض وكأنها تنتظر دورها فى التدمير!

بل إن مطار الغردقة تمت مهاجمته بعد أربع ساعات تقريبا ورغم ذلك لم يقم بأى دور خلال هذه الساعات الأربع، بل صدرت أوامر قيادة القوات الجوية بنزول طائرتين منه فى مطار القاهرة الدولى، ثم طائرتين فى مطار المنصورة كتعزيز لمطارات القناة.

وبالمثل فوجئت المدفعية المضادة للطائرات وفوجئ رجالها بالهجوم الجوى الإسرائيلى، ولكن معظمهم استطاع أن يتمالك نفسه بسرعة ويتصدى للهجمات التالية. وعلاوة على تقييد نيرانها فى معظم المطارات والقواعد الجوية نتيجة لعدم معرفة خط سير طائرة المشير عبد الحكيم عامر التى كانت فى الجو فى ذلك الوقت، وكذا لكثرة تحركات طائرات المواصلات وطلعات التدريب فوق بعض المطارات والقواعد، فلم يكن هناك أكثر من سريتين فى كل قاعدة جاهزتين للاشتباك الفورى. ولذلك فقد كانت نيران المدفعية المضادة للطائرات فى أول الأمر ضعيفة وبدون تأثير كبير إلا أنها قد استعادت ثقتها بنفسها مرة أخرى بعد إعطاء الأمر بحرية المدافع حيث أسقطت لإسرائيل حوالى 50 طائرة فى اليوم الأول للحرب.<sup>(161)</sup>

وقد رفعت درجات استعداد باقى سرايا المدفعية المضادة للطائرات، وبدأت فى الاشتباك مع العدو وأبدت مقاومة متزايدة إلا أن أغلب الضرر كان قد وقع. حتى إن مردخاى هود قائد القوات الجوية الإسرائيلية علق على ذلك بقوله: إن المدفعية المضادة للطائرات حول القواعد المصرية كانت أضعف مما كنا نتوقع.<sup>(162)</sup>

أما الصواريخ المضادة للطائرات فكان العدو على علم بخواصها وأماكنها الحقيقية والهيكلية، كذلك كان يعرف مناطق التدمير لها فأمكنه تجنبها فى الهجمة الأولى، فلم يظهر تأثير لها، ثم نجح بعد ذلك فى إسكاتها بهجماته عليها من ارتفاع منخفض معرفته التامة لخصائص مناطق تدمير هذا النوع من الصواريخ.<sup>(163)</sup> وقد ظهر ذلك تماما من الخريطة التى عثر عليها مع الطيار الإسرائيلى الذى وقع فى أسر القوات المصرية.<sup>(164)</sup>

ولم يمنع عنف الهجمات الجوية المعادية طيارى حالات الاستعداد من أن يحاولوا الإقلاع بطائراتهم، ولكن دمر معظمهم.. إما على الأرض أو فى نهاية المر قبل أن يتمكنوا من الإقلاع، وبالرغم من ذلك استمر الكثيرون يحاولون الصعود والتصدى للعدو، وكانت شجاعة جديرة بالتسجيل، ولكن نجاح العدو فى تدمير الممرات فى وقت مبكر أوقف وشل فاعلية تلك المحاولات التى كان الشرف العسكرى هو الدافع الوحيد إليها.<sup>(165)</sup>

وأثناء الضربة الجوية تمكن حوالى 30 طيارا مقاتلا شجاعا من القوات الجوية المصرية من الإقلاع وسط الهجمة الجوية، والاشتباك مع المقاتلات الإسرائيلية واستشهد منهم 12 طيارا.<sup>(166)</sup>

وقام رجال المدفعية المضادة للطائرات بإنزال خسائر عالية بالطائرات الإسرائيلية اعترف بها الإسرائيليون أنفسهم. فهؤلاء الرجال هم الذين أصابوا عمليا كل طائرة إسرائيلية اشتركت بالهجوم.<sup>(167)</sup>

(162) راندولف، ونستون تشرشل - حرب الأيام الستة، ص 84.

(163) المصدر السابق، ص 85.

(164) وثائق حرب يونيو 1967 - غير منشورة - ملف الأسرى الإسرائيليين.

(165) أوبالانس، ادجار، - الحرب العربية الإسرائيلية الثالثة، ص 67 - 68.

(166) محمد فوزى - حرب الثلاث سنوات 1967 - 1970، ص 140.

(167) أوبالانس، ادجار، المرجع السابق، ص 68.

وفي اليوم الثاني للحرب تمكن رجال المدفعية المضادة للطائرات من منع الطائرات الإسرائيلية من الطيران المنخفض. وقد أصرت إسرائيل على أن كل طائرة إسرائيلية أسقطت كانت بواسطة المدفعية المضادة للطائرات، ووقع في يد رجال المدفعية المضادة للطائرات تسعة أسرى إسرائيليين.<sup>(168)</sup>

وبهذا النجاح الذي حققته الضربة الجوية الإسرائيلية المركزة على قيادات القوات المسلحة المصرية وقيادة القوات الجوية والدفاع الجوي تمكن العدو الإسرائيلي من الضغط النفسي والذهني وشل تفكير معظم هذه القيادات، فخرجت القرارات والأوامر متضاربة مترددة دون أى هدف محدد. وتوالت القرارات المتضاربة التي كان قمتها قرار الانسحاب الذي صدر في السادس من يونيو 1967 إلى القوات المسلحة بالارتداد إلى غرب قناة السويس، وبهذا القرار أصبحت القوات المسلحة المصرية كتلة من الفوضى تتحرك تحت رحمة الطيران الإسرائيلي دون أى هدف لها سوى الوصول إلى غرب قناة السويس.<sup>(169)</sup>

وفي ظل السيطرة الجوية الإسرائيلية الشاملة والتي سرى نبأها بين أفراد القوات المسلحة فور وقوعها. انعكس فرع القيادة وتخطيطها على معظم القيادات والأفراد في صحراء سيناء فضاعت روح القتال ومبادئ الحرب فلم تنظم معركة دفاعية أو هجمة مضادة، كما لم يخطط لانسحاب منظم كان يمكن أن يجنبنا الكثير من الخسائر في الأرواح والمعدات.<sup>(170)</sup>

وهكذا نجد أن القوات الجوية الإسرائيلية قد نجحت تماما في توجيه ضربة جوية مركزة ضد القواعد والمطارات المصرية الرئيسية، ثم قامت بتكرار هذه الضربة لضمان تحقيق النجاح والحصول على السيطرة الجوية الشاملة. وكان لنجاح هذه الضربة وما حققته من مفاجأة وشلل لفكر القيادة المصرية أثر كبير في تحقيق هذا النجاح.

(168) المرجع السابق، ص 68-73.

(169) مقابلة مع الفريق أول محمد فوزي، مقابلة سبق ذكرها، انظر كذلك مقابلة مع الفريق أنور القاضي رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة، مقابلة سبق ذكرها.

(170) المصدر السابق.

كانت الضربة الإسرائيلية نوعاً من المغامرة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحروب الجوية. فقد قامت إسرائيل بمستقبلها كدولة عندما رمت قطع النرد مرة واحدة إذ استخدمت كل ما لديها من طائرات في شن هجماتها ضد مصر. لم تخصص لحماية البلاد إلا ثمانى طائرات لا غير. ولو تعرض سلاحها الجوي لكارثة لكان في إمكان أعدائها العرب المهيئين للحرب إحراز النصر عليها.<sup>(171)</sup> ولكن حاملات الطائرات الأمريكية والمظلات الجوية الأمريكية كانت جاهزة في المياه الإقليمية لإسرائيل للرد على أى هجوم جوى عربى على إسرائيل.

لكن المغامرة نجحت، ففي اليوم الأول من الحرب تمكن سلاح الجو الإسرائيلي من تدمير 350 طائرة عربية منها 300 طائرة مصرية. غير أن إسرائيل دفعت ثمناً مقابل هذا النصر، فقد خسرت 50 طائرة سقط معظمها بنيران الأسلحة المضادة للطائرات. كذلك خسرت 20 طياراً من طيارها المدربين تدريباً ممتازاً.<sup>(172)</sup>

كما أن كل طائرات المستير بلا استثناء تقريباً وهى ثقل الهجوم الجوى الإسرائيلي أصيبت بنيران المدفعية المضادة للطائرات المصرية. وكان من الضروري إصلاح عدد منها وهى تزود بالوقود قبل إقلاعها مرة أخرى، ويدعى الإسرائيليون بأن إصلاح الطائرة لم يكن يأخذ منهم أكثر من ساعة واحدة.<sup>(173)</sup>

وكان من العوامل المهمة التى ساعدت على نجاح الهجوم الجوى الإسرائيلي هو السلبية التى استولت على تسعة مطارات مصرية لم تتعرض للهجوم الإسرائيلى إلا بعد ساعة ونصف ساعة من بداية الهجوم، وذلك رغم وجود عدد من طائرات الاعتراض فى تلك المطارات. ويفسر ذلك بوجود قائد القوات الجوية مع المشير عامر فى الطائرة فى الجو وعدم وجود رئيس أركان حرب القوات المسلحة وكذا رئيس أركان حرب القوات الجوية ومعاونيه فى غرفة العمليات، وبذلك لم يستطيعوا إصدار أية أوامر. وبذلك كان سلاح الجو المصرى ونظام الدفاع الجوى نتيجة لتقيد نيران المدفعية فى حالة من الشلل

(171) روبنشتاين، مورى - قصة القوة الجوية الإسرائيلية، ص 109.

(172) المرجع السابق، ص 110.

(173) أوبالانس، ادجار - الحرب الثالثة، ص 61.

المطلق وبدون أية أوامر إلا بعد فوات الوقت. وعاد سوء الحظ المصرى هذا والذي لم يكن في حساب الإسرائيليين بأعظم الفائدة عليهم.<sup>(174)</sup>

لقد كان النصر الإسرائيلى فى الجو هو مفتاح النصر السريع على الأرض. إلا أن اللوم يقع على القيادات المصرية وخاصة قيادة القوات الجوية وقيادات القواعد والمطارات. فقد كان واضحاً أن إسرائيل سوف تقوم بهجوم مفاجئ، ولكن أحداً لم يتخذ أية إجراءات جدية لتخفيف أثر هذا الهجوم. فمثلاً لم يكن هناك إعداد للضربة الثانية أى الرد الفورى بضربة مساوية فى القوة وهو ما يسمونه فى العلوم العسكرية بقوة الردع، فمعظم الطائرات المصرية كانت تتجمع فى مطارات قليلة بما فى ذلك طائرات تى يو 16 التى كانت جاثمة جميعها فى مطارين اثنين فقط. ولم يكن هنالك توزيع حذر للطائرات يسمح بوجود بعضها فى مطارات بعيدة قادرة على الرد الفورى.

فمن المؤكد أنه كان من البدييات إبقاء ولو جزء من طائرات تى يو 16 خارج مدى الطائرات الإسرائيلية. وكان اختيار مواقع المدفعية المضادة للطائرات يتصف بالبداية معرضاً أطقمها للنيران من الجو كما أن عدداً قليلاً منها كان محمياً فى منشآت مدفعية من الأسمنت المسلح مزودة بمخابئ تحت الأرض تمكنهم من الصمود فى وجه الهجمات العنيفة والاستمرار فى المقاومة. كذلك فإن نوع ومواقع محطات الرادار المصرية والتى لا بد أن يكون السوفيت مسئولين عنها تستدعى الانتقاد، وبالأخص بعد الطلبات الكثيرة للجانب السوفيتى بضرورة تزويد القوات الجوية والدفاع الجوى بأجهزة رادار حديثة، ولا يمكن إلقاء اللوم على المصريين، لأن صواريخ سام 2 لم تكن ذات فاعلية أمام الطيران المنخفض. كما أن محطات الرادار السوفيتية القوية والحديثة فوق السفن السوفيتية فى البحر المتوسط قد استطاعت الحصول على معلومات فورية وثمينة، ولكنه لا يوجد أى دليل على وجود أى اتصال لاسلكى أو بأى طريقة أخرى ما بين هذه السفن السوفيتية وأى قيادة مصرية عاملة.<sup>(175)</sup>

(174) المرجع السابق، ص 62.

(175) أوبالانس، ادجار - المصدر السابق، ص 73-74.

### خسائر الضربة الجوية في كلا الطرفين

بلغت خسائر القوات الجوية المصرية حسب الإحصاءات الرسمية المصرية بعد انتهاء عمليات حرب يونيو 1967، 305 طائرة من مختلف الأنواع.<sup>(176)</sup> إلا أن المصادر الإسرائيلية قد ذكرت أنه خلال الهجوم الرئيسي تمت الإغارة على 19 قاعدة جوية مصرية في سيناء ودلتا النيل وواديه ومنطقة القاهرة بخمسمائة طلعة، جرى خلالها تدمير 309 طائرة من أصل 340 طائرة بالخدمة منها جميع الطائرات الثلاثين القاذفة من طراز "تى يو 16" البعيدة المدى، و27 قاذفة متوسطة من طراز "اليوشن 28"، و12 قاذفة مقاتلة طراز "سوخوى اس-17"، وحوالى 90 مقاتلة ميج 21 و20 ميج 19 و25 ميج 17 و32 طائرة نقل وهليكوبتر.<sup>(177)</sup>

وبحلول مساء 5 يونيو كان سلاح الجو الأردنى قد أيبىء بعد تدمير 22 طائرة هوكرهنتر، وست طائرات نقل وطائرتين هليكوبتر، وفقد السوريون 32 مقاتلة من طراز ميج 21، 23 طائرة ميج 15 وميج 17 وقاذفتين "اليوشن 28"، أى ما يعادل ثلثى القوة الإجمالية. بينما دمر عدد من طائرات القوات الجوية العراقية أثناء غارة على قاعدة h3.<sup>(178)</sup>

وبحلول مساء اليوم الثانى من الحرب بلغ مجموع ما تم تدميره من الطيران العربى 416 طائرة، منها 393 طائرة دمرت على الأرض، وفقدت إسرائيل خلال العمليات 26 طائرة. وهناك 23 طائرة فقط من المجموع الإجمالى للخسائر من الطائرات العربية سقطت خلال معارك جوية.<sup>(179)</sup>

وعقد أول مؤتمر صحفى إسرائيلى رسمى فى الساعة الواحدة من بعد منتصف ليلة 5 يونيو- الثلاثاء 6 يونيو- صرح فيه الكولونيل موسى بيرلمان المتحدث الرسمى بوزارة

(176) وثائق وزارة الدفاع، وثائق حرب يونيو 1967، ملف رقم 6/153/5، مذكرة هيئة التنظيم والإدارة عن خسائر حرب يونيو بتاريخ 20/4/1968 مرسله إلى سكرتير عام وزارة الحربية.

(177) هرتزوج، حاييم: الحروب العربية الإسرائيلية 1948 - 1982، ص 179.

(178) المصدر السابق، ص 180.

(179) المصدر السابق، نفس المكان.

الدفاع الإسرائيلية قائلاً: "لقد اشتبكنا مع القوات الجوية لمصر والأردن وسوريا والعراق، ودمرنا على وجه التأكيد 374 طائرة، وهناك احتمال بأننا دمرنا 34 طائرة أخرى. خسائرنا 18 طائرة". وادعى الميجور جنرال هود بأن الإسرائيليين دمروا 52 طائرة في سوريا و20 طائرة في الأردن وبعض الطائرات في العراق.<sup>(180)</sup>

ثم أصدر الإسرائيليون في ساعة متأخرة في ليلة 6 يونيو أرقاماً مفصلة بما ادعوا تحقيقه في اليومين الأول والثاني من الحرب. ورفضوا تقسيم هذه الأرقام بإجمال الإصابات في كل يوم، ولكنهم أصروا على تقديم قائمة الخسائر مرة واحدة. ولعل سبب ذلك هو قيام مقاومة عربية في اليوم الثاني تزيد على ما رغب الإسرائيليون أن يعترفوا به. واعترفوا بأنهم خسروا 15 طائرة في اليوم الثاني، ولكنهم رفضوا إعطاء أية تفصيلات. لقد أكد الإسرائيليون أنهم دمروا مصر 30 قاذفة تى يو 16، و27 اليوشن 28، و10 قاذفات مقاتلة سوخوى 7، 82 ميج 15 و17، 20 ميج 19، 95 ميج 21، و8 طائرات نقل انتينوف 12، و24 اليوشن 14، و13 مروحية، وبذلك يكون ما دمر لمصر حتى ليلة 6 يونيو 309 طائرة مختلفة. أما سوريا فقد تم تدمير عدد 2 قاذفة اليوشن 28، و23 قاذفة مقاتلة ميج 15 و17، و32 ميج 21، وثلاث مروحيات، وبذلك يكون مجموع ما دمر لسوريا 60 طائرة مختلفة الأنواع. أما الأردن فقد تم تدمير 21 مقاتلة هوكر هنتر، 6 ناقلات دوف، وعدد 2 مروحية وبذلك يكون مجموع ما دمر للأردن 29 طائرة مختلفة الأنواع. ودمر للعراق قاذفة تى يو 16، 5 مقاتلات هوكر هنتر، وعدد 2 ميج 21، و9 طائرات نقل وبذلك يكون مجموع ما دمر للعراق 17 طائرة مختلفة الأنواع. أما لبنان فدمر لها مقاتلة هوكر هنتر.<sup>(181)</sup>

ويذكر ادجار أوبالانس أنه رغم أن الإسرائيليين مازالوا ملتزمين بالصمت فيما يتعلق بخسائرهم، ولكن يعتقد بأن خسائرهم بلغت على الأقل أربعين طائرة سقط منها حوالي 12 طائرة في الاشتباكات الجوية وآخر ما ادعاه الإسرائيليون عند نهاية الحرب هو أنهم أسقطوا ما مجموعه 338 طائرة مصرية، 61 طائرة سورية، 29 طائرة أردنية، وطائرة لبنانية واحدة، من بينها 79 طائرة أسقطت في معارك الجو.<sup>(182)</sup>

(180) أوبالانس، ادجار: الحرب الثالثة، ص 66.

(181) المرجع السابق، ص 69.

(182) الحرب الثالثة يونيو 1967 بين العرب وإسرائيل، ترجمة مازن المنديك، ص 72.

ويذكر تريفور دوبيوى، أنه بعد ثلاث ساعات تقريبا تم تدمير نحو 300 طائرة مصرية على الأرض بما فى ذلك كل طائرات تى يو 16 الثلاثين، كما تم تدمير 23 محطة رادار ومقتل حوالى 100 طيار مصرى من مجموع 350 طيارا. وأعلنت إسرائيل عن فقد 19 طائرة خلال فترة الثلاث ساعات الأولى.<sup>(183)</sup>

أما خسائر وحدات المدفعية المضادة للطائرات المصرية حسب الإحصاءات الرسمية المصرية، فقد بلغت 155 مدفعا 57 مم مقطور، 37 مدفعا 57 مم ذاتى الحركة، مدفعا 85 مم، 48 مدفعا 40 مم مقطور، 263 مدفعا 37مم، 6 مدافع 30مم، 69 رشاش 12.7مم رباعى، 900 رشاش 12.7مم فردى، 10 رشاش 14.5مم رباعى، 232 رشاش 14.5مم مزدوج، و150 رشاش 14.5مم فردى.<sup>(184)</sup>

أما خسائر وحدات المدفعية المضادة للطائرات وكتائب الصواريخ حسب إحصاءات فرع المدفعية المضادة للطائرات، فقد بلغت 124 مدفعا 57مم مقطور، 41 مدفعا 40مم، 34 مدفعا 57مم ذاتى الحركة، 239 مدفعا 37مم مقطور، وكتيبتين صواريخ سام 2، بالإضافة لإصابة عدد 7 كتائب صواريخ سام 2 أمكن إصلاحها.<sup>(185)</sup>

نخلص من ذلك أن الضربة الجوية الإسرائيلية الاستهلاكية هى أبرز أحداث حرب الخامس من يونيو 1967، فقد فاجأت القوات الجوية الإسرائيلية بقيادة الميجور جنرال موردخاى هود القوات الجوية المصرية والعربية الأخرى بالهجوم، وبعد ثلاث ساعات من الحرب الجوية المكثفة، ووفقا لخطة جيدة الإعداد، استطاعت إسرائيل أن تحقق سيادة جوية تامة فوق جميع الجبهات وتحسم الحرب لصالحها.

(183) النصر المحير، الترجمة العربية رقم 768 الهيئة العامة للاستعلامات، ص 288، ص 377.

(184) وثائق وزارة الدفاع - دار المحفوظات العسكرية، وثائق حرب يونيو 1967 - غير منشورة، ملف رقم 5/153/6 - مذكرة رقم 38 تسليح، هيئة التنظيم والإدارة - مرفوعة إلى القائد العام للقوات المسلحة الفريق أول محمد فوزى بشأن الخسائر التى حدثت فى حرب الخامس من يونيو بتاريخ 17/6/1967.

(185) سيد ماجد، الأوراق الخاصة - غير منشورة - خسائر وحدات المدفعية المضادة للطائرات، انظر كذلك مقابلة مع اللواء سيد ماجد يوم 14 نوفمبر 1994. واللواء سيد ماجد كان يشغل منصب رئيس فرع التنظيم والإدارة بقيادة المدفعية وهو الفرع الذى تصل إليه خسائر الوحدات أولا بأول. ثم شغل بعد إنشاء قيادة قوات الدفاع الجوى عام 1969 منصب رئيس شعبة التنظيم والإدارة.

وبعد تدمير الطيران المصري بكامله ظهر يوم الاثنين الخامس من يونيو 1967، بدأ الجيش الإسرائيلي عملياته البرية ضد القوات المصرية في سيناء، والتي انتهت مساء يوم الخميس الثامن من يونيو باحتلال شبة جزيرة سيناء ووصول الجيش الإسرائيلي إلى الضفة الشرقية لقناة السويس.

لقد مهدت هذه الضربة الجوية طريق النصر أمام القوات البرية الإسرائيلية. ويجب الاعتراف بكل وضوح بأن المفتاح الإسرائيلي للنجاح هو سيطرة طيرانهم التامة على جميع الأجواء في ساحات المعارك. ولو لم يتم ذلك لما أمكن للجيش الإسرائيلي تحقيق هذه النتيجة السريعة وحسم المعركة لصالحه.

وبسبب النصر السريع والمذهل الذي حققته إسرائيل وغير المتوقع، جعل القيادة الإسرائيلية أميل في بعض الأحيان لأن تنسب لنفسها بعض الإنجازات التي تحققت نتيجة للتراخي ونقص التنسيق وضعف القيادة في المستويات العليا على الجانب المصري، أكثر مما تعود على الفعالية الإسرائيلية.

هكذا حسم الطيران الإسرائيلي الحرب البرية قبل أن تبدأ، وكان الانتصار الإسرائيلي في الجو هو مفتاح الانتصار في البر.

## المصادر

### أولاً: الوثائق

أ- الوثائق غير المنشورة

1- العربية:

- وثائق القصر الجمهورى بعابدين: تم الإشارة إليها فى هوامش الدراسة.
- وثائق الخارجية المصرية: تم الإشارة إليها فى هوامش الدراسة.
- وثائق وزارة الدفاع (الحربية سابقاً): تم الإشارة إليها فى هوامش الدراسة.

2- الأجنبية:

Lyndon Baines Johnson Library: Box 130, Box 138, Box 140, Box 142, Box 144.

ب- الوثائق المنشورة:

1- العربية:

- مؤسسة الدراسات الفلسطينية، محاضر الكنيست 1966/1967، الطبعة الأولى، القاهرة 1971.
- مؤسسة الدراسات الفلسطينية، محاضر الكنيست 1967/1968، الطبعة الأولى، القاهرة 1977.
- وزارة الدفاع المصرية، الجولة الإسرائيلية الثالثة صيف 1967، كود 16/11.

2- الأجنبية:

Department of state ,section of official publications Issued by department of state, on June 12,1967.

### ثانياً: المذكرات الشخصية والأوراق الخاصة

أ- غير المنشورة

- إبراهيم المجدوب، مذكراته والأوراق الخاصة.
- واللواء إبراهيم المجدوب كان ضابط منوب غرفة عمليات قيادة القوات الجوية والدفاع الجوى صباح 5 يونيو 1967.
- سيد ماجد، الأوراق الخاصة.

واللواء سيد ماجد كان يشغل منصب رئيس فرع التنظيم والإدارة بقيادة المدفعية والمسئول عن النواحي الإدارية الخاصة بالمدفعية المضادة للطائرات.

• يجيى أحمد فؤاد ، مذكراته والاوراق الخاصة.

واللواء يجيى أحمد فؤاد كان قائداً للمدفعية المضادة للطائرات أثناء حرب يونيو 1967.

#### ب- المنشورة

- أمين هويدى ، مع عبد الناصر ، دار المستقبل العربى ، الطبعة الثانية، القاهرة 1985.
- ديان ، موسى - قصة حياتى، جزآن، الترجمة العربية رقم 73 ، الهيئة العامة للاستعلامات.
- رايبين، اسحاق: مذكرات اسحاق رابين، الترجمة العربية رقم 740، الهيئة العامة للاستعلامات.
- صلاح الدين الحديدى ، شاهد على حرب 1967 ، دار الشروق ، القاهرة 1974.
- عبد المحسن كامل مرتجى ، الفريق مرتجى قائد جبهة سيناء فى حرب 1967 يروى الحقائق، الوطن العربى ، القاهرة بدون تاريخ.
- محمد فوزى ، مذكرات الفريق أول محمد فوزى - حرب الثلاث سنوات 1967 - 1970 ، دار المستقبل العربى ، الطبعة الثالثة - القاهرة 1983.
- محمود رياض ، مذكراته ، الجزء الأول ، البحث عن السلام والصراع فى الشرق الأوسط ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، الطبعة الأولى 1981.
- محمود رياض ، مذكراته ، الجزء الثانى، الأمن القومى العربى بين الانحياز والفشل ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1986.
- محمود رياض ، مذكراته ، الجزء الثالث ، أمريكا والعرب ، دار المستقبل العربى ، الطبعة الأولى 1986.

#### ثالثاً: المقابلات الشخصية والمصادر الحية (\*)

- إبراهيم المجدوب ، مقابلات كثيرة معه خلال الفترة من ديسمبر 2002 وحتى سبتمبر 2003 بمنزله بمصر الجديدة. واللواء إبراهيم المجدوب كان قائداً منوب قيادة القوات الجوية والدفاع الجوى عن المدفعية المضادة للطائرات صباح 5 يونيو 1967.
- أنور القاضى، خمس مقابلات معه خلال الفترة من أكتوبر 1999 وحتى مارس 2002 بمنزله بمصر الجديدة. والفريق أنور القاضى كان يشغل خلال حرب يونيو 1967 منصب رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة.

(\*) مع الاحترام للشخصيات التى تناولتها، فقد جاء تناولها حسب الترتيب الأبجدي حفاظاً على الأسلوب العلمى فى الكتابة والمنهجية السليمة للبحث العلمى.

- أمين هويدى ، مقابلات كثيرة ومتواصلة معه خلال الفترة من يناير 2002 وحتى أغسطس 2005 بمنزله بمصر الجديدة. وكان يشغل منصب وزير شئون مجلس الوزراء خلال حرب 1967، ثم تولى بعد الحرب منصب وزير الحربية ومشرفا على جهاز المخابرات العامة.
- حسن البدرى ، مقابلات كثيرة معه خلال الفترة من عام 1992 وحتى أبريل 1996 بمنزله بمصر الجديدة. واللواء أركان الحرب حسن البدرى كان يشغل منصب رئيس فرع التاريخ العسكرى، ثم رئيسا لهيئة البحوث العسكرية، ثم مديرا لأكاديمية ناصر العسكرية العليا.
- حسين الشافعى ، مقابلات معه خلال الفترة من مارس 2002 وحتى أغسطس 2005 بمنزله بالدقى. وكان يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية خلال حرب يونيو 1967.
- زكريا يحيى الدين ، مقابلة معه يوم 30 يونيو 2004 بمنزله بالدقى. وكان يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية خلال حرب يونيو 1967.
- عبد المحسن كامل مرتضى، مقابلات معه خلال الفترة من مارس 1999 وحتى أبريل 2003 بمنزله بالدقى. وكان يشغل منصب قائد جبهة سيناء خلال حرب 1967.
- على بليغ صبرى ، مقابلات كثيرة معه خلال عامى 1987/1989 بمنزله بمصر الجديدة. وكان يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية خلال حرب 1967.
- محمد فوزى ، مقابلات كثيرة ومتواصلة معه خلال الفترة من يناير 1990 وحتى يناير 2001 بمنزله بمصر الجديدة. والفريق أول محمد فوزى كان يشغل خلال حرب يونيو 1967 منصب رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة، ثم تولى بعد الحرب منصب القائد العام للقوات المسلحة، ثم أضيف له منصب وزير الحربية حتى 15 مايو 1971.
- محمود رياض ، مقابلات كثيرة معه خلال الفترة من عام 1987 وحتى 1991. وكان يشغل منصب وزير خارجية مصر.
- مذكور أبو العز ، مقابلة معه يوم 5 ديسمبر 2002 بمزرعته بالقرب من بليس. والفريق طيار مذكور أبو العز تدرج فى مناصب القوات الجوية حتى وصل لمنصب رئيس أركان القوات الجوية عام 1963، ثم عين محافظا لأسوان، ثم عين قائدا للقوات الجوية يوم 12 يونيو 1967.
- يحيى أحمد فؤاد ، مقابلات كثيرة معه خلال الفترة من عام 1994 وحتى عام 2003. واللواء أركان الحرب يحيى أحمد فؤاد كان يشغل منصب قائد المدفعية المضادة للطائرات خلال حرب يونيو 1967.

## رابعاً: المؤلفات والبحوث والدراسات العلمية.

## أ- المؤلفات الصادرة باللغة العربية

- أمين هويدى: أضواء على أسباب النكسة وحرب الاستنزاف ، دار الطليعة بيروت 1979.
- أمين هويدى: الفرص الضائعة ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى 1992.
- أمين هويدى: الأمن العربى فى مواجهة الأمن الإسرائيلى ، دار الطليعة ، بيروت 1975.
- أوبالانس ، ادجار: الحرب الثالثة يونيو 1967 بين العرب وإسرائيل ، ترجمة مازن البندك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الثانية بيروت 1988.
- بارزوهار ، ميشيل: التاريخ السرى لحرب إسرائيل، القسم الأول، الترجمة العربية رقم 664 الهيئة العامة للاستعلامات.
- بارزوهار ، ميشيل: التاريخ السرى لحرب إسرائيل، القسم الثانى، الترجمة العربية رقم 667 الهيئة العامة للاستعلامات.
- بيرسون، أنتونى: مؤامرة الصمت ، الترجمة العربية رقم 734 ، الهيئة العامة للاستعلامات.
- جاكسون ، روبرت: تاريخ القوات الجوية الإسرائيلية.
- جرين، ستيفن: الانحياز - علاقات أمريكا السرية بإسرائيل، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، الطبعة الأولى بيروت 1985.
- دوبوى ، تريفور: النصر المحير ، الترجمة العربية رقم 768 الهيئة العامة للاستعلامات.
- راندلوف ، ونستون تشرشل: حرب الأيام الستة ، الترجمات العربية رقم 614 ، 615 ، 603 ، الأجزاء الأولى ، الثانية ، الثالثة ، الهيئة العامة للاستعلامات.
- روسى ، بيير: مفاتيح الحرب - الأسرار الكامنة وراء حرب يونيو 1967 ، ترجمة يوسف مراحم ، دار العربية ، بيروت 1973.
- رودنسون ، مكسيم: إسرائيل والرفض العربى ، الهيئة العامة للاستعلامات - الترجمة العربية رقم 702.
- رونبشتاين، مورى وجولدمان ، ريتشارد: قصة القوة الجوية الإسرائيلية، ترجمة محمد عبد الرحمن عطوة ، دار الأندلس بيروت ، الطبعة الأولى 1981.
- سافران ، ناداف: من حرب إلى حرب - المواجهة العربية - الإسرائيلية 48 - 67، إعداد مركز البحوث والمعلومات ، المخابرات العامة.
- سافران ، ناداف: الولايات المتحدة وإسرائيل ، الترجمة العربية رقم 624 الهيئة العامة للاستعلامات.

- سيجيف ، صموئيل: إسرائيل والعرب والدول الكبرى 1963 – 1968 ، ترجمة المخابرات العامة.
- سيجيف ، صموئيل: حرب الستة أيام ، ترجمة المخابرات العامة.
- صلاح العقاد ، تطور النزاع العربي الإسرائيلي (1956 – 1967) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة 1975.
- عبد العظيم رمضان: تحطيم الآلهة - قصة حرب يونيو 1967 ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى 1985.
- محمد حسنين هيكل: نحن وأمريكا ، دار العصر الحديث ، القاهرة 1967.
- محمد حسنين هيكل: انفجار 1967 ، مؤسسة الأهرام - الطبعة الأولى 1990 - القاهرة.
- مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، العسكرية الصهيونية ، المجلد الاول ، مؤسسة الأهرام - القاهرة ، 1972.
- ناتنج ، أنتوني ، ناصر ، ترجمة شاكرا إبراهيم ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت الطبعة الأولى 1985.
- هالة أبوبكر سعودى: السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الإسرائيلي 1973-1976 ، سلسلة أطروحات رسائل الدكتوراه - مركز دراسات الوحدة ، بيروت 1983.
- هرتزوج ، حايم: الحروب العربية الإسرائيلية 1948 – 1982 ، ترجمة بدر الرفاعى ، سينا للنشر ، الطبعة الأولى 1993.
- وزارة الدفاع الإسرائيلية: حرب الأيام الستة ، الترجمة العربية رقم 678 ، الهيئة العامة للاستعلامات.
- يانج ، بيتر: الحملة الإسرائيلية عام 1967 ، ترجمة المخابرات العامة.

#### ب- المؤلفات الأجنبية

- Bar Z ahar, Michael; Embassies in Crisis, New York, 1970.
- Green, Stephen, Taking sides, America s secret Relations With a Militant Israel New York 1984.
- Quandt, William, Decade of Decisions, American Policy Toward the Arab Israel conflict, 1967 - 1976. Berkeley calif: University of california press, 1977.

obbeikan.com

مدخل إلى المواقع المهمة بالحروب الصليبية على شبكة  
المعلومات الدولية (الإنترنت)

الأستاذ

محمد فوزى مصرى رحيل

كلية الآداب - جامعة عين شمس

obseikan.com

## مدخل إلى المواقع المهتمة بالحروب الصليبية على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) (١)

تعد شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) أهم مصادر المعلومات التي تفتق عنها عصر ثورة تكنولوجيا المعلومات، ومن ثم لم يعد أى متطلع للمعرفة يستطيع الاستغناء عنها، خاصة إذا كان من طلاب العلم سواء في مراحل الدراسة الجامعية الأولى أو في مراحل الدراسات العليا أو ما بعدها. وإدراكاً منى لأهمية هذه الشبكة وما تحويه من مواقع حاولت أن أقوم في هذا العمل المتواضع بجمع ببليوجرافى للمواقع المصدرية للحروب الصليبية على الإنترنت؛ حتى يكون دليلاً للباحثين في هذا المجال يحصلون منه على ما يتغون من مصادر توفيراً للوقت والجهد والمال.

وأنوه في البداية بضرورة أن يلم المتعامل مع شبكة الإنترنت، ويريد أن يستخدمها لأغراض علمية، بمبادئ الكمبيوتر واستخدام شبكة الإنترنت، والإلمام بها شىء جد يسير، لا يحتاج إلى جهد كبير؛ فقط التصميم على دخول هذا الباب من أبواب المعرفة. أما الأمر الثانى أن يكون ملماً باللغة الانجليزية وشىء من الفرنسية والألمانية بحكم أن جل مواقع الشبكة مكتوبة بهذه اللغات الثلاث.

(1) أتوجه بالشكر والتقدير للأخ العزيز د. عبد العزيز رمضان مدرس تاريخ العصور الوسطى بأداب عين شمس، الذى سبقنى بإعداد دليل حول مواقع التاريخ البيزنطى على الإنترنت، على سماحه لى بالاطلاع على ما كتب فى العدد الثانى من حولى التاريخ الاسلامى والوسيط - كلية الآداب جامعة عين شمس، 2002.

أيضاً قبل أن أخوض في غمار عرض المواقع ثمة إشكالية تواجه المتعامل مع الشبكة، وهى كيفية توثيق المادة العلمية المستقاة منها. لكن تلك الإشكالية تزول بمجرد فهم طبيعة الموقع، فهناك نوعان من المواقع: الأول يقوم بتصوير المصادر والبحوث كما هى مثل موقع gallica وموقع Jastor، وبالتالي يقوم الباحث بتوثيق المادة كما لو كان يوثقها من المصدر الأصلي بالطريقة المعتادة، وبالتالي لا يحتم ذكر موقع الشبكة الذى استقاه منها إلا بشئ من التنويه فى بداية بحثه. أما النوع الثانى من المواقع فهى التى تقوم بوضع النص على الشبكة دوناً تحديداً للصفحات، وهذا النوع هو المشكل فى توثيقه خاصة أن ما كتب عن مناهج البحث التاريخى لم تقن بعد لهذا النوع من المصادر. ولما كان الأمر كذلك فقد اجتهدت فى هذا الأمر بحيث يكون عنوان الموقع فى محل الناشر، بحيث يكون الترتيب كالتالى عند الاستخدام الأول للمصدر:

اسم المؤلف: اسم الكتاب أو البحث، الجزء إن وجد، المترجم أو المحقق إن ذكر،  
عنوان الموقع ..

وبعد ذلك يكتب باسم المؤلف وكتابه ورقم الصفحة إن كان معلوماً.

وقد وجد هذا النوع من التوثيق قبولاً من قبل من ناقشونى فى الماجستير، ومن ثم أرى اعتياده وتطبيقه، خاصة أنه يحافظ على روح التوثيق العلمى.

وبداية وقبل عرض المواقع ومحتوياتها، فعلى المتعامل مع شبكة الإنترنت أن يعلم أن هناك من المواقع ما يعرف بمحركات البحث يستطيع الباحث من خلالها الوصول إلى أى شئ يريد ويكون مدرجاً على الشبكة من خلال كتابة العنوان الذى يبحث عنه أو جزء منه فى صندوق البحث الموجود على صفحة الموقع، وبمجرد إدخال البيان المراد البحث عنه يصل الباحث إلى النتائج المتاحة حول موضوع البحث. وأهم محركات البحث هى:

1- موقع google وعنوانه <http://www.google.com>

2- موقع yahoo وعنوانه <http://www.yahoo.com>

3- موقع dogpile وعنوانه <http://www.dogpile.com>

4- موقع alltheweb وعنوانه <http://www.alltheweb.com>

وعلى الباحثين أن يعلموا أن ما سوف أعرضه من مواقع ليست كل ما كتب على الإنترنت فى مجال الحروب الصليبية، فهذا الأمر يصعب حصره، لكن ما أدرجته هنا هو ما

يمكن توثيقه علمياً كأن يكون مصدراً أو مرجعاً أو بحثاً علمياً أصيلاً، كما لا أزعم إننى قد حصرت جميع المواقع التى تحتوى مادة مصدرية فما سوف أورده هو ما توصلت إليه، وربما هناك المزيد الذى أرجو من الباحثين أن يمدونى به إن توصلوا إليه. فالأمر اجتهادى محض من قبيل محاولة الحصر البيبلوجرافى للمواقع المصدرية على شبكة الإنترنت.

وفى العرض التالى للمواقع سوف أكتفى بذكر الموقع وأهم محتوياته وطبيعته وعنوانه:

### عرض لأهم المواقع

1- موقع gallica الفرنسى وهو من أهم المواقع التى يستطيع ان يتعرف من خلالها الباحث على عدد كبير من مصادر الحروب الصليبية، فمع الدخول على الموقع المعنون بـ <http://gallica.bnf.fr>

ثم الضغط على كلمة RECHERCHE يظهر صندوق البحث، والذى من خلاله نستطيع البحث عما نريد من مصادر سواء باسم المؤلف أو اسم الكتاب، وبمجرد كتابة كلمة " croisade " والضغط على الكلمة تظهر كل نتائج البحث المتصلة بالموضوع كالتالى:

**Résultat de la recherche: 35 documents répondent à la requête.**

1.  Authenticité des titres des croisades de la collection Courtois / par Robert de Couron  
( Voir la liste des volumes )  
 Consulter la notice

---

2.  Continuation de l'histoire des Croisades de Guillaume de Tyr / par Bernard le Trésorier  
 Consulter la notice

---

3.  Essai sur l'influence des croisades: ouvrage qui a partagé

le prix sur cette question, proposée, le 18 avril 1806... / par A.-H.-L. Heeren,... ; trad. de l'allemand par Charles Villers,...



*Consulter la notice*

4.



Galeries historiques du palais de Versailles. Tome VI. Deuxième partie, Armoiries des salles des croisades / [par Charles Gavard]



*Consulter la notice*

5.



Histoire de la première croisade. Tome premier. Partie 1 / par M. Michaud,...



*Consulter la notice*

6.



Histoire des croisades. Tome second, Contenant l'histoire des seconde et troisième croisades / par M. Michaud,...



*Consulter la notice*

7.



Histoire des croisades. Tome troisième, Contenant le récit de la quatrième croisade, de la conquête de Constantinople par les Francs, et de la sixième croisade / par M. Michaud,...



*Consulter la notice*

8.



Histoire des croisades. 1 / par Guillaume de Tyr



*Consulter la notice*

9.  Histoire des croisades / par Foulcher de Chartres. Histoire de la croisade de Louis VII / par Odon de Deuil



Consulter la notice

10.  Histoire des croisades / par Guibert de Nogent ; Vie de Guibert de Nogent par lui-même



Consulter la notice

11.  L'ancienne France. La chevalerie et les croisades: féodalité, blason, ordres militaires / ouvrage ill. de 214 grav. d'après les grands ouvrages de M. Paul Lacroix...



Consulter la notice

12.  Les croisades (de 1096 à 1327 ap. J.-C.) / Marius Fontane



Consulter la notice

13.  Les fiancés, ou Le connétable de Chester: histoire du temps des croisades / Walter Scott ; trad. de M. Defauconpret, avec des éclaircissements et des notes historiques



Consulter la notice

14.  Les grands guerriers des croisades ; augm. d'un Précis historique des croisades / par M. Bescherelle aîné

 Consulter la notice

15.  Les histoires du Sieur Maimbourg. Tome cinquième. Première partie, Histoire des croisades pour la délivrance de la Terre Sainte

 Consulter la notice

16.  Les histoires du Sieur Maimbourg. Tome sixième. Seconde partie, Histoire des croisades pour la délivrance de la Terre Sainte

 Consulter la notice

17.  Les populations rurales en France, de la fin des croisades à l'avènement des Valois / par F. [Felix] Robiou

 Consulter la notice

18.  Mathilde. I / Mme Cottin

 Consulter la notice

19.  Mathilde, ou Mémoires tirés de l'histoire des croisades / par Mme Cottin

 Consulter la notice

- 
20.  Monnaies inédites des croisades / par Melchior de Vogüé

 *Consulter la notice*

- 
21.  Recueil des historiens des croisades. Historiens occidentaux. Tome premier / publ. par les soins de l'Académie royale des inscriptions et des belles-lettres

 *Consulter la notice*

- 
22.  Recueil des historiens des croisades. Historiens occidentaux. Tome second / publ. par les soins de l'Académie des inscriptions et belles-lettres

 *Consulter la notice*

- 
23.  Recueil des historiens des croisades. Historiens occidentaux. Tome troisième / publ. par les soins de l'Académie impériale des inscriptions et belles-lettres

 *Consulter la notice*

- 
24.  Recueil des historiens des croisades. Historiens occidentaux. Tome quatrième / publ. par les soins de l'Académie des inscriptions et belles-lettres

 *Consulter la notice*

---

25.  Recueil des historiens des croisades. Historiens occidentaux. Tome cinquième / publ. par les soins de l'Académie des inscriptions et belles-lettres

 Consulter la notice

26.  Recueil des historiens des croisades. Historiens orientaux. Tome I / publ. par les soins de l'Académie des inscriptions et belles-lettres

 Consulter la notice

27.  Recueil des historiens des croisades. Historiens orientaux. Tome II. Première partie / publ. par les soins de l'Académie des inscriptions et belles-lettres

 Consulter la notice

28.  Recueil des historiens des croisades. Historiens orientaux. Tome II. Deuxième partie / publ. par les soins de l'Académie des inscriptions et belles-lettres

 Consulter la notice

29.  Recueil des historiens des croisades. Historiens orientaux. Tome III / publ. par les soins de l'Académie des inscriptions et belles-lettres

 Consulter la notice

30.  Recueil des historiens des croisades. Historiens orientaux. Tome IV / publ. par les soins de l'Académie des inscriptions et belles-lettres



Consulter la notice

31.  Recueil des historiens des croisades. Historiens orientaux. Tome V / publ. par les soins de l'Académie des inscriptions et belles-lettres



Consulter la notice

32.  Recueil des historiens des croisades. Documents arméniens. Tome premier / publ. par les soins de l'Académie royale des inscriptions et des belles-lettres



Consulter la notice

33.  Recueil des historiens des croisades. Documents arméniens, documents latins et français relatifs à l'Arménie. Tome second / publ. par les soins de l'Académie royale des inscriptions et des belles-lettres



Consulter la notice

34.  Recueil des historiens des croisades. Historiens grecs. Tome premier / publ. par les soins de l'Académie des inscriptions et belles-lettres



Consulter la notice

35.  Recueil des historiens des croisades. Historiens grecs.  
Tome second / publ. par les soins de l'Académie des  
inscriptions et belles-lettres

 Consulter la notice

ويكفي الموقع أهمية أن يحوى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية Recueil des historiens des croisades. ولتحقيق الاستفادة من الموقع يجب أن يكون جهاز الكمبيوتر مزود ببرنامج ADOB REDAR، ذلك أن القائمين على الموقع قد قاموا بتصوير الكتب الأصلية كما هى ووضعوها على الشبكة بتنسيق ذلك البرنامج، حيث يستطيع الباحث تصفح الكتاب وطبع أو حفظ ما يشاء من صفحاته. كما يحتوى الموقع على عدد هائل من مصادر ومراجع العصور الوسطى يمكن البحث عنها من خلال صندوق البحث الموجود به.

2- موقع جامعة Colorado state university Pueblo

ويحتوى على عدد كبير من نصوص رحلات الحجاج الأوربيين إلى فلسطين

عنوانه: [http://chass.colostate-](http://chass.colostate-pueblo.edu/history/seminar/seminar97.html)

[pueblo.edu/history/seminar/seminar97.html](http://chass.colostate-pueblo.edu/history/seminar/seminar97.html)

ولا يخفى على الدارسين فى حقل الحروب الصليبية أهمية هذه الرحلات. خاصة أن نصوصها قد نقلت كما نشرت لأول مرة. وأوضح القائمون على الموقع التقسيم والصفحات التى وجدت فى النص المطبوع حتى يتسنى للباحث سهولة الإسناد إليها.

ويحتوى الموقع على الرحلات الآتية موزعة حسب القرون التى أتى فيها الرحالة إلى المنطقة.

## Traveling to Jerusalem

---

### Seminar Papers, 1997-2003

#### Traveling to Jerusalem

---

##### Third Century Through the Eleventh Century

- Anonymous Pilgrim of Bordeaux (333)
- Egeria (381-384) Roman Spain
- Arculf (680)
- Bernard the Wise (c. 870) France

##### Eleventh Century Through the Eighteenth Century

- Nasir-i-Khusraw (1046-1052) Balkh
- Daniel (1106-1107) Russia
- Benjamin of Tudela (1160-1173) Spain
- Theoderich (1172) Germany
- Marco Polo (c. 1254-1324) Venice
- Bar Sauma (c. 1278-1313) China
- Anonymous Guidebook to Palestine (c. 1350)
- Margery Kempe (1413-1415) England
- John Poloner (1422) Germany?
- Pero Tafur (1435-39) Spain
- Felix Fabri (1480 & 1483-84) Germany
- Pietro Casola (1494) Milan
- Henry Timberlake (1601-1603) England
- George Sandys (1610-12) England
- Evliya Celebi (1648-1650) Turkey
- T.B. (1669) England

## **Nineteenth Century Through the Twentieth Century**

- Lady Hester Stanhope (1810-1817) England
- George Jones, Chaplain (1833) United States
- Alexander Kinglake (1834-35) England
- John Lloyd Stephens (1835-36) United States
- David Roberts (1838) England
- Orson Hyde (1840-1842) United States
- Ida Pfeiffer (1842) Austria
- Ida Hahn-Hahn (1843-44) Prussia
- Matilda Plumley (1845) England
- James and Elizabeth Finn (1846-1863) England
- William Francis Lynch (1848) United States
- J. Ross Browne (1851) United States
- Anonymous (1853-1861) Russia
- Herman Melville (1857) United States
- Mark Twain (1867) United States
- Mrs. Stephen M. Griswold (1867) United States
- Eli and Sybil Jones (1867) United States
- Edward Henry Palmer (1869-70) United States
- Bertha Spafford Vester United States
- Thomas Wallace Knox (1873-74) United States
- Marie and Emma Staiton (1880) United States
- J. W. McGarvey (1880) United States
- Col. Sir Charles Warren (1884) England
- David Van Horne (188?) United States
- Lenamay Green (1888-89?) United States
- James Pfeiffer (1889) Unites States
- Gertrude Bell (1897-1900) England
- John Wiebel (1913) United States

- John Bayne Ascham (1913) United States
- John Finley (1918-19) United States

### Links

- Maps of Jerusalem from the Osher Map Collection at the University of Maine
- On-line Diary--Doug Burnett--American--1996
- Excellent overview of Viking pilgrimages

### Text Template

### Map Template I

### Map of Europe in "bmp" format

### Map of Europe in "gif" format

### 3- موقع RBEDROSIAN

ويحتوى على عدد من المصادر الأرمينية الهامة باللغة الإنجليزية منذ القرن الخامس الميلادى حتى القرن الخامس عشر. ولا يخفى على الباحثين أهمية المصادر الأرمينية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، نظراً لارتباط إمارة أنطاكية بمملكة أرمينيا فى قليقية وتحالف الأرمن مع المغول.

عنوانه: <http://rbedrosian.com/hsrces.html>

محتوياته حسب القرون التى دونت فيها:

### Armenian Historical Sources

#### of the 5-15th Centuries

#### Selected Works\*

#### 5th Century

P'awstos Buzandac'i's *History of the Armenians*

Ghazar P'arbec'i's *History of the Armenians*

#### 7th Century

Anonymous *The Primary History of Armenia* or History of the Ancestors

Sebeos' *History*

## 10th Century

John Mamikonean's *History of Taron*

## 11th Century

Aristakes Lastivertc'i's *History*

## 12-13th Century

*The Georgian Chronicle*

Mkhitar Gosh's *Fables (belles lettres)*, and *Index to the Fables*

## 13th Century

Kirakos Gandzakets'i's *History of the Armenians*

Smbat Sparapet's *Chronicle*

Grigor Aknerets'i's *History of the Nation of Archers* [Mongols]

## 14th Century

Het'um the Historian's *History of the Tartars* [The *Flower* of Histories of the East]

## 15th Century

Tovma Metsobets'i's *History of Tamerlane and His Successors*

### 4. موقع Medieval sourcebook

عنوانه: <http://www.fordham.edu/halsall/sbook.html>

يحتوى على عدد كبير من الموضوعات المرتبطة بالعصور الوسطى، ومن بينها crusades وبمجرد الضغط عليها تظهر المحتويات وهي عدد من الدراسات والنصوص المقتبسة من المصادر كالتالى:

### Contents

- General
- Background
- The First Crusade
  - Urban II's Speech, 1095
  - Attacks on the Jews
  - The Journeys and Battles of the Crusade
  - The Historians of the First Crusade
- The Kingdom of Jerusalem

- Government
- Economics
- Cultures
- Christian Muslim Interaction
- **The Crusader Orders**
  - General
  - Templars
  - Hospitallers
  - Teutonic Knights
- **The Second Crusade and Aftermath**
  - Calling the Crusade
  - Successes and Failures
  - Criticism of the Crusade
- **The Third Crusade**
  - Latin Problems
  - The Loss of Jerusalem
  - The Failure of Europe's Monarchs
  - The German Crusade of 1197
- **The Fourth Crusade**
- **The Fifth and Later Crusades**
  - St Louis' Crusades
  - The Fall of the Latin East
- **The Effects of the Crusade Ideal in the West**

كما يحتوى الموقع على عدد من النصوص الكاملة المرتبطة بالحروب الصليبية يمكن الوصول إليها من خلال اختيار full text من الصفحة الأولى في الموقع، ومن محتوياتها المرتبطة بالحروب الصليبية:

### أ- المجامع التالية:

Lateran Council IV: 1215 A.D.

Council of Lyons 1: 1245 A.D.

Council of Lyons 2: 1274 A.D.

## ب- نصوص الكتب:

### 1- The Alexiad

- 1- The Monk of Kublai Khan, Emperor of China
- 2- Guillaume de Tyr (William of Tyre) (c.1130- 1190): *Historia rerum in partibus transmarinis gestarum* [History of Deeds Done Beyond the Sea], full text of Old French version (13th century) **available 9/3/98**
  - o Books 1-9 the Old French translation from the edition of Paulin.
  - o Books 10-16 ditto
  - o Books 17-22 ditto
  - o Books 23-34, the continuation, from the *Recueil des historiens des croisades*
  - o Chronique du Templier de Tyr, from *Les gestes des Chiprois* as edited by Gaston Raynaud.
- 3- Geoffry de Villehardouin: Chronicle of the Fourth Crusade and The Conquest of Constantinople
- 4- Jean de Joinville: Memoirs [At Virginia] See also Catholic Encyclopedia: Louis IX, Saint

### 6- موقع جامعة وسكونسن الأمريكية university of Wisconsin

التي قامت بنشر نسخة كاملة من كتاب *A History of the Crusades* والذي حرره Setton، حيث يستطيع الباحث الحصول على أى بحث نشر في أجزاء المجموعة الست.

عنوان الموقع:

<http://libtext.library.wisc.edu/cgi-bin/History/History-idx?type=browse&scope=HISTORY.HISTCRUSADES>

محتوياته:

Browse A History of the Crusades 6 matches.

*The first hundred years (1969)*

*The later Crusades, 1189-1311 (1969)*

*The fourteenth and fifteenth centuries (1975)*

*The art and architecture of the crusader states (1977)*

*The impact of the Crusades on the Near East (1985)*

*The impact of the Crusades on Europe (1989)*

7- موقع Medieval crusades ويحتوى على عدة مقالات مرتبطة  
بالإمارات الصليبية وعنوانه: [/http://www.medievalcrusades.com](http://www.medievalcrusades.com)

محتوياته:

<a href="#">The Crusades Begin</a>	<a href="#">State of Tripoli</a>
<a href="#">Kings of Jerusalem</a>	<a href="#">State of Edessa</a>
<a href="#">Foes of the Crusaders</a>	<a href="#">Coinage</a>
<a href="#">State of Antioch</a>	<a href="#">Links</a>
<a href="#">Books and Book Reviews</a>	

8- موقع the Crusades

وهو عبارة عن موقع لتدريس تاريخ الحروب الصليبية فى العصور الوسطى وتقويم الدارسين عبر الإنترنت، ويمكن الاتصال بمدير الموقع وتقديم تساؤلات حول موضوع الحروب الصليبية.

عنوانه: [/http://crusades.boisestate.edu](http://crusades.boisestate.edu)

9- موقع JOSTR

وهو من أهم مواقع الإنترنت التى أتاحت للباحثين أرشيفاً لعدد كبير من الدوريات العالمية بصفة عامة وفى التاريخ بصفة خاصة، حيث يحتوى الموقع على أربعين دورية عالمية كاملة على ملفات ADOP REDER، ومن خلال استخدام صندوق البحث يمكن الحصول على عدد هائل من الأبحاث المرتبطة بالحروب الصليبية، وحين تطبع تظهر وكأنها مصورة عن الدورية الأصلية بكامل بياناتها.

عنوان الموقع: <http://www.jstor.org>

= محتويات الدوريات التاريخية

American Historical Review 1895-1999

American Quarterly 1949-1995 (plus links to recent content 1996-2004)

Annals of the Association of American Geographers 1911-1999

Comparative Studies in Society and History 1958-1999

Economic Geography 1925-1999

Economic History Review 1927-1999

Eighteenth-Century Studies 1967-1995 (plus links to recent content 1995-2004)

English Historical Review 1886-1999

Ethnohistory 1954-1999 (plus links to recent content 2000-2004)

French Historical Studies 1958-1999 (plus links to recent content 2000-2004)

Hispanic American Historical Review 1918-1999 (plus links to recent content 2000-2004)

Historical Journal 1958-1999

Cambridge Historical Journal 1923-1957

History and Theory 1960-2000

History of Education Quarterly 1961-1999

History Teacher 1967-2001

International Journal of African Historical Studies 1972-2001

African Historical Studies 1968-1971

International Journal of Middle East Studies 1970-1999

Journal of African History 1960-1999

Journal of American History 1964-1999

Mississippi Valley Historical Review 1914-1964

Journal of British Studies 1961-2002

Journal of Contemporary History 1966-2001

Journal of Economic History 1941-1999

Journal of Interdisciplinary History 1970-1999

Journal of Military History 1989-2001

Military Affairs 1941-1988

Journal of the American Military Institute 1939-1940

Journal of the American Military History Foundation 1937-1938

Journal of Modern African Studies 1963-1999

Journal of Modern History 1929-1999

Journal of Negro History 1916-2001

Journal of Southern African Studies 1974-2001

Journal of Southern History 1935-1999

Journal of the History of Ideas 1940-1995 (plus links to recent content 1996-2004)

Modern China 1975-2001

New England Quarterly 1928-2001

Past and Present 1952-1999

Renaissance Quarterly 1967-2001

Renaissance News 1948-1966

Reviews in American History 1973-1994 (plus links to recent content 1995-2004)

Russian Review 1941-1999

Sixteenth Century Journal 1972-1999

Sixteenth Century Essays and Studies 1970-1971

Speculum 1926-1999

Studies in the Renaissance 1954-1974

William and Mary Quarterly 1892-2000

## 10 - موقع دائرة المعارف الكاتوليكية

عنوانه: <http://www.newadvent.org/cathen/04543c.htm>

محتوياته: يشتمل على عدد كبير من المواد المرتبطة بالحروب الصليبية.

## 11 - موقع <http://www.bnf.fr>

محتوياته: كم هائل من الصور المرتبطة بعصر الحروب الصليبية يمكن تنزيلها والاستفادة منها، لأنها موثقة ومعلومة المصادر.

عنوانه:

[http://www.bnf.fr/enluminures/themes/t\\_1/st\\_1\\_02/a102\\_006.htm](http://www.bnf.fr/enluminures/themes/t_1/st_1_02/a102_006.htm)

## 12- موقع HISTORY OF THE CRUSADES

محتوياته: تعريف عام بالحروب الصليبية بجانب عدد من الكتب والمصورات ونصوص الخطابات وقوائم المصادر.

عنوانه: <http://www.ku.edu/kansas/med/crusades.html>

وبمجرد إدخال العنوان على الشبكة يمكن الوصول إلى المحتويات الآتية:

### HISTORY OF THE CRUSADES

#### □ Geography

- Atlas historiqueE périodique de l'Europe [covers the years from 900 to 1700. In Fench]
- Map of the Fourth and Later Crusades
- Map of Jerusalem in the Crusading Era
- Map for the Second and Third Crusades

#### □ Bibliography

- Crusade Sources in Translation, by Paul Halsall
- The Crusades: Select General Bibliography: Secondary Sources, by Paul Crwford, from ORB
- General Bibliography for the Military Orders, by Paul Crawford and Erik Opsahl, from ORB
- The Hospitallers. A Bibliography, from ORB
- The Templars: A Bibliography, by Malcom Baker, from ORB
- The Templars. A Bibliography, by Erik Opsahl, from ORB
- The Teutonic Knights. A Bibliography, from ORB

#### □ Electronic Texts

- A History of the Crusades, ed. Kenneth Setton, from the University of Wisconsin [a multi-volume collective work by eminent historians of the Crusades]
- Ransoming Captives in Crusader Spain. The Order of Merced on the Christian-Islamic Frontier, by James William Brodman, from LIBRO
- The Crusades, from The Catholic Encyclopaedia
- The Crusades. A General History, by Gerhard Rempel

#### □ **General**

- Recueil d'images sur les croisades et la civilisation byzantine
- L'image du Grec selon les chroniqueurs des croisades: perceptions et réactions face au cérémonial byzantin (1096-1204), by Marc Carrier [thesis. 166 pp.]
- Perfidious and Effeminate Greeks: the Representation of Byzantine Ceremonial in the Western Chronicles of the Crusades (1096-1204), by Marc Carrier.
- Islam During the Crusades, by E.L. Knox

#### □ **Antecedents**

- Political and Military Background, by Paul Crawford, from ORB
- The Byzantine Empire, by E.L. Knox
- Virtual Pilgrimage to Jerusalem, by E.L. Knox

#### □ **First Crusade 1095-1099**

- The First Crusade, by E.L. Knox
- La Première Croisade
- Documents of the First Crusade, from the Internet Medieval Sourcebook

#### □ **The Kingdom of Jerusalem**

- The Kingdom of Jerusalem, by E.L. Knox
- Documents of the Kingdom of Jerusalem, from the Internet Medieval Sourcebook

- The Military Orders
- **General**
  - Knights of Christ? The Templars, Hospitallers and other military orders in the eyes of their contemporaries, 1128-1291, by Helen Nicholson, from ORB
- **The Knights of the Temple of Solomon**
  - The Templars, by Malcom Baker, from ORB
  - The Templars: A Bibliography, by Malcom Baker, from ORB
  - The Templars. A Bibliography, by Erik Opsahl, from ORB
  - The Primitive Rule of the Templars, Trans. Mrs. Judith Upton-Ward, from ORB
  - The Rule of St. Benedict Compared with the Rule of the Templars, by Steven Grobschmidt, from ORB
  - The Trial of the Templars in Cyprus, by Anne Gilmour-Bryson, from ORB
- **Knights of the Hospital of St. John**
  - The Hospitallers. A Bibliography, from ORB
- **Knights of St. Mary of the Teutons**
  - The Teutonic Order, by Eric Opsahl, from ORB
  - The Rule and Statutes of the Teutonic Knights, Trans. Prof. Indrikis Sterns, from ORB
  - The Teutonic Knights. A Bibliography, from ORB
  - Timeline for the Teutonic Order
- **The Order of St. Thomas of Acre**
  - The Order of St Thomas of Acre, by Alan Forey, from ORB
- **Documents of the Military Orders, from the Internet Medieval Sourcebook**
  - Antioch During the Crusades, by E.L. Knox
- **The Crusade of 1101**
  - The Crusade of 1101, by E.L. Knox

**□ Second Crusade 1147-1149**

- The Second Crusade, by E.L. Knox
- La deuxième croisade (1147-1149)
- Documents of the Second Crusade, from the Internet Medieval Sourcebook

**□ Third Crusade 1188-1192**

- The Third Crusade, by E.L. Knox
- Documents of the Third Crusade, from the Internet Medieval Sourcebook

**□ William of Tyre**

- History of Deeds Done Beyond the Seas, from Internet Medieval Sourcebook

**□ Fourth Crusade 1202-1204**

- The Fourth Crusade, by E.L. Knox
- La quatrième croisade (1198-1204)
- Documents of the Fourth Crusade, from the Internet Medieval Sourcebook

**□ The Children's Crusade 1212**

- Chronica Regiae Coloniensis, s.a.1213, The "Children's Crusade", 1212, from the Internet Medieval Sourcebook

**□ Fifth Crusade 1217-1221**

- The Fifth Crusade, by E.L. Knox
- Documents of the Fifth and Later Crusades, from the Internet Medieval Sourcebook

**□ Sixth Crusade 1228-1229**

- The Sixth Crusade, by E.L. Knox

**□ Seventh Crusade 1248-1260**

- The Seventh Crusade, by E.L. Knox

**□ The Aftermath**

- Legacy, by Paul Crawford, from ORB

- The Baltic Crusade, by William Urban, from ORB
- The Impact, by Thomas Madden, from ORB
- **Letters from the Crusaders, from Hannover**
  - Anselme of Ribemont, Letter to Manasses II, Archbishop of Reims (1098)
  - Stephen, count of Blois. Letter to his wife, Adele (1098)
  - Letter to the Pope from Daimbert, Godfrey and Raymond (1099)
  - Conrad III, First Letter to Wibald, Abbot of Corvey (1148)
  - Conrad III. Second Letter to Wibald, Abbot of Corvey (1148)
  - Aymeric, Patriarch of Antioch, Letter to Louis VII of France (1164)
  - Letter from the East to Master of Hospitalers (1187)
  - Frederick I, Letter to Leopold of Austria (1189)
  - Sibylla, Ex-Queen of Jerusalem, Letter to Frederick I (1189)
  - The Duke of Lorraine, Letter to the Archbishop of Cologne (1197)
  - Frederic II, Letter to Henry III of England (1229)
  - Gerold, Patriarch of Jerusalem, Letter to all the Faithful (1229) (1099)

Lynn H. Nelson

Lawrence, KS

2 August 2002

### 13- موقع فرسان الداوية

وهو من أهم المواقع لدارسي تاريخ الحروب الصليبية، نظراً لما يحتويه من وثائق ومقالات وبحوث تخص الداوية.

عنوانه: <http://www.templarhistory.com/history.html>

محتوياته:

#### Organization & Structure

1. ➔ Who Were The Knights Templar?
2. ➔ Garments Of The Templars
3. ➔ The Templar Hierarchy

4. → [Templar Organization](#)
5. → [The Council Of Troyes](#)
6. → [Templar Punishment](#)
7. → [The Seal Of The Knights Templar](#)
8. → [The Templar Beauséant](#)

### **Templar Personalities**

1. → [William Marshall](#)
2. → [Bernard Of Clairvaux](#)
3. → [King Richard I - The Lionheart](#)
4. → [The Cistercians](#)
5. → [The Templar Grand Masters](#)
6. → [Hugues De Payens](#)
7. → [Jacques De Molay](#)
8. → [Saladin - Enemy Of The Templars](#)
9. → [The Kings Of Jerusalem](#)
10. → [The Kings Of England](#)
11. → [The Kings Of France](#)
12. → [Templar Era Popes](#)
13. → [Philip IV - 1268 - 1314](#)
14. → [Pope Clement V](#)

### **The Fall Of The Order**

1. → [The Trial of the Knights Templar](#)
2. → [Templar Accusations](#)
3. → [The Templars Heretics?](#)
4. → [The Templars Guilty?](#)

### **Templar Locations & Battles**

1. → [The Templar Round Church: London](#)
2. → [The Templars And Cyprus](#)
3. → [The Templars In Portugal](#)
4. → [The Fall Of Acre - 1291](#)
5. → [The Battle Of Hattin](#)

### **Templar Documents**

1. → [In Praise Of The New Knighthood](#)
2. → [Lament For The Templars?](#)

3. → The Templar Rule Of Order
4. → Vox In Excelso
5. → Ad Providam
6. → Considerantes
7. → Nuper In Concilio
8. → 1 December 1312
9. → Licet Dudum
10. → 31 December 1312
11. → Licet Pridem
12. → Unum Sanctum

#### Misc. History Articles

1. → The Relic Of The True Cross
2. → The Knights Hospitaller
3. → The Teutonic Knights

#### Medieval History Articles

1. → The Children's Crusade
2. → Pope Urban II
3. → Chronology of the Crusades
4. → The Massacre At Worms

#### 14. مواقع the crusades

يحتوى على عدد من المقالات الهامة حول الحروب الصليبية.

عنوانه: <http://www.crusades.ws/sitemap.html>

محتوياته:

#### The Crusades home page

1. Origin of the Crusades
2. Foundation of Christian states in the East
3. First destruction of the Christian states (1144-87)
4. Attempts to restore the Christian states and the crusade against Saint-Jean d'Acre (1192-98)
5. The crusade against Constantinople (1204)
6. The thirteenth-century crusades (1217-52)

7. Final loss of the Christian colonies of the East (1254-91)
8. The fourteenth-century crusade and the Ottoman invasion
9. The crusade in the fifteenth century
10. Modifications and survival of the idea of the crusade

15- موقع doaks.

يحتوى على عدد من الدراسات المرتبطة بالحروب الصليبية والتاريخ البيزنطى .

عنوانه: <http://www.doaks.org/LACR.html>

محتوياته:

- Dumbarton Oaks Papers, 57 (2003)
- Byzantine Pilgrimage Art
- Dumbarton Oaks Papers, 56 (2002)
- Byzantine Garden Culture
- Dumbarton Oaks Papers, 55 (2001)
- The Economic History of Byzantium
- Dumbarton Oaks Papers, 54 (2000)
- Dumbarton Oaks Papers, 53 (1999)
- **The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World**
- The Life of Lazaros of Mt. Galesion: An Eleventh-Century Pillar Saint (sample text)
- Siegecraft: Two Tenth-Century Instructional Manuals by "Heron of Byzantium" (sample text)
- Byzantine Monastic Foundation Documents
- Holy Women of Byzantium: Ten Saints' Lives in English Translation
- Byzantine Coinage
- Mosaics of Hagia Sophia, Istanbul: The Fossati Restoration and the Work of the Byzantine Institute
- Byzantine Magic

## 16- موقع: MUSE

عنوانه: <http://muse.jhu.edu/journals/index.html>

محتوياته: يرتبط بعدد كبير من الدوريات العالمية وبمجرد كتابة crusades في صندوق البحث الخاص بالموقع تحصل على كم هائل من الأبحاث المرتبطة بالموضوع.

## 17- موقع Medieval Warfare Online

عنوانه: <http://www.deremilitari.org/resources.htm>

محتوياته: عدد كبير من المقتطفات من مصادر الحروب الصليبية مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، بجانب عدد من الأبحاث الأجنبية حول عصر الحروب الصليبية، وبمجرد كتابة كلمة Crusades في صندوق البحث تظهر الأبحاث وعروض الكتب التالية:

### Sources

Eyewitness accounts of the First Crusade - added July 7, 2002

Siege of Antioch from Peter Tudebode's Historia de Hierosolymitano Itinere - January 24, 2002

Raymond d'Aguiliers description of the Siege of Jerusalem, 1099 - added January 19, 2003

Letters of the Crusaders Written from the Holy Land - added September 13, 2002

Contemporary reactions to the foundation of the Templars - added November 24, 2002

The Siege of Tyre in 1111-12, according to the Chronicle of Ibn Al-Qalanisi - added June 2, 2003

Hugh 'The Sinner': Letter to the Knights of Christ in the Temple at Jerusalem - added November 24, 2002

The Siege of Ascalon (1153) - added November 24, 2002

Letter from Aymeric, Patriarch of Antioch, to Louis VII, King of France (1164) - added January 10, 2003

The autobiography of Usama Ibn-Munquidh, a twelfth-century Muslim warrior in the Crusader States - added January 19, 2003

The Travels of Ibn Jubayr, from Damascus to Acre, 1184 - added January 19, 2003

Three Christian Sources on the Battle of Hattin - added November 18, 2002

The Battle of Hattin from a Muslim source - added September 29, 2002

Naval Battle off of Acre (1190) - added November 18, 2002

Itinerary of Richard I and others to the Holy Land, by Richard of Holy Trinity, (once ascribed to Geoffrey of Vinsauf) - added September 15, 2002 (PDF)

The Chronicle of Richard of Devizes - added September 15, 2002 (PDF)

Documents Relating to the Baltic Crusade (1199-1266) - added November 24, 2002

The Sack of Constantinople by the Fourth Crusade - added September 13, 2002

Robert of Clari's account of the Fourth Crusade - added January 12, 2003

Jacques de Vitry: Sermons to a Military Order - added November 24, 2002

Raid by Count Peter of Brittany against Muslim lands in 1239 - added December 25, 2002

De constructione castri Saphet (The Reconstruction of Saphet Castle, c.1240) - added January 19, 2003

The Loss of Acre (1291) - added November 24, 2002

Crusade planning in the late thirteenth century - added November 24, 2002

A plan to regain the Holy Land from the Master of the Hospitallers (c.1305) - added August 11, 2002

Naval Contract by the Papacy against the Turks (1334) - added August 11, 2002

## **Books, Chapters and Articles**

Adshead, S.A.M., Tamerlane and the Global Arsenal, 1370-1405 - from chapter 5 of *Central Asia in World History* (1993) - added January 1, 2003

- Al-Hassan, Amhad Y., Gunpowder Composition for Rockets and Cannon in Arabic Military Treatises In Thirteenth and Fourteenth Centuries- added January 1, 2003
- Allen, Terry, Ayyubid Architecture (2003) - added August 19, 2004
- Amitai-Preiss, Reuvan, Mamluks and Mongols: an overview - from chapter 10 of his *Mongols and Mamluks: The Mamluk-Ilkhanid War, 1260-1281* (1995) - added January 1, 2003
- Balard, Michel, Les transports maritimes genois vers la Terre Sainte - from *I Comuni Italiani nel Regno di Gerusalemme* (1986) (PDF file) - added February 3, 2003
- Balard, Michel, La poliorcétique des Croisés lors de la Première Croisade - from *Byzantinische Forschungen* v.25 (1999) - added May 12, 2003
- Bar Abraham, Abdulmesih, Patriarch Michael the Great: Beyond his World Chronicle - *Journal of Assyrian Academic Studies* v.12 n.2 (1998) - added September 11, 2003 (PDF file)
- Barber, Malcolm, The Templars - from *ORB: The Online Resource Book for Medieval Studies* - added July 19, 2002
- Barber, Malcolm, Frontier Warfare in the Latin Kingdom of Jerusalem: The Campaign of Jacob's Ford, 1178-79 - from *The Crusades and their Sources* (1998) - added November 24, 2002
- Barber, Malcolm, The Albigensian Crusades: Wars Like Any Other? - from *Dei gesta per Francos* (2001) - added December 28, 2002
- Beech, George T., A Norman-Italian Adventurer in the East: Richard of Salerno, 1097-1112 - from *Anglo-Norman Studies* v.15 (1993) - added June 1, 2003
- Bennett, Matthew, La Règle du Temple as a Military Manual or How to Deliver a Cavalry Charge - from *Studies in Medieval History Presented to R. Allen Brown* (1989) - added June 9, 2003
- Carrier, Marc, L'Image du Grec selon les Chroniqueurs des Croisades: Perceptions et Reactions face au cérémonial Byzantin ,1096 à 1204 - (2000) - added July 11, 2003
- Carrier, Marc, Perfidious and Effeminate Greeks: the Representation of Byzantine Ceremonial in the Western Chronicles of the Crusades

- (1096-1204) - from *Annuario dell'Istituto Romeno di Cultura e Ricerca Umanistica Venezia* (2002) - added July 11, 2003
- Christie, Niall G.F., The Presentation of the Franks in Selected Muslim Sources from the Crusades of the 12th Century - Unpublished M.Litt dissertation, University of St. Andrews, 1996 - added March 8, 2002
- Constable, Giles, The Historiography of the Crusades - from *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World* (2001) (PDF file) - added September 5, 2002
- Cowdrey, H.E.J., Pope Urban II's Preaching of the First Crusade - from *The Crusades: Essential Readings*, edited by Thomas Madden (2002) (PDF file) - added September 13, 2002
- Dajani-Shakeel, Hadia, Some Medieval Accounts of Salah al-Din's Recovery of Jerusalem (Al-Quds) - from *Studia Palaestina: Studies in honour of Constantine K. Zurayk* (1988) - added July 24, 2002
- Dajani-Shakeel, Hadia, A Reassessment of Some Medieval and Modern Perceptions of the Counter-Crusade - from *The Jihad and its Times: Dedicated to Andrew Stefan Ehrenkreutz* (1991) - added August 18, 2004
- Edbury, Peter, Looking Back on the Second Crusade: Some Late Twelfth-Century English Perspectives - from *The Second Crusade and the Cistercians* (1992) - added July 17, 2002
- Edgington, Susan, Pagan Peverel: An Anglo-Norman Crusader - from *Crusade and Settlement* (1985) - added September 27, 2002
- Endmann, Philip, Die Schlacht vor Nikaia am 17. Mai 1097 in militärgeschichtlicher Perspektive - from *Concilium medii aevi* v.4 (2001) - added September 27, 2002 (PDF file)
- Ferzoco, George, The Origin of the Second Crusade - from *The Second Crusade and the Cistercians* (1992) - added September 5, 2002
- France, John, The capture of Jerusalem - from *History Today* (1997) - added May 12, 2002
- France, John, Anna Comnena, the Alexiad and the First Crusade - from *Reading Medieval Studies* v.10 (1984) - added September 5, 2002
- France, John, The Roots of Victory - from chapter 1 of *Victory in the East: A Military History of the First Crusade* (1994) - added January 1, 2003

- Francis, Dominic, Oliver of Paderborn and his Siege Engine at Damietta - from *Nottingham Medieval Studies* v.37 (1993) - added March 8, 2002
- Fuess, Albrecht, Rotting Ships and Razed Harbors: The Naval Policy of the Mamluks - from *Mamluk Studies Review* v.5 (2001) - added September 19, 2004
- Gilmour-Bryson, Anne, The Trial of the Templars in Cyprus - from *ORB: The Online Resource Book for Medieval Studies* - added June 3, 2002
- Gore, Terry, The First Battle of the First Crusade: Dorylaeum, 1097 - from *The History Net: Military History* - added June 3, 2002
- Grabois, Aryeh, Militia and Malitia: The Bernardine Vision of Chivalry - from *The Second Crusade and the Cistercians* (1992) - added July 17, 2002
- Gravelle, Yves, La probleme des prisonniers de guerre pendant les croisades orientales, 1095-1192 - Universite de Sherbrooke, MA thesis, 1999 - added January 26, 2005
- Hamblin, William J., Saladin and Muslim Military Theory - from *The Horns of Hattin* (1992) - added February 3, 2003 (PDF file)
- Hoch, Martin, The Crusaders' Strategy Against Fatamid Ascalon and the "Ascalon Project" of the Second Crusade - from *The Second Crusade and the Cistercians* (1992) - added November 15, 2002 (PDF file)
- Hoch, Martin, The Choice of Damascus as the Objective of the Second Crusade: a re-evaluation - from *Autour de la Première Croisade* (1996) - added February 3, 2003
- Humphreys, R. Stephen, Ayyubids, Mamluks, and the Latin East in the Thirteenth Century - from *Mamluk Studies Review* v.2 (1998) - added September 19, 2004
- Inalcik, Halil, The Conquest Of Edirne (1361) - from *Archivum Ottomanicum*, III, (1971) - added January 1, 2003
- Inalcik, Halil, The Question of the Emergence of the Ottoman State - from *International Journal of Turkish Studies* (1980) - added January 1, 2003

- Inalcik, Halil, Osman Ghazi's Siege of Nicaea and the Battle of Bapheus - from *The Ottoman Emirate: 1300-1389* (1993) - added October 30, 2002
- Irwin, Robert, Muslim responses to the Crusades - from *History Today* (1997) - added May 12, 2002
- Jeffreys, Elizabeth and Jeffreys, Michael, The "Wild Beast from the West": Immediate Literary Reactions in Byzantium to the Second Crusade - from *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World* (2001) (PDF file) - added September 5, 2002
- Jensen, Kurt Villads, Valdemar the Victorious - the wildcard in pope Innocent's Northern policy - from a conference paper (1998) - added December 20, 2002
- Jensen, Kurt Villads, The Barbarization of the Northerners as a result of the First Crusade - from a conference paper (1999) - added December 20, 2002
- Jensen, Kurt Villads, What was the centre of the crusading movement? Some Scandinavian examples of the Concept Crusader State - from a conference paper (2000) - added December 20, 2002
- Jordan, William Chester, Cutting the budget: the impact of the crusades on appropriations for public works in France - from *Revue belge de philosophie et d'histoire* v.76 (1998) - added October 6, 2003
- Kazhdan, Alexander, Latins and Franks in Byzantium: Perception and Reality from the Eleventh to the Twelfth Century - from *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World* (2001) (PDF file) - added September 5, 2002
- Kedar, Benjamin Z., The Battle of Hattin Revisited - from *The Battle of Hattin* (1992) - added July 26, 2002
- Kosztolnyik, Z.J., The Crusade of Andrew II - a chapter from his work *Hungary in the Thirteenth Century* (1996) - added August 30, 2002
- Larsdatter, Karen, Women of Peace and War: The Roles of European Women at the Siege of Acre - from *The Oak* 13 - added June 3, 2002
- Laiou, Angeliki E., Byzantine Trade with Christians and Muslims and the Crusades - from *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World* (2001) (PDF file) - added September 5, 2002

- Lloyd, Simon, The crusades of St Louis - from *History Today* v. 47 (1997) - added May 12, 2002
- Lyons, M.C., The Land of War: Europe in the Arab Hero Cycles - from *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World* (2001) (PDF file) - added September 5, 2002
- Mackenzie, Neil D., The Fortifications of al-Qahira (Cairo) under the Ayyubids - from *The Jihad and its Times: Dedicated to Andrew Stefan Ehrenkreutz* (1991) - added August 31, 2004
- Magdalino, Paul, The Byzantine Background to the First Crusade (Toronto, 1996) - added December 28, 2002
- Maier, Christopher T., The roles of women in the crusade movement: a survey - from *The Journal of Medieval History* v.30 n.1 (2004) - added March 1, 2004
- Marin, Serban, Venetian and Non-Venetian Crusaders in the Fourth Crusade, according to the Venetian Chronicles' Tradition - from *Annuario. Istituto Romeno di cultura e ricerca umanistica* v.4 (2002) - added January 13, 2003
- Marshall, Christopher J., The Crusading Motivation of the Italian City Republics in the Latin East, c. 1096-1104 - from *Rivista di Bizantinistica* v.1 (1991) - added March 1, 2003
- Marshall, Christopher J., The Use of the Charge in Battles in the Latin East, 1192 - 1291 - from *Historical Research* v.65 (1992) - added August 23, 2002
- Marshall, Robert, From Prester John to Cultural Strangers - from chapter 5 of *Storm from the East: From Genghis Khan to Khubilai Khan* (1993) - added January 1, 2003
- Mottahedeh, Roy Parviz and al-Sayyid, Ridwan, The Idea of the Jihad in Islam before the Crusades - from *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World* (2001) (PDF file) - added September 5, 2002
- Nicholson, Helen, Knights of Christ- The Templars, Hospitallers and other military orders in the eyes of their contemporaries, 1128-1291 - from *ORB: The Online Resource Book for Medieval Studies* - added June 3, 2002

- Nicholson, Helen, Serious Violence: Church justification for violence in the Middle Ages - from a conference paper (1998) - added October 30, 2002
- Nicol, Donald, Constantine XI and Mehmed II: the fall of Constantinople 1448-53 - from chapter 18 of *Last Centuries of Byzantium* (1993) - added January 1, 2003
- Nikolakopoulou, Marina, The First & the Second Crusade: The contribution of the Military Orders in the formation of the crusader states in the 11th c. - from *Anistoriton* v. 2 (1998) - added April 11, 2002
- Noble, Peter S., Eyewitnesses of the Fourth Crusade - the War against Alexius III - from *Reading Medieval Studies* 25 (1999) - added August 23, 2002
- Oikonomides, Nicolas, The Turks in Europe (1305-13) and the Serbs in Asia Minor (1313) - from *The Ottoman Emirate: 1300-1389* (1993) - added October 30, 2002
- Omran, Mahmoud Said, John Kinnamos as a Historian of the Second Crusade - from *Uluslararası Haçlı Seferleri Sempozyumu* (1999) - added September 19, 2004
- Panagopoulou, Niki, The Armies and the Successes of the First Crusade (1095-1099) - from *Anistoriton* v. 3 (1999) - added April 11, 2002
- Phillips, Jonathan, Who were the first Crusaders? - from *History Today* v.47 (1997) - added May 12, 2002
- Queller, Donald E., and Katele, Irene B., Venice and the Conquest of the Latin Kingdom of Jerusalem - from *Studi Veneziani* v.21 (1986) - added September 5, 2002
- Robbert, Louise Buengar, Venetian Participation in the Crusade of Damietta - from *Studi Veneziani* v.30 (1995) - added September 5, 2002
- Schein, Sylvia, From 'Milites Christi' to 'Mali Christiani': The Italian Communes in Western Historical Literature - from *I Comuni Italiani nel Regno di Gerusalemme* (1986) (PDF file) - added February 3, 2003

- Setton, Kenneth M. (ed.), A History of the Crusades - the entire six volume set has been made freely available by the University of Wisconsin-Madison - added May 10, 2002
- Soucek, Svat, The Ottomans and Their Rivals, Galleys and Galleons, Portolan Charts and Isolarii - from *Piri Reis & Turkish Mapmaking After Columbus: The Khalili Portolan Atlas* (1995) - added January 1, 2003
- Sugar, Peter, The Early History and the Establishment of the Ottomans in Europe - from Chapter 1 of *Southeastern Europe Under Ottoman Rule, 1354-1804* (1977) - added January 1, 2003
- Tarzi, Joseph, Edessa in the Era of Patriarch Michael The Syrian - Hugoye: Journal of Syriac Studies v.3:2 (July 2000) - added September 11, 2003
- Thomson, Robert W., The Crusaders through Armenian Eyes - from *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World* (2001) (PDF file) - added September 5, 2002
- Thomson, Rod, William of Malmesbury, Historian of Crusade - from *Reading Medieval Studies* v.23 (1997) - added August 23, 2002
- Treadgold, Warren, Two Fights for Survival: 610-668 - from Chapter 9 of his *A History of the Byzantine State and Society* (1997) - added January 1, 2003
- Tyerman, Christopher, Who Went on the Crusades to the Holy Land - from *The Battle of Hattin* (1992) (PDF file) - added September 5, 2002
- Urban, William, The Sense of Humor among the Teutonic Knights of the Thirteenth Century - from *Illinois Quarterly* v.42(1979) - added October 30, 2002
- Urban, William, Victims of the Baltic Crusades - from *Journal of Baltic Studies* v.29 (1998) - added October 30, 2002
- Urban, William, Rethinking the Crusades - from *Perspectives* [newsletter of the American Historical Association] v.36 (1998) - added October 30, 2002

Weltecke, Dorothea, The World Chronicle by Patriarch Michael the Great (1126-1199): Some Reflections - *Journal of Assyrian Academic Studies* v.11 n.2 (1997) - added September 11, 2003 (PDF file)

### Links to other Web Sites

- <http://www.unf.edu/classes/crusades/crusadesbibliography.htm> - **Crusades Bibliography** - by Paul Halsall; this is a very large and comprehensive list of books and articles dealing with the Crusades.
- <http://people.westminstercollege.edu/faculty/mmarkowski/ssclehome.htm> ] - **Society for the Study of the Crusades and the Latin East**
- [http://www.ou.dk/hum/kvj/crusade/crusade\\_home.html](http://www.ou.dk/hum/kvj/crusade/crusade_home.html) - **Denmark and the Crusading Movement** - examines Danish participation in the crusades
- <http://crusades.boisestate.edu/index.html> - **History of the Crusades** - a good course website by Skip Knox
- <http://libtext.library.wisc.edu/HistCrusades/> - **A History of the Crusades** - edited by Kenneth M. Setton, the entire six volume set has been made freely available by the University of Wisconsin-Madison
- <http://historymedren.about.com/cs/crusades/> - **Medieval History - Crusades, from about.com** - maintained by Melissa Snell
- <http://orb.rhodes.edu/encyclop/religion/monastic/milindex.html> - **Military Orders: A Guide to Online Resources** - part of the *ORB: The Online Reference Book for Medieval Studies*
- <http://orb.rhodes.edu/encyclop/religion/crusades/crusade.html> - **Crusades: An Online Guide to Resources** - part of the *ORB: The Online Reference Book for Medieval Studies*
- <http://www.middleeastmedievalists.org/> - **Middle East Medievalists (MEM)** - association of scholars interested in the study of the Islamic lands of the Middle East during the medieval period
- <http://www.callisto.si.usherb.ca/~croisade/Byzance.htm> - **Les Croisades: Sources, Images et Histoire** - includes articles and primary texts, mostly in French

وأخيرًا أنه حتى الآن لم يتم إنشاء موقع إنترنت عربى جاد يهتم بالحروب الصليبية، من خلال عرض الدراسات العربية أو حتى الحصر البليوجرافى لها على كثرتها وتنوعها. وفى هذا المجال أتمنى أن تتبنى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية هذا المشروع. عسى أن يكون فاتحة خير لإنشاء موقع إنترنت رائد حول التاريخ العربى فى شتى العصور، يستطيع الباحث العربى والأجنبى فى شتى أرجاء المعمورة التعرف من خلاله على ما جرى فى موضوع تخصصه من بحوث ودراسات، تجنبًا للتكرار وسعيًا لكل جديد، وحتى يكون نافذة يطل منها كل متطلع للمعرفة على تاريخ المنطقة ومشاهير مؤرخيها وكتّابها.

\* \* \*

البلغار وحركة التمرد والعصيان المسلح في مقدونيا  
على الدولة العثمانية عام 1903 م  
في ضوء الوثائق الأمريكية

الدكتور

إبراهيم العدل المرسي

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة المنصورة

Obseikan.com

## البلغار وحركة التمرد والعصيان المسلح فى مقدونيا على الدولة العثمانية عام 1903 م

### مقدمة:

ازداد التوتر بين الدولة العثمانية والشعوب السلافية فى البلقان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر مع ظهور الحركات القومية فى أوروبا خلال تلك الفترة، حيث شهدت هذه المنطقة عدة حروب أبرزها الحرب التركية - الصربية عام 1876م، والحرب التركية الروسية عام 1877م، والحرب التركية اليونانية عام 1897م.

واجتاح الغليان الثورى المنتشر الجهاير المقدونية فى تلك الفترة ومع نهاية عام 1875م وبداية عام 1876م حدث تشكيل لمنظمة مستقلة فى سالونيك من أجل الإعداد لثورة مسلحة فى مقدونيا، وكان زعيم الثائرين هو " ديمتار بوب جيورجيف " الذى درس بالمدرسة العسكرية فى بلغراد التى كانت آنذاك مركزاً لكثير من الثوار القوميين من البوسنة وبلغاريا ومقدونية، وفى قرية " رازلوفيتس " أحرق الثوار الفلاحون الكتب وعقود الملكية الخاصة بالإقطاعيين الأتراك، وتوجهوا لكى يجرروا " بيروفو " وتكبدت قوات الثوار خسائر فادحة فى المعارك مع الجنود العثمانيين الذين كانوا أكثر عدداً وأفضل عدة<sup>(1)</sup>، ومنذ ذلك الحين شهدت مقدونيا عدداً من الاضطرابات، وكانت مسرحاً لحوادث دموية مختلفة، وكانت موجة الهياج تبدأ لتأخذ مكانها موجة أخرى، وأصبحت المشكلة المقدونية من أهم المشاكل فيما يسمى بالمسألة الشرقية<sup>(2)</sup>.

وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين نمت عاطفة قومية فى مقدونيا ظهرت نسبياً فى دور متأخر أثناء النزاع بين صربيا وبلغاريا، واعتبرها الصرب موجهة

نحوهم، واعتبرها البلغاريون نصيراً لبلاغاريا، وتشكلت فيها حركة قومية هدفها التخلص من الحكم العثماني، والحصول على استقلالها، وشهدت مقدونيا حركة تمرد وعصيان مسلح عام 1903م، اشترك فيها جميع سكان مقدونيا سواء يونانيين وألبان ورومانيين وصرب وبلغار.

وتتناول هذه الدراسة " البلغار وحركة التمرد والعصيان المسلح في مقدونيا على الدولة العثمانية عام 1903م، في ضوء الوثائق الأمريكية "، وثمة إشكاليتين رئيسيتين في هذه الدراسة:

الإشكالية الأولى: أسباب إلقاء الضوء على الدور البلغاري في هذه الحركة برغم اشتراك معظم سكان مقدونيا، ولعل هذا يرجع إلى أن الدور البلغاري في هذه الحركة كان رئيسياً، حيث أكد ذلك القنصل الأمريكي في إستانبول في رسالة إلى وزارة خارجيته بقوله: " إن حركة العصيان المسلح والثورة في مقدونيا، ذات طبيعة خاصة جداً، ولكنها مقصورة على العنصر البلغاري " <sup>3</sup>.

ويؤكد ذلك أيضاً مصطفى كامل أحد أقطاب الحركة الوطنية المصرية في مقال بجريدة اللواء " البلغار هم مدبرو هذه الحركة ومنظمو جنودها، ومعدو آلتها، ولا عبرة بما تدعيه حكومة صوفيا من أنها تحرس الحدود وتحمي المواقع، وتسد الأبواب في وجوه الثوار " <sup>4</sup>. ونفس الحال، حيث يذكر أحد المؤرخين المهتمين بدراسة هذه المنطقة: "وينبغي القول بأن هذه الثورة كانت تستند غالباً على البلغاريين " <sup>5</sup>.

الإشكالية الثانية: أسباب الاعتماد على الوثائق الأمريكية في معالجة هذه الدراسة، ويرجع ذلك للاعتبارات التالية:

- إن الوثائق الأمريكية هي المصدر الرئيسي لهذه الدراسة، حيث تناولتها بالكثير من التفاصيل نظراً لقيام العصابات البلغارية بخطف اثنتين من المبرشات الأمريكيات في بلاغاريا، وطالبوا بفدية كبيرة لشراء أسلحة ومتفجرات، ولذلك كانت مراسلات القنصل الأمريكي في إستانبول كثيرة ومتنوعة وشاملة لكل ما حدث في هذه الحركة.

- إن الوثائق العثمانية التي حاولت الحصول عليها كانت قليلة، ولم تتناول هذه الحركة

بالتفصيل، حيث اعتبرتها فتنة سوف تزول نظراً لكثرة الفتن والاضطرابات التي شهدتها الدولة العثمانية في كثير من أجزائها في تلك الفترة<sup>(6)</sup>.

### أما عن أسباب اختيارها لهذه الدراسة فيرجع إلى عدة أسباب:

- أن هذا الجزء الأوربي من الدولة العثمانية لم يأخذ حقه من الدراسات التي كتبت بالعربية، بينما كانت حكرراً على الأجانب حتى إن بعضهم في كتاباته تجنى على الدولة العثمانية<sup>(7)</sup>.

- أن المشكلة المقدونية تعد من أهم أزمات المسألة الشرقية، بل وصفها البعض بأنها: "هي المسألة الشرقية في أعظم دور لها"<sup>(8)</sup>، حيث شهدت تدخلات وأطاع الدول الأوربية الكبرى، وتشابك ذلك مع طموح العناصر المحلية في هذه المنطقة.

- أن هذه الحركة جديرة بالدراسة وإلقاء الضوء عليها، حيث شهدت مقدونيا حوادث مسلحة بين الدولة العثمانية وأهالي مقدونيا أدت إلى قتل العديد من الطرفين، وهدمت مئات المنازل والقرى، ودمرت العديد من المنشآت الحيوية كالسكك الحديدية والبنوك، وأصبحت مقدونيا مسرحاً للخراب والدمار، وكان لها ردود فعل مختلفة سواء في الدولة العثمانية أم في الدول الأوربية.

- أن أوراق ومراسلات القنصل الأمريكي في إستانبول قد أفادتني في معالجة هذه الدراسة، حيث تعد - إلى حد ما - وجهة نظر غير أوربية، ورؤية جديدة.

### وسوف نتناول فيما يهذه الدراسة العناصر التالية:

أولاً: المشكلة المقدونية وتطوراتها والدور البلغاري فيها حتى قيام حركة التمرد، نلقى نظرة تاريخية وجغرافية على هذه المنطقة مسرح هذه الحركة، ثم نتناول أسباب هذه المشكلة المقدونية، والدور البلغاري فيها حتى قيام حركة التمرد والعصيان المسلح.

ثانياً: البلغار وحركة التمرد والعصيان المسلح في مقدونيا على الدولة العثمانية عام 1903م في ضوء الوثائق الأمريكية، نوضح إرهابات هذه الحركة، ثم نلقى الضوء على أحداثها في ضوء الوثائق الأمريكية، وأخيراً نتائج هذه الحركة في مقدونيا، وردود أفعالها سواء في الدولة العثمانية أم في الدول الأوربية.

والله أمل أن أكون قد وفقت في تناول هذه الدراسة، وأن تعد إضافة لينة في تاريخ الدراسات التاريخية التي تناولت الدولة العثمانية.

## أولاً: المشكلة المقدونية وتطوراتها والدور البلغارى فيها حتى قيام حركة التمرد:

يجدر بنا أن نلقى نظرة تاريخية وجغرافية على مقدونيا مسرح حركة التمرد، حيث كانت تقع في شبه جزيرة البلقان<sup>9</sup>، ومن الجدير بالذكر أن مفهوم مقدونيا خلال هذه الدراسة، كان يختلف عن مقدونيا الحالية المحددة داخل نطاق الاتحاد الفيدرالى اليوغسلافى<sup>10</sup>.

وقد سقطت مقدونيا تحت هجمات العثمانيين الذين احتلوا في آخر القرن الرابع عشر كل شبه جزيرة البلقان، وتحت السيطرة العثمانية لم يستعمل تعبير مقدونيا، وإنما تعبير "رومىلى"<sup>11</sup>، كذلك كان يطلق عليها في التاريخ العثمانى اسم "اياتى ثلاث" أى الولايات الثلاث وهى: سالونى Salonica، موناستير Monstri، قوصوه أو "كوسوفو" Kosovo<sup>12</sup>، بينما أطلق عليها الأوربيون اسم مقدونيا<sup>13</sup>.

كانت المشكلة المقدونية أهم أزمات المسألة الشرقية بل كانت هى المسألة الشرقية في أعظم دور لها، وبخاصة أن مقدونيا كانت العالم المصغر لمشاكل البلقان، ولعل ذلك كان يرجع إلى عدة عوامل متداخلة أهمها:

العامل الأول: يتعلق بالتكوين الاجتماعى في مقدونيا، حيث كانت تضم أخلاطاً شتى من السكان سواء من العثمانيين المسلمين واليهود واليونانيين والألبان والرومانيين والبلغار والصرب<sup>14</sup>، يختلفون في لغاتهم واتجاهاتهم وبذلك اختلفت قومياتهم وأصبحوا خطراً على الدولة العثمانية<sup>15</sup>، وكانت كل قومية من هذه القوميات تزعم أنها تشكل أغلبية عددية تجب لها السيطرة على مقدونيا. وعلق أحد الكتاب الأجانب على ذلك بقوله: "إن وجود العثمانيين هو الأقل تعقيداً وإرباكاً للمشكلات التى تواجهها في مقدونيا"<sup>16</sup>.

العامل الثانى: حالة الضعف والتدهور التى أصابت الدولة العثمانية، ففي هذه الفترة

المتأخرة من العهد العثماني عانت الدولة العثمانية من الضعف والانحلال لظروف كثيرة لدرجة أنهم أطلقوا على السلطان العثماني عدة صفات تدل على ذلك منها " رجل أوروبا المريض "، و " المريض الذي لا يرجى شفاؤه "، و " المريض المشرف على الموت " <sup>17</sup>، وقد تجلّى ضعف السلطة العثمانية في مقدونيا في انتشار ظاهرة الفساد الإداري من جانب الموظفين العثمانيين، وهو ما وصفه القنصل الأمريكي في إستانبول تشارلز ديكنسون Charles M. Dickinson بقوله: " إن معظم الأعمال في جمرک سالونيك تتم عن طريق الرشوة " <sup>18</sup>، هذا إلى جانب أن هذه الفترة من أواخر القرن التاسع عشر، أطلق عليها عصر القوميات في أوروبا، حيث ظهرت في فترة مبكرة في القسم الأوربي من الدولة العثمانية فشمّل شرق أوروبا ومنطقة البلقان <sup>19</sup>.

العامل الثالث: يتمثل في موقف القوى الأوربية الكبرى من مقدونيا، حيث كانت لسنوات ميدان التنافس المفضل لها، وكان هناك قوتان تحديا وهما روسيا والنمسا والمجر، حيث نجد روسيا تحاول تنفيذ خططها فيها لصالح بلغاريا <sup>20</sup>، بينما كانت الأخرى تطمع في مد نفوذها إلى بحر إيجه، وتعتقد أن نجاحها في هذا الصدد يتوقف على الصرب، ولذلك وقفت إلى جانبهم وكانت نصيرا لهم <sup>21</sup>. أما القوى الأخرى مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا فقد تطلعت بشكل ما إلى تحقيق مطالب متميزة لها في هذه المنطقة <sup>22</sup>.

ومما زاد في تعقد موقف هذه الدول الخصومة بينها، وانقسامها بين دول التحالف الثلاثي ودول الوفاق الثلاثي، حيث نجد النمسا والمجر وألمانيا تابعة للجانب الأول، بينما كانت روسيا وإنجلترا وفرنسا تابعة للجانب الثاني <sup>23</sup>.

ويتجلى موقف هذه الدول الأوربية واختلافها، في الاقتراح المقدم بثلاثة حلول ممكنة تجاه المشكلة المقدونية:

الأول: مقدونيا مستقلة تحت الحماية الأوربية .

الثاني: الإصلاح التركي تحت السيطرة الأوربية .

الثالث: تقسيم مقدونيا بين اليونان وبلغاريا وصربيا وألبانيا .

كانت غيرة هذه القوى في منع اتباع أى من الحلين الأول والثاني، ودمرت فعليا الحل

العامل الرابع: يدخل ضمن الإطار الاستراتيجي لهذه المنطقة، حيث تتميز بموقع جغرافي يتحكم في الطرق ما بين وسط أوروبا والبحر المتوسط، ومرور طرق حديدية على رأسها قطار الشرق السريع<sup>25</sup>، كذلك تظهر أهمية مقدونيا الحربية بالنسبة للدول الأوروبية نظراً لقربها من الدردنيل والبوسفور وإستانبول، فأى دولة أوروبية تستطيع عن طريق أحد الكيانات السياسية في مقدونيا أن تهدد المضائق وعاصمة الدولة العثمانية، وبالتالي تحقق أحلامها في السيطرة على الدولة الأخيرة<sup>26</sup>، كل ذلك جعلها موضع جذب هام للطامعين<sup>27</sup>.

في نفس الوقت كان لمقدونيا أهمية خاصة للدولة العثمانية، فهي تشكل دولة حاجزة بين الدولة العثمانية وأطباع اليونان في الممتلكات العثمانية من جهة الشرق<sup>28</sup>.

العامل الخامس: كذلك طمعت فيها الدول والكيانات السياسية في شبه جزيرة البلقان والمجاورة لها، حيث كانت تجاورها اليونان والصرب والرومان، وكل منها تطمع في الاستيلاء عليها<sup>29</sup>، لأن مقدونيا بالنسبة لهم منطقة مشاعة أو متنازع عليها، وحدودها غير واضحة، ويرى البعض عدم تحديد حدود هذه الكيانات السياسية ساعد على تأكيد هذه المشكلة، إن لم يكن في إنشائها<sup>30</sup>، ولذلك نجد اليونان تطمع في ضم مقدونيا إليها<sup>31</sup>، حيث كان اليونانيون يرغبون دائماً في رؤية مقدونيا تابعة لهم، لأنهم يشكلون عنصراً غالباً في الجزء الجنوبي غرب موناستير وفي جنوب سالونيك، هذا إلى جانب أن الأساقفة اليونانيين يعدون كل أهل مقدونيا يونانيين لأنهم تابعون فعليون للكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، وعموماً لمح اليونانيون بشكل لا يقبل الجدل أن مقدونيا هيلينية في روحها، وتشكل مستقبلاً جزءاً من اليونان الكبرى<sup>32</sup>، كذلك نجد رومانيا هي الأخرى تتطلع إلى مد نفوذها على مقدونيا استناداً إلى وجود الوالاش فيها<sup>33</sup>.

### بلغاريا ومقدونيا حتى قيام حركة التمرد:

كانت إثارة المشكلة المقدونية التي ظهرت ابتداء من سنة 1875م متوقعة، ولم يكن في وسع التقسيم الجزئي الذي كان قد بدأ بإنشاء إمارات الصرب والجبل الأسود ومملكة اليونان وأخيراً إمارة رومانيا إلا أن يزيد الصعوبات في المناطق التي كانت لا تزال خاضعة للسيطرة العثمانية، وكان البلغاريون هم وحدهم بين مسيحيي الإمبراطورية العثمانية

الذين لم يحصلوا على وطن مستقل أو شبه مستقل، ولذلك فإن يقظتهم القومية كانت أكثر بطئاً من يقظة الشعوب المسيحية الأخرى، ولكن هؤلاء البلغار كانوا قد حصلوا من السلطان العثماني، وبمساعدة روسيا منذ إبريل 1871 على وضع ديني جديد، فبدلاً من أن يخضعوا لبطريك القسطنطينية الأرثوذكس، والذي كان يونانياً، أصبح لهم كنيسة قائمة بذاتها، تخضع لرئيس بلغاري، وساعد وجود هذه الكنيسة البلغارية على نمو الشعور القومي البلغاري، ثم بدأت حركة ثورية في منطقة البلقان ضد الدولة العثمانية بدءاً من أغسطس عام 1875، من البوسنة والمهرسك، وصلت في فترة بضعة أشهر وامتدت في ربيع سنة 1876 إلى بلغاريا، وكان قمعها سريعاً من جانب الدولة العثمانية، وخاصة في بلاد البلغار، وعندئذ أعلنت الصرب والجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية، وكان من الطبيعي أن تسحق هاتين الإمارتين إذا لم يحصلوا على تدخل أجنبي، وتدخلت روسيا في أوائل إبريل 1877 حيث أعلنت الحرب على الدولة العثمانية كما قالت: لكي تجبر السلطان على تحسين حالة الشعوب المسيحية في إمبراطوريته<sup>34</sup>، وعموماً لم تحصل مقدونيا على استقلالها في أعقاب الحرب الروسية التركية (1877 - 1878م)، والتي أسفرت عن تحطيم السلطة التركية في بلغاريا<sup>35</sup>.

بلغت أيدولوجية الجامعة السلافية ذروتها في سياسة روسيا الخارجية بمشروع خلق دولة بلغاريا الكبرى في معاهدة سان استفانو (30 مارس 1878)<sup>36</sup> وقد خيبت هذه المعاهدة آمال القوميات الأرثوذكسية السلافية (الصرب والجبل الأسود) والأرثوذكسية (اليونان ورومانيا) في البلقان، حيث مثلت ذروة المصالح القومية الروسية بتجاهلها مصالح قوميات البلقان الأخرى، وذلك من خلال إنشاء روسيا لدولة أرثوذكسية سلافية تسير في فلكها، وفي الوقت نفسه، خلفت المعاهدة المذكورة معارضة دولية واسعة بسبب تضرر مصالح الدول الكبرى وبخاصة بريطانيا والنمسا والمجر من جراء تغير موازين القوى في البلقان<sup>37</sup>.

وهكذا نجد أن روسيا عملت على إضعاف الدولة العثمانية بإثارة وتشجيع القوميات البلغارية، فكانت الثورة البلغارية في إبريل 1878م التي تميزت بالعنف الدموي حتى إنهم قتلوا من المسلمين أعداداً كبيرة معظمهم من النساء والأطفال بلغوا اثني عشر ألفاً كما يذكر مصدر أجنبي<sup>38</sup>.

ولتجنب حرب أوروبية، عقد في برلين مؤتمر دولي ما بين 13 يونيو إلى 13 يوليو 1878م، ومن أجل تحقيق أهدافها استغلت الدوائر الصربية واليونانية الحاكمة نشاط الدبلوماسية الأوربية في هذا المؤتمر بشأن تعديل معاهدة سان استفانو، ونظمت الدوائر المذكورة إرسال التماسات من مقدونيا تطالب بأن يتم فصل مقدونيا كلها أو أجزاء منها عن الدولة العثمانية، وضمها إلى الدول المذكورة، وفي هذا المضمار جرت محاولة من الجانب اليوناني للتأثير على الموقف عن طريق ارتجال فكرة ما يسمى بالحكومة المؤقتة لمقدونيا<sup>39</sup>.

وعموماً تميزت قرارات مؤتمر برلين بأنها ألغت الكثير من المشاريع التي نفذتها روسيا في البلقان تبعاً لمعاهدة سان استفانو، فبموجب هذه القرارات تخلت روسيا عن مشروع بلغاريا الكبرى، وأعلن بالمقابل الاستقلال الذاتي لبلغاريا، والروميللى الشرقية، كما أعلن الاستقلال التام لكل من رومانيا والصرب والجبل الأسود، وقد حصلت الصرب على أرض ألبانية ذات أغلبية سلافية بدلا من برستينا وفقا لمعاهدة سان استفانو، كذلك أكدت معاهدة برلين على تبعية غينيا وبلافا إلى الجبل الأسود. أما اليونان فمنحت إيبرا وتساليا على أن ترسم الحدود النهائية بينها وبين الدولة العثمانية من قبل لجنة مشتركة للدولتين، إضافة إلى ذلك حصلت النمسا والمجر على حق احتلال البوسنة والمهرسك وسنجدج نوفى بازار<sup>40</sup>، وبالنسبة لمقدونيا أعيدت إلى السلطان العثماني مع صدور قرارات خاصة بها<sup>41</sup>، بعد أن كانت لبلغاريا حسب اتفاقية سان استفانو<sup>42</sup>.

وهكذا رتبت خريطة البلقان السياسية بصعوبة شديدة، نظرا لتداخل السياسات الدولية والإقليمية، صحيح أن معاهدة برلين لم تكن نموذجا أعلى للمعاهدات، فقد أثبتت مقدونيا ببقائها تحت حكم الدولة العثمانية أنها مركز مزمن للاضطرابات<sup>43</sup>. واشتد الصراع والتنافس بين حكومات البلقان من أجل اكتساب مناطق نفوذ وتحقيق توسعات إقليمية في مقدونيا، وكانت بلغاريا من أكثرها اهتماما بمقدونيا، ولعل ذلك كان يرجع إلى عدة عوامل أهمها:

1 - العامل الأول: تاريخي وجغرافي: كانت نشأة دولة بلغاريا تعتبر لأسباب مشابهة مقدونيا أرضا بلغارية<sup>44</sup>، ومن المهم - من وجهة النظر البلغارية - أن تذكر أن الامتداد

العظيم للدولة البلغارية في العصر الوسيط، أفاد حجة لمطلب بلغاريا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين<sup>(45)</sup>.

أما من الناحية الجغرافية، فإن بلغاريا جيولوجيا وجغرافيا تتطلع إلى منطقة بحر إيجه، ولذلك فإن وجود ميناء تجارى لها على هذا البحر ضرورى لتطوير اقتصادها.<sup>(46)</sup>

2 - العامل الثانى: اجتماعى: ويتمثل فى أن مطالب بلغاريا العرقية قوية حيث إن الغالبية العظمى من سكان مقدونيا بلغار<sup>(47)</sup>، ويرى البلغاريون فى مقدونيا أنهم يشكلون أغلبية عددية تجب لهم السيطرة عليها<sup>(48)</sup>، وبالنسبة لحكومة بلغاريا فإنها ترى أن المقدونيين بلغاريون<sup>(49)</sup>، بل اعتبروا أن مقدونيا منطقة يسكنها بلغاريون<sup>(50)</sup>.

كذلك ظهر فى مقدونيا التأثير التعليمى البلغارى، لقد كان معظم أهالى مقدونيا يتعلمون لربع قرن باعتبارهم بلغار<sup>(51)</sup>، وبخاصة أن اللغة المقدونية قريبة من اللغة البلغارية وأقرب إلى البلغارية من الصربية<sup>(52)</sup>، وقد تلقت النهضة البلغارية المقدونية المدفوعة باستعمال اللغة البلغارية سندا قويا من القسم الإغريقى من مقدونيا، ففى سالونيك طبعت المؤلفات الأولى باللغة الشعبية البلغارية فى عام 183م، بيد أن البلغاريين المقدونيين فى منتصف القرن التاسع عشر أيضا، وقفوا ضد الإغريق، ومن المهم أن نلاحظ أن كرواتيا، وهو المطران ستروسماير، فى عام 1861م نشر على نفقته مجموعة كبيرة من الأغاني الشعبية البلغارية، وأن أول شاعر بلغارى رثى فى أشعاره مصير بلاده الحزين هو المقدونى زينزيفوف وارتفع غناؤه فى عام 1862م ضد الإغريق، ومن ضمن ما جاء فيها: "مقدونيا أرض ممتازة، ولن تكون إغريقية أبدا أبدا، إن الخائل والغابات والجبال وحتى أحجار هذا التراب، والعصافير وأسماك نهر الفاردار، والأحياء والأموات سيقومون ليصبحوا بأوروبا والعالم أنا بلغارى، والبلغار يعيشون فى هذا البلد"<sup>(53)</sup>.

وفى تاريخ العاطفة البلغارية لمقدونيا يوجد تاريخ هام فى عام 1870م، وهو إنشاء الأكسرخوسية البلغارية التى انتزعت من البطريركية اليونانية فى إستانبول الإدارة المباشرة للكنيسة الأرثوذكسية فى منطقة كاملة تطابق بلغاريا الحالية ومقدونيا وبخاصة عندما أنشئت الإمارة البلغارية فى عام 1878م، واعتبر إنشاؤها من قبل البلغاريين حجة لصالح القومية البلغارية<sup>(54)</sup>.

وعموماً كان إقامة بطيركية بلغارية مستقلة، أول ضربة للاحتكار اليوناني في مقدونيا، وبخاصة بعد أن اعترف بوجودها عام 1878م بالمعنى السياسي<sup>(55)</sup>، وسوف يتضح دور هذه البطيركية في تهيئة الجو لصالح البلغار في مقدونيا.

3 - العامل الثالث: يتعلق بالأسباب الاقتصادية: حيث شهدت مقدونيا في القرن التاسع عشر تجارة نشيطة مع الخارج، وكانت تصدر القطن والتبغ والجلود، ولم تكن جميع هذه الأعمال في أيدي العثمانيين فقط، بل كانت في أيدي اليونانيين والبلغاريين المقدونيين، وكان بعض ممثلهم يعيشون في الخارج، فقد كان يوجد بلغاريون مقدونيون في بودابست وفي فينا وليتيزيرج<sup>(56)</sup>، وقد طمعت كل من الدول الثلاث المجاورة في انتزاع هذه الولاية الخصبة الغنية بالزراعة والتي تشتهر بزراعة التبغ على وجه الخصوص<sup>(57)</sup> وبخاصة البلغاريون.

كذلك تم فرض ضرائب جديدة على سكان مقدونيا لمواجهة الأعباء المالية المتراكمة على الدولة العثمانية، وصارت ولاية مقدونيا بسكانها المختلطين من سيئ إلى أسوأ، وأثارت هذه الضرائب الجديدة سخط القوميات المختلفة<sup>(58)</sup>، وقد حاول العثمانيون أن يضربوا العنصر البلغاري، وسهلت طريقة جباية الضرائب تدمير الشعب تدميراً منظماً، فقد كان التعامل في حال عدم دفع الضرائب، إقامة الجنود في القرى، وإجراء الجباية من المتأخرين بالقوة، ونجم عن ذلك ردود فعل عنيفة من قبل السكان وجرت مذابح عبر تاريخ مقدونيا كله في أواخر القرن التاسع عشر، وفي بداية القرن العشرين<sup>(59)</sup>.

وقد تعرض البلغار لعداء مرير ليس فقط من العثمانيين لكن من الأعراق المسيحية الأخرى في مقدونيا<sup>(60)</sup>، وبخاصة العرق الألباني، حيث سعى العثمانيون إلى استمالة الألبانيين فمنحوهم الإقطاعيات وأعفوهم من بعض الضرائب والأموال الأميرية وأدخلوهم في الطبقة الحاكمة بأعداد كبيرة، كما تطوع الألبانيون في الجيش العثماني وحصلوا على امتيازات لقاء خدماتهم العسكرية، وقد أثمرت هذه السياسة اعتناق الكثير من الألبانيين الإسلام، وهو أمر انسجم مع سياسة الدولة العثمانية للتوسع في أوروبا<sup>(61)</sup>، وكان على هؤلاء الألبانيين أن ينفذوا المطالب العادية وغير العادية للبكوات العثمانيين ومستولى الضرائب الرسميين، وقد عانت طبقة الفلاحين الكادحين في مقدونيا من ابتزاز هؤلاء الألبانيين<sup>(62)</sup>.

## وقد مرت سياسة بلغاريا فيما يخص مقدونيا بعدة مراحل:

المرحلة الأولى: تهدف إلى تحقيق بلغاريا الكبرى بضم مقدونيا التي استطاعت بالفعل ضمها في معاهدة سان استفانوو إلا أنهم تخلوا تدريجيا عن هذه الفكرة باعتبارها خارج نطاق السياسات العملية<sup>63</sup>، وبخاصة بعد تدخل الدول الكبرى وعقد مؤتمر برلين في نفس العام والذي أعاد مقدونيا إلى حظيرة الدولة العثمانية، ولذلك بدأت بلغاريا منذ أواخر عام 1878م بإحداث ثورات واضطرابات على حدود مقدونيا لمحاولة انتزاع بعض أجزائها، حيث وقعت بعض اضطرابات في شرق مقدونيا ( في كرسنا وفي رازلوج) وحطم الثوار حامية عثمانية عند منحدر كرسنا، وأخذوا يشكلون في القرى المجاورة أجهزة جديدة للسلطة المحلية، وواجهت نفس المصير الحامية العثمانية في بانسكا"، وبعد ذلك أسرع الثوار إلى " رازلوج" وحدثت معارك مسلحة بين الكتائب الصغيرة والجيش العثماني في وادي نهر فاردار، حيث اتسعت الحركة بإرسال مساعدات من الرجال والعتاد إلى الثوار في شرق مقدونيا. وظهرت في بلغاريا، في نفس الآونة، لجان سعت - تحت ستار إرسال المساعدات - على أن تفرض قاداتها على الثوار، وأن توجه نضالهم نحو ضم المناطق المقدونية إلى المملكة البلغارية، وبسبب المعارضة الشديدة لمثل هذه النوايا من جانب بعض الثوار، صدر أمر من لجنة صوفيا بقتل الدوق " ستوريان " أحد القادة الرئيسيين للثورة، وتم في النهاية إخمادها<sup>64</sup>.

وعموما انتشرت الاضطرابات في مقدونيا بمساعدة من البلغاريين، وكان الهدف من ذلك إظهار ضعف سلطة الدولة العثمانية على مقدونيا، وبالتالي ضرورة الإسراع بإحداث الإصلاحات الخاصة بمقدونيا طبقا لمعاهدة برلين حيث جاءت المواد من 18 إلى 21 خاصة بهذه الإصلاحات الإدارية والمالية وحقوقها الدولية وحقوق الدول فيها<sup>65</sup>، ولذلك نادى جميع الدول الأوروبية بضرورة إعداد هذا البرنامج الإصلاحى وأجبرت الدولة العثمانية طبقا لمعاهدة برلين على قبول الإصلاحات في مقدونيا، ولكن تباطأت في عمل هذه الإصلاحات<sup>66</sup>، ولمدة سنتين بعد توقيع معاهدة برلين، تم احتمال تلك الأمور بصبر على أمل أن توفي القوى الأوروبية بوعودها الخاصة بالإصلاحات في مقدونيا<sup>67</sup>، مما جعل الدول الأوروبية تضغط على الدولة العثمانية نتيجة للغليان الجارى في مقدونيا، ورد

فعل الرأى العام بها، مما أتاح الفرصة للدبلوماسية الأوربية وقدم لها الدافع لكى تتخذ خطوات جديدة من أجل إجبار الحكومة العثمانية على تنفيذ هذه الإصلاحات<sup>(68)</sup>.

اضطر الباب العالى إعداد برنامج إصلاحى تحت اسم "نظامه ولايات روميللى" أو قانون ولايات روميللى عام 1880م، ولكن لم يصدق السلطان عبد الحميد على هذا البرنامج الإصلاحى مستثمراً الصراع بين إنجلترا وفرنسا فى مواجهة سياسية من روسيا والنمسا والمجر، والخلاصة: أن مشكلة مقدونيا كانت على الدوام سبيل الدولة العثمانية لاستغلالها واستثمارها فى مواجهة الأطماع الاستعمارية والأزمات الاقتصادية والسياسية وتهديدات الدول الكبرى<sup>(69)</sup>.

ورغم ذلك واصلت بلغاريا سياستها فى تدعيم المقدونيين فى فترة الثمانينات فى ظروف السياسة التوسعية والمساعدى إلى ضم مقدونيا واقتقاد المقدونيين قوميتهم، وفى هذه الفترة اتخذت الدعاية من جانب بلغاريا الكبرى آماداً واسعة فى مقدونيا، وحصلت هذه الدعاية عن طريقة الكنيسة البلغارية على سلاح قوى يمتلك إمكانات شرعية ووسائل مالية ضخمة للقيام بأنشطة عن طريق المدارس والكنائس<sup>(70)</sup>.

وبخاصة أن تلك الفترة شهدت نزاعاً بين صربيا وبلغاريا التى أنشئت على مرحلتين (1878 - 1885م)، وفى عام 1882م أصبحت صربيا مملكة، وفى عام 1885م شهد اتحاد إمارة بلغاريا والرومىلى الشرقية، وكانت مقدونيا واقعة بين هاتين الدولتين وتطالب بها كل منهما دون الكلام عن اليونان التى صغرت مفهوم مقدونيا وردته إلى القسم الجنوبى من مقدونيا الذى يتمثل فيه العنصر اليونانى بشدة، وهو ولاية سالونيك، لتطالب بامتلاكه، وهو ما حصلت عليه فيما بعد، حيث نجد أن السكان اليونانيين والألبانيين فى جنوب منطقة سالونيك بخاصة، وتساليا أيضاً قد تهلينوا أى أصبحوا يونانيين بسرعة، وبالتالي كان القسم الجنوبى من مقدونيا يونانياً، ومع جزر صغيرة بلغارية فى أواخر القرن التاسع عشر، والباقى كان سلافياً وبلغت تقرب من البلغارية، وسيصبح موضع نزاع كما ذكرنا بين صربيا وبلغاريا<sup>(71)</sup>.

المرحلة الثانية: وتشمل فترة التسعينيات من القرن التاسع عشر، بدءاً من عام 1891م حيث كرس البلغار طاقتهم وجهودهم لتحرير مقدونيا، وكان أملهم الكبير باعتبارها

إمارة مستقلة يحكمها حاكم مسيحي، بالطبع يكون بلغاريًا كما جاءت في مطلب اللجنة المقدونية عام 1899م، ومن المحتمل أنها توسعت من خلال إقامة دولة مستقلة في مقدونيا وعقد اتحاد البلقان الفيدرالي<sup>(72)</sup>.

ولعل ذلك يرجع إلى أنه طرأ على المشكلة المقدونية عامل جديد أعطى لها أبعاداً خطيرة، وأتاح للدول الأوربية مزيداً من الفرص للتدخل الأجنبي، يتمثل في نمو عاطفة قومية مقدونية داخل مقدونيا، ففي عام 1891م ولأول مرة صدرت جريدة يومية سياسية، وظهر بين الثوريين الذين يعملون لتحرير مقدونيا أناس تتقنوا في مدرسة الاشتراكيين الروس<sup>(73)</sup>.

ووجود هؤلاء القوميون المقدونيون متنفساً لهم في مجلة " لوزا " التي كانت الجماعة الأدبية المقدونية الشابة تصدرها في صوفيا، نظراً لأنه لم تكن هناك إمكانيات لإصدارها بشكل شرعي في مقدونيا نفسها، ونددت المجلة بالنشاط الضار الذي تقوم به مختلف الدعايات الأجنبية في مقدونيا، وأيدت ودافعت عن تجمع الوطنيين المقدونيين بحيث يشكلون قوة شعبية مشتركة، وكان النشاط العملي لأنصار مجلة " لوزا " يقوم بدور هام في تشكيل تنظيم وفكر الحركة القومية المقدونية<sup>(74)</sup>.

وبخاصة أن هذا العامل القومي تطور وتكونت عدة منظمات إرهابية شكّلها البلقانيون القوميون على غرار الجمعيات الأرمنية الإرهابية، ففي عام 1893م كان هناك عصيان مسلح خطير في عدة مناطق في مقدونيا، نظمته لجان وجماعات ثورية سرية والتي ظهرت مع توائى الأمل في الإصلاح<sup>(75)</sup>.

وغدت مقدونيا مسرحاً لمنظمات إرهابية خاصة بالصر ب واليونانيين، وكانت تساعد هذه المنظمات خارج وداخل مقدونيا، الحكومات المعنية وقناصلها، فكانت تمد هذه المنظمات بالأموال والأسلحة والذخائر، وفي بعض الأوقات كانت تبسط حمايتها على الإرهابيين من أعضاء هذه المنظمات، فاشتد ساعدهم وقاموا بمزيد من أعمال العنف المتصاعد، وكانت الفكرة الغالبة على مقالات الصحافة الأوربية أن مقدونيا غدت رمزاً للتخريب والإرهاب والاعتيالات، وخاصة عندما كانت هذه الجرائم تصيب الأجانب والمسيحيين. أما المسلمون فقلما يذكرهم أحد<sup>(76)</sup>.

وبينما كان التنافس يشتد بين القوة المتصارعة، الداخلية والخارجية، ظهرت حركة قومية مقدونية منفصلة عن الجنس الصقلي تأسيساً على أن المقدونيين ليسوا بلغاراً أو صربيين أو يونانيين، ولكنهم يشكلون شعباً صقلياً منفصلاً له لغته وتقاليده وعاداته مما يؤهلهم للاستقلال عن كل الذين يزعمون أن لهم الحق في حكمهم<sup>(77)</sup>.

وعموماً تحولت هذه الحركة القومية المقدونية إلى حركة منظمة عن طريق إقامة منظمة "أمرو" IMRO في عام 1893 أى المنظمة المقدونية الداخلية الثورية وكان "بيتار بوب أرسوف" من بين مؤسسيها<sup>(78)</sup> The Internal Macedonian Revolutionary Organization ويرمز إليها في المراجع الأجنبية بهذه الحروف الأجنبية IMRO "أمرو" أسسها البلغار في مقدونيا لقيادة البلغاريين المقدونيين في صراعهم ضد العثمانيين وكل الجنسيات الأخرى التي تعارض مطالبهم<sup>(79)</sup>، مركزها في سالونيك، وأصبحت منظمة جماهيرية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر في فترة زيادة تدهور التناقضات الاجتماعية في مقدونيا، وجرت في نهاية عام 1893م وبداية 1894م مناقشات بين مؤسسي منظمة "أمرو" فيما يتعلق بالمبادئ والأهداف المنهجية الثابتة للمنظمة في دستورها، وأثبتت هذه المناقشات أنه لا يوجد تصور واحد في هذا المضمار، وأخيراً سيطرت على المناقشات وجهة النظر القائلة بأن الهدف الأساسي للمنظمة، الذي تمت صياغته في دستورها الأول، يقتصر على الكفاح من أجل الحصول على الحكم الذاتي السياسى لمقدونيا في إطار الدولة العثمانية<sup>(80)</sup>.

وقبل أن تقف منظمة "أمرو" IMRO في ثبات على قدميها تم تأسيس اللجنة المقدونية العليا في صوفيا عاصمة بلغاريا عام 1894م، أو المنظمة المقدونية الخارجية الثورية The External Macedonian Revolutionary Organization ويرمز إليها بهذه الأحرف EMRO "أمرو"، ونظراً للتشابه اللفظي بين اسمي هاتين المنظميتين سنشير إليهما في هذه الدراسة بالحروف اللاتينية المختصرة لاسميها، وعموماً تشكلت هذه المنظمة لتدريب المنفيين المقدونيين عسكرياً ونفسياً وعقائدياً لنفس الأهداف التي ترمى إليها منظمة مقدونيا الداخلية الثورية IMRO التي تأسست داخل مقدونيا نفسها مع اختلاف في بعض النقاط، حيث كانت منظمة مقدونيا الخارجية الثورية EMRO ذات

طابع بلغاري أشمل وأعمق في أهدافها، لأنها تطالب بالاتحاد مع بلغاريا عندما يتم طرد العثمانيين من مقدونيا، ورفعت شعار: مقدونيا للمقدونيين "Macedonia for Macedonians"<sup>81</sup>.

وعموماً قامت منظمة "EMRO" المنظمة المقدونية الخارجية الثورية، وبمعاونة ضباط الجيش البلغاري أخذت تحرض الكتائب على الهجوم على أراضي مقدونيا، وأثارت أعمال التخريب التي قامت بها الكتائب ردود فعل دموية من جانب رجال الجيش والشرطة العثمانيين، إلا أن تصرفات هذه الكتائب أثارت حفيظة وغضب المسؤولين في منظمة "IMRO" المنظمة المقدونية الداخلية الثورية، الذين أدانوا بكل شدة الخطوات الاستفزازية المغامرة التي اتخذتها هذه المنظمة أو اللجنة المقدونية العليا في صوفيا، كما أدانوا سياسة التدخل في الشؤون المقدونية وضم الأراضي المقدونية من جانب القصر والحكومة البلغارية، وتحولت اللجنة المقدونية العليا في صوفيا بحيث أصبحت سلاحاً للأطماع والأهداف العدوانية التي ترمى إلى السيطرة من جانب بلغاريا، وكانت النية متجهة إلى استخدام هذا السلاح في إخضاع وإخماد منظمة "IMRO" على أساس أنها هي التي تدعو وتنظم النضال التحرري المستقل للشعب المقدوني<sup>82</sup>.

وقد حدث خلاف بين المنظمين، حيث أخذت المنظمة المقدونية الداخلية الثورية "IMRO" على عاتقها مهمة تحرير مقدونيا من سيطرة الدولة العثمانية، وقد أثارت في عام 1895م ثورة في مقدونيا الشمالية وأغرقها الأتراك بالدماء، ومنذ ذلك الحين تعددت الحوادث الدامية، وفي عام 1896م عقدت مجلساً عاماً لزعمائها، ودعت بعضهم من لجنة مقدونيا العليا<sup>83</sup>، لإعداد لائحة جديدة تقوم على المبادئ الديمقراطية، وإلى أن تجعل مهمتها الأساسية تجميع كل العناصر الناقمة في مقدونيا، بغض النظر عن القومية " بهدف القيام بثورة والظفر بالحكم الذاتي السياسي الكامل"، وإلى أن تسرع في تسليح كتائبها والسكان المقدونيين مع ضمان اعتماد الأموال اللازمة لذلك، وإلى أن تغير اسمها إلى منظمة "فمرو"، وواجه نشاط وتطور منظمة "فمرو" في هذه الفترة الكثير من الصعاب والمحن بسبب النشاط القومي للدعايات القومية التي تبثها الأنظمة الملكية والبرجوازية البلقانية في مقدونيا، واجتهد رجال الدعاية البلغارية واليونانية والصربية

والرومانية، الذين يتلقون التمويل من قصور وحكومات بلادهم، فى أن يفرضوا على المقدونيين المفاهيم القومية والأجنبية وأن يمهّدوا الأرض من أجل الاستيلاء على مقدونيا وتمزيقها، ونجحت المنظمة فى السيطرة على الأزمات الحادة الناجمة عن تفرع الشبكة وتعدد القنوات وعن إمداد أفرادها بالسلاح وعن إنشاء فروع لها بالقرى، واتصل أعضاء الجماعة الاشتراكية الثورية فى نفس العام بوفود اللجنة المركزية لمنظمة " فمرو " من أجل التعاون وتنظيم الأنشطة<sup>84</sup>، ولمواصله الدعوة إلى تحرير مقدونيا.

وكان لاندلاع حرب الأسابيع الثلاثة بين الدولة العثمانية واليونان فى عام 1897م إثارة حماسة كبيرة بطبيعة الحال فى مقدونيا، لكن الآمال التى أثارها تلك الحرب كان مقدراً لها الفشل، لأنه فى عام 1898م توصلت روسيا والنمسا والمجر إلى اتفاقية للإبقاء على الوضع الراهن<sup>85</sup>، حيث اتفقت الدولتان على الاحتفاظ بالموقف فى المنظمة كما هو بدون إحداث أية تغييرات وعدم إثارة أحداث جديدة قد تؤدى لإثارة قلاقل وحروب، فقد كانت روسيا تتجه للشرق الأقصى، وفى نفس الوقت لم تكن متأكدة من اعتمادها على تأييد فرنسا لها إذا ما دعت دواعى الحرب فى منطقة البلقان. أما النمسا والمجر فقد كانت تخشى الحركة المقدونية وما يؤديه نجاحها بتكوين بلغاريا الكبرى، وعموما كان تعارض المصالح وعدم الثقة بين الدول الكبرى هو الذى أنتقد الدولة العثمانية.<sup>86</sup>.

ولذلك فى نفس العام ظهرت فى الساحة المقدونية ما تسمى باللجنة الثورية السرية المقدونية ومجموعة الإرهابيين المقدونيين، وكان أعضاء اللجنة وأفراد المجموعة يشرون بالإرهاب الفردى ويغفلون ضرورة وحتمية وجود منظمة ثورية جماهيرية، وفى نفس الوقت كانوا يؤيدون الانفصال الكامل لمقدونيا، من الناحيتين السياسية والإدارية عن الدولة العثمانية وتكوين اتحاد بلقانى فيدرالى أو كونفدرالى<sup>87</sup>.

وفى يناير عام 1899م أرسلت المنظمة المقدونية الخارجية الثورية "EMRO" إلى الدول الأوروبية طالبت فيها بتكوين ولاية مقدونية واحدة ذات حكم ذاتى، وعاصمتها سالونيك، ويحكمها حاكم تحدد جنسيته بجنسية العنصر السكانى ذى الأغلبية العددية، وتكون مدة بقائه فى منصبه خمسة سنوات، وكانت هذه المنظمة تضع فى اعتبارها أن يكون هذا الحاكم بلغارياً، وكانت ترجو أن يكون إنشاء ولاية مقدونيا موحدة وذات حكم ذاتى

وتحت حاكم بلغاري بحثا لمشروع دولة بلغاريا الكبرى الذي قررت إنشاؤها معاهدة سان استفانو المبرمة في 30 مارس 1878م، وقد أثبتت الأحداث اللاحقة أن هذه المذكرة كانت قصاصة ورق<sup>(88)</sup>، حيث لم ينفذ أى شىء من محتواها<sup>(89)</sup>.

ثانياً: البلغار وحركة التمرد والعصيان المسلح في مقدونيا على الدولة العثمانية عام 1903م، في ضوء الوثائق الأمريكية:

#### - إرهابات حركة التمرد والعصيان المسلح:

بدأت هذه الإرهابات والعصيان المسلح حينما حاولت بلغاريا تحقيق المرحلة الثالثة من سياستها والتي تخلت فيها بلغاريا عن حلم الضم السياسى، واتبعت سياسة الاختراق المسلح، الذى ربما يهدف إلى تقسيم نهائى، والذى يبدو آخر حل غير مأمول للاتجاهات العديدة لبلغرة مقدونيا<sup>(90)</sup>.

وتبدأ هذه المرحلة منذ عام 1900م حينما أصبحت مقدونيا في حالة عصيان مسلح، وبدأت هذه الاضطرابات بعبور عصابات بلغارية الحدود لداخل مقدونيا ووقعت مصادمات بينهم وبين العثمانيين الذين لم يكونوا هم الهدف الوحيد لعداد منظمة مقدونيا الخارجية "EMRO"، حيث أطلق أحد أعضاء المنظمة في بوخارست عياراً نارياً على أستاذ روماني كان يصدر جريدة مؤيدة للمطالب الرومانية، ولما كانت حكومة رومانيا في نزاع مع بلغاريا حول جزيرة صغيرة في مجرى نهر الدانوب، طلبت معاقبة أعضاء المنظمة، وأيدت هذا الطلب الحكومة العثمانية وحكومات الدول الأوربية، وألقى القبض على رئيس المنظمة واسمه بوريس سارافوف Boris Sarafoff وبعض الأعضاء القياديين فيها، ولكن المحكمة قضت ببراءتهم<sup>(91)</sup>.

وفي سبتمبر من عام 1901م كانت عصابة من اللصوص وقطاع الطرق تحت إمرة لجنة صوفيا، اختطفت الأنسة ستون Miss Stone المبشرة الأمريكية وزميلتها<sup>(92)</sup>، وطالبت بفدية قدرها 16 ألف دولار<sup>(93)</sup>، وتلقى الوثائق الضوء على هذه الحادثة وهدفها، حيث تقول: "إن المبعوثة الأمريكية الأنسة ستون، قد نقلت بالقوة بواسطة لصوص يعملون تحت التوجيه المباشر لرؤساء اللجنة المقدونية المحليين: ساندنسكى Sandansky، دوبنيتزا Dubnitsa، فاسليف ساموكوف Vasileff, Samokov وآخرون، وطالب

المستولون بإلقاء القبض على هؤلاء الرجال والإبقاء عليهم من أجل تسليم الأنسة ستون بطريقة آمنة، وكان رد الدكتور دانيف Dr. Daneff: إن الحكومة البلغارية حكومة دستورية، وإن اللجنة المقدونية تم تنظيمها طبقاً لقوانين تلك الحكومة وكان من المستحيل إلقاء القبض عليهم واحتجاز ضباط تلك اللجنة، أو حتى الرؤساء المحليين عدا عن طريق شكوى رسمية في القضاء، يتبعها إدانتهم ومحاکمتهم، وتسجل تلك المحاکمات التبرئة في كل قضية، وكان هذا الموقف من جانب الدكتور دانيف يحظى بتأييد شديد من الوكيل الروسي باخمتيف Bakhmetiff "94، .

وفي تقرير بتاريخ 28 أكتوبر 1902م أكد ستيغ Steeg الأفعال الجسام لهذه اللجنة حيث يذكر " أن المسئولية بأكملها خطف الأنسة ستون والتي حاولت حكومة صوفيا أن تلقيها ظلماً على عاتق تركيا، هذه المسئولية تعود إلى عصاة بلغارية - مقدونية ذلك أن أحد الأشخاص ويدعى دوتشيف Deutcheff الصديق المقرب إلى مثير الفتن سارافوف Sarafoff أنه هو الذي وافق على هذا المشروع الجرائمى، والذي تعهد بتنفيذه ساندانسكى Sandansky "، ويضيف قائلاً: " على أية حال، حصل فوفوى فريما Novoe Vermya المراسل الرسمى لصحيفة لبطرسبورج Saint - Pètersbourg في صوفيا على الاعتراف التالى من فم أحد رؤساء العصابات الثورية: " لقد اختطفنا الأنسة ستون بهدف الحصول على رأس المال اللازم وللدعاية "95، .

بمجيء عام 1902م كان الوضع في مقدونيا متوتر بدرجة كبيرة، وكانت حرب العصابات متواصلة بأبعادها الدموية.

في سبتمبر من نفس العام بلغ الصراع أشده حيث حاول البلغار السيطرة على مقدونيا، ومحاولة تشكيلات الاحتلال البلغارية الانتفاضة الأولى ضد النظام فيها، انتفاضة ديوما - بالا Djuma - Bala إقليم يقع في بلغاريا على الحدود مع مقدونيا.

كذلك تضيف الصحيفة " أن مسئولية اللجنة البلغارية في شتون مقدونيا لم تكن موضع شك من أى شخص . تم ملاحظة ذلك من خلال آراء الكونت جولوشفسكى Count Goluchowski عضو البعثة النمساوية - المجرية في 7 مايو 1902م، ومن خلال المبعوث الرسمى للحكومة الروسية في 13 ديسمبر 1902م، ومن خلال السير بيلوتى

Sir Biliotti قنصل إنجلترا في سالونيك، أن هذه اللجان تمتعت لفترة طويلة بحصانة كاملة في بلغاريا، لكن إذا كانت الحكومة البلغارية مقصرة في واجبها، فهل كانت مبيته لأن توجه إلى تركيا لوم وتوبيخات باسم التقدم وباسم المسيحيين "؟<sup>96</sup>.

هذا وقد أوضح الوكيل الروسي باخميتيف " أن الحكومة البلغارية عديمة الحيلة في خطف الأنس ستون، وأن السبيل الوحيد لإطلاق سراحها هو دفع الفدية المطلوبة"<sup>97</sup>.

ضغطت الدول الأوروبية الموقعة على معاهدة برلين لإدخال الإصلاحات على أمل إرضاء الإرهابيين، واستجاب السلطان عبد الحميد للضغط الأوربي المتزايد، وبخاصة بعد أن أصبح قلقا بشدة، وكان لا يرغب في إعطاء فرصة للتدخلات الأجنبية، ومن ثم اتخذ بعض التدابير العاجلة، وفي خريف عام 1902م قدم عبد الحميد بنفسه خطة للإصلاح<sup>98</sup>، وكان على رأسها إصدار قرار بتعيين والي معتمد بصلاحيات واسعة تحت مسمى " المفتش العمومي " لهذه الولايات الثلاث، والذي شغله حسين حلمى باشا في 8 ديسمبر 1902<sup>99</sup>، والذي كان واليا على اليمن، وقرر الباب العالي أن تضع لجنة خاصة لوائح الولايات الثلاث في ضوء بحث يقوم به حسين حلمى باشا، وقد أوصت اللجنة بإنشاء قوات مختلطة للشرطة والجنדרمة، وإنشاء إدارات تختص بالأشغال العمومية، ومحاكم مختلطة، وتعيين حاكم مسيحي لكل ولاية، وأن يختص الجزء الأكبر من حصيلة الضرائب للإنفاق على تحسين الأحوال الاقتصادية في الولايات الثلاث<sup>100</sup>، مع منحه الصلاحيات التي ظلت حروفا مية على الورق<sup>101</sup>.

لم يرض عن هذا المشروع الإصلاحى الإرهابيون، كما عارضته النمسا والمجر وروسيا على أساس أنه لا يمكن قبول أى تسوية يفرضها العثمانيون على سكان الولايات الثلاث دون الدخول في مفاوضات مباشرة<sup>102</sup>.

وبرغم ذلك تزايدت أعمال الإرهاب والنهب<sup>103</sup>، حيث عاثت العصابات البلغارية فسادا في اتخاذ مقدونيا مروعة العناصر السلافية الأخرى، وحاولت القوات العثمانية قمعها فلم تتمكن لأنها لم تكن قادرة أمام أوروبا أن تشن حرباً حقيقية فتثور هذه الدول محتجة بقرارات مؤتمر برلين<sup>104</sup>.

وفي نهاية ديسمبر عام 1902م تم اغتيال نور الدين أغا، وعلى عثمان وآخرين من

المسلمين المسالمين في روستشوك Roustchouk، وكان المتحدث الرسمي البلغاري وهو يتحدث عن هذه الجرائم يصفها باحتقار شديد، كذلك حاول طبيب بلغاري يدعى ساتوف Satow أن يغتال أسقف يوناني في أحد ميادين كاستوريا Kastoria، لكنه قتل وعثروا في جيبه على خطاب صادر عن اللجنة الثورية البلغارية والتي كانت تحرضه فيها على قتل القس<sup>105</sup>.

وعموماً حدثت العديد من الجرائم والاعتقالات قام بها أعضاء اللجنة المقدونية في صوفيا، ويرصد أحد التقارير الأمريكية ترجمة لمقالات عديدة ظهرت في الصحافة الأوربية فيما يتعلق بجرائم اللجنة المقدونية وعلاقة هذه اللجنة بالحكومة البلغارية، منها ما جاء بجريدة التايمز في أعدادها يوم 2، 16 أكتوبر، 27 نوفمبر، 17 ديسمبر عام 1902م حيث تناولت حوادث الاعتقالات وبعض الجرائم الأخرى التي ارتكبتها البلغار ضد المسيحيين في مقدونيا في ضوء التحريض على العصيان المسلح عن طريق تهريب السكان وحثهم على الانتقام، كذلك تناولت جريدة الغال Le Gaulois في عددها الصادر أول ديسمبر عام 1902م مثل هذه الجرائم، وذكرت أن محاولة العصيان المسلح التي حرضت عليها اللجان البلغارية كانت تستوحى من هذه الكلمات الثلاث: السلب، القتل، الحرق. أصبح الأمر أشبه بلصوصية شعبية<sup>106</sup>.

بينما تناولت صحف موقف الحكومة البلغارية، منها مقال للطبعة الفرنسية من مجلة نيويورك هيرالد New York Herlad، " حيث ذكرت أن الحكومة البلغارية قامت مؤخراً بقمع وإلغاء لجنتي ميخائيلو فسكى وسارافوف المقدونيتين وسجنت زعماء هاتين اللجنتين، ومن المعروف أن هذا الإجراء قد تم اتخاذه بناءً على اقتراح روسيا"، كذلك ذكرت صحيفة ليفانت هيرالد المسائية Levant Herlad في صوفيا، والتي نقلت كلمة للدكتور دانييف الذي كان يتولى منصب رئيس القمع العام " أكد فيها على فعالية الإجراءات القمعية التي اتخذتها حكومة بلغاريا"<sup>107</sup>.

بينما نجد تعليق في مجلة نيويورك هيرالد - الطبعة الفرنسية - عن موقف البلغار من الإصلاحات في مقدونيا " ليس من العدل أن نلوم كل البلغار على بعض الجرائم والأخطاء، ولكن عندما توجد بلد أقل تقدماً ولديها الكثير لتفعله لبلدها، يجب ألا تطلب

إصلاحات فى أقاليم أحد الدول المجاورة التى هى فى نفس الوقت فى حاجة إليه<sup>108</sup>.

وبرغم ذلك ازداد الوضع الدامى فى مقدونيا، وضغطت الدول الموقعة على معاهدة برلين لإدخال الإصلاحات فى مقدونيا على أمل إرضاء الإرهابيين<sup>109</sup>، ودفعت أوروبا ولأول مرة تدرك بشكل عام، أن هناك مشكلة مقدونية، وأوكلت القوى الأوروبية مهمة حلها لكل من روسيا والنمسا والمجر<sup>110</sup>، حيث اجتمع وزيراً خارجيتها فى فيينا لوضع مشروع جديد للإصلاحات فى مقدونيا ينفذ فى الولايات الثلاث وأعلنه فى 21 فبراير ونص المشروع على:

- 1 - إعادة تنظيم قوات الشرطة والجندرية بمساعدة ضباط أوريين، وأن تشمل هذه القوات بنوعها عناصر إسلامية ومسيحية يتحدد عددها بنسبة سكان كل ولاية وديانتهم.
- 2 - تنفيذ الإصلاح الضريبي على أساس أن تحل ضريبة الأراضى محل ضريبة العشور.
- 3 - وضع ميزانية مستقلة لكل ولاية من الولايات الثلاث، وأن يخصص الجزء الأكبر منها أولاً وقبل كل شئ للنفقات التى تتطلبها المشروعات العامة فى الولاية ونفقات الإدارة.
- 4 - تعيين مفتش عام للولايات الثلاث، ومفتش لكل ولاية.

وقد وافقت الدول الأوروبية على هذا المشروع، ثم وافق عليه السلطان، وعلى الرغم من أن موظفين أوريين سيشترون، تنفيذاً لهذا المشروع، اشتراكاً جزئياً فى إدارة الولايات الثلاث، لم يكن السلطان عبد الحميد معارضاً لاشتراكهم استناداً إلى أن وجودهم يمنع التدخل المباشر للدول الأوروبية فى هذه الولايات الثلاث، ولكن دلت الأحداث على خطأ تقديره للموقف الدولي<sup>111</sup>.

وعموماً جاءت نصوص مشروع الإصلاحات الجديدة فى مقدونيا والتسوية التى أعلنها كلٌّ من وزراء خارجية روسيا والنمسا والمجر بخيبة آمال الثائرين فى

مقدونيا، وظلوا على رأيهم السابق، وهو رفض أى تسوية تجعل للعثمانيين نصيباً في إدارة الولايات، وإن وافقوا على مضمض على بقاء سيادة للدولة العثمانية على الولايات تصير إلى زوال بمضى الوقت. أما الرعايا المسلمون في مقدونيا فقد ساءت لهم تلك التسوية أيضاً، لأنها جعلت العنصر الأجنبي ممثلاً في قوات الشرطة والجنדרمة<sup>(112)</sup>.

حركة التمرد والعصيان المسلح عام 1903م وأحداثها، والدور البلغارى فيها في ضوء الوثائق الأمريكية:

حدث هجوم لكثائب اللجنة العليا على منطقة كاستوريا أدت إلى حدوث خسائر جسيمة بالسكان وبتنظييات " فمرو " في شرق مقدونيا، وبخاصة أن اتسعت أبعاد الصراع بين أنصار اللجنة المقدونية العليا، وبين منظمة فمرو فيما يتعلق بسعى اللجنة العليا إلى إثارة صراعات مسلحة في مقدونيا وإلى تخريب منظمة فمرو، في هذه الظروف المضطربة حدثت خلافات في صفوف قيادة منظمة فمرو، وتشكلت وانفصلت مجموعة من الثوار المتحمسين للحفاظ على استقلال حركة التحرير الشعبية المقدونية، وأثارت اللجنة العليا الخلافات والمشاحنات داخل قيادة المنظمة، وتحت تأثير اللجنة العليا تم قبول قرار مؤسف مبكر، ثم إصداره فيما يسمى بمؤتمر سالونيك في يناير 1903م بشأن القيام بالثورة في مقدونيا في نفس العام<sup>(113)</sup>.

زاد الموقف تفاقمًا أن الألبانيين في ولاية قوصوه (كوسوفو) خشوا أن مشروع الإصلاح يتعارض مع حرياتهم فقاموا بثورة وأطلقوا أعيرة نارية على قنصل روسيا في مدينة متروفيتز Mitrovitza، واعتقلوا مبعوثى السلطان في أبيك Ipek، وقد كان من بين ضحايا الثورة عدد كبير من المسيحيين المقدونيين، وردا على ثورة الألبانيين قام الإرهابيون البلغار من أعضاء منظمة Emro بنسف عدد من كبارى السكك الحديدية، وبث الألغام في السفن التجارية، ووضع المتفجرات في مقر البنك العثماني في سالونيك على غرار ما فعله الإرهابيون الأرمن في إستنابول<sup>(114)</sup>، وعموماً كانت محاولات السيطرة على سالونيك نقطة انطلاق الثورة والتمرد في مقدونيا في صيف عام 1903م<sup>(115)</sup>، بينما قام أعضاء المنظمة الداخلية Imro بثورة وتمرد في موناستير ما لبثت أن تحولت إلى ثورة عامة وحركة تمرد شاركت فيها كل العناصر، وعجزت الدول الكبرى وضع حد لأعمال هذه

العصابات وأعمالها الدموية<sup>116</sup>، في حين وصفت الوثائق العثمانية حركة التمرد هذه بأنها فتنة قام بها البلغار في مقدونيا سوف تزول<sup>117</sup>.

ويمكن إلقاء الضوء على أحداث هذا التمرد والعصيان المسلح من خلال الوثائق الأمريكية، حيث يذكر أحد التقارير " أن سالونيك كانت نقطة الانطلاق، فقد شهدت في أوائل شهر مايو عام 1903م بعض الاضطرابات وأعمال العنف، ويضيف التقرير عن انتشار الشائعات عن هجوم على بعض البلغاريين في يوم عيد القديس سيريل وثيودوروس في 24 مايو، واتخذت السلطات إجراءات شرطية قوية عقب هذه الإشاعة ولكن شيئاً لم يحدث، وبعد دخول الليل حبس السكان داخل البيوت " <sup>118</sup>.

أما موناستير فقد كانت مركز التمرد، ففي 21 مايو تم إغلاق السوق والمحلات التجارية مرتين، وتم إغلاق البيوت بالمتاريس بسبب حوادث صغيرة أثارها القلاقل بين السكان، واستمر الاضطراب يتزايد وكانت بداية لأعمال العنف<sup>119</sup>.

أما في قرية موغيليا Moghila التي تبعد حوالي مائة ميل عن موناستير، فقد حدثت معركة بين حوالي مائتي متمرد من البلغار والقوات العثمانية، واستمر إطلاق النيران لمدة أربع وعشرين ساعة، وأحضرت المدرعات لنسف القرية التي احترقت بالكامل، وذكر أن كل السكان بما فيهم السيدات والأطفال وكذلك المتمردين قد احترقوا بألسنة اللهب، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة من المستحيل التأكد من صحتها، وفي قرية سميرديش Smerdech التابعة لموناستير، حيث كانت مسرح لمواجهة مماثلة في يومى 22 و 23 مايو ولقى مائة وأربعون متمرداً بلغارياً حتفهم على يد القوات العثمانية، وحرقت القرية ذات المائتي منزل بالنيران، بواسطة قنابل الديناميت، وفي هذه المواجهة قتل ضابط بقوة الدرك يدعى سعيد أفندى، وتم الاستيلاء على بنادق وحوالى خمسين سترة جنود تخص الجيش البلغارى، والتي كان يرتديها المتمردون. أما في أسكوب Uskab التابعة لكوسوفو فيبدو أن مقاومة الألبانيين كانت في سبيلها للانهار، حيث تراجعت قبائل: بافا، هوى، جاستا من المعركة وانضمت إلى القوات العثمانية<sup>120</sup>.

واستمرت الاضطرابات في شهر يونيو من العام نفسه، حيث يصف أحد التقارير الأوضاع في سالونيك في 6 يونيو بعقد محكمة عسكرية برياسة أديب باشا لمحكمة أربعة

بلغاريين متهمين بلعب دور بارز في اضطرابات سالونيك الأخيرة، تم القبض عليهم، وتم دعوة الهيئات القنصلية المختلفة، وقد حضر عن القنصل الأمريكي نائبه س . هـ . لازارو Lazzaro .

أحد المتهمين، يورفي بيتروا بوجدان Yorghy Petro Bogdan لم يقدم للمحاكمة لأنه جرح من أحد الحراس أثناء محاولته الهروب من السجن، كان بوجدان هو الذي ألقى قنبلة في مقهى الهمبرا، وكان يخطط لنسف القنصليات الأجنبية، عمره عشرون عاماً.

### الثلثة الآخرون الذين متلوا إمام المحكمة هم:

- ماركو ستويان Marco Stoyan عمره اثنان وعشرون عاماً يقال، نقل من متجره اللغم الذي نسف البنك العثماني .

- بافلوبوتشيف Pavlo Potocheff (المعروف باسم ميلوف) Miloff عمره خمس وعشرون عاماً، من الواضح أنه أحد رؤوس المؤامرة، واعترف بأنه نسف الباخرة كوادا الكوفييرا عن طريق قنبلة.

- ميلان أرسوف Milan Arsoff عمره ثمانية عشر عاماً، متهم بالقاء قنابل الديناميت في أماكن متعددة .

من أعضاء المنظمة الأحد عشر الذين اضطلعوا بدور فعال في اضطرابات سالونيك، لقي خمسة حتفهم على يد الجنود العثمانيين ونجح اثنان منهم في الهرب، وحكم على الأربعة المذكورين الذين قبض عليهم بالإعدام بالشنق بواسطة المحكمة العسكرية.

ثم يضيف التقرير " وبرغم ذلك حاولت مجموعة من ستة عشر بلغاري السيطرة على قرية جريدوبور Gridobor على بعد حوالي خمس أميال شمال سالونيك، وأرسل لهم حوالي مائتي جندي ذوى مدافع صغيرة، وحدثت معركة بينهم، أسر فيها متمرّد واحد وتم إحضاره وقتل الخمسة عشر الآخرون، ومن المعتقد أن هدف هذه المجموعة هو دخول مدينة سالونيك لإحداث الاضطرابات بها (21) .

أما في ولاية موناستير، فقد شوهد البلغاري تسكا لاروف Taskalaroff على رأس أربعين متمرّدا قرب قرية اكسيسو Eksisou في سمير ديش، حدثت عدة معارك قتل فيها

ماتتا فرد من بينهم نساء وأطفال، يجري علاج سبع وثلاثين سيدة جرحت في هذه الأحداث بواسطة السلطات العثمانية. أما في سمير ديش نفسها فقد بقي خمسة عشر منزلاً يونانياً، ويقال إن تسكا لاروف قد عاد بعد أيام قليلة وحرقت هذه المنازل، وقد أرسلت لجنة برئاسة نائب حاكم موناستير العام إلى سميردش للتقصي عن الأعمال الوحشية المزعومة التي ارتكبت هناك بواسطة القوات العثمانية، وعموماً كان عدد كبير من الضحايا يونانيين.

في يوم عيد القديس قسطنطين، الثالث من يونيو يقال إن تسكا لاروف ومعه فرقة من المتمردين دخلوا قرية يونانية في كاستوريا Castoria وذبحوا ثمانية عشر شخصاً لجأوا إلى الكنيسة، وقد أرسلت السلطات مائتي جندي بالمدفعية إلى هذه القرية، ولكن فرقة المتمردين علمت بوصولهم، فتمركزوا على المناطق العالية المحيطة بممر يؤدي إلى هذه القرية، وفتحوا النيران على القوات العثمانية، وكان عدد القتلى بين العثمانيين كبير، ولم يمكن التيقن منه بالضبط، ولكن تأكد من قتل هاليد تشاوتش Halid Tchacuch وهو ضابط من قوة الدرك.

أما عن حركة السفن بميناء سالونيك، خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة، وصل إلى الميناء سفينة حربية استرالية: وين "Wien" وسفينة حربية إيطالية "جاري بالدي" Gari Baldi، ومع ذلك، فقد رحلتا هذا الأسبوع، ولا يوجد أي سفينة حربية أجنبية حالياً في هذا الميناء<sup>122</sup>.

ولما كانت محاولات السيطرة على سالونيك نقطة انطلاق الثورة والتمرد، فقد جرت معظم المعارك نحو الشمال خارج عن المنطقة الهيلينية في منطقة موناستير، فقد جرت معظم المعارك في هذه الولاية التي يبدو أن الثوار اتخذوها مركزاً لعملياتهم ولذلك كانت الحركة الثورية فيها قوية، ويؤكد ذلك أحد التقارير الذي يذكر "أن الحركة الثورية في الولايات المقدونية الأخرى أكثر تفرقاً، وأقل كثافة"<sup>123</sup>.

ومع بداية شهر أغسطس وجدت عمليات عصابية زائدة، ومواجهات دموية<sup>124</sup>، وهذا ما تؤكد الوثائق الأمريكية، حيث تذكر "أن هذه الحركة اتخذت شكلاً جديداً تماماً، وازدادت ازدياداً كبيراً وبخاصة خلال الأسبوعين الماضيين".

وعموماً يذكر أحد التقارير ما حدث بهذه الولاية بقوله: "أهم الأحداث هي الاستيلاء على كروشيفو Kruchevo وحرقت سميليفو Smilievo والصراعات حول نيفسكا Neveska وجميعها في ولاية موناستير .

حيث تلقى الضوء على بعض هذه الحوادث بالتفصيل، إذ يذكر أحد التقارير "في يوم 2 أغسطس اشتبك مائتا متمرّد في قتال قرب ريزين Resen - مدينة صغيرة على بعد أميال قليلة من موناستير - والتي يبدو أنها قد دمرت بواسطة القوات العثمانية، وقد تم حرق الجزء العثماني في هذه القرية بواسطة البلغاريين " (125).

ثم قامت الانتفاضة الثانية ليلة الثالث من أغسطس من نفس العام (126)، حيث "دخل ألفا وخمسة مائة بلغاري مدينة جرايكو - والاش Graeco-Wallach في كروشيفو Krushevo - تبعد أربعة ساعات من شمال غرب موناستير قرب بريلب Prilep - وأطلقوا النار على المباني العامة، وقتل كل السكان العثمانيين والحامية العسكرية العثمانية التي بلغ حوالي الخمسين جندياً، واستولوا على هذه المدينة ورفعوا رايتهم - علم أسود ذو حرفي C بيضاوين - وهو ما يعني "الحرية أو الموت"، ثم يضيف التقرير "حتى الوقت الحالي، بالرغم من أنه تم قصف كروشيفو المدفعية من قبل العثمانيين من السهول الموجودة أسفلها، إلا أنها لا تزال في أيدي المتمردين"، كذلك استولى المتمرّدون على عدة قرى ومدن ولازالوا يسيطرون عليها حيث استولوا على سميليفو Smilievo - وهي قرية بلغارية كبيرة قرب كروشيفو، وأيضاً مدينة: جرايكو والاش في كليسورا Klissura، ونيفسكا Neveska - قرب قرية فلورينا Florina جنوب شرق موناستير (127).

وكانت هذه نقطة الذروة لهذه الحركة، وهي تحرير كروشيفو ونيفسكا وكليسورا، وتجاوزت الإدارة المستقلة القصيرة الأمد لكروشيفو المشهورة باسم "جمهورية كروشيفو" بعض المطالب الثورية القومية آنذاك (128)، وإن كانت قد انتهت خلال مدة قصيرة بسبب عدم دعمها التام من تشكيلات الاحتلال الداخلية البلغارية لمقدونيا (129).

وفي يوم 5 أغسطس قتل مائة جندي عثماني وضابطين أثناء القتال حول سميليفو بولاية موناستير، وفي نفس الولاية "يقال إن المتمردين قتلوا أيضاً سبعين جندياً في جوبتش Gopech واثنين من البكوات الألبان وحاشيتهما في بريسبا Presba.

كذلك قتل أربعون قروياً عثمانياً، بينما كانوا في طريقهم إلى سوق كاستوريا Kastoria على يد المتمردين وتم حرق قريتهم، بينما وافق القرويون العثمانيون في بوداكلي Budakli وموزينزا Mosintza والبكليز Elekler وکاناکلار Kanaklar وكاتشاني Kachani على حماية المتمردين وسلموا أسلحتهم إلى ممثلين من اللجنة الثورية للمتمردين .

فيما عدا قريتين، فإن كل قرى قطاع كيشفو Kichevo قد هجرها سكانها، كما أن قريتا بولين Bolne وكروشن Krushne وهما قريتان بلغاريتان على بعد ثلاثة أميال من ريزين Resen قد تم حرقها على يد العثمانيين، ولأن الثوار المتمردين كانوا يدنون من مدينة أوتشريدا Ochrida، انقض العثمانيون على الجزء المسيحي يقتلونهم جميعاً ويطلقون النيران على المكان، وقد قابل البلغار ذلك بمثله وذلك من خلال حرق وإبادة العديد من قرى قطاع أوتشريدا، في قطاع فلورينا Florina، وعسكر ستمائة متمرّد في الجبال في موقع حصين، وأقاموا فيها أفران الخبز البسكويت، ومستودع للملابس، ومخازن للذخيرة، واضطر ألف جندي عثماني كانوا قد أرسلوا ليستولوا على هذا المكان أن يتراجعوا بعد خسائر فادحة<sup>(130)</sup> .

وبالنسبة لما حدث في كروتشيفو، فقد دخلها المتمرّدون في يوم 3 أغسطس وسيطروا عليها حتى 12 أغسطس، وهو التاريخ الذي رحلوا فيه عبر طريق لم تشاهدتهم فيه القوات العثمانية، وقد تضاربت الروايات حول كيفية خروجهم:

- إحدى الروايات أن العثمانيين لم يحرسوا ذلك الطريق لأنهم لم يكن لديهم جنود كافية، حيث كان هناك حوالي خمسمائة جندي معسكرين أمامها .

- الرواية الأخرى هي أن باختيار باشا Bahtiar Pacha القائد الذي يقود القوات العثمانية تلقى رشوة قيمتها 1000 جنيه استرليني، وذلك لكي يسمح للمتمردين بالهرب<sup>(131)</sup> .

وقد أعطى عنها فكرة تقرير السفير الفرنسي في القسطنطينية " كونستان " الذي وجهه إلى دلكاسيه وزير الخارجية في 11 أغسطس 1903 م وفيه يقول: " لا يمكن للمرء أن يخفى عن نفسه أن الحالة خطيرة، وبخاصة في ولاية موناستير التي يبدو أن الثوار اتخذوها مركزاً لعملياتهم، وفي كل يوم تتم أعمال فظيعة جديدة .. نلاحظ من جانب هؤلاء،

حرائق القرى التركية أو المحاصيل الخاصة بالمسلمين، وقطع الخطوط البرقية، ودمار محطات السكك الحديدية، وخطف عمال الطرق وقتلهم. على أن ما يبقى صحيحاً على الأقل في الوقت الحالى في ولاية موناستير، هو أن الجيوش التركية، الكثيرة العدد مع ذلك، عاجزة عن تحقيق النظام، وأن حادثاً وحيداً الآن وهو أن قرية كروتشيفو في أيدى الثوار منذ عدة أيام دون أن تستطيع السلطة التوصل إلى استعادتها ". ثم يضيف عن طبيعة هذه الثورة قائلاً: " ولم يحدث في الماضى - في أى وقت - حركة ثورة نشيطة كهذا النشاط، ولا أيضاً عدداً كبيراً من الثوار قاموا في الريف، وأن أناساً على العموم حسنوا الاطلاع أكدوا بأنهم أكثر من ثلاثين ألفاً تحت السلاح، وأعلم جيداً أنه يفهم من هذا الرقم أن الفلاحين، الذين ضاقوا ذرعا من خوفهم دوماً، بأن يقتلوا بالرصاص من قبل أناس شركاء للبلغاريين، ومن قبل جواسيس للأتراك، قد هجروا قراهم وأسرههم، وربما قاتلوا دون حماس كبير، وأعلم أيضاً بأنهم جميعاً ليسوا مسلمين" (132).

وعموماً بعد أن رحل البلغاريون عن كروتشيفو قصفها العثمانيون لمدة سبع ساعات، وقبل غروب الشمس ساعة واحدة يوم 12 أغسطس دخلها باهتیار باشا، وبدأ الجنود العثمانيون في سلب هذه المدينة تحت أنظار ضباطهم وبخاصة في منطقة جرايكو - والاش Graeco - Wallachian ذات المنازل الراقية والثروات المتراكمة طوال أجيال عديدة، وقد أخفت السيدات المال حول أجسادهن، ولكن الجنود العثمانيين جردوا هؤلاء السيدات تقريباً من كل ملابسهن وأخذوا كل الأموال والمجوهرات الثمينة، والأشياء الأخرى ذات القيمة، ظل الجنود العثمانيين في المدينة لمدة أربعة أيام، وكانوا بصفة خاصة ينهبون ويحرقون كل منزل بصفة منفصلة، ثم حرق ثلاثمائة وستة وثلاثون منزلاً، ومائتا محل وعشر محل، ودنست الكنيسة اليونانية الكبيرة وأطلق النار عليها، كذلك تم ذبح ثمانية وستين رجلاً وسيدة وطفلاً من المواطنين العزل .

حاول باهتیار باشا الذى تم استدعاؤه بواسطة حسين حلمى باشا، ليفسر سلوك جنوده، أن يحصل من سكان كروتشيفو الباقين على وثيقة تبين أن السلب والقتل كان بأيدي الخارجيين البلغاريين، ولكن برغم هذا الضغط، يبدو أنه لم يوقع أى فرد على هذه الورقة (133).

تم نسف كبارى عديدة على سكك حديد موناستير Monastir وأسكوب Uskub، وقد تم نسف أكبرها - خمسة عشر متراً - في ليلة 12 أغسطس قرب فلورنيا، على بعد ثمانية عشر ميلاً من موناستير، بينما لم تنجح محاولة تدمير قطار أوسكوب في ليلة 9 من هذا الشهر حيث انفجرت القنبلة في مستودع زيفتوش Zibevtoche على الحدود الصربية .

لقد أحدث اغتيال القنصل الروسي زابتيش Zaptich في موناستير ثورة وضجة كبيرة، حيث أثبت الفحص بعد الوفاة أن الضحية قد أصيب بالعديد من الإصابات النارية بعد وفاته .

كانت هناك إشاعة بمحاولة محتملة من جانب البلغاريين على إلقاء القنابل على المساجد العثمانية، والتحرير على مذبحه عامة للمسيحيين في سالونيك، مما دعا القنصل الأمريكي لأن يطلب من الحاكم العسكري العثماني بتأمين مقر إقامة البعثة الأمريكية، ووضع حراس إضافيين ليلاً ونهاراً حولها . بل طالب بإمداد قنصليته بست بنادق وستة رشاشات والذخيرة اللازمة، واتخاذ إجراءات الطوارئ المختلفة للدفاع عنها .

وعموماً يحلل القنصل الأمريكي خطة المتمردين بقوله: " تبدو خطة المتمردين في إبعاد القوات العثمانية من ألبانيا والحدود البلغارية، وقد تم بالفعل إرسال ست عشرة كتيبة عثمانية إلى ولاية موناستير من ألبانيا وتجميعهم غرب مقدونيا، ثم يقوم المتمردون بقطع الاتصالات وذلك بتدمير السكك الحديدية، وبيدأون التحرك على الحد الغربي من بلغاريا " (134) .

هذا وقد أرسل أعضاء اللجنة الثورية في مقدونيا خطاباً إلى جميع القناصل الأجانب في موناستير يشرحون فيه الفظائع التي ارتكبتها القوات العثمانية (135)، على أن ما يهمنا هو تعليق لازارو الوكيل القنصل للولايات المتحدة الأمريكية حيث يذكر " أن هذا الخطاب فيه مبالغة كبيرة"، ثم يضيف "وقد ارتكب الخارجون مراراً وتكراراً كل الجرائم التي يتهمون بها العثمانيين" (136) .

ويضيف هذا التقرير أن الشيء المدهش هو أن الجنود العثمانيين لم يقتربوا من المنطقة البلغارية بروتشيفو، ويعلل ذلك بأن هذه المنطقة فقيرة جداً، بالإضافة إلى أن الجنود العثمانيين قد جمعوا من المنطقة اليونانية كل الغنائم التي يستطيعون حملها حتى الأثاث ..

كذلك نالت سميليفو Smilievo نفس المصير مثل كرويشيفو، ولم يحدث أى اختلاف بين أولئك الذين ظلوا موالين للدولة العثمانية وأولئك الذين كانوا متعاطفين مع المتمردين في هذه المدينة .

أما الحالة في مدينة جرايكو - والاش في نيفيسكا، فقد دخلها أربعمئة متمرّد في يوم 26 أغسطس، وفي طريقهم تقابلوا مع كتيبة عثمانية قوامها مائة وخمسون جندياً، نجح منهم عشرون فقط في الهرب، والآخرون على ما يبدو قتلوا على يد المتمردين، وقد حصن البلغاريون أنفسهم في الثكنات الحجرية خارج هذه المدينة، وبسبب وصول أربع كتائب عثمانية في اليوم التالي من كوستوريا Kastoria تراجع المتمرّدون بلا أية خسائر<sup>(137)</sup> .

مع بداية شهر سبتمبر ظهرت بوادر انحسار هذا العصيان المسلح، حيث يحاول المتمرّدون تركيز قواتهم للاستيلاء على ولاية الأدريانة Adrianople فمّنوا بخسارة فادحة في هذه المنطقة .

وفي ولاية سالونيك بدأ عدد المتمردين يقل حتى وصل عددهم من ثلاثمئة إلى خمسين رجلاً، ولم تحدث أى هجمات على المدن<sup>(138)</sup> .

وفي منتصف هذا الشهر بدأت الأمور تسير لصالح القوات العثمانية برغم حدوث بعض المواجهات العديدة بين القوات العثمانية والمتمردين في ذلك الجزء من مقدونيا وبخاصة بين المينليك Melnik ونيفروكوب Nevrokop، في معظم هذه الاشتباكات يبدو أن العثمانيين لهم اليد العليا الآن برغم تكبدهم لخسائر فادحة<sup>(139)</sup> . ففي إحدى المواجهات قرب ميلنيك في يوم 18 سبتمبر مع جماعة من المتمردين قوامها مائة، استطاع العثمانيون قتل أربع وثلاثين منهم، من بينهم رئيس هذه الثورة سيدانسكى Sedaneski أحد أتباع ميشيلوفسكى Michailowsky<sup>(140)</sup> .

عدة آلاف من المتمردين عبروا الحدود، وقد حدثت اشتباكات عنيفة في رازلوج Razlog احترقت فيها قرى عديدة<sup>(141)</sup>، ويبدو أن عدد المتمردين الذين عبروا الحدود كان أكثر من ثلاثة آلاف وقد هاجموا قرى السكان المسلمين واليونانيين المختلطة مستخدمين القنابل، وقد حدثت بعض مواجهات بين القوات العثمانية وبعض هذه الجماعات التي تشتتت ومارست حرب العصابات، ومع ذلك فقد العثمانيون عدداً كبيراً من الرجال، وفقاً لبعض التقارير حوالى من ألف رجل<sup>(142)</sup> .

بينما يذكر تقرير آخر " أنه لم يحدث أى شىء ذات أهمية فى مقدونيا سوى أن متمردي قطاع رازلوج فشلوا فى أن يثيروا الأهالى، وقد تأثروا بقرب وصول القوات العثمانية، وعموماً وجد هؤلاء المتمردون الأمان على المرتفعات على الجانب العثماني من ريلو Rilo على الحدود البلغارية، حيث يصعب وصول العثمانيين إليهم، ومن المستحيل أن يتعقبوهم عبر الحدود من ديوما - بالا Djuma-bala فى هذه المنطقة"<sup>143</sup>، بينما يذكر البعض أن هؤلاء المتمردين حاولوا التجمع فى هذا القطاع وإقامة تشكيلات جديدة للقيام بانتفاضة ضد العثمانيين<sup>144</sup>.

أما ولاية موناستير فإن حركة التمرد والعصيان المسلح آخذة فى الضعف لعدة أسباب من أهمها:

- النزاعات الداخلية بين بعض رؤساء الجماعات المتمردة .
  - استسلام عدد معين من الفلاحين الذين انضموا إلى المتمردين يقال إنهم وصلوا إلى سبعائة .
  - غياب الاعتمادات المالية .
  - تواصل العثمانيون استدعاء قوات إلى داخل مقدونيا، حيث وصلت سفينة على متنها ألف وستائة جندي من سمرنا .
  - الموسم المتقدم للزراعة فى هذه الولاية، حيث انصرف معظم الفلاحين لزراعة أراضيهم والتخلى عن الانضمام إلى حركة التمرد<sup>145</sup>.
- وعموماً انتهت حركة التمرد فى أواخر شهر أكتوبر نتيجة للأسباب السابقة، ويضيف البعض أسباباً أخرى مثل تفوق القوات العثمانية، حيث حصل السلطان العثماني على فرصته التي لم يضيعها، وأطلق القوات النظامية وغير النظامية على الفلاحين<sup>146</sup>، بينما يذكر آخر أن عدم وجود مساعدة فعالة من الخارج أدى إلى الانهيار التدريجي لهذا التمرد وإخادته فى النهاية<sup>147</sup>، حيث أصدرت الحكومة البلغارية قراراً بحظر النشاط الإرهابي خشية أن يؤدي هذا النشاط إلى قيام حرب بينها وبين الدولة العثمانية، لم تكن بلغاريا مستعدة لمثل هذه الحرب<sup>148</sup>.

## نتائج هذه الحركة وردود أفعالها:

انتهت حركة التمرد والعصيان المسلح بانتصار الدولة العثمانية والقضاء عليها<sup>149</sup>، وقامت بإعدام مرتكبيها، وقتلت أكثر من مائتى شخص من قادة هذا التمرد ينتسبون إلى الأقلية البلغارية المقدونية، وأسروا ونفوا ألفا آخرين<sup>150</sup>.

وكان لهذا التمرد نتائج سيئة داخل مقدونيا، حيث خلفت الكثير من الدمار والحراب في الأرواح والممتلكات، بالإضافة إلى نتائج أخرى يمكن تلخيصها فيما يلي:

- آلاف القتلى، كان من بين الضحايا عدد كبير من المسلمين والمسيحيين المدنيين على حد سواء، وتذكر الوثائق: " أن مئات الجثث منهم ترقد غير مدفونة في جميع بقاع مقدونيا"<sup>151</sup>.

- تم تشريد عدة آلاف من أهالى مقدونيا أغلبهم سيدات وأطفال<sup>152</sup>، بالإضافة إلى هروب آلاف من المسلمين إلى إستانبول، كما هرب عدد مئائل من المسيحيين إلى الدول المجاورة<sup>153</sup>، بينما نجد جماعات أخرى تهرب من ولاية موناستير إلى ولاية سالونيك، ولعل ذلك يرجع إلى أن حركة العصيان المسلح بدأت في هذه الولاية، وكان رد الفعل العثماني عنيفا فيها .

- دمرت العديد من القرى في معظم أنحاء مقدونيا، حيث تذكر الوثائق الأمريكية " أن أكثر من مائة قرية قد دمرت في ولاية موناستير "<sup>154</sup>، منهم حوالى خمس وثلاثون قرية بلغارية ويونانية ثم سلبها وحرقها على يد القوات العثمانية في هذه الولاية، بينما كان عدد القرى التركية التى عوملت بالمثل بواسطة المتمردين تبلغ حوالى عشرين قرية<sup>155</sup> .

- دمرت العديد من منشآت مقدونيا، حيث تم نسف عدد من كبارى السكك الحديدية، ودمر البنك العثماني في سالونيك، على غرار ما فعله المتمردون الأرمن في استنابول<sup>156</sup>، وقطعت مجارى الغاز في هذه المدينة<sup>157</sup>، ووضعت القنابل في السفن التجارية في ميناء سالونيك<sup>158</sup>، وأحرقت سفينة فرنسية تسمى " الوادى الكبير " كانت تنقل مؤنًا للجيش العثماني<sup>159</sup> .

- ظهور الشعور بالولاء بين أهالى مقدونيا، هذا الشعور سائد أيضا بين أغلب

المقدونيين الذين قاموا بدور هام في هذه الحركة الحالية، والذين يريدون أن يتخلصوا من العثمانيين، وكذلك من البلغاريين<sup>160</sup>.

- إن الأزمات والصراعات الداخلية والدموية تواصلت ولم تتوقف بعد<sup>161</sup>، بل إن العناصر الأخرى ما لبثت أن شاركت في حرب العصابات أسوة بالبلغار<sup>162</sup>، حيث حدثت انتفاضة لجنود الرديف الألبانيين في ميتريتزا Mitrowitza نتيجة شعور ملموس ضد بعض المسيحيين الذين تم تعيينهم في أعقاب الإصلاحات<sup>163</sup>، في نفس الوقت تم تعذيب مئات اليونانيين من الطبقة العليا رجالا وسيدات وأطفال حتى الموت، وتم حرقهم أحياء على يد الجماعات البلغارية التي تنادى بتحرير مقدونيا من الاضطهاد العثماني، ولذلك قام أكثر من ألف رجل يوناني خلال شهر سبتمبر عام 1904م بعبور الحدود اليونانية منقسمين إلى جماعات صغيرة، وذلك بهدف الثأر لمواطنيهم وحمايتهم، والنتيجة أن حالة من الفوضى أصبحت وباء في جميع أرجاء مقدونيا<sup>164</sup>.

### ردود الفعل في الدولة العثمانية:

كان لهذه الحركة ردود فعل مختلفة في الدول العثمانية، حيث أدت إلى غضب الرأي العام بين المسلمين في مقدونيا وطالبوا بإعلان الحرب على بلغاريا التي يعدونها هي وحدها المسؤولة عن حالة الأوضاع المضطربة في مقدونيا<sup>165</sup>، وبخاصة أنهم كانوا أقلية وتعرضوا لكره النصارى واحتقارهم، فملأهم هذا حنقا على الحكومة العثمانية والسultan<sup>166</sup>، ومن الجدير بالذكر أن الحكومة البلغارية كانت تدعم العصاة والمتمردين بدرجة كبيرة<sup>167</sup>، كذلك أثارت الغضب في معظم أرجاء الدولة العثمانية، وطالب الرأي العام بضرورة إعلان الحرب على بلغاريا أيضا<sup>168</sup>، وعموما بقى الشعور العام بين المسلمين - وبخاصة في مقدونيا - هو الميل نحو الحرب مع بلغاريا، وكانوا يرون أنه لا يبدو أى حل آخر للموقف الراهن سوى الحرب، بالرغم من أنباء التفاهم المحتمل بين الدولة العثمانية وبلغاريا<sup>169</sup>، حيث قامت بلغاريا بصرف جانب من جيشها على الحدود المقدونية<sup>170</sup>، كذلك تعالت بعض الأصوات بين المسؤولين العثمانيين حيث نجد فريد باشا الصدر الأعظم يطالب بقتال بلغاريا، ولكن السلطان عبد الحميد تمهل وظل متذبذبا في هذا الموقف، واختلفت الآراء في أسباب تأخر الدولة العثمانية في إعلان الحرب على بلغاريا:

- منهم من ذهب إلى أن الباب العالي غير واثق بحياد روسيا لما لها من التعضيدات السابقة للبلغار، لعداتها القديم للدولة العثمانية، ولذلك لا يريد أن يندفع في حرب لا يعرف عواقبها وما ينجم عنها<sup>(171)</sup>. وهكذا كان خوفه من تدخل الروس إلى جانب البلغار<sup>(172)</sup>.

- يرى البعض الآخر أن الدولة العثمانية كانت ترى إمكان حسم المسألة وقطع دابر الأشقياء والتمردين مع اعتقادها الأكبر بأن بلغاريا تدس الدسائس المتكررة، ويعتبرون هذا الحل أشرف لمقامها بصفتها صاحبة البلاد، وصاحبة السيادة على بلغاريا من قبل<sup>(173)</sup>.

- بينما تضيف الوثائق الأمريكية رأياً آخر حيث توضح صعوبة موقف السلطان عبد الحميد في حالة دخوله الحرب مع بلغاريا، سواء صعوبات مالية منها النفقة الضخمة المطلوبة لإعاشة أكثر من 300 ألف جندي، في الوقت الذي كانت تعاني فيه الدولة العثمانية من اضمحلال في مواردها المالية، هذا إلى جانب حالة السخط ونقص النظام بين أفواج الجنود الألبانية والأخرى وبخاصة الرديف الذين كان يحق استدعاؤهم فقط في حالة الحرب، وإذا اندلعت حالة التمرد في إحدى أفواج الجنود سيحذوا آخرين حذوهم، وستكون العواقب باعثة على الكوارث بالنسبة للدولة العثمانية<sup>(174)</sup>، وبخاصة إنها كانت مضطرة أيضاً لحماية خط على الحدود طوله 700 كيلو متر من جهة بلغاريا وصربيا<sup>(175)</sup>.

كذلك كان لهذا التمرد رد فعل آخر في الدولة العثمانية، وبخاصة بين ضباط الجيش العثماني، وتفصيل ذلك عندما قامت حركة التمرد والاضطرابات في مقدونيا، أرسل السلطان عبد الحميد عدداً كبيراً من الجيش إلى تلك المنطقة لقمعها، وبخاصة أنه كان يبعث إليها الضباط الذين يشك في ولائهم، وهكذا أصبحت مقدونيا وخاصة سالونيك فيها مركزاً خطيراً لتجتمع هذه الفئة من ضباط الجيش العثماني، وكان معظمهم ناقماً على السلطان عبد الحميد بسبب عجزه عن وضع حد للثورات في مقدونيا، وبسبب خضوعه للضغط الأوربي الذي نتج عنه مراقبة أوربية لمقدونية، وإرسال ضباط أوربيين إليها لإيقاف هذا التمرد وتلك الحرب<sup>(176)</sup>، هذا إلى جانب أن التمردين باستعمالهم الجبال وحرب العصابات في مقدونيا استطاعوا خلال عدة أشهر قتل العديد من الضباط والجنود العثمانيين<sup>(177)</sup>.

كذلك قارن هؤلاء الضباط بين حالتهم المتعبة بالضباط الأوربيين من حيث المعيشة واللباس والمستوى والاحترام، فزادوا حقاً على السلطان، وبدأت بين بعض الضباط والجنود موجات من التمرد في مناطق مختلفة بسبب عدم دفع الرواتب، بل استغلوا تلك الحالة، حالة الفوضى والتمرد في مقدونيا، وقرروا الثورة في الجيش الثالث .

والحال أن عجز الحكومة الحميدية عن حل المشكلة المقدونية وعن صد الدول الأوربية قد قوبل بالاستياء بوجه خاص من جانب الضباط الأتراك المكلفين بقمع القلاقل في البلقان، وبالنسبة لهم فإن تمرد عام 1903م يشكل نقطة تحول، فهؤلاء الشبان الذين تخرجوا من الأكاديمية الحربية، كانوا بوجه عام على اتصال بالأفكار اللبرالية، قد وجدوا أنفسهم في مقدونيا يحاربون حركات قومية لحساب حركات طائفية<sup>(178)</sup>، مما أثار حفيظتهم، وعزز موقفهم فيما بعد للثورة على السلطان نفسه<sup>(179)</sup>، وأثارت في نفوسهم سخطا عميقا، وبرزت شخصيات هامة منهم مصطفى كمال، وهو من سالونيك الذي قام بتأسيس خلايا ثورية في هذه الولاية في الجيش الثالث باسم الجمعية البحرية العثمانية<sup>(180)</sup>،

كذلك نجد جمال باشا الذي انتقل عام 1898 إلى الجيش الثالث في سالونيك، حيث عين أولا مفتشا عسكريا على الطرق الحديدية، ثم لاحقا في المركز الرئيسي للجيش الثالث، وقد ساهم في التنظيم الإقليمي لحركة المقاومة السرية ضد السلطان عبد الحميد الثاني<sup>(181)</sup>.

كذلك ظهر أنور بك ونيازی بك اللذين اكتسبا خبرة عسكرية ضد العصابات في مقدونيا<sup>(182)</sup>، واستطاع عبد الحميد كشف المؤامرة، فهرب نيازی بجنوده إلى الجبال وفرض حكمه على الأهالي<sup>(183)</sup>.

وعموما أصبحت القضية واضحة ومعروفة في نفوس الضباط، وكانوا يتظرون الوقت المناسب للتنفيذ، وقد ساعدهم على ذلك " أن لجنة الاتحاد والترقي، وهي التسمية التي أطلقت على جماعة تركيا الفتاة " السرية "، كانت قد برزت إلى الوجود منذ سنوات، كانت حركة فكرية تحريرية، ولدها اليأس من سياسة الاضطهاد الديني التي كان يباشرها السلطان عبد الحميد وغذتها روح الثورة الفرنسية، وتحولت في مقدونيا إلى حقيقة سياسية واقعة، وكان زعماء اللجنة المقدونية للاتحاد والترقي ضباطاً في الجيش العثماني الثالث،

أرسلوا إلى هناك لإخماد حركة التمرد، فأصبح من كان بيدهم فرض السيطرة العثمانية ثواراً، وأرسلوا طلباً بالتلغراف إلى السلطان بوجوب موافقته على إقامة حكومة دستورية<sup>(184)</sup>.

كان الاتصال الخارجي بين مقدونيا والعالم الخارجي سهلاً، مما أتاح للضباط الأتراك الاتصال الدائم بمركز جمعية الاتحاد والترقي في جنيف وتلقى التعليمات<sup>(185)</sup>.

لكن بعد عام 1905م، وجدت جمعية الاتحاد والترقي مجالاً واسعاً لعملها في مقدونيا وولاياتها الثلاث: موناستير - قوصوة - سالونيك بسبب المراقبة الدولية التي كانت موجودة فيها<sup>(186)</sup>، برعاية إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وإيطاليا، وكانت كل ولاية من هذه الولايات تخضع لمراقبة دولية أو اثنين من هذه الدول الخمس، إلا أن سالونيك تبعاً لأهميتها عين لها هيئة عليا للمراقبة الدولية حتى لا يتيسر للدولة العثمانية مراقبة التحركات المناهضة للسلطان، وإن كان هناك مفتش عثمانى عام إلا أن وجود الدول الخمس كان يشل من تحركه<sup>(187)</sup>.

كذلك كانت سالونيك تتيح مجالاً ملائماً لنشر الأفكار الثورية، فهي ميناء ضخم مفتوح على أوروبا، توجد فيه بورجوازية تجارية ثرية وقطاع ثالث متطور بالفعل، ولما كانت سالونيك مدينة تتميز بتنوع عرقي واسع حيث يهيمن العنصر اليهودي الذي يمثل نسبة 4.٪ من السكان، فإنها تصبح ساحة منافسة حيوية بين الجماعات المختلفة<sup>(188)</sup>.

وعموماً أصبحت هذه المدينة المركز الأساسي والأمين للاتحاد والترقي لنشاطهم السياسي والعسكري على السواء، باعتبارها منطقة يتكاثر فيها النفوذ الأجنبي<sup>(189)</sup>، وهكذا نجد أن الثورة ضد السلطان التي أصبحت تعرف في التاريخ فيما بعد بثورة تركيا الفتاة، بدأت في مقدونيا واقعاً من عمل جماعة من الأتراك الذين ثاروا على السلطان عبد الحميد بسبب إذعانه إلى أوروبا أكثر مما يجب<sup>(190)</sup>.

### رد فعل فتح الدول الأوروبية:

لقد شاهدنا تدخل أوروبا في مشكلة مقدونيا، ولعل هذا يدفعنا إلى تحليل مواقف هذه الدول، وأن تقارن بين السلبية شبه المطلقة لهذه الدول من مشكلة الأرمن في الدولة العثمانية، فالمذابح التي تعرض لها الأرمن لم تأخذ حقها مثل شعوب البلقان، وبين

الإيجابية الساخنة لموقف هذه الدول من مشكلة مقدونيا، وكما يذكر البعض أن الدراسة التاريخية لا تدافع عن الأرمن ولا تتحامل على المقدونيين، فالأرمن يقطنون إقليمياً نائياً عن طريق المواصلات العالمية الرئيسية، فلا تقارن بين أرمينيا العثمانية بمقدونيا مثلاً. ومن هنا كان الصراع الأرمني القومي صراعاً محلياً وخصوصاً إذا لوحظ قصور وسائل الاتصال البرقي في ذلك الوقت، وعلى النقيض من ذلك كله فيما يختص بمشكلة مقدونيا<sup>191</sup>، التي تقع داخل أوروبا وخوف الدول الأوروبية من تغير الخريطة الأوروبية، ولذلك وجدنا ألمانيا لم تكن لترضى أن تقف مكتوفة اليدين إزاء سياسة تطويقها، بل وطدت العزم بنوع خاص على أن تبقى لنفسها طريق البلقان مفتوحاً إلى الشرق الأدنى وخليج فارس، ولما كانت النمسا صديقتها وحليفها تملك أبواب ذلك الطريق، فقد كان مبدأً أساسياً من مبادئ السياسة الألمانية ألا يسمح لأى شيء بأن يوهن الاتحاد الوثيق القائم بين فيينا وبرلين، ولذلك رتبت خريطة البلقان السياسية بصعوبة شديدة في مؤتمر برلين عام 1878م بين الدول الأوروبية الكبرى<sup>192</sup>، مما يوضح اهتمامها بتلك المنطقة، هذا وقد شددت الدول الأوروبية ضغطها على الحكومة العثمانية، لإدخال إصلاحات في مقدونيا، ولكن أعقبت بالخطوات الماهرة من جانب حلمى باشا، وكذلك بتقييد حقوق واختصاصات الممثلين المدنيين، ونتيجة أيضاً لتصارع مصالح القوى المعنية وباقي الدول الأوروبية الكبرى بتلك المنطقة<sup>193</sup>.

ويمكن رصد فعل الدول الأوروبية من حركة التمرد في مقدونيا على مستويين:

### المستوى الأول: الدول الأوروبية الصغرى:

وتظهر اليونان ممثلة لهذه الدول، حيث كانت تسعى لضم ما يجاورها من أقوام وشعوب بلقانية، فقد عملت على محاولة قمع حركة التمرد البلغارية، وشن حرب عصابات عليها لإبادة العناصر الثورية البلغارية. وأعلنوا العداء للبلغار، وأخذ ملكهم يطوف عواصم الغرب منادياً بمظالم هذا الشعب الطاغى، وكانت جرائمهم تردد أفكار ساستهم قائلة بوجود الاتحاد مع الأتراك ومساعدتهم وتعريضهم حتى لا يعلو صوت البلغار في مقدونيا على صوت اليونان<sup>194</sup>.

وكذلك تعرضت بلغاريا لهجوم في صحافة صربيا<sup>195</sup>.

**المستوى الثاني: الدول الأوروبية الكبرى:**

أثناء حركة التمرد في مقدونيا، عجزت الدول الأوروبية الكبرى عن وضع حد لأعمال هذه العصابات البلغارية، وقد استغلت النمسا والمجر الموقف المضطرب في مقدونيا، وشرعت في مد خط حديدي ( سيراجيفو - سالونيك) عبر سنجق بنى بازار الخاضع لها، مما أثار روسيا والدول الكبرى<sup>196</sup>.

وعموماً استغلت الدول الأوروبية الكبرى التي تبدى اهتماماً بمصير الإمبراطورية العثمانية بعد حركة التمرد، كعذر من أجل تنفيذ خططها الخاصة بإجراء الإصلاحات في مقدونيا، ولما كانت هذه الدول الأوروبية أوكلت لكل من النمسا والمجر وروسيا مهمة حل المشكلة المقدونية، ولمواجهة الصعاب الجديدة اجتمع كل من إمبراطور النمسا والمجر فرنسوا جوزيف، وقيصر روسيا نقولا الثاني في مدينة ميرزتج Murzteg في ستيريا في 9 من أكتوبر عام 1903م، ووضعوا مشروعاً جديداً للإصلاح أطلق عليه "برنامج ميرزتج" لأنه صدر في هذه المدينة، ويتلخص في النقاط الآتية:

- 1- يعاون المفتش العام العثماني موظفون نمساويون وروس بصفة مستشارين ويصحبونه في تنقلاته .
- 2 - يقوم هؤلاء المستشارون بفحص الشكايات التي يقدمها المسيحيون، ويعملون على القضاء على المظالم وغيرها من مظاهر سوء الحكم .
- 3 - يصدر عفو عام عن الإرهابيين .
- 4 - تقدم الحكومة العثمانية مساعدات مالية إلى جميع الفلاحين المسيحيين وإعادة بيوتهم وأراضيهم إليهم .
- 5 - تنشأ مجالس إدارة مختلفة من المسلمين والمسيحيين، وكذلك محاكم مختلفة في جميع الجهات التي يشترك المسلمون والمسيحيون في الإقامة فيها .
- 6 - يعهد بإعادة تنظيم قوات الشرطة والجنדרمة إلى ضابط أوربي ذي رتبة عسكرية عالية، ويساعده ضباط عسكريون تابعون للدول الأوروبية توزع اختصاصاتهم على مقدونيا كلها .

7 - يقوم قنصلا النمسا وروسيا في مقدونيا بمراقبة تنفيذ هذه الإصلاحات، وقد حصل إمبراطور النمسا والمجر وقيصر روسيا على موافقة الدول الأطراف في معاهدة برلين على مشروعها الإصلاحى. أما السلطان عبد الحميد فقد قبله على مضض، لأن هذا المشروع يتضمن مراقبة أوربية متفاوتة الدرجات على شئون الولايات الثلاث<sup>197</sup>.

وعموماً طبق البرنامج الإصلاحى على مقدونيا عام 1903م بعد قبول الدول الكبرى المتصارعة وهى النمسا والمجر وروسيا من جانب، وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا من جانب آخر<sup>198</sup>، وعلى أساس هذا البرنامج تم منح حلمى باشا مساعدين مدنيين من النمسا والمجر وروسيا، يختصان بمراقبة الإدارة والشئون المالية فى الولايات المقدونية، وتم توكيل تنظيم الشرطة العثمانية إلى جنرال إيطالى، ويساعده ضباط أجنبى، حيث تقرر تعيين ضابط إيطالى هو دى جيورجيس De Girgis لرياسة الجندرية، ثم خلفه فى هذا المنصب ضابط إيطالى آخر هو الكونت دى روبيلانت Count Di Robilant وأرسلت الدول الكبرى الأطراف فى معاهدة برلين عام 1878م، ما عدا ألمانيا، مجموعة من الضباط زادت أعدادها تبعاً، وخضعت مقدونيا لقوات متعددة الجنسيات فيما يختص بحفظ الأمن، فقسمت إلى خمسة قطاعات تختص بكل قطاع دولة من الدول الخمس وهى: بريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا وإيطاليا<sup>199</sup>.

ورغم ذلك لم يحقق هذا البرنامج الإصلاحى هدفه، حيث كان إمبراطور النمسا والمجر وقيصر روسيا عاجزين عن فرض هذه الإصلاحات بالصورة المطلوبة على الحكومة العثمانية<sup>200</sup>، وبخاصة أن القائد الإيطالى المكلف برياسة الجندرية لم يحقق نجاحاً<sup>201</sup>، هذا إلى جانب اعتراض اليونانيين والوالاش على برنامج ميرزتج، إذ كانت تؤيد الأولين البطريركية اليونانية فى إستانبول، وساعدت الآخرين الحكومة الرومانية، وأبدوا نشاطاً محموداً فاق نشاطهم السابق خشية أن تؤدى الإصلاحات الجديدة إلى محاباة الصقالبة<sup>202</sup>.

وبالنظر إلى الظروف التى تم فيها إجراء إعادة تنظيم الشرطة العثمانية وإلى الهيئة المشرفة عليها، وبالنظر إلى الإمكانيات الحقيقية للرقابة فإنها إلى حد ما اكتسبت طابعاً دولياً، وأصبحت سلاحاً لتدعيم تأثير وضع الدول الكبرى فى مقدونيا<sup>203</sup>، حيث

حصلت على مراقبة إدارية وبوليسية . وإن بقيت السيادة العثمانية على الولايات الثلاث قائمة، وإن كان بشكل يتزايد هشاشة، وذلك من جراء تدخل هذه الدول الأوربية في البلقان<sup>(204)</sup>.

لم تقنع الدول الأوربية بهذه المراقبة الإدارية والبوليسية على الولايات الثلاث، وبخاصة أن هذه الإصلاحات لم تغير جوهرها الحالة الصعبة في مقدونيا، ولذا فإنه تمت من جديد في عام 1905م محاولة إجراء مساعٍ لزيادة الإصلاحات في القضاء والمالية في مقدونيا، وبذلك يتم ضمان شرعية تحديد الضرائب وجمعها بطريقة أكثر عدالة<sup>(205)</sup>، فطلبت إصلاحات مالية، حيث قام سفيرى النمسا والمجر وروسيا بوضع مشروع في شهر أبريل من العام نفسه بهدف الإصلاح المالى في مقدونيا اشتمل على تسع مواد منها كما جاء في المادة الأولى، تتولى وكالات البنك العثمانى في سالونيك وأسكوب وموناستير مهام أمين صندوق الموزع العام للولايات الثلاثة: سالونيك، كوسفو، موناستير، وسوف يتلقون مباشرة من جامعى الضرائب كل صافى عائدات هذه الولايات الثلاث، عدا العائدات التى يتحكم فيها " الدين العام العثمانى " و "إيصالات جمارك سالونيك " التى تم التنازل عنها لقرض الجمارك، وسيقوم البنك العثمانى بكل النفقات العامة لهذه الولايات الثلاث بما فى ذلك الرواتب والأجور، وهذا فى نطاق حدود وبنود موارد الميزانية، أما المادة الثانية فقد نصت على إنشاء ميزانية عامة لكل من هذه الولايات الثلاث، ستكون هذه الميزانية قائمة على التفاصيل التى يوردها الحاكم العام لكل من هذه الأقاليم . وسيتم أيضا إنشاء ميزانية منفصلة لكل سنجق، وسيتم تسليم الميزانية العامة وكذلك أيضاً الميزانيات المنفصلة لكل دائرة على وكالات البنك العثمانى على الأقل بشهر واحد - قبل السنة المالية ويحد أقصى إلى 14 فبراير<sup>(206)</sup> - على إنشائها مكونة من مفتشين، بل من مستشارين فقط، وأن تشترك الدولة العثمانية فى عضوية هذه اللجنة بمندوب يعينه الباب العالى لهذا الغرض، وتقوم اللجنة بإعداد ميزانية كل ولاية من الولايات الثلاث، ويجب أن يوافق السلطان على هذه الميزانيات قبل الشروع فى تنفيذها. أما الاقتراحات التى تقدم مستقبلاً لإدخال إصلاحات مالية فيجب أن تأخذ مسيرتها عن طريق القنوات التشريعية فى الدولة، واقترحت الحكومة العثمانية زيادة الرسوم الجمركية من 8% إلى 11% لمواجهة العجز فى ميزانيات الولايات الثلاث نتيجة تنفيذ المراقبة الأوربية الإدارية والمالية

على هذه الأقاليم وحشد عدد هائل من الموظفين الذين ينتمون على الدول الأوربية الخمس التي لها قوات متعددة الجنسيات في مقدونيا، واعترضت الدول الأوربية على هذه الزيادات المقترحة، وكانت بريطانيا أشدها اعتراضاً استناداً إلى أن ثلث التجارة الخارجية للدولة العثمانية يجري مع بريطانيا، ومعنى ذلك أن ثلث ما ستحصل عليه الحكومة العثمانية من زيادة الرسوم الجمركية سيخرج من جيوب الشركات والمصالح والهيئات البريطانية، وبعد مفاوضات طويلة وعسيرة وافقت الدول على رفع الرسوم الجمركية إلى 11٪ غير أنها حددت مدة هذه الزيادة بسبع سنوات فقط، واشترطت تخصيص حصيلة هذه الزيادة لتمويل مشروعات الإصلاح في الولايات الثلاث، وفضلاً عن ذلك طلبت بريطانيا في مقابل الزيادة منحها الحق في مد الخط الحديدي من أزمير إلى أيدين Aydin حتى سنة 1940 م، كما طلبت ألمانيا زيادة الضمان المالى الذى تدفعه الحكومة العثمانية لأصحاب البنوك من أجل خط الأناضول الحديدي. وعموماً شملت هذه الإصلاحات المالية التى يعهد بتنفيذها إلى البنك العثمانى وفروعه في هذه الولايات، بحيث يجعل هذا البنك وفروعه عبارة عن مصالح أو إدارات مالية أجنبية في كل ولاية من الولايات الثلاث<sup>207</sup>، حيث اقترح لورد لندسون Lord Lansdowne الإنجليزى أن يقوم بجمع الضرائب في مقدونيا موظفون تشرف عليهم الدول الأجنبية<sup>208</sup>، واتخذت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وروسيا إجراءات لتعيين لجنة دولية للسيطرة وإدارة الوضع المالى في مقدونيا<sup>209</sup>.

أثار هذا الأمر العثمانيين، ورفض السلطان عبد الحميد الانصياع لقرارات اللجنة الدولية للشئون المالية، فأرسلت الدول الأوربية الكبرى المشتركة في القوات المتعددة الجنسيات أساطيلها البحرية لاحتلال جزيرة ميدلى Midilli الواقعة تجاه ساحل أزمير في 26 نوفمبر عام 1905م، وعندما رأت هذه الدول تمسك عبد الحميد بموقفه اتجهت بأساطيلها لاحتلال الجمارك ومكاتب البريد في جزيرة لمنوس Limnos الواقعة قرب مدخل الدردنيل في 15 ديسمبر من نفس العام<sup>210</sup>، ويضطر السلطان عبد الحميد إلى التراجع<sup>211</sup>، وبذلت ألمانيا مساعيها الحميدة في هذه الأزمة الجديدة، لعلاقتها الحسنة بالدولة العثمانية، فاقترحت حلاً وسطاً بحيث لا تكون اللجنة المالية الدولية التى تصر عليها الدول الخمس، ورغم ذلك لم تنفذ المراقبتان الإدارية والمالية بالحزم المطلوب لأن

روسيا والنمسا قاومتا لورد جرای في مسألة زيادة الحرس الدولی، كما أن ألمانيا رفضت الاشتراك في المراقبة المالية<sup>(212)</sup>، كذلك فإن الصعوبات الأساسية للوضع المقدونی لم يتم الاقتراب منها<sup>(213)</sup>، برغم قبول السلطان للطلب الروسي الإنجليزى بوجوب تعيين أوربيين على رأس المحاكم المقدونية<sup>(214)</sup>. وعموماً بدأ تنفيذ المراقبة الأوربية المالية بعد انسحاب أساطيل الدول الخمس من جزيرتى ميدلى ولمنوس<sup>(215)</sup>.

ولكن إذا كانت قد حدثت إصلاحات عسكرية وإدارية واقتصادية إلا أن الأزمات والصرعات الداخلية والدموية داخل البلقان تواصلت ولم تكن قد توقفت بعد<sup>(216)</sup>، وإن كان السلطان عبد الحميد قد نجح في إبقاء مقدونيا تحت السيادة العثمانية، ولكن ليس دون تفجيرات للعنف، وليس دون تدخل متزايد من جانب الدول الأوربية<sup>(217)</sup>، واستمر نشاط العصابات الإرهابية اليونانية بموافقة حكومة أينا، واستنفد مقاومة هذا النشاط الإرهابى جزءاً كبيراً من ميزانية الولايات الثلاث، وظل هذا العنف والإرهاب الثورى يورق بال السلطان عبد الحميد حتى قيام الانقلاب الدستورى فى سنة 1908م، وتم عزله عن العرش فى السنة التالية<sup>(218)</sup>، وهكذا تأخرت الحرب البلقانية عشر سنوات حتى سنة 1912م، ولم تعط الفرصة لقيام حرب عثمانية روسية من جديد عام 1903م، مع وجودها بشكل غير مباشر<sup>(219)</sup>.

### خاتمة:

كانت الأزمة المقدونية أهم مشاكل المسألة الشرقية، بل كانت هى المسألة الشرقية فى أعظم دور لها، حيث شهدت مقدونيا خلال هذه الفترة تغيراً فى تبعيتها تارة للدولة العثمانية، وتارة أخرى لبلغاريا، ثم العودة إلى الدولة العثمانية، مما أدى لظهور منظمات مستقلة فيها تدعو للإعداد لثورة مسلحة لتحريرها، وشهدت عدداً من الاضطرابات، وكانت مسرحاً لحوادث دموية مختلفة، وكانت موجة الهياج تبدأ فيها لتأخذ مكانها موجة أخرى، ومما زاد فى تعقيد هذه الأزمة المقدونية عدة أسباب:

- العامل الأول؛ حيث تضم مقدونيا عناصر مختلفة من السكان من مسلمين ويونانيين وألبان ورومانيين وبلغار ويهود وصرى مختلفون فى ديانتهم ولغاتهم واتجاهاتهم وميولهم.

- العامل الثاني؛ حالة الضعف والتدهور الذي أصاب الدولة العثمانية والتي كانت مقدونيا تابعة لها، مما ساعد على ظهور الدعوة لاستقلال مقدونيا .

- العامل الثالث؛ تدخل الدول الأوروبية الكبرى في هذه المشكلة، واختلافها على وضع مقدونيا بعد الاستقلال .

- العامل الرابع؛ يدخل في أهمية موقع مقدونيا الاستراتيجية، وأطباع الدول الأوروبية والكيانات السياسية في شبه جزيرة البلقان والمجاورة لمقدونيا في السيطرة عليها .

وفي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين نمت عاطفة قومية في مقدونيا ظهرت نسبيا في دور متأخر أثناء النزاع بين صربيا وبلغاريا لامتلاكها، اعتبرها الصرب موجهة نحوهم، واعتبرها البلغار نصيراً لبلغاريا، وتشكلت فيها حركة قومية هدفها التخلص من الحكم العثماني والحصول على استقلالها، بمساعدة بلغاريا التي كانت تطمح في ضم هذه المنطقة إليها لعدة عوامل سواء تاريخية وجغرافية أم اجتماعية أم اقتصادية، ولذلك مرت سياسة بلغاريا تجاه مقدونيا بعدة مراحل:

- المرحلة الأولى: تهدف إلى تحقيق بلغاريا الكبرى بضم مقدونيا، ولكنها فشلت لتدخل الدول الكبرى .

- المرحلة الثانية: محاولة تحرير مقدونيا كإمارة مستقلة يحكمها حاكم مسيحي، وبالطبع يكون بلغاريا .

- المرحلة الثالثة: اتبعت سياسة الاختراق المسلح، الذي ربا يهدف إلى تقسيم نهائي، والذي يبدو آخر حل غير مأمول للاتجاهات العديدة لبلغرة مقدونيا .

ولذلك كانت حركة التمرد والعصيان المسلح في مقدونيا عام 1903م ذات طبيعة خاصة، ومقصورة على العنصر البلغاري فقط .

وثمة عدة ملاحظات يمكن أن نرصدها في هذا السياق:

- أن المسألة المقدونية ليست مسألة دينية، ولكنها مسألة جنسية لأنك ترى اليونانيين والرومانيين وهم مسيحيون أيضا، لا يعتبران البلغار أخوة لهم، ولا يقبلون البتة قيام مملكة بلغارية كبرى .

- لم تكن السياسات القومية خالصة تماماً، بل تداخلت فيها بقايا ترسيبات السياسة الدينية، وفي بعض الأحيان السياسات الإقليمية والدولية وطموحات القوى المحلية، وبخاصة أن اتجاهها كان متضارباً لدرجة من العسير معها تحديد من هو الصديق ومن هو العدو لهذه القوى المحلية .

- إن الأزمة المقدونية كانت المسألة السياسية الوحيدة التي يهتم بها السياسيون في كل دول أوروبا ويحسبون لها ألف حساب، وكانت تحظى بالاهتمام الأول في نظر السياسيين والاعتبار الأسمى في دوائر النظر والرأى في أوروبا، ومن الملاحظ أنه رغم اختلاف الدول الأوروبية الكبرى فإنها كانت تقف موقفاً موحداً ضد الدولة العثمانية، ولعل ذلك كان يرجع إلى الرأى العام الأوربي المعادى لهذه الدولة الإسلامية والمتعاطف مع أبناء قومهم، والذي كانت الصحافة الأوروبية تحرك به السياسة بكل عنف وقوة للانقضاض على هذه الدولة الإسلامية.

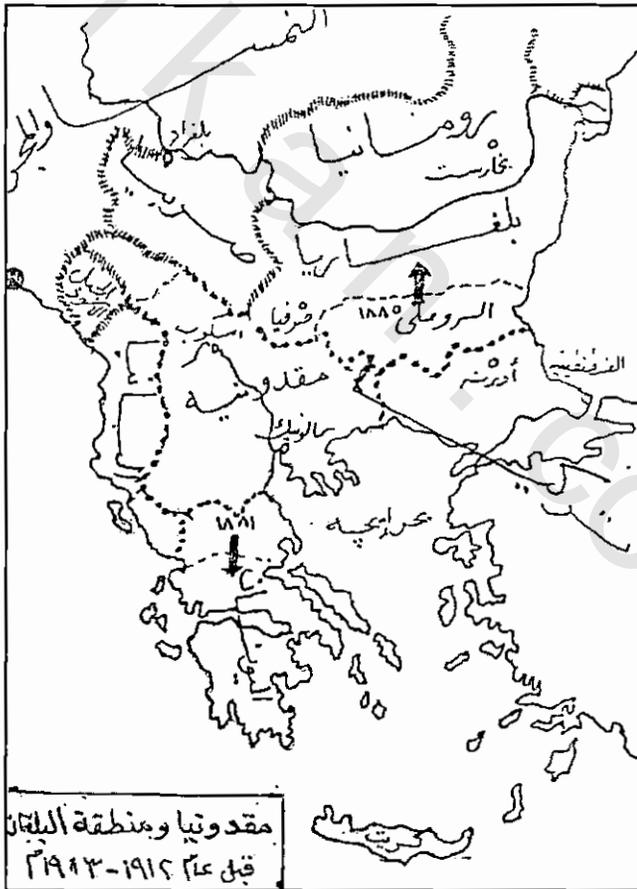
- إن المشكلة المقدونية كانت على الدوام سبيل الدولة العثمانية لاستغلالها واستثمارها في مواجهة الأطماع الاستعمارية والأزمات الاقتصادية والسياسية وتهديدات الدول الكبرى، كانت في نفس الوقت أحد المعاول في هدم هذه الدولة حيث كانت الثورة ضد السلطان العثماني التي أصبحت تعرف في التاريخ فيما بعد بثورة تركيا الفتاة التي ترعرعت في مقدونيا، لأن الاتصال بينها وبين العالم الخارجى سهلاً، هذا إلى جانب ضعف الهيمنة العثمانية على مقدونيا بعد أن خضعت لمراقبة دولية .

- إن حركة التمرد والعصيان المسلح هذه أعطت لمقدونيين بغض النظر عن جنسياتهم الشعور بالولاء تجاه مقدونيا، وكما تذكر الوثائق الأمريكية " أفسح الطريق للخوف من تغير هيمنة الأتراك بهيمنة البلغار، هذا الشعور سائد بين أغلب المقدونيين الذين اضطلعوا بدور هام في هذه الحركة، والذين يريدون أن يتخلصوا من الأتراك، ولكن أيضاً من سيطرة البلغار "،<sup>220</sup>.

## الملاحق

### ملحق رقم (1)

خريطة لمقدونيا ومنطقة البلقان قبل عام 1912 - 1913م، من كتاب د. عبد الحميد البطريق، التيارات السياسية المعاصرة، أصولها التاريخية أوروبا 1870 - 1939م.



## هوامش الدراسة

- (1) جمال الدين سيد أحمد، مقدونيا بين الماضي والحاضر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م، ص 24.
- (2) حول المسألة الشرقية وبدايتها، انظر: مقال بدايات المسألة الشرقية 1774 – 1839م، بقلم روبير مانتران، ص 5 وما بعدها، مستخرج من كتاب تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الثاني، إشراف روبير مانتران، تعريب: بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 1993م.
- (3) United States, department of State, Consular Reports (Con, Repts) consulate General of U.S. Constaninople No, 275, Sept., 12, 1903, Charless, M. Dickinson, to the Department of State, Subject: Political in Macedonia.  
كان المسئولون الأمريكيون في القنصلية الأمريكية باستانبول:  
- Charles M. Dickinson, Consul General.  
- William Smith-Lyte, Vice Consul General.  
- Lazzaro, consular Agent in salonica.
- (4) اللواء، 14 سبتمبر، 1903م.
- (5) بوتاس، تاريخ الحركات القومية في أوروبا، السلاف والجرمان والأقليات القومية، الجزء الرابع، تعريب نور الدين حاطوم، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي بدمشق، 1982م، ص 347.
- (6) وثائق الدولة العثمانية، دار الوثائق التابعة لرئاسة الوزراء باستانبول، الباب العالي – دفاتر الباب الآصفي – دفاتر الولايات، دفتر رقم 528، 22 رجب 1321 هـ / 1903م – 24 ذي القعدة 1321 هـ / 1903م موناستير، وارد.
- (7) Marriott, J.A.R., The Eastern Question, An Hictorical Study, in European Diplomacy, Oxford, 1969, p. 416.  
وانظر أيضاً: كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب: نبيه أمين فارس ومينير

البعلبكي، الطبعة الحادية عشر، دار العلم للملايين، بيروت، 1988م، ص 596. ويوتاس، المرجع المذكور، ص 336.

حيث وصفت هذه الدراسات هذه الحركة باسم " ثورة البلغار في مقدونيا"، بينما وصفتها الوثائق الأمريكية التي أُعدت عليها هذه الدراسة باسم " حركة التمرد والعصيان المسلح في مقدونيا".

The Insurgence and the Insurrectional Movement in Macedonia, No. 275, Sept., 12, 1903.

(8) اللواء: 1 أكتوبر، 1903م.

(9) انظر ملحق رقم (1)، خريطة توضح موقع مقدونيا في منطقة البلقان.

(10) أُدمجت مقدونيا بصربيا بموجب معاهدة بوخارست في 3 أغسطس عام 1913م، ثم بدولة يوغسلافيا الجديدة التي أنشأتها معاهدة تريانون عام 1920م، إلا أنها بعد الحرب العالمية الثانية حصلت على استقلال ذاتي وإداري في إطار دولة جديدة وهي جمهورية يوغسلافيا الاشتراكية الاتحادية.

انظر: يوتاس، المرجع المذكور، ص 241 – 242.

(11) روميللي، اصطلاح باللغة العثمانية يعنى أرض الروم، وكان يطلق على القسم الأوربي الذي تسيطر عليه الدولة العثمانية، وقد قسمت إلى منطقتين، الأولى: أرض البلغار، والثانية: مقدونيا، وذلك بعد معاهدة برلين 1878م انظر:

Byedilli, Kemal, Makédonya Meselesi, in: Ihsanoglu, Ekmelddin, (editor), Osmanli Devleti Ve Medeniyeti Tarihi, Istanbul 1994, p. 113.

(12) في تلك الفترة تغيرت عاصمة ولاية كوسوفو من بريشتينا إلى سكوب (1880 – 1912م)، وبالتالي ذكرت بعض المراجع ولاية كوسوفو أو سكوب.

انظر: بكر إسماعيل، ما هي كوسوفا؟ مكتب ألبارس، القاهرة، 1999م، ص 16.

(13) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الثالث، الأنجلو المصرية، 1982م، ص 1622.

(14) على سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مكتبة طرابلس العلمية والعالمية، ليبيا، د.ت، ص 342.

(15) اللواء، 14 سبتمبر 1903م.

(16) Marriott: Op. Cit., p. 409.

(17) حول هذه التسميات على السلطان العثماني.

انظر: عبد العزيز محمد الشناوى، الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الثانى، الأنجلو المصرية، 1980م، ص 83. وما بعدها .

(18) Con, Repts, Consulate General of U.S. Constantinople, No. 8., October 1., 1899. Charless M. Dickinson to the Department of State, Subject, Custom House at Salonica.

(19) حول هذه الحركات القومية السلافية في جنوب شرق أوروبا من 1870 حتى عام 1914م انظر: بوتاس، المرجع المذكور، ص 35 وما بعدها .

(20) Marriott: Op. Cit., pp. 412.

(21) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، جـ3، ص 1623.

(22) Marriott: Op. Cit., pp. 413 – 414.

(23) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، التاريخ الأوربى المعاصر، دار الكتاب الجامعى، د.ت، ص 25.

(24) Marriott: Op. Cit., p. 412.

(25) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، جـ3، ص 1631.

(26) نفس المرجع المرجع، ص 1623 .

(27) على سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مكتبة طرابلس العلمية والعالمية، ليبيا، د.ت، ص 342 .

(28) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، جـ3، ص 1623 .

(29) على سلطان، المرجع المذكور، ص 342 .

(30) Marriott: Op. Cit., p. 409.

(31) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، دار الفكر العربى، القاهرة، 1988م، ص 164 .

(32) Marriott, Op. Cit., pp. 409-410.

(33) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع المذكور، ص 1623 .

(34) حول موقف روسيا واعلامها الحرب على الدولة العثمانية، وموقف الدول الكبرى .

انظر بيبر رونوفان، تاريخ العلاقات الدولية 1815 – 1941، تعريب: جلال يحيى، دار المعارف بالقاهرة، ص ص 544 – 550 .

(35) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 24 .

- (36) Jelavich, Charles, *Tsarist Russia and Balkan Nationalism, Russia Influence in the Internal Affairs of Bulgaria and Serbia, 1879 – 1886*, Berkeley, Los Angeles, 1962, p. 1.
- (37) Clayton, G. D., *Britain and the Eastern Question, Missolonghi to Gallipoli*, London, 1971, p. 143.
- (38) جرانت، أ.ح، هارولد تمبلي، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين 1789 – 1950م، تعريب: محمد علي أبودره ولويس إسكندر، مؤسسة سجل العرب، 1967م، ص 14.
- (39) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 25.
- (40) حول هذه البنود انظر: محمد مصطفى صفوت، مؤتمر برلين 1878م وأثره في البلاد العربية، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية والعالية، 1957م، ص ص 50-56
- سنجق نوفي بازار أى السوق الجديدة انظر: بكر إسماعيل، المرجع المذكور، ص 25.
- (41) محمد مصطفى صفوت، المرجع المذكور، ص ص 50-56.
- (42) Beydilli, Kemal. *Op. Cit.*, p. 112.
- (43) فيشر . ه . أ. ل، تاريخ أوروبا في العصر الحديث 1789 – 1950م . تعريب: أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، الطبعة التاسعة، دار المعارف بالقاهرة، 1993م، ص 437 – 438 .
- (44) بوتاس، المرجع المذكور، ص 351 .
- (45) نفس المرجع السابق، ص 339 .
- (46) Marriott, *Op. Cit.*, p. 411.
- (47) *Ibid.* p. 411.
- (48) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص 1623 .
- (49) إذا أخذنا الإحصاءات البلغارية، كان عدد سكان مقدونيا عام 1912م نحو 2.55.000 نسمة أكثرهم بلغاريين موزعين كما يلي:
- 1.100.000 بلغارى، 550.000 عثماني، 268.000 يوناني، 164.000 ألباني، 43.000 أقليات أخرى، وفي هذا الإحصاء لم يكن الصرب موضع بحث، انظر: بوتاس، المرجع المذكور، ص 337.
- (50) بوتاس، المرجع المذكور، ص 341 .
- (51) Marriott, *Op. Cit.*, pp. 410 - 411.
- (52) بوتاس، المرجع المذكور، ص 342 .

(53) نفس المرجع، ص 344 .

(54) نفس المرجع، ص ص 339 – 340 .

(55) Marriott, op. Cit., pp. 410 – 411.

(56) بوتاس، المرجع المذكور، ص 342 .

(57) كارل بروكلمان، المرجع المذكور، ص 596 .

(58) فيشر، المرجع المذكور، ص 450 .

(59) بوتاس، المرجع المذكور، ص 346 .

(60) Marriott, Op. Cit., p. 412.

(61) محمد موفاكو، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والنقد والأدب بالكويت، العدد 68 أغسطس، 1983م، ص ص 16 – 17 .

(62) Marriott, Op. Cit., p. 415.

(63) Ibid., p. 411.

(64) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 25 .

(65) محمد مصطفى صفوت، المرجع المذكور، ص 48 .

(66) Beydilli, Kemal, Op. Cit., p. 113.

(67) Marriott, Op. Cit., p. 415.

(68) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 30 .

(69) Beydilli, Kemal, Op. Cit., p. 114.

(70) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 26 .

(71) بوتاس، المرجع المذكور، ص 338 .

(72) Marriott, Op. Cit., pp. 411- 412.

(73) بوتاس، المرجع المذكور، ص 347 .

(74) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 27 .

(75) Marriott, Op. Cit., p. 415.

(76) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص 1625 .

(77) Marriott, Op. Cit., p. 415.

(78) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 27 .

- (79) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع المذكور، ص 1624 .
- (80) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 27 .
- (81) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص ص 1624 – 1625 .
- (82) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص ص 27 – 28 .
- (83) بوتاس، المرجع المذكور، ص 347 .
- (84) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص ص 28 – 29 .
- (85) Marriott, Op. Cit., p. 415.
- (86) بيير رنوفان، المرجع المذكور، ص 696 .
- (87) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 29 .
- (88) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص ص 1624 – 1625 .
- (89) Marriott, Op. Cit., p. 415.
- (90) Ibid., pp. 411 – 412.
- (91) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص 1625 .
- (92) الآنسة ستون مبشرة أمريكية اشتهرت بحبها للشعب البلغارى حتى انقطعت لخدمته فأقامت في صوفيا للتعليم والتبشير ومساعدة الفقراء من قبل جمعية المرسلين الأمريكان لبلاد الدولة العثمانية، ومعها زميلتها تسيلكا، اختطفتهما عصابة بلغارية وحجرتا عليها في مكان خفى، وأعلنوا الحكومة بلغاريا وقنصل أمريكا أنهم لن يطلقوا سراحيهما إلا بفدية، وما كتبوه في هذا الصدد إلى البرنس فريناند أمير البلغار أنهم إذا لم ينالوا ما يطلبونه في وقت قريب قتلوا الأسيرتين، وذكرت إحدى الجرائد الفرنسية أن الأمريكان دفعوا نصف المال المفروض، ولا يزال اللصوص يطالبونهم بالنصف الآخر .
- لمزيد من التفاصيل حول هذه الحادثة انظر: مجلة الهلال، 1 ديسمبر 1901م، ص ص 150 – 151 .
- (93) Marriott, Op. Cit., p. 416.
- (94) Con, Repts, Op. Cit., No, 238, March 14, 1903 Charless M. Dickinson to the Department of State, Subject: Abduction of Miss Stone.
- (95) Ibid., Enclosing for the department Information, Translation of a Letter in the Paris of the New York Herald, Bulgaria's Black Record.
- (96) Ibid., Bulgaria's Black Record.

(97) Ibid.,

(98) Marriott, Op. Cit., p. 416.

(99) Beydilli, Kemal, Op. Cit., p. 114.

(100) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص 1626 .

(101) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 30 .

(102) Marriott, Op. Cit., p. 416.

(103) جمال الدين سيد أحمد، المرجع السابق، ص 30 .

(104) كارل بروكلهان، المرجع المذكور، ص 596 .

(105) Con, Repts., Op. Cit., No, 238, March 14, 1903.

(106) Ibid.,

(107) Ibid.,

(108) Ibid., Enclosing from Paris, Fe., 21, 1903.

(109) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص 1625 .

(110) Marriott, Op. Cit., p. 416.

(111) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص ص 1626 – 1627 .

(112) نفس المرجع، ص 1627 .

(113) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص ص 29 – 30 .

(114) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص 1627 .

(115) وثائق الدولة العثمانية، المصدر السابق، دفتر رقم 544، 22 رجب 1321هـ / 1903م – 24 ذى الحجة 1321هـ / 1903م مونسيتير صادر .

(116) على سلطان، المرجع المذكور، ص 342 .

(117) وثائق الدولة العثمانية، المصدر السابق، دفتر رقم 560، 4 صفر 1291هـ / 1874م، ربيع أول 1321هـ / 1903م، سالونيك صادر

(118) Con, Repts., Op. Cit., No, 255, May , 1903, William Smith-Lyte to the Department of State, Subject: Affairs in Macedonia.

(119) Ibid.,

(120) Ibid., No, 258, June 2, 1903, William Smith-Lyte, to the Department of State, Subject: Political Situation in the Vilagets of Kossova, Salonica and Monastir.

(121) Ibid., No, 259, June 11, 1903, William Smith-Lyte, to the Department of State, Subject, Salonica Disturbances.

(122) Ibid.,

(123) Ibid., No, 278, Sept. 24, 1903, M. Charles M. Dickinson, to the Department of State, subject: Political Situation in Macedonia.

(124) Beydilli, Kemal, Op. Cit., p. 115.

(125) Con. Repts., Op. Cit., No, 266, Aug. 18, 1903, M.R. William Smith-Lyte, to the Department of State, Subject: Affairs in Macedonia

(126) Beydilli, Kemal, Op. Cit., p. 115.

(127) Con. Repts., Op. Cit., No, 266, Aug. 18, 1903.

(128) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 3.

(129) Beyilli, Kemal, Op. Cit., p. 115.

(130) Con. Repts., Op. Cit., No, 266, Aug. 18, 1903.

(131) Ibid., No, 27., Sept. 5, 1903. William Smith-Lyte, to the Department of State, Subject, Affairs in Macedonia.

(132) نقلاً عن كتاب، بوتاس، المرجع المذكور، ص 348.

(133) هو حسين حلمى باشا الذى عين مفتشاً عمومياً بمقدونيا فى 8 ديسمبر عام 1902 م.

- Beydilli, Kerna, Op. Cit., p. 114.

انظر:

(134) Con. Repts., Op. Cit., No, 266, Aug. 18, 1903

(135) Ibid., No, 27., Sept. 5, 1903.

(136) Ibid.,

(137) Ibid.,

(138) Ibid., No, 275, Sept, 12, 1903, Charless M. Dickinson to the Department of State, Subject: Situation in Macedonia.

(139) Ibid., No. 279, October 8, 1903, M.R. Charless M. Dickinson, to the Department of State, Subject: Situation in Macedonia, Enclosing, No, 609, Sept. 3, 1903.

(140) Ibid., Enclosing, No, 610, Sept. 24, 1903.

(141) Ibid., No, 278, Sept. 24, 1903.

(142) Ibid., No. 275, Sept. 12.1903.

(143) Con. Repts., Op. Cit., No. 284, October, 23, 1903 M. R. Charles M. Dickinson, to the Department at State, Subject: Political in Macedonia.

(144) Beydilli, Kemal, Op. Cit., p. 114.

(145) Con. Repts., Op. Cit., No. 284, October, 23, 1903.

(146) Marriott., Op. Cit., p. 417.

(147) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 3.

(148) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص 1627.

(149) على سلطان، المرجع المذكور، ص 342.

(150) بوتاس، المرجع المذكور، ص 347.

(151) Con., Repts., Op. Cit., No. 27., Sept. 5, 1903.

(152) Ibid.,

(153) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع المذكور، ص 1626.

(154) Con., Repts., Consulate General of U.S. Constaninople, No, 278, Sept. 24, 1903.

(155) Ibid., No. 27., Sept. 5, 1903.

(156) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع المذكور، ص 1627.

(157) بوتاس، المرجع المذكور، ص 347.

(158) Marriott, Op. Cit., p. 416.

(159) بوتاس، المرجع المذكور، ص 347.

(160) Con., Repts., Op. Cit., No. 275, Sept. 12.1903.

(161) Beydilli, Kemal, Op. Cit., p. 114.

(162) كارل بروكلمان، المرجع المذكور، ص 597.

(163) Con., Repts., Op. Cit., No, 278, Sept. 24, 1903.

(164) Ibid., No, 347, October, 31, 1904, M.R. William Smith-Lyte, to the Department of State, Subject: Condition in Macedonia.

(165) Ibid., No, 275, Sept. 12.1903.

(166) آلماوتلن، عبد الحميد ظل الله على الأرض، ترجمة: راسم رشدي، القاهرة، 1950م، ص 185.

(167) Beydilli, Kemal, Op. Cit., p. 115.

(168) اللواء، 14 سبتمبر 1903 .

(169) Con., Reports., Op. Cit., No, 275, Sept. 12, 19.3, Enclosing, No. 609.

(170) اللواء، 2. أكتوبر 1903م .

(171) اللواء، 1 أكتوبر 1903م .

(172) Beydilli, Kemal, Op. Cit., p. 115.

(173) اللواء، 2. أكتوبر 1903م .

(174) Con., Reports., Op. Cit., No, 275, Sept. 12, 1903.

(175) اللواء، 2. أكتوبر 1903م .

(176) على سلطان، المرجع المذكور، ص 354 .

(177) بوتاس، المرجع المذكور، ص 348 .

(178) فرانسوا جورجيو، النزاع الأخير (1878 - 19.8م)، ص 235 ، من كتاب تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الثاني، إشراف روبر مانتران، ترجمة: بشير السباعي .

(179) كارل بروكلمان، المرجع المذكور، ص 596 .

(180) على سلطان، المرجع المذكور، ص 354 .

(181) حسن كيالي، مقال: "جمال باشا في سوريا، هل هو قومي أم انفصالي أم اتحادي؟" ترجمة: عبد اللطيف الحارس من مجلة الاجتهاد، السنة الحادية عشرة، العددان 45 - 46، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 2000م، ص 189 .

(182) كارل بروكلمان، المرجع المذكور، ص 598 .

(183) على سلطان، المرجع المذكور، ص ص 354 - 355 .

(184) آلماوتلن، المرجع المذكور، ص ص 185 - 186 .

(185) على سلطان، المرجع المذكور، ص 354 .

(186) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، 1965م، ص 107 .

(187) حسان على حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، 1897 - 1909م، الطبعة الثانية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1980م، ص 297 .

- (188) فرانو چورچو، المقال المذكور، ص 236 .
- (189) محمد فريك بك، تاريخ الدولة العثمانية، مكتبة الآداب بالقاهرة، 1997م، ص ص 337 - 338 .
- (190) ألما وتلن، المرجع المذكور، ص ص 185 - 186 .
- (191) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص ص 1630 - 1631 .
- (192) فيشر، المرجع المذكور، ص ص 347 - 348 .
- (193) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 31 .
- (194) اللواء، 14 سبتمبر 1903 م .
- (195) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص ص 1628 - 1629 .
- (196) على سلطان، المرجع المذكور، ص 342 .
- (197) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص ص 1627 - 1628 .
- (198) Beydilli, Kemal, Op. Cit., p. 115.
- (199) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع المذكور، ص ص 1628 - 1629 .
- (200) بوتاس، المرجع المذكور، ص 349 .
- (201) كارل بروكلمان، المرجع المذكور، ص 569 .
- (202) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص 1628 .
- (203) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 31 .
- (204) فرانسوا چورچو، المقال المذكور، ص 214 .
- (205) جمال الدين سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 31 .
- (206) Con., Repots., Op. Cit., No, 370., April 26, 1905 M. R. Charles M. Dickinson to Francis, B. Loomis assistant Secretary of State, Subject: Translation of a Project for Financial Reform in Macedonia.
- (207) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص ص 1629 - 1630 .
- (208) محمد عبد الرحيم مصطفى وكامل چرچى، أوروبا المعاصرة 1870 - 1939م، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1953م، ص 88 .
- (209) Marriott, Op. Cit., p. 418.
- (210) عبد العزيز الشناوى، المرجع السابق، ص ص 1629 - 1630 .
- (211) فرانسوا چورچو، المقال المذكور، ص 235 .

- (212) محمد عبد الرحيم مصطفى وكامل چرچى، المرجع المذكور، ص 88 .
- (213) Marriott., Op. Cit., p. 418.
- (214) آما وتلن، المرجع المذكور، ص 186 .
- (215) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص 163 .
- (216) Beydilli, Kemal, Op. Cit., p. 115.
- (217) فرانسوا چورچو، المقال المذكور، ص 214 .
- (218) عبد العزيز محمد الشناوى، المرجع السابق، ص 1630 .
- (219) Beydilli, Kemal, Op. Cit., p. 115.
- (220) Con., Repots., Op. Cit., No, 275, Sept., 12,1903.

## مصادر ومراجع الدراسة

أولاً: وثائق غير منشورة:

1 - وثائق أمريكية

- United States, Department of State, Consular Reports (Con, reports) Consulate General of U.S. constaninople.

### 1899

- No, 8., October 1., 1899.

### 1903

- No, 238, march 14, 1903.
- No, 258, June 2, 1903.
- No, 259, June 11, 1903.
- Without number, June 17, 1903.
- No, 266, august 18, 1903.
- No, 270, September 5, 1903.
- No, 275, September 12, 1903.
- No, 278, September 24, 1903.
- No, 279, October 8, 1903.
- No, 284, October 23, 1903.

### 1904

- No, 346, October 31, 1904.

### 1905

- No, 370, April 26, 1905.

2 - الوثائق العثمانية:

دار الوثائق التابعة لرئاسة الوزراء باستانبول، الباب العالى "دفاتر الباب الأصفى"، دفاتر الولايات .

- دفتر رقم 528، 22 رجب 1321 هـ/ 1903 م - 24 ذى القعدة 1321 هـ/ 1903 م، موناستير، وارد .

- دفتر رقم 529، 26 ذى القعدة 1321 هـ/ 1903 م - 24 ذى الحجة 1321 هـ/ 1903 م، موناستير، وارد .

- دفتر رقم 544، 22 رجب 1321 هـ/ 1903 م - 24 ذى الحجة 1321 هـ/ 1903 م، موناستير، وارد .

- دفتر رقم 560، 4 صفر 1291 هـ/ 1874 م - 21 ربيع أول 1321 هـ/ 1903 م، سالونيك، صادر .

تانياً: المراجع:

1 - العربية والمعربة:

- آما وتلن، عبد الحميد ظل الله على الأرض، تعريب: راسم رشدى، القاهرة، 1950 م .
- بكر إسماعيل، ما هى كوسوفا؟ مكتب البارس، القاهرة، 1999 م .
- بوتاس . ه .، تاريخ الحركات القومية فى أوربا، الجزء الرابع، السلاف والجرمان والأقليات القومية، تعريب: نور الدين حاطوم، دار الفكر العربى، بدمشق، 1982 م .
- بيير رونوفان، تاريخ العلاقات الدولية 1815 - 1914 م، تعريب: جلال يحيى، دار المعارف بالقاهرة، 1968 م .
- جرانت . أ.ح .، هارولد تمبرى، أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين 1789 - 1950 م، تعريب: محمد على أبورده ولويس إسكندر، مؤسسة سجل العرب، 1967 م .
- جمال الدين سيد أحمد، مقدونيا بين الماضى والحاضر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987 م .
- حسان على حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897 - 1909 م، الطبعة الثانية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، 1980 م .
- حسن كيالى، مقال "جمال باشا فى سوريا، هل هو قومى أم انفصالى أم اتحادى؟"، تعريب: عبد اللطيف الحارس، مجلة الاجتهاد، السنة الحادية عشرة ن العددان 45 - 46، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 2000 م .

- روبر مانتران وآخرون، تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الثاني، مقال بدايات المسألة الشرقية 1774 - 1839م، تعريب: بشير السباعي، الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1993م .
- ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، 1965م .
- فرانسوا جورجو، مقال النزاع الأخير 1878 - 1908م، من كتاب تاريخ الدولة العثمانية، الجزء الثاني، إشراف روبر مانتران، تعريب: بشير السباعي، الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1993م .
- فيشر، ه. أ. ل. تاريخ أوروبا في العصر الحديث 1789 - 1950م، تعريب: أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، الطبعة التاسعة، دار المعارف بالقاهرة، 1993م .
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، التاريخ الأوربي المعاصر، دار الكتاب الجامعي، د.ت .
- عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، دار الفكر العربي بالقاهرة، 1988م .
- عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الثاني، الأنجلو المصرية، 1980م، الجزء الثالث، الأنجلو المصرية، 1983م .
- على سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية، ليبيا، بدون تاريخ .
- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، الطبعة الحادية عشر، دار العلم للملايين، بيروت ن 1988م .
- محمد عبد الرحيم مصطفى وكامل جرجي، أوروبا المعاصرة 1870 - 1939م، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1953م .
- محمد فريد، تاريخ الدولة العثمانية، مكتبة الآداب، 1997م .
- محمد مصطفى صفوت، مؤتمر برلين وأثره في البلاد العربية، معهد الدراسات العربية، 1957م .
- محمد موفاكو، الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، العدد 68 أغسطس 1983م .

## 2 - المراجع الأجنبية:

- Clayton, G. D., Britain and the Eastern Question, Missolonghi to Gallipoli, London, 1971.

- Beydilli, Kemal, Makedonya Meselesi, in: Ihasanglu, Ekmeleddin (editor), Osmanli Deveti ve Medeniyet Tarihi, Istanbul, 1994.
- Jelavich, Charles, Tsairist Russia and Balkan Nationalism, Russia Influence in the Internal Affaires of Bulgariaand Serbia, 1879-1886, Berkeley, Los Angeles, 1962.
- Marriott, J.A.R., The Eastern Question, An Historical Study, in European Diplomacy, Oxford, 1969.

### تالتاً: الدوريات:

- الاجتهاد، شهرية، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، العددان 45، 46، شتاء وربيع، 2000 م.
- اللواء، يومية، مصطفى كامل، عام 1903 م.
- الهلال، شهرية، جورجى زيدان، عام 1901 م.

\* \* \*

obeyikan.com

سياسات الأرض تجاه الإفريقيين فى جنوب إفريقيا  
(دراسة وثائقية لفترة من 1894 إلى 1910)

الدكتور

أحمد عبد الدايم محمد حسين

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر  
معهد البحوث والدراسات الإفريقية

obeyikan.com

## سياسات الأرض تجاه الإفريقيين فى جنوب إفريقيا دراسة وثائقية للفترة من 1894 إلى 1910

التأريخ لسياسات الأرض تجاه الإفريقيين هو تأريخ للاستيطان، وتأريخ للبواعث والدوافع الحقيقية التى أنتجت نظام الأبارتهيد فيما بعد، وهو أيضاً تأريخ لتحالفات القوى البيضاء ضد الإفريقيين . ودراسة سياسات الأرض بالغة الأهمية لمعرفة لماذا تطورت الأمور فى جنوب إفريقيا حتى أفرزت نظاماً عنصرياً قل أن تجد له نظيراً فى التاريخ اللهم إلا دولة إسرائيل، ويعنى هذا البحث بدراسة سياسات الأرض تجاه الإفريقيين فى جنوب إفريقيا فى الفترة من 1894 إلى 1910، فلقد كانت تلك السياسات مطلباً ضرورياً فى مستعمرات جنوب إفريقيا الأربع ، يتسق تماماً مع التوسع الاقتصادى الحادث، ويتسق أيضاً مع ضغوط الملاك البيض وظهور تحالفات ضد سيطرة الإفريقيين على الأرض . وذلك اعتماداً على وثائق وزارة المستعمرات ومضابط البرلمان البريطانى فى الفترة من 1894-1910.

فاختيار سنة 1894 لتبدأ بها الدراسة، لأنها السنة التى شهدت بداية مرحلة جديدة بإصدار قانون جلين جراى واحتجاجات الإفريقيين على تحويل نظام ملكيتهم . أما اختيار سنة 1910 لتنتهى بها الدراسة، فهى السنة التى شهدت قيام اتحاد جنوب أفريقيا، وبالتالي تغيرت بعدها ملامح سياسات الأرض بصورة كاملة، كما أن فترة الدراسة تمثل نموذجاً حقيقياً للصراع والمقاومة على الأرض، وتمثل إسهاماً مهماً للإفريقيين فى الاقتصاد النقدى، لكن بوسائل جديدة استحدثتها الإفريقيون غير المقاومة المسلحة، أثبت فيها الإفريقيون كفاءتهم، على نحو ما نراه فى هذه الدراسة .

وتتناول الدراسة سياسات الأرض قبل سنة 1894، ثم قانون جلين جرای ومحاولة فرض الملكية الفردية، ثم تتحدث عن دوافع تطور مسألة الأرض بعد قانون جلين جرای، وأخيراً تتناول تشكيل لجنة الشؤون الوطنية وأهم توصياتها، وكيف تطورت سياسات الأرض حتى قيام اتحاد جنوب إفريقيا.

### أولاً سياسات الأرض تجاه الإفريقيين قبل سنة 1894 :

ترتب على استيلاء المستوطنين البيض على أراضي الإفريقيين في الكيب، عدم السماح لهم بدخول أراضي البيض إلا بعد الاتفاق على العمل، ومن ثم تحول كثير من ملاك الأرض الحقيقيين إلى خدم يسعون إلى دخول أراضي البيض للحصول على فرصة عمل لدى المزارعين البيض<sup>(1)</sup> وفي المستعمرات الثلاث الأخرى لم تكن مسألة الحدود بين القبائل معروفة، بل ظهرت مسألة الأرض كمسألة مهمة منذ تكوين الدويلات البيضاء، سواء في الترانسفال أو الأورنج الحرة، وبدا الأمر بأن هناك قوانين وسلطات على الأفراد والأرض، لهذا بدأ الأفارقة يعرفون مسألة الحدود منذ الهجرة الكبرى<sup>(2)</sup>. ولكون العناصر الأولى للمستوطنين كانوا من الفقراء والمعدمين، لذا كانت رغبتهم في التملك وإحساسهم المتنامي بالنهم لضم الأراضي يتزايد بصورة كبيرة، ومن ثم عملوا على التوسع على حساب الوطنيين<sup>(3)</sup>. في حين كانت ملكية الأرض جماعية في كل القبائل عدا الفنجوم، فقد كانوا بلا زعامات، لهذا امتدت الملكية الفردية بينهم وأصبحوا - بعد اختلاطهم بالبيض - من طبقة الملاك<sup>(4)</sup> وهذا - في تقديري - ميزهم وجعلهم رواد الاستقلال الاقتصادي الفردي بين الإفريقيين، فقد استطاعوا المشاركة في اقتصاد التبادل وصدروا محاصيلهم إلى أسواق البيض خصوصاً أسواق الكيب<sup>(5)</sup>.

وكانت صادرات البيض خلال أول قرنين من وجودهم تعتمد على الزراعة، حتى جاءت الاكتشافات المعدنية لتلعب دوراً مؤثراً في تطوير النشاط الزراعي. فكانت ضرائب التعدين تذهب لتقدم المساعدات للمزارعين البيض ولتمويل البحوث الزراعية والإمداد بوسائل النقل الرخيصة (6). وكان الهجوم على أراضي السود قد زاد في ثمانينيات القرن التاسع عشر بعدما عكست الأنشطة الاقتصادية الزراعية البيضاء نمواً ملحوظاً، ظهر في صادراتهم الزراعية عبر المحيط الهندي من ناتال وحتى زنبار،

وبالأخص موانى دربان فى ناتال، ولورانزو ماركيز فى موزمبيق<sup>(7)</sup>. وكان التوسع الاقتصادى متسقاً تماماً مع الاهتمام بالبنية الأساسية، خصوصاً مع استكمال خطوط السكك الحديدية سواء داخل الكيب، أو إلى جمهوريتى الأفريكانرز (الترانسفال والأورنج) أو إلى ناتال البريطانية<sup>(8)</sup> لهذا كانت هناك رغبة حقيقية - قادتها المستعمرات البريطانية - فى تهدئة المناطق الإفريقية، بعدما انتشرت الصراعات حول الأراضى فى كل مكان، ولهذا تم تشكيل لجان ملكية لوضع اتفاقيات للحدود بين الإفريقيين والأوروبيين، سواء على حدود مستوطنة الكيب، أو على حدود مستعمرة ناتال والمحميات البريطانية، وذلك لتهدئة ثائرة الوطنيين الإفريقيين، مع إدراك السلطات الكامل بأنه لا يمكن أن يتم ذلك إلا من خلال الزعامات الإفريقية<sup>(9)</sup>. لهذا كان لابد من البحث عن وسائل جديدة لتغيير نظام الملكية المتبع داخل المناطق الإفريقية، خصوصاً بعدما تحددت تلك المناطق فى ثمانينيات القرن التاسع عشر.

وفى تقديرى أن الانقلاب الحقيقى فى سياسة الأرض بدأ بفرض السلطات البريطانية لضريبة الرأس فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، وذلك لأن الفلاحين الإفريقيين غير القادرين على دفع تلك الضريبة سيتكونها لصالح المتعاونين معها، وفرض نظم ملكيتها داخل مناطق الإفريقيين بطريقة غير مباشرة. وقامت الزعامة الإفريقية بجمع هذه الضريبة، وبالتالي أصبحوا بمثابة الوسطاء بين السلطات البيضاء والفلاحين الإفريقيين، واكتسبت الزعامة - من خلال الضرائب - سلطة جديدة ساعدتها فى تنمية ملكيتها وملكىة أعوانها. وهذا يفسر لماذا تظلم الإفريقيون من الضرائب، وكيف عانت غالبية المناطق الإفريقية وضعاً اقتصادياً سيئاً لم يكن مألوفاً من قبل<sup>(10)</sup>. ورغم انتزاع الأراضى من الإفريقيين، وفرض الضرائب فى كافة الوحدات الأربع إلا أن هذا لم يتفق مع أهداف الحكومة فكانت النتيجة أن نشأت طبقة من الملاك وواضعى اليد والمستأجرين من الإفريقيين خارج مناطقهم<sup>(11)</sup> لهذا كان لابد من تحديد مواصفات هؤلاء الذين يندفعون من المناطق الإفريقية باتجاه مناطق البيض.

ومنذ سنة 1890 وضعت صعوبات تمنع الإفريقى من الوصول للأرض، فزيدت الإيجارات والضرائب، وبدأ يتم طرد المستأجرين وواضعى اليد السود من الأراضى

الخاصة والعامّة، وبيعت هذه الأراضي للمزارعين البيض الرأسماليين<sup>(12)</sup>. وأدت نظم حيازة الأرض وسياساتها عبر الضرائب في عقد الثمانينيات إلى تردى أحوال الإفريقيين الاقتصادية داخل مناطقهم، مما شكل عاملاً محرضاً للتوجه إلى مناطق الأوروبيين، لهذا انتشرت عمليات وضع اليد والمزارعة وأصبحت هذه الممارسات شائعة في المناطق الريفية البيضاء، لكنها كانت تهدد مزارع البيض التجارية، فنمو الأسواق الحضرية وتدفق الأموال إلى المنطقة رفع من قيمة الأرض، ولهذا شب جيل جديد من البيض لديه الرغبة في امتلاك أكبر مساحة من الأرض، ولا يقبل الدخول في منافسة مع الإفريقيين، الذين يمثلون صغار الملاك، لهذا كان قانون جلين جرائ خطوة في هذا الاتجاه، فقد تحالف كل من رودس وهوفماير، لذا بدا الطريق مفتوحاً لإصدار قانون يراعى مصالح هؤلاء<sup>(13)</sup>. وأشارت إحدى الوثائق إلى أن صدور قانون جلين جرائ جاء ليلبي حاجة ضرورية للبيض، خصوصاً عندما طرح أحد البيض مشكلته في بوندولاند سنة 1888، فقد جاء وكيلاً لشركة تعدينية في منطقة بليوز BLUES ليتمكن من شراء مساحة من الأرض تستغلها الشركة للتقيب عن المعادن، ولكن نظم الملكية الجماعية للأرض سببت له مشاكل كثيرة<sup>(14)</sup>.

### ثانياً- قانون جلين جرائ والمليكية الفردية :

عرضنا صورة موجزة لسياسات الأرض في عقد الثمانينيات وما انتهت إليه من نتائج شكلت خصماً وضغطاً على الإفريقيين في مناطقهم، وفي نفس الوقت إضافة لهم في مناطق البيض، من خلال انتشار نظم المزارعة ووضع اليد، لهذا كان لا بد من تحديد مواصفات هؤلاء الذين يظلون في المعازل، وأولئك الذين يتركون أراضيهم باتجاه المدن البيضاء، وذلك من خلال إصدار قانون وظيفته في نظر البيض الاستفادة من تحديد الملكية، وفي نظر الإفريقيين خلق تمايزات وصراعات داخل المجتمع الإفريقي، لهذا سيكون حديثنا في هذا النقطة عن الأسباب التي أدت إلى تقديم قانون جلين جرائ لسنة 1894، وأهم بنوده، وكيف كانت ردود أفعال الإفريقيين واحتجاجاتهم على صدور القانون .

#### أ- أسباب تقديم القانون :-

كانت سياسات الأرض التي طبقتها السلطات البيضاء عبر الوحدات الأربع هي الطريقة الفعالة لإجبار الإفريقيين لترك مناطقهم، وأصبح دخل الفلاح الإفريقي أقل

أنواع الدخل بالنسبة للإفريقيين الآخرين، ومن ثم أصبحت مسألة تفكيك الأرض وتركيزها في أيدي قلة مستفيدة تخدم النظام العنصرى هى الأمر الذى يشغل تفكير بعض القيادات البيضاء، وهذا الأمر اقتصر - فى البداية - على الكيب، وكان فرض سياسة الملكية الفردية يسمح بتدخل البيض فى عملية البيع والشراء كمسؤولين عن الأرض، ويوفر أيضاً سلطة كبيرة للزعماء فى تخصيص الأرض الجماعية، مما يجعل أنظار السود تتجه إلى أن الحكومة غير مسئولة عن هذا النظام، وبالتالي يتعد الصراع عن البيض<sup>(15)</sup>. ولما كانت ملكية الأرض جماعية، فإن استيلاء البيض على الأرض قلل من مساحة الأرض المتاحة أمام الإفريقيين مما شكل خطورة كبيرة على حياتهم. وقاد إلى ارتفاع حدة النقاش حول مسألة الملكية التقليدية للأرض، بمعنى هل سيستمر استخدام الأرض أم يحل محله تمليك هؤلاء الذين يتعاونون مع المجتمع الأبيض، ولم يكن نظام الملكية الفردية معروفاً بصورة كبيرة إلا فى الكيب وبين الفنجو والجريكوا. ويمكن التذليل على ذلك بالاستشهاد ببعض الامثلة، فقد استطاع تجمع من أصحاب رؤوس الأموال الإفريقيين شراء عدة مزارع من البيض ودفعوا 10.000 جنيه للمزرعة الواحدة، وفى إحدى المرات ساهم خمسون فرداً لشراء مزرعة واحدة<sup>(16)</sup> وبالتالي لم يكن كل الإفريقيين يفتقرون لرأس المال، بل استطاع قلة منهم الاتحاد معاً لشراء المزيد من الأرض، وهذا يدل على وعى الإفريقيين وحسن اختيارهم للمجال الذى كانوا يستثمرون فيه أموالهم، ولأنهم وجدوا أن خبرتهم تتمثل فى الزراعة، ولا يمكنهم منافسة البيض فى المجالات الأخرى، لكن هذا الأمر لم يتطور لشكل من أشكال المشروعات الرأسمالية - كمزارع الأوربيين - التى كان يمكن أن تلعب دوراً مهماً فى الاقتصاد النقدى، لهذا ظلت مساهماتهم فى اقتصاد التبادل محدودة.

وأيضاً فإن تقديم قانون جلين جراى كان ردة على الأساليب المتبعة فى الكيب، فتحديد مساحة 8 أكر\* (4 مورجين) لكل إفريقي، سيقود بالطبع لأن يصبح معظم الأفراد غير مؤهلين للتصويت فى الانتخابات، وكانت الملكية أحد الشروط المطلوبة فى الإفريقي الذى يشارك فى انتخاب نواب البرلمان البيض. لهذا اعترض الإفريقيون المسيحيون على تقديم هذا القانون، لأنه يغرص لاستثنائهم من المسيحية والحضارة الغربية. وهناك سبب آخر جعل سيسل رودس يصر على تقديم اللائحة للبرلمان، وهو هجوم الفقراء البيض فى الكيب على المدن، فتشير التقارير بأن أجورهم كانت ضعيفة،

وأن دخولهم في منافسة مع الإفريقيين هي مسألة حتمية، وأن هذا الأمر انتشر عبر جنوب إفريقيا إفريقيا منذ بداية التسعينات. وأن مشاكلهم جعلت الكثير من الصحفيين والكتاب وأصحاب المصالح يشنون حملات صحفية منذ سنة 1893، وذلك لكونهم أصبحوا يعيشون جنباً إلى جنب بجوار السود، وشاركهم القادة والسياسيون والمثقفون عبر أنحاء القطر، وعبروا بأن مشكلة الفقر بين البيض ليست مشكلة طبقية بل هي مشكلة عرقية وأنها تهدد تفوق البيض وسلطاتهم في المنطقة<sup>(17)</sup>. وعبرت إحدى الوثائق بأن سياسة تحديد أراضي الإفريقيين في المعازل بدأت في المناطق الجنوبية والشمالية على السواء، وذلك رغبة في ضم أراضي الإفريقيين وتحديد ما يمتلكونه في مناطق معينة<sup>(18)</sup> ويقول البعض بأن عرض اللائحة على البرلمان يرجع إلى انتشار أفكار حركة إصلاح نظام الاستتجار، والتي تبنتها الكنيسة الاسكتلندية بقيادة هيندرسون (أحد الإصلاحيين في الكنيسة) وأن مذكراته تشير إلى رسالة منه إلى دونالد ماكلويد Donald Mcleod بخصوص إصلاح نظام الأرض وتعميم هذا الأمر عبر أراضي شرق الكيب. وهو الأمر الذي بدأ من خلال قانون جلين جراي، والذي تم الاعتراض عليه من بعض الخبراء أمثال دبليو سكوللي W. Scully. لأنه يشجع الملكية الفردية ويقيد الزعماء ويتسبب في انحلال الروابط الفردية والمجتمعية بامتداد الملكية الفردية للفلاح الإفريقي<sup>(19)</sup> ويذكر البعض أيضاً بأن تقديم رودس للقانون جاء بعد الاضطرابات الحادثة في بوندولاند سنة 1894، وأنه ذهب إلى المنطقة بنفسه لتهريب الزعيم سيكاو Siqcau\*، ورغم خضوع الزعيم إلا أن قرار رودس بأن حكم هؤلاء الزعماء لم يعد مناسباً، وأنه ينبغي مد سلطة مستعمرة الكيب إلى تلك المناطق<sup>(20)</sup>. وتشرح إحدى الوثائق بأن عملية ضم أراضي بوندولاند سنة 1894 كان لا بد أن يستتبعها تغيير قوانين الملكية وأن تخضع لقوانين الكيب حسب الرخص الخطية الحكومية لعملية تسجيل الأراضي<sup>(21)</sup>. ويرى البعض أن قانون جلين جراي قد جاء لتأسيس البونجا "المجلس"، وهو النظام الذي يمثل المجتمع العام للإفريقيين<sup>(22)</sup>.

في حين يرى آخرون أن رودس كان يهدف إلى تشجيع المشروعات الفردية والإنتاج، ولكن من خلال الممارسة العملية فقد فشلت كل أهداف المشروع، وهذا لا يرجع إلى التقاليد القبلية، بقدر ما يرجع إلى الزحام الشديد في المعازل وغياب أكثر من 60% كعمالة في المراكز الحضرية<sup>(23)</sup>.

ولا يعنى هذا أن ردوس لم يكن على دراية بمشاكل الوطنيين، بل كان قد كلف لجنة بعمل دراسة لأحوال الوطنيين قبل ضم المناطق الشرقية وإصدار القانون، والذي على حد تعبيره يمثل "لائحة لإفريقيا Bill for Africa"، وعلى حد تعبيره هو فهاير بأنه "الضرورة الأكبر لتطوير سياسة الوطنيين... وما كان ليتم إلا بفضل سيسل رودس". وعندما عرضت اللائحة على برلمان الكيب قوبلت بإعجاب كبير من الأعضاء، وقالوا بأنها تعرض حلاً شاملاً لمسائل الوطنيين. وقال البعض بأن رودس كان هدفه خدمة مناجمه التعدينية بدفع الإفريقيين إليها، لكن إذا عرفنا أن رودس نفسه لم يبدأ في جنوب إفريقيا في التعدين، بل كانت محاولاته الأولى في تطوير الزراعة<sup>(24)</sup>، وبالتالي فإن دوره في تطوير زراعة البيض، ثم رسم سياسة الأراضي المتعلقة بالإفريقيين هو الذي جعل المزارعين البيض يدينون له بالفضل على ما قدمه من خدمات جلييلة لهم.

#### ب - صدور القانون وأهم بنوده :

كان قانون جلين جرای رأس الحربة لبدأ سياسة جديدة تجاه أراضي الإفريقيين. وقدم سيسل رودس القانون للبرلمان تحت مسمى: لائحة الوطنيين لإفريقيا Native Bill of Africa سنة 1894 بقوله: "إنه يريد أن يحتفظ بالإفريقيين في تلك المعازل الوطنية، وإنه لا يفضل موضوع تمثيل الوطنيين، وألا ينالوا حقاً دستورياً"<sup>(25)</sup>، وبالتالي يمكن القول بأن هناك اتجاهها ظهر واضحاً في عدم إعطاء أى حق دستوري للإفريقيين وهى المسألة التي ستحدد بوضوح بعد قيام الاتحاد.

وحدثت مناقشات كثيرة حول قانون جلين جرای داخل البرلمان وخارجه، وقبلت آراء سيسل رودس لدرجة أن البعض أصبح يطلق عليه قانون رودس للوطنيين Rhodes Native Act، مع أن هناك آراءً تطرح بأن البنود الـ 71 لللائحة تمت صياغتها عن طريق لجنة اختصت بهذه المسألة، وأن اللائحة مرت عبر المجلس التشريعي دون مناقشة لأنها تتعلق بمصلحة الملاك السود وملكية الأرض، وأن بعض الملاك السود كانت لهم علاقات ببعض نواب البرلمان. هذا بالإضافة إلى أن بعض المعارضين تهكموا للنظرة العامة لللائحة بكونها لائحة لكل إفريقيا<sup>(26)</sup>، وبالتالي فإن الوثيقة تطرح بأن القانون صدر برغبة الملاك السود، وأن الذين اعترضوا عليه لا يريدون تحمل مسؤولية أى سياسات في بقية إفريقيا

من خلال تجربة تطبيق هذه السياسة في مناطقهم، ولما كانت نظم ملكية الأرض تشكل مكوناً أصيلاً من مكونات شخصية إفريقيا، فقد عارض الإفريقيون ما يهدف إليه القانون، وكأنهم لا يريدون تحمل وزر سياسات الأرض تجاه القارة ككل .

وتشير إحدى الوثائق إلى التخبط الذي حدث في البرلمان خلال قراءة اللائحة، ففي المرة الأولى قيل بأنه يمكن للبرلمان أن يوافق عليها أو لا يوافق، وتقرر تعيين لجنة في ذات الفصل التشريعي لدراسة إمكانية تطبيق بنود اللائحة، وللبرلمان أن يأخذ برأيها أو لا، ولكن سرعان ما تمت الموافقة في القراءة الثانية على المبدأ الأساسي لها، وصدرت بصورة متعجلة بموافقة اثنين وستين مقابل ثلاثة أصوات، حسبما أشارت جريدة الكيب تايمز في 27 يوليو 1894<sup>(27)</sup>، فخلال القراءة الثانية لللائحة جلين جراي تحدث سيسل رودس في البرلمان قائلاً: "إن المواطنين في المواقع ليس لهم أى حق ملكية، وإنهم منذ خمسين سنة يعيشون عليها"، والحق إنها كلمة واسعة، وبالنسبة لاستخدام رودس عبارة "لا حقوق" فإنها تطبق على هذا الجزء من الأرض، وأن لائحته تهدف إلى ترتيب الملكية الجماعية. وتساءل رودس: لماذا لا يتم سن قانون برلماني يرتب هذه المسألة (إشارة مسبقة لما سيحدث سنة 1913) خصوصاً أن المجالس المحلية وافقت على اللائحة . وأن اللائحة طرحت ضريبة العمل وأن تكون 10 سنتات سنوياً<sup>(28)</sup>، والمرحلة التالية لللائحة كان لابد أن يتم التصديق عليها من قبل حاكم الكيب وليم كامبرون Willion Cameron، كمثل الملكة بريطانيا، وبحكم سلطاته يمكنه إرسال اللائحة إلى إنجلترا لتطلع عليها الملكة، لذا فقد قرر إرسال اللائحة إلى إنجلترا ومعها خطاب مزيل بعراض مقدمة من الإفريقيين يرجون عدم التصديق على هذه اللائحة<sup>(29)</sup> . ولم يعترض الإفريقيون فقط على القانون، بل اعترض عليه بعض البيض أيضاً، ليس تعاطفاً مع الإفريقيين، ومن هؤلاء سمس\*، لأن اللائحة تتحدث عن حقوق الإفريقيين، فتفكيره "أن هؤلاء الناس لهم حياة مختلفة عن حياة البيض"<sup>(30)</sup>، وبالتالي هو ينكر مسألة الحقوق بالمرة .

وإذا تحدثنا عن منطقة جلين جراي فإنها منطقة صغيرة المساحة تتكون من 250.000 مورجن، ولكن القانون الخاص بها هو النموذج لما سيطبق على كل الأراضي الإفريقية داخل جنوب إفريقيا، بل على كل إفريقيا . وقضى القانون بمد الملكية الفردية إليها، على

أن تكون القطعة المخصصة بمساحة 55 مورجن لكل عائلة، وأن من لا يملكون أية أراضٍ يجبرون للرحيل عن مناطقهم بحثاً عن فرصة عمل، وعدلت مقترحات المخصصات بدلاً من 55 مورجن لتصبح 4 مورجن وفرضت ضريبة العمل<sup>(31)</sup>. وفي تقديري أن طرح القانون لحجم المساحة بـ55 مورجن ثم تقليلها إلى 4 مورجن يدل على أن المنطقة كانت تنتشر بها الملكية الفردية وأن القانون لم يكن مبتدعاً لها، ومن المرجح أن ضريبة الرأس كانت سبباً رئيسياً في انتشار الملكية الفردية إليها، ناهيك عن قربها من مناطق الملاك الفنجو والجريكوا وبعض الأكسوزا في الكيب.

وكرس القانون أربعة مبادئ أساسية وهي: العمل، فصل المعازل الوطنية، الملكية الفردية، الحكم الذاتي المحلي. وبالنسبة للملكية الفردية، وهي لب تطور سياسات الأرض تجاه الإفريقيين، فأشار بوجود أن تحمل محل الملكية الجماعية. وهذا الأمر كان غريباً على المجتمع الإفريقي، فالمالك الجديد لقطعة الأرض يترك أصدقاءه وزوجته ويرتبط بقطعة الأرض التي طلبها. ومن كانوا بلا أرض ذهبوا للمناجم للحصول على النقود ثم عادوا وتمكنوا من شراء الماشية والأغنام لأنها أساس الثروة، ولم يعودوا لشراء الأرض<sup>(32)</sup>. واختيرت منطقة جلين جراى لتجربة إنقاذ الروح القبلية، وجرى مسح المنطقة وفصلت الأرض الزراعية عن المراعى. وظلت ملكية المراعى مشاعاً، في حين قسمت الأراضى الصالحة للزراعة إلى ملكيات فردية على أساس قطعة واحدة للشخص الواحد One Man One Lot على أن يدفع إيجاراً سنوياً للحكومة. وصدرت العديد من الأوامر الحكومية تحدد حق نقل أو تحويل الملكية وتمنع الرهن العقاري، وذلك لحماية الملكية الفردية ضد النتائج الممكنة لخرق التملك. وهدف القانون إلى مشاركة الإفريقيين في الإدارة المحلية، ففي كل موقع كان على كتلة الملاك أن تنتخب لجنة الموقع، ومجموع اللجان ترأسه هيئة تسمى مجلس منطقة جلين جراى، والذي تشكل من ستة أعضاء منتخبين من قبل لجان الموقع، وستة معينين من قبل الحكومة على رأسهم قاضى المنطقة كرئيس، ومهمة المجلس تقدير الضريبة المحلية، والتي قدرت بعشرة شلنات في السنة، ثم فرضت ضريبة العمل للذين لا يودون الخروج للعمل خارج المنطقة، وبالتالي جذب هذا الإجراء العديد من الداعمين لتمرير القانون في البرلمان، لكنه رفع معدل الاستياء في جانب الوطنيين<sup>(33)</sup>. وفي تقديري أن تدخل الدولة في عملية الرهن وشروط

نقل الملكية أفقد الإفريقي حقه في عملية المضاربة على الأرض والاستفادة من ارتفاع أسعارها، وبالتالي افتقد أيضاً المزايا التي كانت مكفولة عبر الملكية الجماعية .

وأهمية قانون جلين أنه لم يقتصر على المنطقة بمفردها، بل امتد إلى كل مناطق الوطنيين في جنوب إفريقيا فيما بعد حرب البوير من خلال الضرائب ومساعدة الزعماء المتعاونين مع السلطات البريطانية. فطبق المبدأ بالفعل عن طريق إعلان أربع مناطق في غرب الترانسكاى قبل أن يمرر القانون ويجرى تنفيذه في جلين جراى، ومع ذلك فشل المشروع بعد ذلك وألغيت ضريبة العمل<sup>(34)</sup>. ورغم أن إعلانات الحكومات جاءت لتقول بأنه سيتم الحفاظ على أسلوب ملكية الأرض لتدار من قبل زعيم القبيلة، إلا أنها اشترطت "تسجيل الأراضى التى تخص كل منطقة"، كما فرضت شروط المتطلبات الرأسمالية لتقرير إيجار للأراضى الصالحة حسب التسجيل الفردى فى "محكمة تسجيل الأراضى" باسم كبير العائلة مقابل دفع الإيجار، وبالتالي فتح هذا باب الملكية الفردية فى ظل سيادة القانون والأعراف الإفريقية، ومن ثم أتيح للأفراد الحصول على قطع الأرض بالنظام الجديد، وبدأت تحدث تغيرات بصورة واضحة على نظم ملكية الإفريقيين الجماعية<sup>(35)</sup>.

وأصبحت ثلاثة أعشار منطقة جلين جراى تسير بنظام الملكية الفردية، أما بقية الأراضى فتسير حسب النظام القديم . وبالنسبة لنظام التخصيص، فقد التزم الوطنى بدفع إيجار قدره 15 شلنا. وما يحصل عليه الوطنى من الأرض يكون تحت اسم الحكومة وخاضعاً لقيودها، ولا يجوز له نقل أو رهن الأرض دون موافقة من الحاكم العام للكيب. وأيضاً لا تكون الأرض عرضة لسداد الدين. ويحق للحكومة أن تصدر الأرض فى حالة اشتراك المالك فى الثورة ضد السلطات<sup>(36)</sup>. ويتضح من الشروط السابقة أن الإفريقي يفقد الملكية الحقيقية للأرض، فطالما لا تدخل فى المضاربة أو سداد الديون أو التحويل، بالتالى كان هذا النظام منقوصاً ناهيك عن نزعها فى حالة الثورة . لهذا بدا واضحاً أن القانون استخدم لتحديد طرف مهم فى مسألة الصراع مع البيض، وهم الملاك الذين أصبحت للحكومة يد بيضاء عليهم، وأتيح لهذه الطبقة أن تستفيد لتلعب دوراً مهماً فى قيادة الإفريقيين للاتجاه السلمى خوفاً على مصالحها المكتسبة .

وقد قضى القانون أنه فى حالة ارتكاب الوطنى لأعمال السرقة وحكم عليه بالسجن

فإنه مجرم من تملك الأرض لمدة ثلاث سنوات، وعليه أن يدفع إيجاراً لمدة سنتين مقدماً . وكانت عملية الإحصاء للمتابعة تسبق تسجيل المالك للأرض . وفي المناطق المسجلة في الترانسكاي يذهب من يريد الحصول على الأرض إلى موقع الزعيم ليعطيه قطعة تكون تحت سلطات القاضى وربما يعطى المالك "شهادة ملكية" . ولكن بسبب غياب الإحصاء حدثت العديد من النزاعات على حدود قطع الأرض بين الإفريقيين وازدادت هذه النزاعات حول هذه الملكيات . في حين أن القطع المسجلة في المناطق المحصاة ربما تورث طبقاً لقانون الأرض . أما في المناطق غير المحصاة فإن شروط شهادة الملكية فيها قضت بتحويل ملكيتها للحكومة بعد وفاة المالك<sup>(37)</sup> .

ولا شك أن الملكية الفردية أعطت للمالك الفرصة للعمل في أرضه بأكثر مما كان يعمل في ظل الملكية الجماعية . لكن لم يشعر عدد من مسجلى مناطق ترانسكاي بأن النظام الجديد أنتج أية تأثيرات، وفي المناطق المسجلة لم ينتج أسلوباً زراعياً جيداً، بصورة أحسن من الأساليب الشائعة في الملكيات الجماعية في المناطق غير المسجلة . وأن مئات الملاك تنازلوا عن ملكيتهم للحكومة بسبب فشلهم في دفع رسوم الحكر، وهناك وطيون ظلوا متمسكين بنظام الملكية الجماعية<sup>(38)</sup> . ويرى البعض أن الملكية الفردية أظهرت نظام تأجير الأرض أكثر مما أظهرت عملية جمع الضرائب، وأنه حل نظام الحكر quit-rent محل ضريبة الكوخ لأصحاب الأراضى . وبمسح إحدى المناطق تبين أن ديون الرجل الأفريقي قد ارتفعت بصورة كبيرة، وبأن الرجل المتزوج لا يدفع ضريبة كوخ لكن يدفع 15 شلناً مقابل الحكر في السنة، وارتفع في مناطق أخرى إلى ما بين 30 - 45 شلناً، واعتمد هذا على حجم الأراضى الصالحة التى يحتكرها، ناهيك عن الضريبة العامة (10 شلنات في السنة)<sup>(39)</sup> . وأضعفت الملكية الفردية قوة وهيبة الزعماء، وعلى الجانب الآخر أدت إلى زيادة أعداد غير الملاك بين الشباب . فالملكية نادراً ما تكفى العائلة الواحدة لهذا أعطيت الأرض لأكبر الأبناء سناً، ولم تبقى أراضٍ متاحة لبقية الأبناء، مع أنهم في ظل الملكية الجماعية كان يمكنهم المطالبة بجزء من الميراث الجماعى . ولم يجدوا أمامهم إلا سوق العمل الأوروبى، أو الانتظار حتى تتم مصادرة إحدى القطع لتصبح متاحة لهم<sup>(40)</sup> . ولما كانت الضريبة تجمع نقداً فقد شكلت مأزقاً للإفريقيين، فقد كان هدفها قبل قانون جلين جراى تقليل نسبة الزواج المتعدد واستبقاء المرأة في المعازل، وليس إيجاد مصدر للدخل .

وكانت كل أنواع الضرائب (الكوخ- العامة - الحكر) تعطى أفضلية للرجل على المرأة، وهذا يشكل اعترافاً حكومياً بالأوضاع السائدة . فالضريبة العامة فرضت على الذكور البالغين 18 سنة سواء من يملك أرض أو لا يملك . وقانون جلين جراى جعل حق الحصول على أرض يعتمد على الحظ . وأصبحت إدارة الأراضي الحكر أكثر قسوة بالنسبة للنساء فهى لا تستطيع أن تمتلك أية أراضٍ باسمها<sup>(41)</sup>، ويتضح مما سبق لماذا عارض الإفريقيون قانون جلين جراى منذ أن كان لائحة وبعد أن صار قانوناً .

### ج - ردود فعل الإفريقيين:

ظهرت معارضة الإفريقيين الواضحة على القانون منذ أن طرح لأول مرة في البرلمان، ولعب المثقفون الإفريقيون دوراً واضحاً في قيادة الاحتجاجات، وكان على رأس هؤلاء جون تنجو جابافو الذى أرسل عريضة للملكة بريطانيا تعبر عن أسباب معارضة الإفريقيين لعدة أسباب منها: أنه يغير نظام ملكية الأرض التى توارثها الإفريقيون بالمعاهدات مع البريطانيين، والتى أبقت نظم الأرض كما هى عليه، وأنه منذ تخصيص السلطات البيضاء لمرتبات للزعماء وتطبيق القوانين الحكومية على الأرض قد حدثت اعتراضات وثورات أيضاً من جانب هؤلاء الزعماء، وأنه بتطبيق اللائحة سيحدث صراع على الأرض، فالكل سيتصارع على قطع الأرض الصالحة من خلال تقسيم الأرض إلى قطع صغيرة، وأن الحكومة بهذا الإجراء تسببت في عدم الأمان والمعاناة وحرمان الكثيرين من الأرض، وبالتالي لا يجدون طريقاً أمامهم إلا الثورة، وأن الجرائم ستزداد خصوصاً مع ارتفاع ضريبة الكوخ، وستقود إلى إنقاص أعداد الماشية لأن الرعى يعتمد على الأرض الجماعية، وأن جزءاً من مشكلة الحقوق القانونية للوطنيين في الأرض أنه لا توجد شروط داخل القانون معبرة يعتد بها لتشمل الوطنيين في جلين جراى، وفي أى أراضٍ يشغلها الوطنيون في ظل الملكية الجماعية، وأنه كان لابد لللائحة أن تتم مناقشتها مرة أخرى ثم الانتظار سنة قبل إصدار القانون، ولهذا صدرت بصورة متعجلة . وتشير الوثيقة إلى أن إصدار اللائحة بصورة متعجلة ظهر واضحاً في التواريخ التى قرأت فيها اللائحة إلى أن صدرت كقانون، وأنها مررت دون اعتراض من أحد. وأنه إذا كانت الحكومة تريد الخير للوطنيين فلا بد من تركهم يديرون زراعاتهم وأراضيهم كما يريدون، وإذا كانت تبغى الخير فعليها إقامة

مدارس زراعية وصناعية محلية لهم . وأشارت الوثيقة إلى أن الوطنيين أرسلوا عدة عرائض أخرى إضافية موقعة من قبل مواطنين يعيشون في بورت إليزابيث<sup>(42)</sup>. وفي تقديري أن المثقفين قادوا تلك الاحتجاجات لإدراكهم إمكانية أن يحدث الصراع على الأرض انشقاقا داخل المجتمع الإفريقي، أو أنهم كانوا يتخوفون من تزايد سطوة طبقة الملاك بصورة تفقدهم مكانتهم في قيادة الوعي السياسى والثقافى بين الإفريقيين.

وعقدت اجتماعات كثيرة في معظم المناطق لمناقشة الموقف، وتشير إحدى الوثائق إلى أن أحد المسؤولين البريطانيين في الكيب أشار بأنه " يوجد العديد من أصدقائنا أخبرونا بأنه سيتم قبول قانون جلين جراى، مع وجود إشارات أخرى تدلل على تحركات الإفريقيين ليعبروا عن احتجاجاتهم على القانون، بل إنهم يرغبون بأن يذهب وفد إلى إنجلترا ويحمل خطابات وعرائض موقعة من الوطنيين تطلب عدم التصديق على القانون بل وإلغائه، وهم في مرحلة جمع التوقيعات من الوطنيين ". وأشار أحد المعارضين السود - وهو السيد نوكس بوكوى Knox Bokwe - مستهجننا تصريح سيسل رودس بأنه قانون إفريقيا وأنه مقدمة للحكم الذاتى للإفريقيين<sup>(43)</sup>. واعترض الإفريقيون على هذا القانون وتحدثت جريدة الامفوزابنتسندو تحت عنوان: "مستقبل اللائحة" وقالت: إن الإفريقيين عبروا عن اعتراضهم وبأنهم متمسكون بحقوق ملكية أراضيهم التى ورثوها عن آبائهم أو التى حصلوا عليها بأنفسهم، وأنه لا يمكنهم أن يتخلوا عن هذا الحق للحكومة لتتصرف فى أراضيهم، حيث صدرت اللائحة بعنوان: "اللائحة المحددة للتصرف فى الأراضى وإدارة الشؤون المحلية داخل منطقة جلين جراى والمناطق المعلقة"<sup>(44)</sup>. وشن الإفريقيون أكبر حملة ضد قانون جلين جراى واتخذت أشكالا متعددة من خلال حملات صحفية أو حملات احتجاج أو تشكيل وفد لمقابلة الحاكم العام . هذا بالإضافة إلى أن بعضهم راسل الصحافة ليعلن رفض الإفريقيين صراحة لقانون أراضى جلين جراى، وبأنهم يفضلون الملكية حسب الأعراف القبلية، وأن القانون تم تمريره بوجهة نظر سيسل رودس المنفردة، وقضى بضرورة دفع المواطن لـ 5 جنيه و 15 سنتاً سنوياً . وأن تخصيص الأرض سيؤخر التحسينات الأخرى وعلى رأسها الصناعة . هذا بالإضافة إلى أنهم تخوفوا من قدرة العمال الإفريقيين، حينما يعدون، فى شراء الأراضى من هؤلاء المحرومين من النقود لتحسين أراضيهم وريها، وبالتالي سيفقدون أراضيهم<sup>(45)</sup>

وهذا يدل على أن الطبقة المثقفة الإفريقية مارست دورها في توعية الجماهير بخطورة ما يشرع من قوانين، وأن استجابة الجماهير لتلك الاجتماعات تدل أيضاً على أهمية المسألة المطروحة .

وفي اعتقادهم أن القانون جاء ليحولهم إلى شحاذين وخدم، وأعلنوا " بأنهم كما صرخ أطفال بنو إسرائيل ضد الظلم والجور فإننا نصرخ ضد هذا القانون"، وأضافوا "بأننا نتمنى بأن تعاقب المستعمرة إذا نفذ هذا القانون"، وتشير الوثيقة إلى الاجتماعات العديدة التي عقدها الإفريقيون، أولها كان اجتماعاً عاماً في كينجزويلمز تاون، والآخر في تيمبولاند، والثالث في فنجلاند، والرابع في جريكوالاند، وتقرر خلال تلك الاجتماعات ضرورة إرسال وفد حكومي لإنجلترا مكون من أربعة رجال أحدهم وزير الشؤون الوطنية والمقيم البريطاني، لينوبوا عن الوطنيين في تقديم عريضة للملكة ضد اللائحة، وإعلام الملكة برفضهم للقانون<sup>(46)</sup>. وفي تقديري أنهم عولوا كثيراً على الملكة باعتبار أنهم رعايا بريطانيين ومن حقهم أن يحتكموا إليها، وكانت هذه قراءتهم للموقف في ذلك الوقت، مع أن طرح مسألة إرسال وفد حكومي نيابة عنهم ليشرح قضيتهم هو أمر جديد على المسرح السياسي الإفريقي، مما يرجح بأن بداية المرحلة السلمية قد بدأت بالفعل وأن ثورة البامباتا - التي حدثت فيما بعد - ما هي إلا الزفير الأخير في حياة المقاومة المسلحة .

وتشكل وفد إفريقي يقوم بمهمة إرسال برقية للحاكم العام يخبروه فيها بأن يرسل للملكة بضرورة عدم التصديق على هذا القانون . لأنها- كما تشير الوثيقة - تقود الوطنيين بعيداً عن منازلهم وتسحب منهم أراضيهم وحریاتهم، وأن يخبرها أيضاً بأن كل أصدقاء الوطنيين من الأوروبيين يقفون ضد هذه اللائحة وضد الضريبة المفروضة على كل ذكر، وأن يخبرها " بأننا لسنا ضد الملكية الفردية بل نؤيدها . لكننا نرفض المشروع الذي تهدف إليه اللائحة"، وهذا الخطاب كان موقعاً من قبل تشارلز باملا في 25 أغسطس 1894<sup>(47)</sup>. وهذا يؤكد تصدر المثقفين الإفريقيين وقيادتهم لهذه الاحتجاجات ، ناهيك عن قيام آخرين بشن حملات صحفية، حيث عبرت صحيفة الكيب أرجوس عن انتقاد جون تنجوجابافو للإجراءات الإدارية التي اتخذت في مناطق الباتو وخصوصاً لوائح

ترانسكاي، وانتقدت الزعامات لقبولهم هذه اللوائح<sup>(48)</sup>. وبدلاً من تهدئة روع الإفريقيين نجد أن كل تلك الاحتجاجات لم تلق استجابة من السلطات البيضاء والتي عزمت أمرها على المضي قدماً في تنفيذ سياستها .

ويبدو أن قانون جلين جرای بمجرد تطبيقه كانت له آثار واضحة في شرقي الكيب تمثلت في سرقة الماشية من ناتال، وتشير إحدى الوثائق إلى أن أعداد الماشية المسروقة بلغت 463 والخيول 186 والحراف 284 والماعز 106، وبالتالي كان لابد من اتخاذ خطوات تجاه البوندولاند، وطالب حاكم ناتال بتدخل زعيم المنطقة سيكايو وتدخل سلطات الكيب، لأن المنطقة تحت سلطاتها المباشرة . وأن سكان ناتال الوطنيين هم الذين عانوا من هذه السرقات، والتي قدرت من قبل شرطة ناتال بمبلغ 33905 جنيه، وأن حكومة الكيب عليها أن تعيد هذه المسروقات لحكومة ناتال<sup>(49)</sup>. واستجابت حكومة الكيب لطلب حكومة ناتال بضرورة حماية الحدود<sup>(50)</sup> ولكن السؤال المطروح هو: لماذا حدثت هذه السرقات عقب تطبيق قانون جلين جرای مباشرة رغم أنها لم تنتشر عبر وحدات جنوب إفريقيا الأخرى؟ ففي تقديري أنها حدثت بسبب افتقاد الكثير من الإفريقيين للأرض في تلك المناطق، وعدم استطاعة بعضهم توفير تكلفة الرحلة إلى خارج المعازل بحثاً عن العمل، وبالتالي لجأوا إلى سرقة الماشية.

وحدث جدل سياسي حول مسألة الأرض حيث اعتقد البعض أن قانون جلين جرای سنة 1894 هو الذي أنشأ المناخ لقبول تقرير لجنة شئون الوطنيين لسنة 1905، والتي أوصت بالعزل الريفى، والذي قضى به قانون الأرض سنة 1913<sup>(51)</sup>. وبالنسبة للمناطق الأخرى فقد أصبحت مشكلة مجتمعات وضع اليد في الأورنج - خصوصاً في المناطق الشرقية - مشكلة شائكة في نهاية القرن 19 . وأصبحت سيطرة السود الاقتصادية على الأرض مسألة تؤرق البيض، خصوصاً أن السود هم الذين يقومون بزراعة الأرض نيابة عنهم، وأنهم يقومون بالرعى في المزارع المؤجرة . ولهذا فقد تركزت شكاوى البيض في إزاحة هذه السيطرة الاقتصادية في تسعينيات القرن 19، خاصة في ظل غياب كبار الملاك البيض<sup>(52)</sup>. وتشير الوثائق إلى أنه حدث تطور في مسألة الأرض منذ سنة 1897 فاتفق البيض حول سياسة الأرض أصبح وسيلة للمحافظة على السلام بين قسمي البيض عبر المستعمرات الأربع<sup>(53)</sup>، وأيضاً صدرت اللوائح الإدارية الحاكمة لتيمبولاند وبوندولاند

ثم الأقاليم الترانسكاوية ككل سنة 1897، وكان هذا مقدمة لفوضى في سياسة الأراضي التي انتوت الدولة تطبيقها فيما بعد<sup>(54)</sup>. وبدأت القلاقل بين البيض تستدعى يقظة الإفريقيين، وكان الأفريكانرز أكثر حركة ونشاطاً في ذلك الوقت، وذلك لتكوين رابطة جنوب إفريقيا من خلال اجتماع عقد في بورت اليزابيث من 11 - 13 فبراير 1897. وتبنت الرابطة عدة قضايا، من أهمها توفير غذاء رخيص للثمن للمواطنين عبر القطر، من خلال إنشاء فروع لها على مستوى المستعمرات الأربع والاهتمام بشئون الأفريكانرز وقيامها بحملة لتخفيض الأسعار، وشكل موضوع الأرض جزءاً مهماً في قضايا الرابطة<sup>(55)</sup>. ويخلص الباحث إلى أن قانون جلين جراى لم يبتدع الملكية الفردية فلقد كانت معروفة على الأقل في الكيب، ولكنه يعتبر المؤسس الحقيقي لبداية مرحلة جديدة في تنظيم وفرض لسياسات الأراضي تجاه الإفريقيين، لهذا تطورت مسألة الأرض وأصبحت هى القضية الأساسية التى يدور حولها الكفاح في جنوب إفريقيا، وهذا ما سنتعرض له في النقطه التالية.

### تالاً. دوافع تطور مسألة الأرض :

هناك دوافع عدة أدت إلى تطور مسألة الأرض بعد قانون جلين جراى أهمها : مشاركة الإفريقيين في انتخابات الكيب وانحياز طبقة الملاك والأقلية البرجوازية الإفريقية للناطقين بالإنجليزية، ثم حلول القحط ووباء الماشية وتردى أحوال البيض والسود على السواء، ثم حرب البوير وضغوط كبار الملاك والفقراء البيض لحل مسألة الأرض، ثم زيادة أعداد الإفريقيين عبر نظم حيازة الأرض، فقد زادت أعداد الملاك وواضعى اليد والمستأجرين والمستغلين بنظام المزارعة.

#### أ- دور الملاك الإفريقيين في الانتخابات البرلمانية :

رغم كل الاحتجاجات الإفريقية إلا أن نظام الملكية الفردية فتح الطريق أمام الإفريقي للحصول على حق التصويت في الانتخابات، والتي لا يشارك فيها إلا مصوتا لأحد المرشحين البيض، فاستغل فريق الإفريقيين المهتمين بالحصول على الأرض لعبة الانتخابات والاستفادة منها في تنمية أراضيهم وزيادتها. وكان الإفريقيون قد لعبوا دوراً بارزاً في عدد من الدوائر الانتخابية في الكيب منذ سنة 1884 وحتى اتحاد جنوب إفريقيا

سنة 1910. ولم يكن عدد الإفريقيين في البداية كبيراً، فقد زادت أعداد المنتحيين الإفريقيين بصورة كبيرة منذ سنة 1898. وكانت الأحزاب البيضاء تذهب إلى الإفريقيين تطلب منهم دعم مرشحها في الانتخابات. وأول أناس أتيح لهم هذا الحق هم الملاك الفنحو الذين كانوا يلقون أشد العداء من جانب الرابطة الأفريكانية، فقد كانوا يعطون أصواتهم لأحزاب الناطقين بالإنجليزية ثم حزب جنوب إفريقيا بعد حرب البوير، ثم ازدادت أعداد الملاك الأكسوزا والتيمبو، فأعطوا أصواتهم للحزب التقدمي الناطق بالإنجليزية نكاية في الفنحو، ولأن ملكياتهم صغيرة مقارنة بالفنحو - المستفيدين برعاية مصالحهم من قبل النواب البيض - فقد بحثوا هم أيضاً على من يرعى مصالحهم<sup>(56)</sup>. وكما شكلت القوة الاقتصادية للملاك السود محرضاً على وجوب كسرهم، أدت انحيازاتهم الصريحة للناطقين بالإنجليزية في انتخابات الكيب إلى زيادة كره الناطقين بالأفريكانية لهم، وأصبحت هناك ضرورة ملحة بوجود التعجيل بالتخلص من منافسة هؤلاء الملاك.

وهذا يفسر لماذا تبنى الفنحو أساليب وطرقاً زراعية تشابه أساليب الناطقين بالإنجليزية، ولماذا أصبح بعضهم يقرض النقود للإفريقيين بحيث تكونت منهم فئة المرابين الإفريقيين، فعندما يعجز الإفريقي من الأكسوزا عن السداد كان يتم الاستيلاء على أرضه، لهذا حدثت قلاقل بين الفنحو والأكسوزا. ولكون الفنحو أول إفريقيين يشاركون في الانتخابات فإنهم استاءوا من الشبان السياسيين من الأكسوزا الذين أصبحوا أكثر بروزاً منذ سنة 1898 مما يشكل تحدياً لبروزهم، وانصب كل النقد على جون تنجوجابافو الذي أصبح أشهر السياسيين الإفريقيين. وكانت مسائل كالتعليم وملكية الأرض والأجور تقف عائقاً أمام الأكسوزا، حيث ارتفعت قيمة ملكية الأرض المطلوبة لممارسة الحق الانتخابي من 25 جنياً إلى 75 جنياً بعد سنة 1892. لذا فإن معظم الذين تم تسجيلهم في قائمة الناخبين بعد سنة 1892 قد جاءوا من طبقة اجتماعية جديدة: كهنة، مدرسين، كتبه، مترجمين، تجار صغار، فلاحين يملكون أراضى أو ممن يحصلون على أجر 75 جنياً، ومعظم ناخبي الفنحو من هؤلاء<sup>(57)</sup>. ونخلص من هذا إلى ثلاث نتائج: أولها ظهور شكل من أشكال الفردية - مستقلاً عن سلطات الجماعة القبلية - بين الإفريقيين خصوصاً بين الفنحو والأكسوزا، ثانيها سعى هؤلاء الأفراد للمحافظة على

مصالحهم بمختلف الوسائل، وبالتالي وقفوا ضد من يبرز من الإفريقيين الآخرين، ثالثها شكلت القوى الجديدة حركة دفع للمجتمع الإفريقي فأبرزت تلك الاختلافات الجذرية الحقيقية التي ظهرت بوضوح خلال الاحتجاجات على قانون جلين جراى وتوصيات لجنة الشئون الوطنية.

وخير مثال للقوة التي مثلها هؤلاء الأفراد الاستفادة من الطريقة التي تتم بها الانتخابات فقد كسرت حواجز اللغة عبر نظام الوكلاء الإفريقيين للمرشح الأوروبى، فاضطر المرشحون إلى دفع كثير من النقود لهؤلاء الوكلاء للحصول على أصوات الناخبين الإفريقيين، فتحدثت إحدى الوثائق عن خطاب من وكيل السيد سميت Smit يشير إلى هذا الاتجاه، بالإضافة إلى ما كتبه السيد بيليم J. M. Pelom للماريان - وكان وكيلاً له سنة 1903 - يطلب " أن يرسل له 77 جنيهًا للتنقلات "، وكتب السيد ماتيلو Matyelo - أحد مساعدي ماريان - خطاباً بنفس المعنى يطلب " نقوداً لشراء حصان "، لذا فقد كان الوكلاء على رأس الفئات التي تستغل فترات الانتخابات، وقد عبر أحد المرشحين عن هذا الأمر بوضوح، " بأننى ذهبت لأحد مقرات الناخبين الإفريقيين، ولم أجد أحداً من المثقفين فى انتظارى وكان كل الموجودين لا يعرفون أى شىء فى السياسة " . وكان تأسيس جريدة أزويلا بانو Izwila Banto سنة 1898 بنية إنهاء احتكار جابافو للدعاية والأخبار الانتخابية وللتعبير عن مصالح طبقة الملاك فى الاستفادة من الانتخابات ، وقاد هذا لإنشاء منتدى سياسى لتأسيس مؤتمر جنوب إفريقيا للسكان الأصليين سنة 1902، وأحد مهام المؤتمر محاولة الحصول إلى قرار جماعى بشأن من يدعمون من المرشحين (مرشحي حزب جنوب إفريقيا أم الحزب التقدمى) <sup>(58)</sup>. وبالتالي أتيح لطبقة الملاك التي استفادت من قانون جلين جراى ، مثلما استفاد الفنجو من قبل، أن تلعب دوراً سياسياً فى انتخابات الكيب، ناهيك عن استفادة بعض أعضاء الطبقة البرجوازية من تنافس الأحزاب البيضاء بطلب النقود أو إصدار صحف كانت تركز على الدعاية الانتخابية أكثر من التوعية والدفاع عن الحقوق السياسية للإفريقيين، لهذا فإن دراسة مسألة الأرض الإفريقية تكشف لنا جانباً مهماً فى تاريخ الإفريقيين السياسى والاجتماعى والاقتصادى .

## ب- حلول القحط ووباء الماشية :

حدث في أواخر القرن 19 أن حل القحط ووباء الماشية عبر الوحدات السياسية الأربع، وهو الأمر الذي تسبب في تصعيد مشكلة الأرض<sup>60</sup>، فقد شكلا مأساة حقيقية للعديد من صغار المزارعين البيض. وأدى هلاك ماشية المزارعين البيض والسود على السواء إلى جعل البيض يتركون الأرياف باتجاه المدن، وظل بعض المحظوظين منهم في أراضيهم، واقتصر بعضهم الأموال للزراعة، وبالتالي أصبحت حيازتهم ملكاً لأصحاب الديون، ولم يستطع آخرون العيش على إنتاج الحيوانات، وبالتالي باعوا أراضيهم لأغنياء المزارعين وأصبحوا مستأجرين من قبل هؤلاء الملاك، وهذا الاستئجار أصبح يعرف بنظام bywoners. ودخل السود في هذا النظام منذ الاكتشافات التعدينية. وبالتالي أصبحت المزارع المؤجرة للإفريقيين مصدر إمداد بالحبوب والغذاء لمناطق التعدين، وتشكل أيضاً منافساً للمنتجين البيض. والبند السادس من قانون الأراضي يصف كيف أن الصناعة جلبت مزيداً من القوة للمزارعين البيض على معظم الأرض. لهذا فإن العديد منهم رفعوا الإيجارات على bywoners، أو الرحيل عن أراضيهم. لهذا فإن العديد من العائلات البيضاء بدأت في البحث عن وظائف، فممنهم من اشتغلوا كسائقين لنقل الأطعمة الطازجة للمدن، وآخرون أصبحوا قاطعي أخشاب يمدون المدن بالوقود<sup>(59)</sup>. وتعرضت بعض المناطق الأخرى لوباء طاعون الماشية ولم تقدم الحكومة مساعدات لهم بل أفلتت حدود المستعمرات، مثل: الأورنج والترانسفال والكيب، أمام الماشية والإفريقيين حتى لا يدخل الوباء إلى تلك المناطق<sup>61</sup>. وتعرضت المنطقة طوال الـ12 سنة 1895 - 1907 للجفاف ونقص المياه، لهذا كان من الصعب على فلاحي ناتال - على سبيل المثال - أن يستمروا منتجين وأن ينمو إدراكهم في شراء أراضي شركات الأراضي وأصحاب الأملاك من البيض، لذا كان من الصعب أن يستمر نظام مزارع الكافير المؤجرة، ناهيك عن استمرار التقنيات والأساليب الزراعية القديمة التي لا تتناسب مع إطلالة القرن العشرين<sup>(60)</sup>. وتشير إحدى الوثائق إلى أن الحكومة خلال الوباء لم تقدم المساعدات للإفريقيين رغم علمها بأهمية الماشية في حياة الإفريقيين، بل إن البعثة الطبية الذاهبة إلى كيمبرلي أقرت بأنهم شاهدوا هلاك الكثير من ماشية الفلاحين والتجار الإفريقيين في طريقهم من منطقة تاوينج Tawings إلى كيمبرلي<sup>(61)</sup>. ومع أن تأثير الوباء

كان على السود أكثر من البيض إلا أن بعض الدراسات طرحت بأن عدم إتاحة الأرض أمام البيض بدأت تشكل ملمحاً رئيسياً، وأن صعوباتهم قد زادت بتخلف وسائلهم الزراعية وحلول القحط واستمرار تقسيم الأرض بالوراثة وزيادة النمو الزراعي، وشكل هذا ضغطاً على طبقة غير الملاك والمستأجرين البيض، خصوصاً أن سياسة بريطانيا خلال حرب البوير كانت إهمال مناطق الترانسفال والأورنج، مما أدى إلى تدمير المشروعات وتدهور الأراضي، والنتيجة الهروب من الريف باتجاه المدن<sup>(62)</sup>.

### ج- ضغوط كبار الملاك والفقراء البيض بعد حرب البوير :

ازدادت الفوضى خلال حرب البوير، وترك العديد من البيض مزارعهم ولجأوا إلى أقربائهم في المناطق الأخرى، وبالتالي تركوا الأراضي ليسيطر عليها السود بنظام المزارعة. وبنهاية الحرب أصبح هذا النظام غير مرغوب فيه، مع أن المناطق الغربية والجنوبية في الأورنج الحرة لا تعرف هذا النظام، لذا فإن قاطنيها كانوا من أشد السود فقراً. وبعودة البوير بعد الحرب شكلت مسألة الأرض عبئاً ثقيلاً على السود والبوير على السواء، وحالة البوير المادية لم تسمح لهم بتقديم أموال للسود تمكنهم من الحياة. وبالتالي عاد الكثير من البوير إلى حياة الصيد، ناهيك عن استيلاء البريطانيين على المزارع، وأن ما بين 600 - 700 مزرعة استولى عليها الناطقون بالإنجليزية مما تسبب في ارتفاع أسعار الأرض بصورة كبيرة، لهذا رغب عدد من البيض في بيع أراضيهم لقلّة رأس المال الذي يقيم الزراعة، وتحولت نسبة كبيرة من مستثمري ناتال الناطقين بالإنجليزية لشراء الأرض في الأورنج الحرة، وأصبحت كثير من الأراضي مراعي صيفية لمزارعي ناتال<sup>(63)</sup>. وجاءت حرب البوير ودمرت معظم bowners الذين تركوا مزارعهم، هذا بالإضافة إلى أن القوات البريطانية أحرقت منازل المزارعين الأفريكانرز في الترانسفال، ووضعت عائلاتهم في معسكرات اعتقال، بالتالي أصبح حوالي 10.000 بويري بعد الحرب ليست لديهم أية أراضي يعودون إليها، لهذا تحركوا إلى المدن<sup>(64)</sup> وانتهت حرب البوير إلى الحاجة إلى العامل الإفريقي الذي هرب من مناطق البيض نتيجة الحرب الدائرة، ونشأت الحاجة إلى توطين الإفريقيين في أماكن بعيداً عن قبائلهم من خلال طرح سيسل رودس لها سنة 1900 وتدعيمها من قبل أبي بيلي<sup>\*</sup> Abe Bailey، ففي خطاب منه لردوس في 11 يوليو

1900 يقول له: " بأنه سيرحل إلى الشمال لبحث إمكانية شراء أراضٍ كمستوطنات " (65). وفي تقديرى أن تلك المشروعات لا تتسق مع الخدمات التى قدمها الإفريقيون خلال الحرب، ولكن يمكن تفسير مسألة نمو طبقة الملاك وتزايد أعداد واضعى اليد إلى أن البريطانيين غضوا الطرف عن الإفريقيين نتيجة مساعداتهم ، وهو الأمر الذى جعلهم مستهدفين من قبل البوير بعد انتهاء الحرب .

وفى ضوء ذلك كان الإفريقيون يعانون من زيادة الضرائب، فقد كانوا مشاركين مهمين فى دخل الحكومة من الضرائب . وفى عريضتهم لتشمبرلين يقترحون عقد مؤتمر بخصوص مسألة العمل لفحص أحوال الإفريقيين عبر جنوب إفريقيا (66). وكان قانون المواقع لسنة 1899 قد صدر مؤسساً لمواقع خاصة بنظام الملكية، ثم صدرت لائحة مواقع المعازل الوطنية، لهذا تشير المصادر إلى أن الإفريقيين كانت لهم أملاك فى المناطق البيضاء فى بداية القرن (67). هذا بالإضافة إلى أن حرب البوير كانت لها تأثيرات اقتصادية على الإفريقيين وعلى البيض، سواء فى تدمير المزارع أو عبر انتشار الأمراض التى أصابت المزارع والحيوانات، ثم فى تكلفة الحرب ومحاوله السيطرة على المحصول لسد أود القوات البريطانية (68). ويلاحظ أثر ذلك -على سبيل المثال- فى الأورنج الحرة حيث كان الأفارقة البارولنج استثناءً ، فإذا أراد أحدهم أن يشتري مزرعة يمكنه الحصول عليها بعد موافقة الرئيس، لكن مع دخول القوات البريطانية سنة 1900 رفض الحاكم العام الاستجابة لمناشدات أى إفريقى يلتمس شراء مزرعة، فكان دائماً يجب بأنه ليست لديه السلطة لخرق القانون، فى حين استمرت عملية بيع الأراضى من السود للبيض دون أدنى مشكلة، وبالتالي انحصرت المشكلة فى البيع من الأبيض إلى الأسود أو حتى من الأسود إلى الأسود (69).

د- زيادة أعداد الإفريقيين المستفيدين من نظم حيازة الأرض :

بالنسبة للملاك فلم تكن هناك تشريعات حتى نهاية القرن 19 تحرم الإفريقيين من شراء الأراضى فى ناتال أو الكيب أو الترانسفال. أما فى الأورنج فقد حرموا من هذا الحق، وبالتالي تحددت ملكية الإفريقيين بناء على قدرتهم على الشراء، وكان الإقبال على الشراء ضعيفاً للغاية (70) والسؤال المطروح هو: لماذا لجأت الحكومة إلى تحطيم طبقة الملاك

الإفريقيين رغم النجاح الذي حققته، وإثباتهم قدرة الإفريقي على اقتناص أى فرصة للمنافسة وإثبات الجدارة؟ فالتحول حدث خلال حرب البوير فقد رفع فقراء البيض وطبقة غير الملاك من الأفريكانرز السلاح في وجه أقربائهم، أملاً في مكافأتهم في الحصول على الأراضي . وكان تدمير المزارع والحيوانات خلال الحرب قد نقل ملاك الأرض البيض من حالة اليسر إلى حالة الفقر، وحولت الحرب الكثير من المزارعين البيض إلى مفلسين ، ولهذا كان السوق مفتوحاً أمام الإفريقيين لشراء الأراضي مما أدى إلى زيادة أعداد الملاك . ولكنهم فشلوا لأن الحكومة البريطانية اشترت الأراضي ووطنت عليها طبقة غير الملاك من الأفريكانرز الذين انضموا إليها. وتشدت في منع الملكية وشراء الأرض، وقصرت تلك العملية على الرجل الأبيض ، ولم يقبل المجتمع الإفريقي بهذا الوضع حيث كونت الكنائس المستقلة شركات مساهمة وحاولت شراء الأراضي لنفسها، ولكن قوبل هذا بالرفض من جانب البيض<sup>(71)</sup>. وبالتالي فإن كسر طبقة الملاك الإفريقيين كان الخطوة الأولى لصالح الفقراء البيض المتضررين من الحرب في جانب ، وكان انحيازاً لكبار الملاك المتضررين من نظام المزارعة على الجانب الآخر .

وقد أصبحت عملية الإنتاج وتوزيع وتسويق الأغذية في بداية القرن العشرين عملية اقتصادية كبيرة، وأتيحت فرص قليلة للإفريقيين أن ينافسوا من خلال استئجار الأرض. ورغم الضغوط استطاعت مجموعة قليلة أن تواصل إنتاجها من أجل التسويق، وفي بعض أجزاء الهايفلد ظل عدد من الإفريقيين يملكون أراضيهم ، ومنهم من ظل يستأجرها حتى الأربعينيات فيما بعد. ومع ذلك استمرت معظم الملكيات الفردية متمركزة في الكيب ، حيث كان الزعماء يجمعون التبرعات من أبنائهم لشراء الأرض وتخصيصها<sup>(72)</sup>. وهناك رسائل لوزارة المستعمرات البريطانية تشير إلى أن الإفريقيين في كيمبرلي كانوا يتضررون بالشكوى من إفريقيين آخرين نزلوا مناطقهم هرباً من صحراء كلهارى على حدود المستعمرة الألمانية في إفريقيا الجنوبية الغربية، واحتلوا بعض أراضيهم وقتلوا منهم بعض الأفراد وسرقوا ماشيتهم خلال الفترة 1900 - 1903<sup>(73)</sup>. هذا بالإضافة إلى أنه طبقاً لشروط خضوع بوندولاند السلمى - وحسب وعود الحكومة - تقرر بأنه لا يتم أخذ أى شيء من أراضيهم ليعطى للبيض، ومع ذلك حدث في سنة 1902 أن حل البيض محل السود في بعض المناطق حسب الإعلان 136 لسنة 1902<sup>(74)</sup>.

وبالنسبة لنظام المزارعة فرغم أن البيض هم ملاك الأراضي، إلا أن غالبيتهم تركوها للإفريقيين بطريقة الدفع العيني . وبهذه الطريقة فإن ملكية البيض للأراضي في معظم الأحيان تطورت إلى مكانة اجتماعية كاذبة، وكانت مصالح الملاك البيض تضغط للتحكم والسيطرة على الأرض، في حين كانت المصلحة الفردية للمزارع الأبيض تضغط لتأجير الأراضي أو بيعها للفلاحين الإفريقيين المنتجين، وبالتالي فإن صراع المصالح كان مشكلة قاسية للمشرعين الأفريكانرز في البداية . وبطريقة ما فإن التعامل مع التهديد كان يعنى سن قوانين تمنع وتضع صعوبات في عملية زراعة الكافير، وتمنع أيضا تحويل الأرض للإفريقيين<sup>(75)</sup> . ومع بداية القرن العشرين وبعد سلسلة من الحروب والصدمات أصبحت كثير من القبائل تقيم على أراضي البيض وتعمل بنظام المزارعة أو كعمالة مستأجرة<sup>(76)</sup> . ولم تكن العمالة هدفاً لهجوم البيض ، في حين كان من يعملون بنظام المزارعة هم الذين انصب عليهم الهجوم بغرض تحويلهم لعمال ، وفي تقديري أن العمالة الإفريقية كانت هي المتغنى من وراء أية سياسة تتعلق بالأراضي .

وبالنسبة لوضع اليد والاستئجار ، فقد وضع عدد من المهاجرين أيديهم على أراضي "الدولة" . وقضت الحكومة دفع إيجار سنوى ، ومنذ سنة 1903 كان مقداره 40 سنتاً لكل كوخ في ناتال، ومن 20-30 سنتاً في الترانسفال، ولم يكن لوضع اليد حق الملكية، بل ربما يجبر المستأجرون على ترك تلك المناطق بناء على ملحوظة صغيرة، وقدرت المساحة المأهولة في ناتال بـ مليون آكر، وفي الترانسفال بـ 3 مليون آكر، وكانت الأعداد قليلة في الكيب . أما في الأورنج الحرة فلم يكن مسموحاً بالسكن على أراضي حكومية دون تصريح مكتوب من الحاكم<sup>(77)</sup> ، وبرز نظام وضع اليد في الترانسفال والكيب ليرضى طموحات غير الملاك الذين زادت أعدادهم، وذلك لضعف الإقبال على شراء الأرض . وبالتأكيد فإن ضغوط وضع اليد على الأراضي الحكومية لا تظهر في بعض المناطق، فقد كانت هناك إمكانية لتحديدها وتجميعها . وكان لابد من اتخاذ سياسات لتحويل هؤلاء إلى عمال، فقد كان البيض يفضلون خدمات عمل معينة<sup>8</sup> ، لكن ما يفضله البيض لا يرضى طموحات السود ، بالتالى ظل نظام وضع اليد والمزارعة يتمدد وينتشر في شمال الترانسفال من خلال الشركات التى تمتلك مساحات كبيرة من الأراضي، وظل نظام التعاقد بين الشركة والمواطن بإيجار سنوى ورسوم رعى إضافية . وظلت توجد حالات قليلة بنظام المستأجرين في مختلف أجزاء الكيب وناتال والترانسفال<sup>(78)</sup> .

وبقى نظام المزارعة والاستئجار ووضع اليد لا يرضى طموحات الملاك البيض، حيث آمنوا بأن بقاء مثل هذه الأنظمة سيؤثر على مستقبل البيض في جنوب إفريقيا، لهذا لم يكن غريباً أن تصبح مسألة الأرض مسألة تشريعية في معظم أجزاء المستعمرات. ففي الكيب كان لا يمكن تأسيس أى موقع دون ترخيص يحدد سنوياً برسوم يدفعها المستأجر الإفريقي. وفي الترانسفال لم يكن هناك إلا خمس عائلات سمح لها بالإقامة على أساس الملكية الفردية، وهذا تم تغييره من خلال اللجنة الداخلية بعد حرب البوير، حيث أصبحت مسألة الأرض أكثر أهمية<sup>(79)</sup>. وبعد انتهاء حرب البوير تبنى اللورد ملنر برنامجاً سياسياً واجتماعياً لإعادة بناء وتطوير الأرياف في جنوب إفريقيا بهدف مساعدة المزارعين والفلاحين البيض - خصوصاً الأفريكانرز - وطرد المستأجرين السود من الأرياف البيضاء، وتوفير رأس المال لتطوير تلك الأرياف، وإنهاء العلاقات القديمة من مشاركة وقوة اقتصادية، وبناء علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة على أساس الأرض<sup>(80)</sup>.

ويشير البعض إلى أن مصطلح "مناطق الوطنيين" أصبح معروفاً منذ زيادة الاهتمام بمسألة الأرض واحتلالها<sup>(81)</sup>. وارتفع في هذه الفترة شعار ضد البيض وضد المسيحية بين الإفريقيين خوفاً من فقدان الأرض، واستمر هذا الشعار مرفوعاً حتى صدور قانون الأرض لسنة 1913<sup>(82)</sup>. ومع ذلك استمرت البعثات التبشيرية الموجودة تلعب دوراً مهماً في ترقية تقاليد الكيب الليبرالية حيث لعبوا دوراً وسيطاً من خلال الرأسمالية التجارية في الكيب، والتي ارتبطت بفلاحي شرقي الكيب منذ خمسينات وحتى ثمانينيات القرن التاسع عشر، ولكن الثورة التعدينية جعلت الحكومة تصب غضبها في التسعينيات وزادت ضغوطها منذ بداية القرن العشرين. ومع ذلك استمرت البعثات تلعب دوراً في التواصل، وخلال عملية التوفيق هذه، خلق ما يسمى "بمشكلة الوطنيين"، فقد كان المبشرون يشجعون الحرية في المجال الاقتصادي والاجتماعي، وتداولت أفكار تطوير الإنتاج الزراعي للفلاحين الإفريقيين بإدخال المحاصيل النقدية، مع أن الاتجاه الغالب كان يسير لتدمير اقتصادهم<sup>(83)</sup>. وكانت الأمور كلها تصب في تكوين لجنة الشؤون الوطنية، والتي استمر عملها منذ سنة 1903 إلى سنة 1905، وبالتالي ركزت على مسألة الأرض كقضية محورية لما سمي بمشكلة الوطنيين، وهذا ما سنتناوله تباعاً في النقطة التالية.

#### رابعاً - لجنة الشؤون الوطنية وتطور سياسات الأرض :

عرفنا فيما سبق كيف أن كل المجتمعات في جنوب إفريقيا أصبحت تضج بالشكوى من موضوع واحد، ألا وهو الأرض، واختلف مضمون الشكوى لدى تلك المجتمعات حسب المناطق، فالبعض لا يرضيهم ما تحصلوا عليه من أراضٍ، وآخرون لا يرضيهم منافسة الإفريقيين لهم في الإنتاج، وهناك فصيل لا يرضى عن النظم السائدة في حيازة الأرض، لهذا كانت هناك حاجة ماسة لتشكيل لجنة لتقييم مسألة الأرض الإفريقية برمتها، ثم كتابة تقرير عما توصلت إليه من نتائج، مع الأخذ في الاعتبار بأنه في ذات الوقت الذي تشكلت فيه اللجنة، كانت هيئة توطين الأراضى الخاصة بالبيض تؤدي دورها بدعم ومساندة السلطات الحكومية البيضاء ومساءلة البرلمان البريطانى، وستعرض في ثنايا هذه النقطة لهيئة توطين البيض كأداة ضغط على عمل اللجنة . وحتى نفهم ذلك سنتحدث عن تشكيل لجنة الشؤون الوطنية وقراراتها، ثم نتعرض لاحتجاجات الإفريقيين على قراراتها، وننتهى بمحاولة لرصد تطور سياسات الأرض تجاه الإفريقيين حتى اتحاد جنوب إفريقيا .

#### أ- تشكيل اللجنة ومناقشة مسألة الأرض :

بناء على خطة اللورد ملنر تم تشكيل لجنة الشؤون الوطنية لجنوب إفريقيا South African Native Affairs Commission وذلك في مؤتمر حكومى سنة 1903، وكان الغرض منها الوصول إلى اتفاق عبر الوحدات الأربع ( الرأس و ناتال والترا نسفال والأورنج الحرة ) حول المسائل الإفريقية<sup>(84)</sup>، وكان رئيسها جودفرى لاجدن Godfrey Lagden وتضم مأمور الشؤون الوطنية، وكل أعضائها تقريباً من الناطقين بالإنجليزية من الذين يمثلون الآراء التقدمية بشأن الوطنيين . ووصفوا من قبل برلمان الكيب بأنهم "مؤيدو الرجال الوطنيين"<sup>(85)</sup>. وتكونت اللجنة بسبب ضغوط الرأسمالين البيض، الذين كانوا على رأس المؤيدين للعنصرية لحماية مصالحهم، وأقنعوا اللورد ملنر وموظفيه بأن واضعى اليد الإفريقيين إذا استمروا على الأرض البيضاء فإنهم في هذه الحالة سيحرمونهم من الإنتاج التسويقي الكبير، وأنه لا بد من تحويلهم إلى فئات تخدم في الأرض<sup>(86)</sup>. ووثيقة اللجنة التنفيذية لمؤتمر جنوب إفريقيا للسكان الأصليين التى صدرت

سنة 1903 تنفى بأن الضغوط على الأرض جاءت لإلزام الإفريقيين بالخروج للعمل، حيث قُدمت عريضة إلى جوزيف تشمبرلين تحمل توقيع المؤتمر بخصوص مسأله العمل، أعلنوا فيها بأنهم لديهم الكفاية والاستعداد لتلبية مطالب الدولة فيما يتطلب منهم من عمل، وأن التقدم سيحدث بمساعدة العمال الوطنيين بأى شكل كان، وأن الإفريقيين تعودوا الطاعة تحت قيادة زعمائهم وشيوخهم، وأنه لا بد من تغيير الأسلوب الهمجي إلى الأسلوب المتحضر لزيادة الأعداد التي تخرج سنوياً للعمل<sup>(87)</sup>. إذن كان الاعتراض على الأسلوب الهمجي في إخراجهم من أراضيهم للعمل - رغم زيادة الضرائب لدفعهم لترك تلك الأراضي - مما يدل على أن الحكومة استخدمت القوة لإجبار الإفريقيين باتجاه العمل في المناجم.

واسترسلت الوثيقة بأن التحضر الأبيض أفسد اقتصاد الأرض، وكان من المنتظر أن يخرج العمال والموظفين من الطاعة القبلية إلى الفردية. وأنه لا بد من ترقية التعاون الإداري والتوفيق بين رغبة أصحاب العمل في عمالة رخيصة، ورغبة العمال في رفع أجورهم لتتفق مع ظروف الحياة<sup>(88)</sup>. وفي ذات الوقت الذي تم تشكيل لجنة الشئون الوطنية كانت هيئة تسوية الأراضي Land Settlement Department تقوم بمهمتها التي أدخلت إليها بعد انتهاء حرب البوير، وهي توطين البيض ومساعدتهم في الحصول على أراضي زراعية. وتشير إحدى الوثائق إلى أن الهيئة كانت مهمتها تلقي طلبات الراغبين في الحصول على الأرض، وكان الشخص الأبيض يقدم طلباً للحصول على مزرعة حكومية، ويقوم بملا استثماره يوضح فيها اسمه وعنوانه وجنسيته والخبرة الزراعية السابقة والقسط الذي يرغب في دفعه، ويحدد ما إذا كان يرغب في الشراء أو التأجير، ومثال ذلك الوثيقة التي تحمل توقيع السيد وليم دوجلاس بتاريخ 1903/6/29<sup>(89)</sup>. وهذا يدل على وقوف الدولة لمساعدة البيض في الحصول على الأرض عكس التعتن الذي يواجهه السود.

وكانت لجنة الشئون الوطنية قد تكفلت بمهمة سؤال الإفريقيين حول مسألة الأرض، ولذا قابلت أعضاء الجمعية الأهلية الوطنية للأورنج، وظهر من خلال استجواب الإفريقيين بأن تركيز اللجنة انصب على مسألة الأرض، وأن إجابة الإفريقيين

انحصرت معظمها في أنهم ليس لهم حق شراء الأرض في هذا القطر، وأنهم يرغبون في أن تسمح لهم الحكومة بهذا الحق، وأنهم كسود يملكون في المستعمرات القديمة سواء في الكيب وناتال، وأنهم يودون حق الشراء في المستعمرات الأخرى . وأن العبيد فقط هم الذين ليس من حقهم الشراء، وأنهم ممنوعون من حق التملك في المدن، وفي حالة شراء أحدهم فإن الشرطة تتدخل وتمنع ذلك . وأن رغبة أي إنسان في الحصول على قطعة أرض سواء في المدن أو في المزارع . ولا بد لنا في هذا المقام أن نترك الوثائق لتعرض نماذج من حوارات اللجنة مع الإفريقيين، لمحاولة فهم ما هو الدافع الذي يقف خلف هذه الأسئلة، فقد سُئل أحدهم -وهو مبيلا Mpela: هل أنت على علم بأن غالبية الإفريقيين في جنوب إفريقيا تعيش تحت ما يسمى " بنظام الملكية الجماعية؟"، فأجاب: نعم، فسُئل: هل ترى أي خضوع في ظل هذا النظام ؟ فأجاب: نحن نعتبر ذلك نوعاً من الرق، فكل رجل له الحق أن يستمر على أرضه، ولكن مجلس المدينة يضع قوانين تؤثر حتى في زوجاتنا لأننا نعيش على هذه الأرض. فسُئل مرة أخرى: هل ترغب في قانون جديد يتيح الفرصة أمام شراء الأراضي؟ . فأجاب: نعم. وهل ترغب أن يكون على شاكلة القانون الذي يطبق على الأوربيين؟ فأجاب: نعم . وبكافة أساليبه؟ فأجاب: نعم هذه رغبتنا أن يكون مثل القانون الأوربي في تملك وشراء الأرض<sup>(90)</sup> . وفي تقديري يعتبر هذا تطوراً في إحساس الإفريقيين بقيمة الأرض ، حيث عبروا صراحة أمام اللجنة عن رغبتهم في التملك في المزارع والمدن البيضاء وألا يكون هذا الأمر مقصوراً على البيض فقط .

وهذا يدل على رغبة الإفريقيين الحقيقية في الملكية الفردية وأنهم لا يخشون المنافسة من البيض، عكس ما يتردد بأن البيض هم الذين أدخلوا الملكية الفردية رغماً عن الإفريقيين . فالوثيقة تشرح بأن قطاعاً كبيراً من الإفريقيين، خصوصاً طبقة الملاك، كانوا على رأس المطالبين بفتح الطريق أمامهم لشراء الأرض . وتشير الوثيقة أيضاً إلى أن مبيلا سُئل مرة أخرى: هل تقترح بأن تلغى كل القوانين القديمة بما فيها تلك التي يحافظ عليها الوطنيون في المعازل؟ فأجاب: نحن لا نمثل طبقة من الأفراد تود أن تعيش في الوثنية والظلام، ولكننا نرغب في التطور والتخلص من كل القوانين السابقة، وأن نكون خاضعين لقانون واحد يحكمنا جميعاً وهو القانون البريطاني . فسُئل مرة أخرى: كم من الناس تمثل؟ فأجاب: نحن نمثل ما يمكن تسميته بالمتقنين، ولا نمثل هؤلاء الذين يعيشون تحت ظل

القانون الوطني، بل نحتكم لقوانين الكنيسة فهي التي تحكم الأفراد المتحضرين . فُسئِل: هل يعنى هذا أن هناك نوعين من القوانين ، قانون يحكم المثقفين، وآخر يحكم غير المثقفين؟ فأجاب: نعم لأنه ليس من العدالة التعبير عن أولئك الذين ما زالوا غير متحضرين، لذا يجب أن نأخذ بيدهم ليصبحوا متحضرين<sup>(91)</sup>. ويتضح من ذلك أن قطاعاً من المثقفين هم الذين يقودون عملية التنوير وأنهم يسعون صراحة للملكية الفردية وأن تتاح أمامهم عملية الشراء ، وبدا هذا التيار يعبر عن أفكاره بكل وضوح ، مستقلاً عن الزعامات وأولئك الذين يقبعون داخل التقاليد القبلية .

ولم يقتصر الأمر على قادة الأورنج الحرة ، بل إن لجنة الشؤون الوطنية قابلت أفارقة من كل الأقاليم ، وظهر واضحاً أن التعليم والاختلاط بالأوروبيين ودور الطبقة المستفيدة من الأرض كان واضحاً من خلال الإجابة على أسئلة اللجنة ، فقد أشارت إحدى الوثائق لإجابة مارتين لوتولى Martin Lutli، عضو لجنة ناتال الوطنية، على سؤال عما إذا كانت رغبة الحصول على أرض موجودة عند الوطنيين وهل لديهم القدرة على الشراء ؟ بأن العديد من الوطنيين يرغبون في شراء الأرض وأن كل فرد يرغب في أن تكون له أملاك خاصة به . وكرر عليه المستجوب: هل يحبون شراء الأرض؟ فأجاب: نعم، فُسئِل: يعنى بأنكم ترغبون في شراء الأرض في المدن وخارج المدن؟ فأجاب: في كل مكان نريد الشراء. فُسئِل: وهل منعتهم من شراء الأرض؟ فأجاب: لا لم نمنع، ولكن في بعض الأماكن لم يسمح لنا بالشراء كما في ايشوى Eshowe، حيث مرر قانون يمنع الوطنيين من الحصول على أراضٍ فيها، فُسئِل: في زولولاندا؟ نعم في زولولاندا، نحن ننظر إلى زولولاندا بأنها أرضنا رغم أنها الآن تحت يد الحكومة، ولكن لا يمكن أن نمنع فيها من الشراء . فُسئِل وهل ترغبون في شراء أراض داخل المدن؟ فأجاب: نعم . فُسئِل: وهل هو مسموح بذلك؟ فأجاب: نعم مسموح لنا بذلك<sup>(92)</sup> ومما سبق يتضح لنا أن مسألة الملكية كانت متاحة أمام الإفريقيين في ناتال، وأن رغبتهم في الشراء كانت موجودة، مما يدل على أن الإفريقيين كانوا يعلنون صراحة برغبتهم في شراء الأرض مما جعل الخوف يدب في صدور البيض . ولهذا فإن مراجعة أسئلة اللجنة والإجابات عليها تعد أمراً هاماً لتتعرف على ماهية الأفكار التي كانت تدور داخل عقول صانعي القرار الحكومي، وما الذي كانت تود الحكومة معرفته من خلال طرحها لتلك الأسئلة، وهل قادت إجابات

الإفريقيين لسياسات ضدهم فيما بعد، خصوصاً إذا حللنا قانون الأراضي لسنة 1913، وهو ما سنقوم بعمله في دراسة تالية بمشيئة الله تعالى .

ومن خلال الوثيقة نفسها يمكن أن نستشف رؤية مغايرة، فإجابة مارتين لوتولى حول سؤال: هل يفضل نظام المواقع الحالى والملكية الجماعية تحت قيادة الزعماء؟ فأجاب: نعم، فسُئل: هل تفضل ذلك الآن؟ فأجاب: نعم حتى في الوقت الحالى، ولكن ليس الدوام، فأنا أقترح أن كل شخص يجب أن يمتلك قطعة صغيرة ويعرف أين تكون، لأن المستقبل ملء بالمشاكل وتتحوف أن تقوم الحكومة ببيعها، وأن الأوروبيين سيتمكنون من شراء جميع الأرض وما عليها من الوطنيين أيضاً، ولا نجد مكاناً لتعيش فيه. فسئل: ماذا تعرف عن الملكية الفردية؟ فأجاب باندهاش: الملكية الفردية؟ بمعنى أنه يمكن لأى وطنى الحق في امتلاك قطعة أرض إذا استطاع؟ بمعنى هل تتاح حرية التملك له؟ فأجاب: بأى طريقة حسنة تفكر الحكومة، ولكن عليها أن تتأكد أن تكون الملكية الفردية له ولأبناء قبيلته. فسئل: هل تسمح له بأن يشتريها؟ فسأل هو: هل تسمح له الحكومة أن يبيعها؟ فأجاب أنا لا أسمح له بأن يشتريها. فسئل هل الحكومة يجب أن تمنع البيع؟ فأجاب: نعم؟ فسئل: حتى للوطنيين؟ فأجاب: حتى للوطنيين الآخرين، حيث يجب أن تتأكد من أن الملكية الفردية له ولأبناء قبيلته! فسئل: هل يجب أن تنتقل فقط من الأب لابن؟ فأجاب: نعم من الأب للأبناء<sup>(93)</sup>. وفي تقديري أن هذه الردود تعتبر تحيزاً قليلاً للملكية الفردية، بمعنى أن الأرض لا تخضع للمضاربة، وأن أى فرد سواء أبيض أو غير أبيض له حق الشراء والبيع، وبالتالي كانت إجابته تحمل تحوفاً من عدم قدرة الإفريقيين على الشراء، وتحوفاً من إمكانية شراء أراضي قبيلتهم بواسطة أفارقة آخرين .

وإيرادنا لبعض نصوص الأسئلة والإجابات - عبر الوثائق - لمحاولة قراءة أفكار الحكومة، ثم تبيان نظرة الإفريقيين للأرض، فإجابات مارتين لوتولى الأخرى تطرح بأنه يفضل الملكية الفردية في ظل إشراف الزعماء مع أن بعضهم يجبون أن تكون الأرض خالصة لهم جسعاً وطمعاً. ولما سُئل: هل تعتقد أن الوطنيين في ناتال ككل يجبون مثل هذا التغيير؟ فأجاب: إنه لو فتح أمامهم هذا الطريق فسوف يرحبون به<sup>(94)</sup>. ويلاحظ من الوثيقة السابقة أن لب الحوار يدور حول مسألة الأرض، وكيف أن الإفريقيين متعلقون

بها، وأنهم لا يخشون الملكية الفردية بل يرغبون فيها، ويرغبون في المحافظة على أراضي قبائلهم، وأن جشع بعض الزعماء أدى إلى استمرار الأوضاع كما هي عليه .

ولم يقتصر الأمر على الأورنج وناتال بل امتد عمل اللجنة إلى الكيب وبريتوريا، فأحدى الوثائق تتحدث عن مقابلة لجنة الشئون الوطنية لثلاثة أعضاء من الكنيسة الأنثوية الكاثوليكية في بريتوريا، وأيضا طرحوا معهم مسألة الأرض<sup>(95)</sup>. وكان الإفريقيون خلال مقابلتهم للجنة قد اشتكوا بأن وضع الضرائب لم يكن كذلك خارج القطر، لأن هؤلاء حينما كانوا يدفعون ضرائب كانت لديهم أراضي للزراعة<sup>(96)</sup> وكانت اللجنة على دراية بأن الحالة الاقتصادية في الترانسفال والأورنج الحرة متردية، وبالتالي فإن مطالب الإفريقيين في الحصول على أرض أو شراء الأرض لن يتم الاستماع لها<sup>(97)</sup>. بل تعالت شكاوى الوطنيين من رفع ضريبة الكوخ وارتفاع عدد الذين تم توطينهم من البيض على حساب أراضيهم، حيث لعبت فروع هيئة تسوية الأراضي دوراً كبيراً في انتزاع الأرض من الإفريقيين، وإحلال البيض محلهم<sup>(98)</sup>. وخلال عمل اللجنة كان هناك تشدد من قبل البرلمان البريطاني واستفسارات من قبل النواب عن الخطوات التي اتخذت منذ ضم الترانسفال والأورنج الحرة منذ سنة 1900، وعن الأراضي والمشروعات الزراعية التي خصصت للمناطق بالإنجليزية. وكانت الإجابة التي تلقاها النائب، الذي أثار الأسئلة السابقة، من قبل المسئول الحكومي بأنه يأسف الآن لعدم وجود معلومات تفصيلية عما طلبه العضو. لكن آخر تقرير فيما يختص بتوطين الأرض - طبع وقدم للبرلمان - يتعلق بحوالي مابين 2.482 - 3.563، وأنه حتى 30 يونيو 1905 كان هناك 2.200.000 جنيه أنفقت في مسألة توطين الأرض في الترانسفال والأورنج، وأن الأرض التي تم طلبها في الأورنج الحرة 1.00.000 أكر بتكلفة 850.000، وحصلت عليها 700 عائلة في ظل مرسوم التوطين Settler's Ordinance، وتقريباً هناك 1.000.000 أكر أخرى بيعت بتكلفة 500.000 في الترانسفال. ورد المستفسر بأن الأرقام التي ذكرها المسئول خاصة بالترانسفال، لهذا أجاب المسئول بأنه سيعود إلى التفاصيل مرة أخرى ويتأكد من المعلومات<sup>(99)</sup>، وهذا يعنى أهمية مشروع توطين الأرض للبيض، وأنه يشكل ضغطاً إضافية على اللجنة ويؤثر في قراراتها، في حين لم تشر مناقشات البرلمان البريطاني إلى مشاكل الفلاح الإفريقي، أو تثير مسألة نقص الأرض التي يعاني منها الإفريقيون .

وكانت مسألة توطين الأرض دائماً مصدر نقاش البرلمان البريطانى، ولم يقتصر الأمر على الاستفسار عن أعداد الذين تم توطينهم، بل جرت استفسارات عن المبالغ المخصصة، فأحدى الأوراق البرلمانية تشير إلى ضرورة تخصيص مبلغ من المال لتوطين عدد أكبر من المستوطنين، خصوصاً فى مشروعات الترانسفال الزراعية . واستفسر أحد الأعضاء عن المبلغ الذى أنفق والعدد الذى تم توطينه ومساحة الأفدنة التى تم استصلاحها، لكنه لم يتلق أية إجابة وطُلب منه الانتظار للرجوع للتفاصيل<sup>(100)</sup>، وبالتالي كانت قضايا الإفريقيين غائبة بالمرّة عن المناقشات البرلمانية ، ولكن لم يعدم الإفريقيون من وسيلة للتعبير عن شكواهم عبر الالتماسات، كالالتماس الذى قدم للملك إدوارد الخامس Edward VLL بإلغاء القانون الخاص بمنع الوطينين من شراء الأرض والتملك فى مستعمرة الترانسفال<sup>(101)</sup>، وبالتالي فإن توافق عمل لجنة الشؤون الوطنية مع عمل هيئة تسوية الأراضي قد فرض بأن تكون مسألة الأرض هى لب مسألة الصراع، وهذا يفسر بأنه رغم فشل تطبيق سياسات الأرض التى قالت بها اللجنة حتى قيام الاتحاد، إلا أن مسألة الأرض كانت على رأس الموضوعات التى ناقشها برلمان الاتحاد فيما بعد .

#### ب- تقرير اللجنة وتوصياتها :

صدر تقرير لجنة الشؤون الوطنية سنة 1905 وفى ديباجته: " أنه آن الوقت الذى تخصص فيه الأرض كجزء من المواقع أو المعازل، وأنه لا بد أن يتم تحديد ذلك، وأن تجزى للوطنيين من خلال قانون يسن لهذا الغرض، وأنه لا بد من وضع شروط أراضي خاصة بالوطنيين ، بحيث لا يتم وضع يد الإفريقيين على أية أراضي أخرى " . وتم التشديد من جانب اللجنة على مسألة الملكية الفردية وضرورة أن يكون الفرد مالكاً على الأقل 4 مورجن (8 أكر مثلاً أوصى بذلك قانون جلين جراى)، وإذا كانت الملكية أقل من ذلك يتم تحويل الملكية لآخرين . وبالتالي تحققت الفوائد التى أرادتها قوى الإنتاج البيضاء المتصارعة ، فالتجار يريدون الحفاظ على السود فى المعازل حتى لا يفقدوا الأسواق التى اعتادوا أرباحها، وأصحاب المناجم يريدون الأيدي العاملة. أما المزارعون فيرغبون فى عدم منافسة السود لهم<sup>(102)</sup>، ولم تستجب اللجنة للشكاوى التى قدمها الإفريقيون بخصوص مسألة نقص الأرض<sup>(103)</sup>، وهاجم كومنج W.G.Cumming (سكرتير وزارة

الشئون الوطنية) اللجنة وأنكر حق الإفريقيين في التملك في الحضر، خاصة مع فشل قانون المواقع السابق، وقاد هذا لصدور قانون مواقع المعازل الوطنية المعدل لسنة 1905، والذي سمح بتوسيع المواقع الحضرية وسمح بالاستئجار وعمالة المزارع، ولهذا هبت الطبقة المتوسطة الحضرية الإفريقية تدافع عن حق الملكية في المدن<sup>(104)</sup>، خصوصاً بعدما صدرت عدة تقارير تشير إلى زيادة نسبة الوفيات من الوطنيين في مناجم الترانسفال منذ سنة 1903، وبالتالي كانت مهمتها المحافظة على الأراضي المملوكة، بل والمطالبة بالحصول على أراضي جديدة للتخلص من الزحام لقلة الأرض المتاحة<sup>(105)</sup>.

وأوصى تقرير اللجنة أيضاً بالفصل في سياسة شغل الأرض والملكية على أسس ثابتة، وأنه لا بد من تأسيس كيانات منفصلة للأصوات الإفريقية، وأن يتم فصل الأراضي الإفريقية عن الأراضي البيضاء، وأن تنشأ مدن للرجل الأسود<sup>(106)</sup>، وركزت اللجنة على التغييرات الاقتصادية. ففي المناطق البيضاء أدت التغييرات إلى وجود ما يسمى بالفقراء البيض. وقالت اللجنة بوجود غالبية من الفقراء السود، وأن المعازل تعاني من الزحام والإنتاج القليل، وأن وجود البيض والسود في المدن يهدد عقيدة العزل، سواء في شكلها الإقليمي أو الاجتماعي، خصوصاً بعدما تمكن السود من شراء الأرض خارج المعازل<sup>(107)</sup>. وقالت اللجنة بخصوص مسألة وضع اليد بأن هذا الأمر مضر لكل العناصر، حيث يشجع على وصول الشرور للأراضي الغائب عنها ملاكها في جانب، ويمنع التقدم عن الوطنيين من خلال عدم استحوادهم على الأرض على الجانب الآخر، ناهيك بأن هذا النظام يحدّد توفير العمالة - التي هي ضرورية - من خلال حصولهم على الأرض واستفادتهم منها في ظل غياب عملية ضبطهم<sup>(108)</sup>. وقالت اللجنة بأن الوطني خارج المعازل يعيش دون حماية السلطات الموجودة في المناطق الوطنية - تقصد غياب الزعامة - لهذا فإن معظم المستعمرات في جنوب إفريقيا حددت عدد العائلات الوطنية لكل مزرعة عادة من 3-5 أفراد باعتبار أنها مطلوبة للعمل. وقالت بأن عدد واضعي اليد في الكيب ترسخ من خلال لجنة المواقع Location Oxcord وطبقاً لحجم المزرعة. وخلف هذا التحديد لا يمكن للوطني أن يعيش على أملاك الأوروبى إذا لم يحصل على رخصة صاحب الأرض كتلك الموجودة في المواقع الخاصة، وهذا يعنى أن هناك أملا للاستحواذ على أراضي أكثر. وأوصت لجنة الشؤون الوطنية بأنه يجب ألا يسمح للوطني

- خلاف العامل - بالعيش على أراضي خاصة، عدا التي تحت السيطرة الحكومية سواء عبر اتفاقيات التأجير أو في المواقع المصرح بها<sup>(109)</sup> وبالتالي بدا واضحاً أن وضع اليد وتحديد مناطق خاصة بالأوروبيين كانا هما قلب توصيات لجنة الشؤون الوطنية، وأن عدم إعطاء الإفريقيين أى سند قانونى يثبت عملية وضع اليد هذه، شكل حجة للسلطات فيما بعد بأن إقامة هؤلاء غير شرعية، ولهذا فإن وضع اليد أتاح حقوقاً لانتفاع الإفريقيين بالأرض لكنه لم يوفر لهم عنصر الاستقرار .

وكان من رأى لجنة الشؤون الوطنية بأنه من الضروري حماية ما يسمى بمصالح الأوروبيين في هذا القطر ، مع غلق الباب كاملاً أمام تطوير الفردية بين الوطنيين في امتلاك الأرض، لهذا أوصت اللجنة بأن الشراء من قبل الوطنيين يجب أن يتم تحديده في مناطق معينة عن طريق قانون تشريعى<sup>(110)</sup> ولهذا فإن معظم الدراسات تقول بأن قانون الأرض لسنة 1913 كان أساسه توصيات لجنة الشؤون الوطنية 1903 - 1905<sup>(111)</sup> ، خصوصاً أنها ركزت على ضرورة تطبيق عملية فصل الأراضي، وأن القانون هو الذى أعطى الشكل القانونى لتلك التوصيات<sup>(112)</sup>، ناهيك عن أن بعض الأفراد يطرحون بأن حق الشراء كان مفتوحاً أمام الإفريقيين، وأن لجنة الشؤون الوطنية جاءت وأوصت بحجب هذا الحق ، وظل هذا الحق متاحاً لهم في الكيب وبعض مناطق الترانسفال ، فعلى سبيل المثال - في شمال ناتال - كانت الأراضي البيضاء قريبة من أراضي السود إلى ما بعد حرب البوير ، بل نمت عدد الملاك الزولو في بداية سنة 1905 وامتدت أملاكهم ثلاثة أميال إلى الشرق من مدينة فريهيد Vryheid، مما يدل على قدرة الإفريقيين المالية الكافية لشراء الأرض، وأن بعضهم كانوا من زراع المحاصيل النقدية<sup>(113)</sup>. وما سبق يتضح أنه رغم هجوم البيض على نظم الأرض المتبعة ومحاولة وضع سياسة شاملة تجاه أراضي الإفريقيين، إلا أن وضع اليد ونمو ملكيات السود ظل مستمراً .

### ج- تطور سياسة الأرض حتى اتحاد جنوب إفريقيا :

تظلم الإفريقيون من تقرير اللجنة ، وبعثوا بعريضة للملك إدوارد السابع ، أشاروا فيها إلى منعهم من شراء الأرض في الترانسفال<sup>(114)</sup>. أما فيما يختص بالأورنج الحرة فقد أرسل مؤتمر أفارقة مستوطنة الأورنج الحرة عريضة للملك إدوارد السابع في يونيو

1906، تحدثوا فيها عن إجبار البيض لهم بإخلاء مساكنهم في بلومفونتين، وأنهم شكلوا وفداً من ملاك المنازل - الذين أجبروا على الانتقال - لمقابلة الجنرال مايور Mayor لكنه رفض المقابلة، وأن المحكمة العليا قد أصدرت أمراً بطردهم<sup>(115)</sup>.

وتم حصار المنتجين الإفريقيين من خلال التضييق على شراء الأرض، والضرائب، وسياسة التسويق، فقد كان يتم تفضيل الشراء من المزارعين البيض في الأسواق، وعبر عن هذا بوضوح اللورد ملنر في كتاباته، حينما ذكر -سنة 1906 - بأن الذرة كان ثمنها في أسواق جوهانسبرج 12 جنيها للجوال، والمنتظر أن ترتفع لـ 18 جنيها لعدم وجودها في الأسواق، وأن التجار الغرباء لهم الأولوية عن الإفريقيين<sup>(116)</sup> بل إن البرلمان البريطاني استمر يناقش مسألة الأرض، واستفسر أحد الأعضاء عن وجوب استخدام الإفريقيين رجالاً وسيدات، خصوصاً هؤلاء الذين يعيشون على الأراضي الحكومية، وأنه يجب أن تطبق عليهم ضريبة العمل المفروضة منذ سنة 1903 في الترانسفال . وتلقى الإجابة التالية بأنه أثرت مسألة وضع اليد، وبأن الإفريقيين دخلوا في اتفاقات مع ملاك الأرض، ولا يليق لوزير المستعمرات أن يدخل طرفاً في هذه الحالة<sup>(117)</sup> وطالب أحد الأعضاء بإلغاء حق الوطنيين الصادر سنة 1903 بوضع اليد، وأن تخصص هذه الأرض سواء بالإيجار أو التصريح للمستوطنين البيض فقط، وكان المطلوب قانون إداري لطرد هؤلاء الوطنيين من هذه الأرض<sup>(118)</sup>، وبالتالي كان البرلمان البريطاني صاحب السبق في مناقشة سياسات الأرض تجاه الإفريقيين، خصوصاً أن مسألة وضع اليد كانت هي رأس حربة سياسة الأرض فيما بعد سنة 1913، وهو الأمر الذي لم يدركه الإفريقيون وتصرفوا على أنهم رعايا بريطانيين .

ولم تتخذ خطوات عملية لتنفيذ توصيات اللجنة، لكن ظهرت بعض ملامح سياسة الأرض في كيفية التعامل مع البيض الذين يعيشون داخل أراضي الإفريقيين، حيث قدم الإفريقيون عدة التماسات في العقد الأول من القرن العشرين بشأن أراضي للإقامة، كالاتماسات التي قدمت لبلدية أوماتاتا (ترانسكاي)، وكانت البلدية قد قسمت المنطقة إلى قطع صغيرة عددها 176 قطعة سكنية و94 قطعة زراعية، والقطع ذات 2 أكر لبناء منازل والقطع من 10-22 أكر قطعاً زراعية . ووافق البيض من خلال مجلس البلدية

الأبيض، وبدعم من المجلس العام لأقاليم ترانسكاي، على بيع هذه القطع للإفريقيين والملونين وذلك حسب توصيات لجنة الشئون الوطنية، حيث عمل المسئولون البيض باتجاه منع البيع للبيض، لأنه لا توجد طريقه قانونية لكتابة عقد يمنع إعادة بيع هذه القطع للسود. لهذا فإن مستشارو البلدية كانت لديهم أسباب مادية أخرى لإسقاط فكرة العزل. لهذا تمنى البعض تحديد دخول الإفريقيين للمناطق الحضرية، ولكن الطبقة المتوسطة السوداء في أومتاتا من الوطنيين وأصحاب الأعمال الذين لديهم أموال لشراء الأرض، كانت لديهم قدرة مادية كافية للسيطرة على القرار السياسى فى الشأن المحلى<sup>(119)</sup>.

وقدمت طلبات للحصول على أراضى للبلدية فى جارتها نكانبيدلانند Ncanbed Land، وفى سنة 1907 تسلمت البلدية المنطقة من الحكومة الاتحادية وقسمتها إلى قطع صغيرة. وبيعت الأراضى فى منطقة نكانبيدلانند على أساس الملكية الفردية لكل الأجناس، وكان 43% من المشترين إفريقيين، وأغلبهم كانوا من الكتبه الحكوميين ورجال الشرطة والمدرسين وصغار رجال الأعمال. أما جارتها الثانية نوروود Norwood فقد أصبحت جزءاً من أومتاتا سنة 1906<sup>(120)</sup>. وكانت مسألة الضغوط البيضاء قد اشتدت حول مسألة الأرض، وتقوى جانب من وطنتهم الحكومة البيضاء على حساب الإفريقيين، بل طالب هؤلاء أن يتم تمثيلهم فى لجان تراعى مطالب جديدة لهم فى الأرض. فى نفس الوقت وعى الإفريقيون لأهداف هيئة تسوية الأراضى، ناهيك عن تأثيرات ثورة الزولو فى ناتال سنة 1906 والظروف الاقتصادية والصناعية للأورنج الحرة<sup>(121)</sup>. وحدث تقدم فى مشروع توطين البيض فى الترانسفال وتمت إثارة مسألة الأرض الحكومية، ثم إعادة تخصيصها لطالبي توطين الأرض فى الترانسفال والأورنج الحرة<sup>(122)</sup>. وفى نفس السنة ارتفعت الضرائب على الإفريقيين، لهذا اشتعلت ثورة الزولو سنة 1906 ضد ضريبة الرأس، هذا بالإضافة إلى أن مسألة توطين الوطنيين كانت هى الشغل الشاغل للحكومة<sup>(123)</sup>.

وبعد سنة 1906 (تقريباً 60 سنة منذ فرض ضريبة الكوخ\*) حدثت زيادة فى عدد الذين يعملون بأجر بين الشباب ولم تكن ضريبة الكوخ تدفع هؤلاء الرجال لسوق العمل بل لشراء الماشية وتقديمها كمهور، لهذا ومنذ سنة 1907 أصبحت النساء يقمن بدفع

الضرائب في المعازل نظراً لغياب الأزواج والأبناء، وإذا لم يتم الدفع يتم تحديد حجم الماشية والملكيات الأخرى، ومن يخالف ذلك يتعرض للسجن، أو تسحب منه أرضه وتعطى لآخر، لهذا كانت الأرض ضرورية للنساء في المناطق الإفريقية. ونجحت بعضهن كفلاحات في بيع الإنتاج الزراعي، للحصول على بعض النقد لدفع الضرائب وشراء الاحتياجات الأخرى. وكان العمل المهاجر سبباً في نقص الأرض حيث قام بعض الإفريقيين بتأجير أراضيهم لإفريقيين آخرين، وبعضهم ترك أراضيهم بنظام المزارعة، وآخرون تركوها لعائلاتهم الممتدة<sup>(124)</sup>. وكان الإفريقيون منذ عام 1905 قد طالبوا المبشرين بالتدخل لتخفيف الوضع، لهذا جعلتهم السلطات البيضاء مشرفين على المجموعات العرقية، وبالتالي حدث تحسن، حيث أعطيت حقوق الملكية لبعض الإفريقيين<sup>(125)</sup>. وكانت لجان هيئة تسوية الأراضي الإقليمية تقوم بدورها في توطين البيض، كلجنة توطين أراضي الترانسفال، والتي أنشئت سنة 1907، ثم حل محلها اتحاد هيئة الأراضي Union Department of lands، وتركزت حول جمعية ملاك الترانسفال، وانصب تحوفها في عدم رغبة المستوطنين البيض في الحصول على أراضي شمال بريتوريا، وتجاهل الحكومة استمرار شراء الوطنيين للأراضي في تلك المناطق. وكان نمو توطين البيض قد ساعد على تطوير حملة ضد وضع اليد وممارسة زراعة الكافير عبر نظام المزارعة، وفشلت وزارة الشؤون الوطنية تحت قيادة لاجدن Lagden قبل سنة 1906 في تأسيس تشريع وضع اليد، لهذا استمرت الضغوط منذ سنة 1907 في ضرورة إيجاد تشريع جديد لمقاومة نظام وضع اليد<sup>(126)</sup>، وازداد النشاط السياسي الإفريقي في جنوب إفريقيا، حيث تم تكوين جمعية منتخبي الكيب الوطنية Cape Native Voters Association بقيادة جون تنجو جابافو سنة 1907 بعدما تكونت المنظمة السياسية لجنوب إفريقيا South African Political Association (سنة 1902)، وتكاد تكون هاتان المنظمتان تهتمان بشئون الأكسوزا والفينجو<sup>(127)</sup> ومع ذلك استمر عمل هيئة تسوية الأراضي في نزع الأراضي من السود، وازداد الطلب للحصول على الأراضي في الأورنج الحرة بشكل لم يسبق له مثيل سنة 1907، ويرجع هذا إلى زيادة أسعار المنتجات ثم الرغبة في زيادة الأموال من جانب المزارعين البيض، خصوصاً بعد زيادة أعداد السود في تلك المناطق وزيادة حيواناتهم وزراعتهم، وبالتالي ارتفعت الأصوات المطالبة بتحديد وصول

الإفريقيين إلى الأرض وطالبوهم بتقليل حيواناتهم ثم الرعى بعيداً عن مناطقهم، واشتد هذا الأمر منذ سنة 1908، وحدثت زيادة في نسبة المشتغلين بنظام المزارعة، الأمر الذي أدى إلى زيادة أعداد الماشية بسهولة وصول ملاكها لأماكن المراعى. لهذا شكلت المزارعة وملكية الماشية مسألتين مهمتين في هجوم البيض عليهما، حيث رحب المزارعون البيض في إخلاء الأرض من مجتمعات وضع اليد دون حاجة لتشريع<sup>(128)</sup>.

وأرسل المؤتمر الوطنى لنتال عريضة لوزير المستعمرات في أكتوبر 1908 من 13 صفحة بخصوص ثلاث مسائل منها: "زيادة عدد أعضاء المجلس التشريعى"، والثانية "توفير الإدارة الجيدة للشئون الوطنية"، والثالثة "بخصوص مسألة الأرض"، وأهم يرغبون في تشكيل وإدارة مستوطنات الأرض الوطنية، وأن مئات المندوبين من أعضاء المؤتمر اجتمعوا للنظر في المسائل الثلاث حيث تقابلوا في بيترمارتيزبورج في 9 يوليو 1908<sup>(129)</sup>.

وهناك أكثر من دليل على أن أفارقة المناطق الشمالية قد انتقلوا إلى الترنسفال، حيث أتاحت الأراضي أمامهم بعد سنة 1908، وتحرك العديد منهم للغرب تجاه المناطق الجافة، كمناطق صالحة للرعى. وبعضهم تحرك للباسوتو وأصبحوا هناك بلا ماشية وبلا أية أراضي. وهناك تقارير تشير إلى أن كل المناطق التي وجدت فيها مجتمعات واضعى اليد، أمروا بأن يقللوا ماشيتهم ويزيدوا من خدمة العمل، خاصة بعدما تفاقمت مشكلة الفقراء البيض فى الأورنج الحرة أكثر فأكثر، وأصبحوا يمثلون تهديداً للـ bywoner<sup>(130)</sup> وكتب اللورد سيلبورن بأنه عندما أرسل تقرير اللجنة إلى سمتس وبوتا في يناير 1908\* بأنه اعتقد في أهمية الحافز الاقتصادى، وعبر عن استيائه لكل القيود الاقتصادية المفروضة على الوطنيين مثل قوانين المرور وحاجز اللون الصناعى<sup>(131)</sup>، ونمت الملكية الفردية بشكل كبير فى الكيب، وظهرت ملامح هذا النمو فى تقرير لأحد الوفود التى زارت ناتال وترانسكاي سنة 1908، والذي قال بأنه جرت عملية ترقية اقتصادية للأرض لصالح الملاك، وأنه تم إنقاذهم من المظالم التى كانوا يتعرضون لها من قبل الزعماء، وأنه زاد الدخل الحكومى بنسبة 50٪ بسبب ضريبة الكوخ<sup>(132)</sup>. وفى سنة 1909 طالب الدكتور تشارلز جارنت Charles Garnett بأن يقوم عدد من زعماء هارى

سميث بطرد العائلات التي تسيطر على الأرض<sup>(133)</sup>. لكن لم يتطور الامر بالصورة التي تمت بعد صدور قانون 1913 .

وعقد اجتماع للوطنيين عبر جنوب إفريقيا في الفترة من 24 - 26 مارس 1909 عبروا فيه عن ولائهم للإمبراطورية البريطانية، وأقر الميثاق الوطنى الذى تمسكوا به بالحقوق الوطنية التى تمتعوا بها طوال الـ 50 سنة السابقة فى مستعمرة الكيب، وكانت مسألة الأراضى على رأس هذه الحقوق<sup>(134)</sup>. وكانت الحكومة البيضاء - سنة 1909 - قد أعلنت برنامجاً لتوفير الأموال للصناديق الإقليمية للمساعدة فى ترقية الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للبيض، وعلى رأس هذه المسائل كانت عملية شراء الأرض وتوفيرها أمامهم<sup>(135)</sup>. وكانت الأراضى الإفريقية تشهد عملية إمداد السلطات المحلية لها، وأحد شروط هذا التحول وجود أراضٍ كافية للمعازل الوطنية<sup>(136)</sup>. وأشار تقرير حكومى سنة 1910 إلى التقدم الذى حدث لطبقة الملاك . ففى المنطقة شمال ناتال أشار بأن الطبقة المتوسطة لبست الملابس الأوربية وعاشت فى منازل مربعة مقسمة إلى حجرات، وأنهم فصلوا أنفسهم عن الوطنيين، وأن 12 ٪ من كل زوجات الزولو فى منطقة فريبيد كن مسيحيات . وأن العلاقة بين المسيحية وملكية الأرض والتغريب كانت دليلاً واضحاً فى مدينة فريبيد الشرقية، وبأنهم اعتقدوا بأن الملكية الفردية هى أساس تقدم الوطنيين، وأن لها فوائد كبيرة مثل فوائد التعليم عليهم، ولهذا كان لدى هذه الطبقة رغبة شديدة فى شراء الأراضى<sup>(137)</sup>، وعلى الجانب الآخر استمرت هيئة تسوية الأراضى فى نشاطها الكبير، ففى الأورنج الحرة تشير الوثائق بأن موظفيها كانوا يؤدون مهامهم المنوطه بهم برضى الحكومة الكائنة، وإحدى الوثائق تحمل مدحا لمدير لجنة تسوية الأراضى فى الأورنج الحرة - السيد أبثورب Apthorp - والذى عين فى وظيفته منذ سنة 1906، وأنه أدى خدمات جليلة للبيض<sup>(138)</sup> وبدأت ضغوط المزارعين تمارس بصورة أكبر على قادة الأحزاب والسياسيين البيض، وظهر هذا واضحاً فى خطاباتهم واهتماماتهم بمسألة الأرض ومسألة المزارعين البيض<sup>(139)</sup>، ونخلص من ذلك بأن الفترة التى أعقبت صدور تقرير لجنة الشئون الوطنية، ورغم ضغوط المزارعين البيض وجهود هيئة تسوية الأراضى ، إلا أن الإفريقيين استطاعوا الاستمرار فى مقاومة هذه الضغوط، ونجحوا فى فرض سيطرتهم على الملاك

البيض من خلال استمرار نظام المزارعة ووضع اليد والاستئجار ، ناهيك عن استمرار طبقة الملاك في عملية شراء الأرض، وبالتالي كان لابد من زيادة الضغوط ودفع الأمور باتجاه تشريع جديد يحكم مسألة الأرض .

## الخاتمة

يخلص الباحث إلى عدة نتائج أهمها :

\* أنه حدث تطور مهم في سياسات الأرض تجاه الإفريقيين من خلال التغيير الذى حدث في نظم حيازة الأرض بفرض قانون تشريعى يقنن مسألة الملكية الفردية، ثم تطور الأمر بعد ذلك من خلال لجنة الشئون الوطنية التى طرحت مسألة العزل الإقليمى بوضوح، وكان هذا مقدمة لما سيحدث من تغيير كبير في سياسات الأرض تجاه الإفريقيين بعد تكوين الاتحاد .

\* أن تدخل السلطات البيضاء في فرض قانون جلين جراى أبان صورتها بوضوح أمام الإفريقيين ، فالسلطات لم تتدخل في عملية إمدادهم - كالبيض - بالأراضى والقروض وإمداد المياه ، بالتالى لم يقبلوا نظام الملكية الفردية الذى يهدف إليه القانون، رغم أنهم كانوا يفضلون الملكية الفردية عبر كافة وحدات جنوب إفريقيا الأربع، وظهر هذا بوضوح في تقرير لجنة الشئون الوطنية .

\* أن اعتراض الطبقة المثقفة على قانون جلين جراى يهدف من ناحية إلى مقاومة الآثار التى يمكن أن تنشأ عن القانون ، ومن ناحية أخرى إلى مقاومة تقدم طبقة الملاك واستئثارها بمكانة المثقفين ، وهذا يتضح من خلال المناطق التى اشتعلت فيها المعارضة للقانون في مناطق: الفنجو والأكسوزا والجريكوا ، وهى المناطق التى كانت توجد بها ملكيات فردية، وبالتالي بدا واضحاً أن قانون جلين جراى قد خلق انقساماً داخل الطبقة البرجوازية الإفريقية ، ما بين طبقة المتعلمين وطبقة الملاك ، واستمر هذا الانقسام حتى أصبح ملمحاً رئيسياً داخل المجتمع الإفريقى .

\* الدور المهم الذى قام به الملاك والتجار الفنجو، فقد كانوا بمثابة المرابين والممولين للفلاحين، لهذا كانت لديهم القدرة للاستيلاء على الأراضى في حالة عدم قدرة الفلاحين على سداد الديون، حتى في ظل الملكية الجماعية ، مما يدل على أن مناطق الإفريقيين عرفت

شكل الملكية الفردية، وأن الفنجو كانوا بمثابة الرواد في قيادة الإفريقيين للتحويل من الاقتصاد المعيشي للاقتصاد النقدي، وبالتالي كانوا يسعون من خلال انتخابات الكيب للمحافظة على مصالحهم واستقلالهم الاقتصادي مما يبرر خشيتهم من نمو قوة الأكسوزا السياسية التي تهدد مصالحهم، ناهيك عن أنهم كانوا أكثر الفئات التي تعرضت لأحقاد الأفريكانرز نتيجة انحيازهم وإعطاء أصواتهم الانتخابية للناطقين بالإنجليزية.

\* لا يوجد تقدير للمساحة المنزرعة داخل مناطق الإفريقيين ولا تقدير لنوعية الأراضي ولا لتباين مساحتها المزروعة حسب المناطق، ولكن يمكن من خلال حجم أصوات الإفريقيين الانتخابية في الكيب، تقدير قوة الطبقة المالكة ومدى تشعب علاقاتها، خصوصاً بين الفنجو والأكسوزا، وشكلت تلك القوى الجديدة حركة دفع للمجتمع الإفريقي جعلته يضع أولى لبنات عملية التحديث، ولكن برزت الاختلافات الجذرية الحقيقية بصورة واضحة في الاحتجاجات على قانون جلين جرای وتوصيات لجنة الشئون الوطنية.

\* من غير المعروف حجم ما يقع تحت أيدي الإفريقيين من أراضٍ بنظم الاستئجار والمزارعة، اللهم إلا ما يقع بوضع اليد الذي قدر في فترة من الفترات بأكثر من 4 ملايين أكر في الترنسفال فقط، وبالتالي فإن أعداد الإفريقيين ومساحة أراضيهم وقوتهم الإنتاجية داخل مناطق البيض غير معروفة، لكنهم لعبوا دوراً مؤثراً في فرض نوع معين من علاقات الإنتاج، بل والدخول في منافسة مع المزارعين البيض، مما جعلهم - منذ انتهاء حرب البوير - هدفاً لكل السياسات الحكومية التي تستهدف إقصاءهم.

\* استمرار نظام المزارعة (اقتسام المحصول) هو إعلان رسمي بقدرة الفلاح الإفريقي على فرض شروطه على المزارعين البيض بقبول البيض للمزارعة - على مفضض - حين حانت ساعة التخلي عن هذا النظام، وبالتالي أتاح هذا النظام للإفريقي الاستفادة المالية من بيع الفائض إنتاجه في الأسواق.

\* إن إرسال الإفريقيين للالتباسات للحاكم العام أو الملكة بريطانيا، بشأن الضرائب أو بشأن قانون جلين جرای، يدل على تناقض دور الطبقة المثقفة، فمرة نراها قد انحازت للفلاحين بشأن الضرائب، وأخرى نراها وقفت ضد طبقة الملاك في قانون جلين جرای،

بعدها ظهرت نزعة الملاك الواضحة إلى الاقتصاد الحر وزراعة المحاصيل النقدية التي تدر مكاسب مادية رغم أن ذلك تسبب في توجيه الضربات إليهم فيما بعد، وبالتالي بدا واضحاً تصدر المثقفين وقيادتهم للوعى السياسى منذ نهاية القرن التاسع عشر .

\* اعتراض الإفريقيين على توصيات لجنة الشئون الوطنية يدلل على وعى الإفريقيين بما تهدف إليه، وإنهم وعوا للضغوط المفروضة عليهم، وبالتالي نراهم في ظل فترة التمهيد لقيام الاتحاد قد حققوا بعض النجاحات في استمرار نظم وضع اليد والمزارعة والاستتجار، بل استمر الملاك ينمون أراضيهم ويزيدونها، مما قضى بوجوب تغيير سياسات الأرض المتبعة وإصدار تشريع خاص بمسألة الأرض، لكن هذا لم يتحقق إلا في سنة 1913 بحيث تم تحديد ملكية الإفريقيين وفرض نظام العزل الإقليمى .

## هوامش الدراسة

- (1) Lundahl, Mats : Apartheid in Theory and Practice, An Economic Analysis, West view Press, Sanfrancisco, 1992, P. 101.
- (2) Davenport . T. R. H. : - South Africa, A Modern History , Fourth Edition , Hong Kong , 1991P. 11.
- (3) Dekelerk, W. A: The Puritans in Africa, A Story of Afrikanerdom, Rex Collings, London, 1978., PP. 8, 9.
- (4) Robertson . H . M . : - The Economic Condition of the Rural Natives, Schapera : - Western Civilization and the Natives of South Africa " Studies in Culture Contact , Humanities Press, New York , 1934 , p . 143 .
- (5) Hendricks T Fred, T.: The Pillars of Apartheid, Land Tenure ,Rural Planning and the Chieftancy,Sweden,1990,PP . 45 , 46 .
- (6) Hoagaland, Jim :- South Africa Civilization in Conflict London , 1972 pp. 191, 193.
- (7) C.O 417 /3/9474 :Selzure an English yacht by Portuguese Officials 5 June 1884, P. 95.
- (8) The Cape Colony and Simons Bay Railway , Hansard Parliamentary Debates ,3rd Series , Vol.297, 17 Apr. 1885 To 7 May 1885 , P.1095.
- (9) C.o 417 /3 , Commission Passed Under The Royal Sign Manual and Signet . Appainting The Right Honorable , Sir Hercules George Robert Robinson, P.C.G.M.C. to be Her Majesty's High Commissioner For South Africa 29 Feb.1884, PP.46,47.
- (10) Document 2:- Editorial on Taxation in Imvo Zabantsunedu November 10, 1884(Extract),in Karis Thomas and Gwendolen M.Carter:- From Protest To Challenge ,A Documentary History of African Politics in South Africa ,Volume I, Protest and Hope 1882-1934 Hoover Institution Press Second Edition U.S.A.1978,A.P 12,13.
- (11) Ballard , Charles :- The Repercussions of Rinderpest : Cattle Plague and Peasant Decline in Colonial Natal , International of Journal of Africa Historical Studies, Vol . 19 , No. 3 (1986 ) , P. 423
- (12) Ballard , Charles :- The Repercussions of Rinderpest : Cattle Plague and Peasant Decline in Colonial Natal , International of Journal of Africa Historical Studies, Vol . 19 , No. 3 (1986)p.424.

(13) الأول يمثل مصالح أصحاب المناجم -خصوصاً بعد شرائه مناجم الفحم - والثاني هو رئيس العصبة الأفريكانيية Afrikaner Bond ويمثل مصالح المزارعين الأفريكانرز . Op. :- Davenport Cit . PP. 164 , 165.

(14) C.O.48 / 524 : Ponoland Exploration and Mineual Right 12th. March 1888. .

(15) أحمد عبد الدايم محمد حسين: الفقر والمرض في المجتمع الإفريقي تحت الحكم العنصرى فى جنوب إفريقيا 1948-1976 ، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة ، 2005، ص25.

• ونفس الأمر تبناه كروجر رئيس الترانسفال لكن لم يتطور الأمر لإصدار قانون كما حدث فى الكيب. (16) وكان قد اتسع هذا النظام شيئاً فشيئاً منذ صدور قانون المواقع الوطنية Native Locations Act سنة 1879 . فخارج الكيب أنكرت الملكية الفردية على الإفريقيين بالقانون فى الأورنج الحرة عدا أراضي بعثة الوزيليان التبشيرية فى تابانخو . وفى ناتال استطاع الأفارقة شراء أراض عبر الحدود الجنوبية الغربية ونظم ائتمان البانتو منذ سنة 1864 عمل تسجيل الأرض الجماعية فى المناطق التى يقيم فيها الأفارقة تعرضت هذه الملكيات للخطر بسبب تطبيق القانون الهولندى -الرومانى 1908، للمزيد انظر . T. R. H :- South Africa, A Modern History , Fourth Edition , Davenport . Hong Kong , 1991,PP.164,165.

• الأكر acre هو مقياس إنجليزى لسطح الأرض وهو أصغر من فدان ، انظر قاموس الياس العصرى القاهرة 1994 ص 25.

• جاء إلى جنوب إفريقيا للاستشفاء وقضى شطر حياته الأولى فى ناتال فى زراعة القطن، وكانت الأرض والزراعة لهما مكاناً راسخاً فى قلبه ، فحتى وفاته كان العديد من المزارع فى رودسيا وجنوب إفريقيا تدين بفضلله ونشاطه ، فقد كان على اضطلاع دائم بمشاكل المزارع الإنجليزية والهولندى. ففى مستوطنة الكيب حافظ على العديد من المزارع فى وادى دراكنزبرج ، والتى قادت إلى خلق صناعة كبيرة تعرف بمزارع فاكهة رودس ثم قادت إلى تصدير الفاكهة ، ثم أصبح رئيساً لوزارة الكيب ، للمزيد انظر Mc Donald: Op. Cit, PP. 89,112-114.

(17) Giliome, Hermann and Lawrence Schlemmer : - From Apartheid to Nation Bulding , Oxford University Press , CapeTown , 1989, PP. 6,8,9.

(18) C . o. 48 / 532 / 13217 : Naboth's Blunder , Cape Times ,19 June 1897.

(19) Rich . Paul :- - The Appeals of Tuskegee James Henderson, Lovedale , and The Fortunes of South Africa Liberalism 1906 – 1930 , International Journal of African Historical Studies, Vol 20 , No . 2 . 1987, PP . 273, 274.

• اقترب من كرال الزعيم وطلب منه أن يأتى إليه فوراً دون تأخر ، مما سبب ارتباكاً للزعيم، ثم تركه لمدة ثلاثة أيام حتى سمح له بالدخول .

(20) وكانت سلطات الكيب قد بعثت لهذا الزعيم طلباً مؤدباً من قبل الحاكم العام يطلب منه المجيء إليه ولكنه رفض ، للمزيد Mc Donald J.G:- Rhodes A Heritage Chatto and Windus, London , 1943, P. 88.

- C.O.48 / 524 : Cape of Goode Hope ( Pondoland ) Letters Patent , June 1894. (21)
- (22) نشأ في ترانسكاي، والبونجا يتعامل مع التعليم ومناقشة شئون الري والطرق والزراعة وتحديد أعداد الحيوانات Mbeki Govan: South Africa, The Peasant's Revolt, Penguin Africa Library, 1984, PP. 33, 35.
- (23) Willington John : Southern Africa, A Geographical Study, Vol. 11, Cambridge 1960, PP. 453, 454.
- (24) واستجلب أشجار فاكهة من كاليفورنيا وكان يهتم بالتربة، وبالتالي كان له الفضل في اخضرار مساحات كبيرة في جنوب إفريقيا. وهناك العديد من مزارع القمح وتربية الماشية والأغنام في كيمبرلي يعود الفضل فيها لروودس. بل إنه بنى العديد من السدود ساعدت في ري مساحات كبيرة من الأرض. وظل البيض لفترة طويلة بعد وفاته (وحتى الوقت الحاضر) يدينون بفضل أعماله في مجال الزراعة Mc Donald: Op. Cit, PP. 89 . 113, 114, 112.
- (25) Gibson, Richard :- African liberation Movements " Contemporary Struggles against white rule " oxford University Press, London , 1972 , PP. 26 , 27.
- (26) C . O. 48 / 524:- Constitutional Agitation, Aug. 29 1894 P . 713.
- (27) C . O. 48 / 524 :- Letters From Tengo Jabavu , Covering a Petition to Hen Majesty to Refuse Assent to The Glen Grey Act ,. 28 August, 1894.
- (28) C . O. 48 / 524 :- Constitutional Agitation ,. Aug. 29 , 1894, P. 714 .
- (29) (Ibid ,P. 213 .
- \* كانت جذوره من عائلة زراعية وكان شاباً وقتئذٍ، ثم أصبح من القادة المنوط بهم مسألة الأرض، ثم من أشهر قادة جنوب إفريقيا السياسيين.
- (30) Hancock W. k :- Smuts " The Sanguine years 1870- 1919 Cambridge University Press, London , 1962 , PP . 4,5 , 58.
- (31) Hammond – Tooke w . D :- The Transkeian Council System 1895 – 1955 : An Appraisal , The Journal of African History , Vol . 9. No . 3 , (1968) , P . 460 .
- (32) McDonald . J. G: - Op. Cit, P. 90.
- (33) Evans , Ifor :- Native policy in South Africa . An Outline Cambridge University Press, 1934, PP.4, 5.
- (34) ألغيت سنة 1905، للمزيد انظر Evans, Ifor:- Op . Cit. P. 6.
- (35) Hendrik , Fred :- The Pillars of Apartheid , Land Tenure , Rural ( Planning and Chieftaincy, Stockholm, Sweden ,Uppsala ,1990P. 64 .
- (36) Buell Raymond Leslie , :-The Native Problem in Africa Vol.1 , The MacMillan Company, 1928, PP.4-6.
- (37) ما بين سنة 1898-1925 كان تسجيل الأرض يتم بعد إحصاء المناطق وخلال تلك الفترة تم تنفيذ الأمر في 7 مناطق من 27 منطقة في ترانسكاي، وفي العشرينات كانت هناك 50 ألف قطعة أرض مسجلة في أومتانا وتكلفة الواحدة منها ( للمالك) 4 جنيهات و 5 شلنات، تم توقفت الحكومة -

Buell Raymond Leslie, :- Op, Cit , للمزيد انظر - عن الإحصائيات الجديدة - للمزيد انظر  
PP.91,92.

(38) Ibid , P. 92 .

(39) ظلت 10 شلن إلى أن زادت سنة 1925 إلى جنيته عندما صدر قانون إدارة وتطوير الوطنيين،  
للمزيد انظر :- Redding , Sean:- Legal Minors and Social Children : Rural African -  
Women and Taxation in the Transkie, South African Studies Review, Vol . 36 , No  
. 3 . (Dec . 1993) P. 50 .

(40) Buell, Raymond Leslie :- Op . Cit , P. 92 .

(41) دلت كتابات الرحالة، وذكر هذا صراحة في تقرير لجنة القوانين والأعراف الوطنية لسنة 1883 أنه  
منذ أن فرضت ضريبة الكوخ في سبعينات القرن 19 اعتمد تقديرها على الأرض ، وأن كل قطعة  
أرض عليها ضريبة سنوية 10 شلن وإذا كان للرجل زوجتان فيدفع عشرين شلناً . للمزيد انظر :  
Redding , Sean :- Op . Cit, PP.57 , 60

(42) C . O. 48 / 524:- Letters From Tengo Jabavu , Covering a Petition to Hen Majesty  
to Refuse Assent to The Glen Grey Act ., 28 August,1894.

(43) C . O. 48 / 524:- The Native Moved, Sept. 5 , 1894 , P.71.

(44) Document 6 :- The future of the Bill " Editorial in Imovzabantsundu , August 15 ,  
1894 . , Karis Thomas and Gwendolen M.Carter:- From Protest To Challenge,  
ADocumentary History of African Politics in South Africa ,Volume I, Protest and  
Hope 1882-1934 Hoover Institution Press Second Edition U.S.A.1978 P.17 .

(45) C . o . 48 / 524 / The Native Act, ANative Missionary's Protest, P. 715.

(46) C . o. 48 / 524: - The Native Act, Op. Cit, P. 715.

(47) C . o. 48 / 524:- The Native Act. Op. Cit , P. 715 .

(48) C . o. 48 / 53 (271) Ponds and Principle, The Cape Argus, Wednesday, June 27,  
1897.

(49) C . o. 48 / 524: Losses and Account of Stock Thefts by Ponds, Prime Ministers  
office, Natal, 18th.October, 1894.

(50) C . o. 48 / 524 / 20961: Dispatch from the High Commissioner, Cape Town to the  
Governor Natal.13 November 1994.

(51) Feinberg Harvey M :- The 1913 Natives Land Act in South Africa :- Politics ,  
Race, and Segregation in The Early 20th Century , The International Journal of  
African Historical Studies, Vol . 26 , No. I (1993 ) , P . 88 .

(52) Keegan, Tim :- The Restructuring of Agrarian Class Relations in a Colonial  
Economy : Orange River Colony 1902 -1910 , Journal of Southern Africa, Studies,  
Vol 5 , No . 2 , April 1979 , P . 236 .

(53) C . o . 48 / 532 / Lo 904 :- Resolution adopted by the Legislative Council on the

Subject of the maintenance of Peace in South Africa, Government House , Cape Town 22 May 1897 .

(54) C. o. 48 / 532 (272) Cape Parliament Legislative Council, Wednesday, June 23, 1897.

(55) C . o. 48 / 523 / 15393:- Proceedings of the Meeting of the Congress of the South African League, Held at Port Elizabeth 11-13 th February, 1897. PP 15. 63, 65.

(56) كان حق الانتخاب متاحاً لمن يملك أراضى بقيمة 25 جنيهاً أو أجر سنوى 50 جنيهاً وفتح الباب أمامهم سنة 1868، للإفريقي البالغ 21 سنة . وبعد سنة 1884 شنت الرابطة الافريكانية هجوماً على تصويت الإفريقيين بحجة أن هذا النظام يخدم مصالح الناطقين بالإنجليزية، فالإفريقيون يعطونهم أصواتهم لإيمانهم بوجود تقديم ولائهم للعرش البريطاني. للمزيد انظر: :- Trapido , Stanly African Divisional Politics in The Cape Colony , 1884 to 1910 , No. I , 1968, PP . 79 80.

(57) هناك أكثر من 17 دائرة يعتمد فيها المرشحون على دعم الإفريقيين مثل: ألوال الشمالية ، بيركل الغربية ، كيب تاون ( دائرة فيلاندا بعد سنة 1898 ) وايست لندن وفورت وفورت وجرهامز تاون، كوينز تاون، بورت اليزابيث، جريكوالاند الشرقية منذ 1888، كيمبرلى، كينجز ويلمز تاون، سومرست ايست، تيمبولاند انشنتت 1888، يوتنهاج ، فيكتوريا الشرقية، وودهاوس وباستثناء بيركل الغربية وكيب تاون وكيمبرلى فان كل الدوائر تقع في الكيب الشرقى أودوائر ترانسكاي حيث تعيش الأغلبية الإفريقية 81 , 80 . Op . Cit, PP. 80, 81 .

(58) كانت جريدة جابافو قد ظهرت 1884 وجريدة الان سوجا Alan Soga قد ظهرت سنة 1898 وكلاهما له تأثير في الحياة السياسية الإفريقية، وكان جابافو يدعم حزب جنوب إفريقيا ، وسوجا يدعم الحزب التقدمى . Ibid, PP. 89, 90, 97.

• فقد كان تفتت أراضى البوير يتم بالتواتر، ونظراً لأعداد أسرهم الكبيرة ما بين 8 - 10 أطفال فإن القطع الكبيرة قسمت إلى قطع أصغر وهكذا .

(59) Callinicos, Iuli :- Op . Cit , P . 86 .

• وتشير التقارير إلى أن الوباء - في ناتال سنة 1897 - تسبب في هلاك 20.108 رأس ماشية، وربما شكل هذا 90 ٪ مما يملكه الوطنيون في ناتال وزولولاند ، أما خسارة البيض فكانت حوالى 65 ٪ .

(60) Ballard , Charles :- Op . Cit , PP. 439 , 449 , 450 .

(61) C . o. 48 / 531 / 4327 :- Native Rinderpest . Representative Visit to Kimberly and Taung,s office of the Government Labour Agent fro Native Territories . IMVANI, 24 the December 1896.

(62) في سنة 1900 كان حوالى 10.000 افريكانى يعيشون في المدن ، زاد سنة 1904 إلى 40.000 إلى

630.000 سنة 1914 ليشكل 3 / 1 السكان الافريكانرز . للمزيد انظر Merdith , Martin :- In The

Name of Apartheid " South African in the Past War Period " Harper&Row ,

(63) Keegan , Tim :- Op. Cit, PP. 239, 240 .

(64) Callinios , Luli :- op. cit , pp. . 86 , 87 .

• أحد المليونيرات سعى لإيجاد مستوطنات لهم في جوهانسبرج وهو أحد أفراد لجنة الإصلاح سنة 1895، وحصل على مقعد رودس البرلماني بعد وفاته .

(65) Lockhart J. C. M and Woodhouse :- Cecil Rhodes, The Colossus of Southern Africa , The Macmillan Company ,U.S .A 1963, PP . 464 , 465.

(66) كتب الأفارقة عريضة إلى جوزيف تشمبرلين يعرضون فيها ما تعرضوا له من آثار خلال حرب البوير وعدد اللاجئين الإفريقيين والمشاكل التي يعانون منها قلة الأمن والإسكان والطعام وسوء التعليم، وأن تقارير اللجان التعليمية 1891 – 1900 بخصوص الإنفاق على السود في مجال التعليم كان في المستويات الدنيا، وأنه لا بد من التركيز على العمل اليدوي . وأنه لا توجد مشاكل يمكن أن تخيف الحكومة من عدم التشجيع والإقبال على تعليمهم ورأوا أن ذلك سببه العقلية المسيطرة على زمام الأمور في جنوب إفريقيا Document7 :- Question Affecting the Native and Colourd People Resident in British South Africa : Statement by the Executive to the South Africa Native Congress 1903 , PP . 25, 26 , Vol. 1 .

(67) Swanson. Maynard:- The Sanitation Syndrome : Bubonic Plague and Urban Native Policy in the Cape Colony , 1900-1909 The Journal of African History , Vol .18, No. 3, (1977) . PP. 397,402.

(68) The Parliamentary Debates, Fourth Series, Vol . 89 , Jan 23ToFeb.27,1901, PP.395,666,843,1033,1071.

(69) Plaatje , Sol. T. :- Native Life in South Africa " Befor and Since the European War and the Boer Rebellion " Negro Universities Press , New York, 1969., P . 112 .

(70) في سنة 1904 قررت المحكمة العليا بالاعتراف بحق ملكية الأرض للإفريقيين في أماكنهم Evans, Ifor, L. : Op. Cit., PP. 22, 23.

(71) أحمد عبد الدايم محمد حسين: مرجع سابق ، ص 13.

(72) Lester, Alan , Etienne Nel and Tony Binns :- South Africa past, present and future, , London, , 2000P. 1420.

(73) Wilmsen , Edwin N: Land Filled with Flies Apolitical Economy of the Kalahari, The University of Chicago Press, Chicago and London 1989, PP. 133, 134, 137.

(74) في سنة 1907 أنشئت لجنة مختارة بخصوص أراضي البوندولاند الممنوحة Pondoland Grants وانقسمت الآراء حول المسألة ، فزعيم البوندولاند واثنين من أعضاء اللجنة طالبوا نظراً للطلبات المقدمة للحصول على أراض. ونقص الأرض الذي يعاني منه المعزل يجب أن تفتح المفاوضات لتعويض المواطنين بكل أو بعض الأراضي المطلوبة ، لكن الإعلان 127 لسنة 1905 كان قد اعترف بحق إعطاء ومنح الأرض للبيض . Hendrik , Fred :- The Pillars, Op. Cit , P. 62

- (75) أحمد عبد الدايم محمد حسين: مرجع سابق ، ص 26.
- (76) Merdith , Martin :- In The Name of Apartheid " South African in the Past War Period " Harper&Row , Publisher , New York , London , 1985, P. 32. ناهيك عن  
 New finance Bill, May16  
 The Parliamentary Debates Authorized Edition, Fourth Series,Vol.134 April  
 .29ToMay16,1904,PP.1405,1406,1413,1426,1433,1438,1442,1443,1474,1481
- (77) Evans, Ifor, L. : Op, Cit., PP. 22, 23.
- وهذه مختلفة حسب الأقاليم ، من 60-80 - 100يوم سنوى، والأمر المعتاد هو 90 يوماً للرجل وعائلته ، موزعة عبر السنة الزراعية .
- (78) Evans . Ifor L:- Op. Cit . , PP . 22- 23.
- (79) I bid , PP . 24 , 25.
- (80) Crush , Jonathan and Alan Jeeves :-Transitions in the South Africa Countryside . Canadian Journal of African Studies,Vol.27, No,3( 1993) – P. 351.
- (81) Evans . Ifors L: - Op. Cit, P. 20.
- (82) Willians , Donovan :- African Nationalism in South Africa : Origins and Problems, The Journal of African History , Vol . 11, No. 3 (1970), P. 382.
- (83) Rich , Paul B : - The Appeals of Tuskegee , James Henderson, Lovedale . and The Fortunes of South Africa Liberalism. 1906 – 1930 The fortunes of South African Liberalism , 1906 – 1930 The International Journal of African Historical Studies, Vol 20 , No . 2. 1987, PP. 271, 272.
- (84) Kari's, Thomas and Gowndolen Carter:- Op. Cit. P.29 .
- (85) وذلك لحاجتهم الانتخابية فلقد كانت الأقاليم الأربعة تختلف بعضها عن البعض من حيث التشريعات السائدة عدا الكيب الذى تسوده تقاليد ليبرالية منذ أول برلمان سنة 1854. ومع ذلك لم يصبح أى أسود أو ملون حصل عضواً فى برلمان الكيب، فقط حوالى 10٪ من الأصوات المسجلة كانوا ملونين وأقل من 5٪ إفريقيين، ومع ذلك كانوا مؤثرين طبقاً لتقرير رسمى سنة 1903 كان 8117 صوتاً إفريقيا مسجلاً له تأثير فى 7 دوائر من 46 دائرة فى الكيب، أما فى المقاطعات الأخرى فقد كان البيض فقط هم الذين لهم الحقوق السياسية فى الترانسفال والأورنج ، وفى ناتال صدر نظام امتياز المؤهلات الذى لا يحتوى على حاجز اللون، ولهذا ذكر برلمان ناتال باستحالة أن يصبح للإفريقيين حق التصويت ، وفى سنة 1907 شملت لائحة التصويت فى ناتال 480,23 أبيض و150 هندياً و 50 ملوناً و6 أفرقة ، للمزيد انظر: Merdith , Martin :- OP. Cit , PP. 33- 34.
- (86) Lester, Alan and others:- Op Cit,P.143 .
- (87) Document7 :- Question Affecting the Native and colourd people Resdent in British South Africa : Statement by the Executive to the South Africa Native Congress 1903, P.23.
- (88) Document7:- Op.,Cit.,P.24.

- (89) C. o 551/3 : About Application for a Government Form Land Settlement Department O.R. C. Bloemfontein 29/6/1903.
- (90) Document .8b:-Testimony off The Rev. ET.Mpela . The Rev. B.K B.Kumalo j.Twayi ,A.Jordaan, I. Mocher,I. Lavers. And Peter Thaslone ot The Native Vigilance Association of The Orange River Colony , befor The South African Native Affairs Commission ,September23 , 1904 (Extracts) Published in Minutes of Evidence , South African Native Affairs Commission 1903 – 1905 ,Vol. I.P.35.
- (91) Document .8b:- Op. Cit.,
- (92) Document 8a :- Testimony of Martin Lutli of The Natal Native Congress before the South African Native Affairs Commission, May 28/1904, (Extracts)Published of in Minutes of Evidence , South African Native Affairs Commission 1903-1905 PP.29, 30.
- (93) Document 8a :-Op. Cit, PP. 31,32 .
- (94) Document 8a :-Op. Cit, P.32.
- (95) Document 8c:- Testimony of the Rev. Samuel Jacobs Brander, The Rev .Joshu Mphotheng . Mphela, and Stephen Nguato of the Ethiopian Catholic Church in Zion , beffor the South African Native Affairs Commission October 4,1904 (Extracts) (Published in Minutes ot Evidence South African Native Affairs Commission , 1903 - 1905).
- (96) وقد اعترض الإفريقيون على سلسلة الضرائب بدءاً من ضريبة الرأس 2جنيه على كل ذكر يعيش في المدينة، وإيجار يصل إلى 18 سنتا، ونقل الزبالة 2سنت و6فلس ، والصرف الصحي 7سنت و6 فلس ، وضريبة وقوف العربات 7سنت و6فلس .وأغرب ضريبة هي ضريبة الكلاب ( 10 سنت) فأى إفريقي يقتنى كلباً يدفع ضريبة .وأن كثرة الضرائب تشعرهم بأنهم ليسوا بشراً بل أرقاء
- Document 8d:- Testimony of James B. Mema and Johen Makue ,Transvaal, Befor the South African Native Commission, October 7,1904 (Extract) Published in Minutes of Evidence , South African Native African Commission 1903-1905,P.43.
- (97) The Parliamentary Debates ,Fourth Series,Vol . I4I. Feb.I4 to Feb. 28, 1905, PP.509, 521.
- (98) The Parliamentary Debates, Vol . I32 Aug 10 to Aug. 15, 1904 ,PP.559, 560, 658, 659, 661 , 749, 750.
- (99) Land Settlement in South Africa , The Parliamentary Debates Fourth Series , Mar. 5 To Mar.16, 1906, Wyman & Sons Limited, London, Vol . 153, PP.442, 443.
- (100) Land Settlement in the Transvaal ,The Parliamentary Debates Fourth Series,Vol.129,Feb.2 To Feb. 13,1904 , PP.1026,1507,1534,1536,1568.
- وبالنسبة للأحوال الاقتصادية فى الترانسفال انظر صفحات، 1507,1534,1536,1568، والنسبة للأحوال الاقتصادية داخل الأورنج الحرة. انظر صفحات 382-387، 418، 446، 493، 494، 50،

- (101) Document 9:- Petition To King Edward VII, From the Native United Political Associations of the Transvaal Colony , April,25.1905(Typewritten3Pages). Vol. P.45.
- (102) Hendrik , Fred T:- The Pillars of Apartheid , Land Tenure , Rural Planning and Chieftaincy, Stockholm Sweden ,Uppsala ,1990,pp.32,33,34.
- (103) وفي سيكاي وجد البروفسور ماكميلان سنة 1928 أن عدداً كبيراً من العائلات بلا حقول وأن من Willson Monica and Leonard Thompson :- انظر :- 10-20% من الذكور البالغين في هيرسكل، انظر :- Op.Cit,P.56.
- (104) Swanson Maynurd :- Op.Cit.,PP.402,406,410
- (105) The Parliamentary Debates , Fourth Series , Vol.119 ,Mar.6 To Mar.23, 1903, P.102.
- (106) Merdith, Martin:- Op.Cit, P. 34.
- (107) Hancock. Wik:- Op.Cit,PP.315,316.
- (108) Buell, Reymon Leslie :- Op.Cit,P.81.
- (109) Buell, Reymon Leslie :- Op.Cit,P.81.
- (110) Ibid , P.82 .
- (111) وأيضاً من خلال لجنة الشؤون الوطنية المختارة لسنة 1910 تم دعم المعزل من قبل الجنرال هيرتزوج عندما كان وزيراً للشؤون الوطنية لسنة 1912 للمزيد انظر :- Kallaway , Peter :- F.s.Malan The Cape Liberal Tradition, and South African Politics 1908-1924 ,the Journal of African History , Vol.15,No. 1,1974.P.118.
- (112) Blausten, Richard : Foreign Investment in the Black Homelands of South Africa, African Affaris, vol. 75, No. 299, April 1976, P. 209.
- (113) Cope, Nicholas:- Op.Cit , P.436.
- (114) Document 9:- Op. Cit , P.45.
- (115) Document 11:-Petition to King Edward VII, From The Orange River Colony Native Congress, June 1906 (Printed,IPage)Vol . 1,P.48.
- (116) Keegan , Tim :-Op. Cit ,P.241.
- (117) Compulsory Labour on Crown Lands in the Transvaal, The Parliamentary Debates, Fourth Series , Vol .167, Dec.11 to 21,1906,Wyman & Sons Limited. London ,PP,1022,1023.
- (118) Transvaal Crown Land The Parliamentary Debates, Fourth Series , Vol .167, Dec.11 to 21,1906 , P.1023.
- (119) Redding , Sean :- South African Blacks in a Small Town Setting: The Ironies of Control in Umtata ,1878 – 1955-,Canadian Journal of African Studies ,Vol. 26,No. I(1992) PP.75, 76.

• وكانت عبارة عن مزرعة أعطيت من قبل أحد زعماء القبائل لأحد المزارعين التجار البيض (في ستينيات القرن 19) وقام أبناؤه بعد وفاته بتقسيمها لنحو 460 قطعة سكنية وبيعت سنة 1907. (120) فى سنة 1912 كان هناك دافعى ضرائب ملونين يعيشون فى نوروود كملاك للاراضى ومستأجرين، ولا يوجد تسجيل بوجود أو عدم وجود ملاك بيض فى المنطقة، للمزيد انظر Ridding , Sean:- OP. cit . PP.76 , 77.

(121) The Parliamentary Debates, Fourth Series , Vol .167, Dec.11 to 21,1906,Op.cit ,PP. 661,965,966,970,1075,1077,1704 .

(122) The Parliamentary Debates, Fourth Series, Vol 168,1906,PP.623,641.

(123) Civil Services and Revenue Departments Estimates ,1906-1907,Fourth Series ,Vol .158,My28 To June 18.PP.623,670,62,63,1362 وحكم ثورة ديتزولو زعيم ثورة وحكم على 1362,62,63,670,623.PP. My28 To June 18. Vol .158. أن تخصص له أحد مزارع البيض ليعيش عليها مع إحدى زوجاته فى البامباتا بالسجن على C. o. 18792:- Telegram from the Governor - Nylstroom نيلستروم General of the . Union of South Africa to the Secretary of State for the Colonies. (Received Colonial Office. 8.25 p. m. 18 th June 1910.

\* فى جمهوريتا الترانسفال والأورنج لم تفرض ضرائب على الأكواخ ولكن تم فرض ضريبة على الرأس وضريبة عمل . أما ناتال فكانت أول مستعمرة تفرض ضرائب على الأكواخ سنة 1857 وكانت 7 شلن من 1857-1875 ثم زيدت إلى 14 شلن، وبالنسبة لحجم قطع الأرض فهى تختلف باختلاف المقاطعات وهى عادة من 10-12 أكر ، والكوخ عادة يشكل نصف أكر. انظر: Redding Sean Op.Cit., PP.68,69.

(124) Ibid, PP.61,62.

(125) Durkje , Gilfillan :- Restitution: Can Entitlement to Tenure Reform break Through the Constitutional Barrier off the 1913 Cut-off Date?www. Mekonginfo .org.

(126) Rich Paul :- The Origins of Apartheid Ideology :the Case of Ernest Stubbs and Transvaal Native Administration 1902 – 1932, African Affairs, Vol.79, No.315 April 1980,PP.174, 175.

(127) Origins and Development of African Nationalism ,www.anc. org .za .

(128) keegan Tim :- The Restructuring of Agrarian Class Relations in a Colonial Economy : The Orange River Colony 1920 – 1910, Journal of Southern African Studies, Vol . 5 , No. 2 Apr. 1979 , PP. 248, 249 .

(129) Document 13 : Petition to Secretary of State for State for the Colonies, from the National Native Congress , October 1908 , Typewritten, 13 Pages, Vol . 1, P .50 .

(130) Keegan , Tim :- The Restructuring Op. Cit, P. 250.

• كانت السياسة البيضاء تنوء بثلاثة اتجاهات بخصوص الوطنيين وهى: إحلال السلام، ترقية المسيحية والحضارة الغربية، تدمير القبيلة .

(131) Hancock , w. k :- Op. Cit , PP . 316 , 317.

(132) Buell, Reymond Leslie :- Op . Cit , P . 92.

(133) الدكتور تشارلز كان عضو رابطة الأخوة العالمية League of Universal Brotherhood حيث طالب بطرد العائلات من الأرض وحدثت عمليات طرد وحدثت مأساة في المنطقة حيث راح المطرودين بحيواناتهم يبحثون عن سيد جديد: للمزيد انظر Keegan , Tim :- The Restructuring ... , P . 249.

(134) Document 15 : Resolutions of South African Native Convention, March 24-26 . 1909 , Published in Iswilabantu ( Voice of the People ) , P . 53.

(135) C. o 551 / 25662 :- From Governor General Office to Colonial Office, London, About Special Transvaal War Fund . 27 July 1910. P.367.

(136) مثلما تم تحويل مملكة الزولو - التي ظلت مستعمرة حكم ذاتي تحت التاج البريطاني منذ سنة 1839 - سنة 1909 وأصبحت مساحة المنطقة 4 مليون أكر تحت سيطرة اثنان وطني زولولاند Zululand Native Trust ، وألحقت بناتال وأصبح الحاكم العام الرئيس الاعلى لزولولاند ، وحكم قانون ناتال الوطني سنة 1878 المنطقة ككل . Evans , Ifors - L :- Op. Cit , P. 10 .

(137) Cope, Nicholes :- Op. Cit , PP. 436, 437 .

(138) Co. 328824 :- About Land Settlement Board , 23 rd Augst, 1910.

(139) C. o 551 / 1 / 28853 :- Prospector and Farmer , 17 September 1910 .P.579.

بعد هزيمة البوير تشكلت الكثير من الأحزاب السياسية في كلا الجمهوريتين حيث دخلوا الاتحاد فيما بعد وهم شبه متحدين . فكون بوتنا قائد قوات البوير في الترانسفال سنة 1905 حزب الشعب لحماية مصالح الأفريكانرز ورغب في عدم الاهتمام بمصالح الأفريكانرز فقط، لهذا تحالف مع بعض الناطقين بالإنجليزية وعمل على ربط المصالح الإنجليزية بالأفريكانية . وفي الأورنج تشكل اتحاد أورانجيا Oraugia Ume بعد حزب الشعب مباشرة برئاسة هيرتزوج ليضطلع بمصالح الأفريكانرز ، وتشكل أيضا حزب جنوب إفريقيا، وتحالفت القوى الثلاث ذات الغالبية الأفريكانية بتشكيل الاتحاد تحت مسمى حزب جنوب إفريقيا الوطني South African National Party . كانت نتائج الانتخابات الاتحادية 1910 كالآتي الحزب الوطني لجنوب إفريقيا 66، الاتحاديين 38، العمل 4 والمستقلين 12. انظر

Stultz Newell M:- Afrikaner Politics in South Africa 1934- 1948, University of California Press, Berkeley, Los Angeles , london 1974 PP. 9 , 10.

## قائمة المصادر والمراجع

أولاً - الوثائق غير المنشورة:

- C.o 417 /3 , Commission Passed Under The Royal Sign Manual and Signet. appainting The Right Honorable , Sir Hercules George Robert Robinson, P.C.G.M.C. to be Her Majesties High Commissioner For South Africa 29 Feb.1884.
- C.O 417 /3/9474:Selzure an English yacht by Portuguese Officials 5 June 1888.
- C.O.48 / 524: Ponoland Exploration and Manual Right 12th. March 1888.
- C. o. 48 / 532 / 13217: Naboths Blunder , Cape Times ,19 June 1897.
- C.O.48 / 524: Cape of Goode Hope ( Pondoland ) Letters Patent , June 1894.
- C. O. 48 / 524:- Constitutional Agitation, Aug. 29 1894.
- C. O. 48 / 524:- Letters From Tengo Jabavu , Covering a Petition to Hen Majesty to Refuse Assent to The Glen Grey Act ,. 28 August,1894.
- C. O. 48 / 524:- Letters From Tengo Jabavu , Covering a Petition to Hen Majesty to Refuse Assent to The Glen Grey Act ,. 28 August, 1894.
- C. O. 48 / 524:- The Native Moved , Sept. 5 , 1894.
- C. o. 48 / 524 / The Native Act, ANative Missionaries Protest. C. o. 48 / 524:- The Native Act.
- C. o. 48 / 53 (271 ) Pundos and Principle , The Cape Argus , Wednesday , June 27, 1897.

- C. o. 48 / 524: Losses And Account of Stock Thefts by Pondos ,Prime Ministers office , Natal , 18th.October, 1894.
- C. o. 48 / 524 / 20961: Dispatch From the High Commissioner ,Cape Town to The Governor Natal.13 November 1894.
- C. o. 48 / 532 / Lo 904:- Resolution adopted by the Legislative Council on the Subject of the maintenance of Peace in South Africa, Government House , Cape Town 22 May 1897.
- C. o. 48 / 532 (272) Cape Parliament Legislative Council, Wednesday, June 23, 1897.
- C. o. 48 / 523 / 15393:- Proceedings of the Meeting of the Congress of the South African League, Held at Port Elizabeth11-13 th February, 1897.
- C. o. 48 / 531 / 4327:- Native Rinderpest. Representative Visit to Kimberly and Taung,s office of the Government Labour Agent fro Native Territories. IMVANI, 24 the December 1896.
- C. o 551/3: About Application for a Government Form Form Land Settlement Department O.R. C. Bloemfontein 29/6/1903.
- C. o. 18792:- Telegram from the Governor - General of the. Union of South Africa to the Secretary of State for the Colonies. (Received Colonial Office. 8.25 p. m. 18 th June 1910.
- C. o 551 / 25662:- From Governor General Office to Colonial Office, London, About Special Transvaal War Fund. 27 July 1910.

### تانياً: الوثائق المنشورة:

- Karis Thomas and Gwendolen M.Carter:- From Protest To Challenge, A Documentary History of African Polities in South Africa ,Volume I, Protest and Hope 1882-1934. Hoover Institution Press Second Edition U.S.A.
- Document 2:- Editorial on Taxation in Imvo Zabantsunedu November 10, 1884(Extract),
- Document 6:- The future of the Bill " Editorial in Imovzabantsundu , August 15 , 1894.

- Document7:- Question Affecting the Native and coloured people Resident in British South Africa: Statement by the Executive to the South Africa Native Congress.
- 1903 Document.8b:-Testimony off The Rev. ET.Mpela. The Rev. B.K B.Kumalo j.Twayi ,A.Jordaen, I. Mocher,I. Lavers. And Peter Thaslone ot The Native Vigilance Association of The Orange River Colony , befor The South African Native Affairs. Commission ,September23 , 1904 (Extracts) Published in Minutes of Evidence , South African Native Affairs Commission 1903 – 1905.
- Document 8a:- Testimony of Martin Lutli of The Natal Native Congress befor the South Africnn Native Affairs Commission, May 28/1904, (Extracts)Published of in Minutes of Evidence , South African Native Affairs Commission 1903-1905.
- Document 8c:- Testimony of the Rev. Samuel Jacobus Brander, The Rev.Joshu Mphotheng. Mphela, and Stephen Nguato of the Ethiopian Catholic Church in Zion , befor the South African Native Affairs Commission October 4,1904 (Extracts) (Published in Minutes of Evidence South African Native Affairs Commission , 1903 - 1905).
- Document 8d:- Testimony of James B. Mema and Johen Makue .Transvaal,Befor the South African Native Commission, October 7,1904 (Extract) Published in Minutes of Evidence , South African Native African Commission 1903-1905.
- Document 9:- Petition to King Edward VII, From the Native United Political Associations of the Transvaal Colony, April, 25.1905 (Typewritten3Pages).
- Document 11:-Petition to King Edward VII, From The Orange River Colony Native Congress, June 1906 (Printed,IPage).
- Document 13: Petition to Secretary of State for State for the Colonies, from the National Native Congress , October 1908 , Typewritten, 13 Pages, Vol. L.
- Document 15: Resolutions of South African Native Convention, March 24-26, 1909, Published in Iswilabantu (Voice of the People).
- The Cape Colony and Simons Bay Rail Way , Hansard Parliamentary

Debates ,3rd Series , Vol.297, 17 Apr. 1885 To 7 May 1885.

- The Parliamentary Debates, Fourth Series, Vol. 89 , Jan 23ToFeb.27,1901 Finance Bill, May16 The Parliamentary Debates Authorized Edition fourth Series,Vol .Apl.29 ToMay16,1904.
- The Parliamentary Debates, Fourth Series,Vol. 141. Feb.14 to Feb. 28,1905.
- The Parliamentary Debates, Vol. 132 Aug 10 to Aug. 15 , 1904.
- Land Settlement in South Africa , The Parliamentary Debates Fourth Series , Mar. 5 To Mar.16,1906, Wyman & Sons Limited, London, Vol . 153.
- Land Settlement in the Transvaal ,The Parliamentary Debates Fourth Series,Vol.129,Feb.2 To Feb. 13,1904.
- The Parliamentary Debates, Fourth Series , Vol.119 ,Mar.6 To Mar.23,1903.
- Compulsory Labour on Crown Lands in the Transvaal, The Parliamentary Debates, Fourth Series , Vol.167, Dec.11 to 21,1906,Wyman & Sons Limited. London.
- Transvaal Crown Land The Parliamentary Debates, Fourth Series, Vol. 167, Dec.11 to 21,1906.
- The Parliamentary Debates, Fourth Series , Vol.167, Dec.11 to 21,1906.
- The Parliamentary Debates, Fourth Series, Vol 168,1906.
- Civil Services and Revenue Departments Estimates ,1906-1907,Fourth Series ,Vol. 158,My28 To June 18.

### تالتاً: المراجع الإنجليزية:

- Buell Raymond Leslie,-The Native Problem in Africa Vol.1 , The Macmillan Company,1928.
- Davenport. T. R. H:- South Africa, A Modern History , Fourth Edition , Hong Kong , 1991.
- Deklerk, W. A: The Puritans in Africa, A Story of Afrikanerdom, Rex Collings, London, 1978.
- Evans , Ifor:- Native policy in south Africa. An Outline Cambridge

University Press, 1934.

- “ Contemporary Struggles against white rule “- Gibson, Richard:- African liberation Movements oxford University Press, London , 1972.
- Giliome, Hermann and Lawrence Schlemmer: - From Apartheid to Nation Bulding , Oxford University Press , Cape Town , 1989.
- “- Hancock W. k:- Smuts The Sanguine years 1870- 1919 Cambridge University Press, London , 1962.
- Hendrik , Fred T:- The Pillars of Apartheid , Land Tenure , Rural Planning and Chieftaincy, Stockholm Sweden ,Uppsala ,1990.
- Hoagland, Jim: - South Africa Civilization in Conflict London, 1972 - Lester, Alan , Etieenne Nel and Tony Binns:- South Africa past, present and futuer, , London, , 2000.
- Lockhart J. C. M and Woodhouse:- Cecil Rhodes, The Colossus of Southern Africa , The Macmillan Company ,U.S.A 1963.
- Lundahl, Mats: Apartheid in Theory and Practice, An Economic Analysis, Westview Press, Sanfrancisco, 1992.
- Mbeki Govan:South Africa, The Peasant’s Revolt, Penguin Africa Library,1984“ South African in the Past War Period “- Merdith , Martin:- In The Name of Apartheid Harper&Row , Publisher , New York , London , 1985.
- Mc Donald J.G:- Rhodes A Heritage Chatto ond Windus, London , 1943.
- “ Befor and Since the European War and the Boer Rebellion “- Plaatje , Sol. T:-. Native Life in South Africa Negro Universities Press , New York, 1969.
- Robertson. H. M:. - The Economic Condition of the Rural Natives, Schapera: - Western Civilization and the Natives of South Africa “ Studies in Culture Contact , Humanities Press, New York , 1934.
- Stultz Newell M:- Afrikaner Politics in South Africa 1934- 1948, University of California Press, Berkeley, Los Angeles , London 1974.

- Willington John: Southern Africa, A Geographical Study, Vol. 11, Cambridge 1960.
- Wilmsen , Edwin N: Land Filled with Flies Apolitical Economy of the kalahari, The University of Chicag Press,Chicag ond London 1989.

### رابعاً: الدوريات الإنجليزية:

- Ballard , Charles:- The Repercussions of Rinderpest: Cattle Plague and Peasant Decline in Colonial Natal , International of Journal of Africa Historical Studies, Vol. 19 , No. 3 (1986 ).
- Blausten, Richard: Foreign Investment in the Black Homelands of South Africa, African Affairs, vol. 75, No. 299, April 1976.
- Crush , Jonathan and Alan Jeeves:-Transitions in the South Africa Countryside , Canadian Journal of African Studies,VoL.27, No,3 (1993).
- Feinberg Harvey M:- The 1913 Natives Land Act in South Africa:- Politics , Race , and Segregation in The Early 20th Century , The International Journal of African Historical Studies, Vol. 26, No. I (1993).
- Hammond – Tooke w. D:- The Transkeian Council System1895 – 1955 : An Appraisal , The Journal of African History, Vol.9. No. 3, (1968).
- Kallaway , Peter:- F.s.Malan The Cape Liberal Tradition, and South African Politics 1908-1924 ,the Journal of African History , Vol.15,No. 1,1974.
- Keegan, Tim: - The Restructuring of Agrarian Class Relations in a Colonial Economy: Orange River Colony 1902 -1910 , Journal of Southern Africa, Studies, Vol 5 , No. 2 , April 1979.
- Redding, Sean:- South African Blacks in a Small Town Setting: The Ironies of Control in Umtata ,1878 – 1955-,Canadian Journal of African Studies ,Vol. 26,No. I(1992).
- Redding, Scan:- Legal Minors and Social Children: Rural African Women and Taxation in the Transkie, South African Studies Review, Vol. 36 , No. 3. (Dec. 1993).

- Rich , Paul B: - The Appeals of Tuskegee , James Henderson, Lovedale , and The Fortunes of South Africa Liberalism. 1906 – 1930 The fortunes of South African Liberalism , 1906 – 1930 The International Journal of African Historical Studies, Vol 20 , No. 2. 1987.
- Rich Paul:- The Origins of Apartheid Ideology:the Case of Ernest Stubbs and Transvaal Native Administration 1902 – 1932, African Affairs, Vol.79, No.315 April 1980,
- Swanson. Maynard:- The Sanitation Syndrome: Bubonic Plague and Urban Native Policy in the Cape Colony , 1900-1909 The Journal of African History ,Vol.18, No. 3, (1977).
- Trapido , Stanly:-African Divisional Politics in The Cape Colony , 1884 to 1910 , No. I , 1968.
- Willians , Donovan:- African Nationalism in South Africa: Origins and Problems, The Journal of African History , Vol. 11 , No. 3 (1970 ).

#### خامساً: الرسائل العلمية:

- أحمد عبد الدايم محمد حسين: الفقر والمرض في المجتمع الإفريقي تحت الحكم العنصرى فى جنوب إفريقيا 1948-1976 ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، 2005.

#### سادساً: تقارير ووثائق منشورة على شبكة المعلومات الدولية:

- Durkje , Gilfillan:- Restitution: Can Entitlement to Tenure Reform breake Through the Constitutional Barrier off the 1913 Cut-off Date? [www. Mekonginfo.org](http://www.Mekonginfo.org).
- Origins and Development of African Nationalism ,[www,anc.org.za](http://www.anc.org.za).

oboiikan.com

"الشورى الأبوية"

صناعة القرار عند محمد على باشا

الدكتور

ناصر أحمد إبراهيم

Obseikan.com

## "الشورى الأبوية"

### صناعة القرار عند محمد علي باشا

نحاول في هذه الورقة فهم الطريقة التي حكمت عملية صناعة القرار واتخاذها عند محمد علي باشا. وهي مسألة تتصل اتصالاً وثيقاً بطبيعة النظام الإدارى الذى أدار به مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولقد كُتِبَ الكثير عن الدواوين والإدارات التى أنشأها محمد علي، وحركة التشريعات والقوانين التى أصدرها خلال فترة حكمه والتى شكلت ركيزة أساسية للنظام الإدارى فى مصر حتى نهاية القرن التاسع عشر.

وقد نال الكثير من القوانين والقرارات والأوامر اليومية حظاً وافراً من النشر منذ القرن الماضى<sup>(1)</sup>. ولايعنينا فى هذه الورقة دراسة تلك القوانين أو القرارات فى حد ذاتها،

(1) انظر بخصوص ما نُشر منها فى المصادر التالية: لائحة ديوان المعاونة، طبعت بمطبعة بولاق فى 13 ربيع الأول 1259هـ/ 13 إبريل 1843م؛ فيليب جلاد، قاموس الإدارة والقضاء، الإسكندرية، المطبعة التجارية، 1891؛ أحمد فتحي زغلول، المحاماة (القاهرة، 1900)؛ وأمين سامى، تقويم النيل (3 أجزاء) القاهرة: طبعة دار الكتب، 1928-1936، وقد أعيد نشره فى العام 2003؛ أسد جبرائيل رستم: المحفوظات الملكية المصرية: بيان وثائق الشام، أربعة أجزاء، مطبعة الجامعة الأمريكية - بيروت 1940-1943؛ كذلك هناك دراسة محمد خليل صبحى التى نشر بها مجموعة كبيرة من القرارات والقوانين: تاريخ الحياة النيابية فى مصر من عهد ساكن الجنان محمد علي باشا، فى ستة أجزاء، القاهرة 1937-1947. " الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي، وذلك تحت إشراف الأستاذ الدكتور رءوف عباس وتحقيق مجموعة من الباحثين، مج 1، دار الكتب الوثائقية، 2005؛ وجرى نشر المجلد الثانى، وسوف نعتمد فى هذه الدراسة على المجلدين، وسوف نشير إلى الأوامر والمكاتبات التى استخدمت من المخطوط بحسب عنوان المراسلة وتاريخها. أيضاً قام رودلف بيترز بترجمة ونشر قانون الفلاحة عن النص التركى الموجود بدار الوثائق القومية كما قدم قراءة تحليلية لهذا القانون، انظر:

كما لا يدخل في نطاق الدراسة توضيح أهميتها وكيف أدار محمد على من خلالها دولا العمل في كل مؤسساته الإدارية، وإنما تركز الورقة على دراسة المرحلة السابقة على إصدار القرار/ أو القانون؛ بمعنى أننا لا نكثر بالقرارات في شكلها النهائي أو في اللحظة الأخيرة التي خرجت فيها إلى النور، عبر تسجيلها في مضبطة ديوان الخديوى أو من خلال نشرها في الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) التي كانت تعد منبراً أساسياً لنشر القرارات والقوانين منذ أن بدأت في العام 1828<sup>(2)</sup>.

والدراسة - إذاً - تمضى في إطار بحث المراحل التي كانت تمر بها عملية إنتاج القرار قبل لحظة إصداره؛ وذلك بهدف فهم الآلية التي كانت تشكل بها أنظمة صناعة القرار عند محمد على، وتحليل المقومات الأساسية التي استندت إليها قراراته، ومدى مشاركة رجال دولته فيها. والإشكالية الأساسية تقوم على فحص مدى صحة المقولات التي راجت حول تأثير النزعة الفردية عند محمد على ومركزيته الشديدة التي يُنظر إليها عادة على أنها احتوت الجميع أفراداً ومؤسسات - مدى تأثير تلك النزعة على تفرد باتخاذ القرار، واعتبار " إرادته العلية " المصدر الوحيد الملهم لكل الأفكار والأحكام القوية التي حققت نتائج مبهرة في زمن قياسي. ويتصل بهذه الإشكالية تحليل طبيعة نظامه فيما إذا كان - على نحو ما يوصف عادة - " نظاماً أبوياً "، وصل إلى حد التسلط والتحكم في كل شيء، وبشكل لا يدع للآخرين من كبار المسؤولين في إدارته سوى دور المنفذ لسلسلة القرارات التي كانت تُملئ عليهم، أم أنه كان ممن يؤمنون بأهمية إفراح المجال أمام نوع ما من المشاركة الفاعلة التي يجد النظام نفسه في حاجة إلى الاسترشاد بخبرتها وآرائها المختلفة بصرف النظر عن حجم ما يمتلكه من قوة وسلطة وإرادة فعل ؟. ويمكن صياغة السؤال بطريقة أخرى.. هل تم إنتاج القرارات والقوانين واللوائح التنظيمية في إطار "مؤسسة" تفاعلت داخلها مجموعات كبيرة من المشاركين باختلاف مواقعهم في السلطة مع "الذات العلية" الممثلة في شخص محمد على، أم أن صناعة القرار ظلت تتسم طيلة

(2) صرح في العدد الأول منها أن ولى النعم أراد يرمى إلى أن الأخبار التي ترد من "مجلس المذاكرة السامى" والأمور المنظور بها في "ديوان الخديوى" .. أن يتم نشرها على العموم لتعظيم الفائدة بحسن دراية سائر المأمورين والنظار وغيرهم مما يرد بها. انظر: وقائع مصرية، العدد الأول، بتاريخ 25 جمادى الأولى 1244هـ/ 1828م.

هذه الحقبة بالطابع الفردى شديد الذاتية؟ إن أحد البواعث الأساسية التي دفعتنا إلى دراسة صناعة القرار هو الشك في جدية التفسيرات التي تعزى دائماً مشروع النهضة في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى عبقرية رجل واحد (هو محمد علي) ظهر وحده في الساحة، وتمكن من تنظيم كل شيء بثاقب نظره وبراسته الحادة وشخصيته الفذة، وأن كل التوجهات الصحيحة والمنتجة كانت من بنات أفكاره وحده، فهو الزعيم المُلهم والقائد المرشد الذي تحولت أفكاره وآراؤه من برنامج رجل واحد إلى برنامج وطني شامل استطاع أن يحقق للمجتمع المصري نقلة نوعية غير مسبوق<sup>(3)</sup>. أيضاً وبالقدر نفسه لدينا شك في صحة ما تردد كثيراً عن أن إنجازات محمد علي في مجملها كانت مستوحاة من التجارب الأوروبية، لاسيما في مجال التشريع وصياغة القوانين واللوائح وبناء المؤسسات القانونية والقضائية، وأن هذا الحاكم مضى في أغلب مراحل حكمه على هدى ما استطاع تمثله من تلك الإنجازات الغربية وبصفة خاصة الفرنسية<sup>(4)</sup>. وتحاول هذه الدراسة اختبار مدى مسaire مثل هذه المقولات للوقائع التاريخية الخاصة بتلك الحقبة التي احتفظت ذاكرة التاريخ - لحسن الحظ - بدقائق وقائعها وحوادثها؛ وذلك من خلال دراسة إشكالية صناعة القرار والمرجعيات التي تم الاستناد إليها عند صياغته النهائية.

إن ما نحاول القيام به هنا، على وجه التحديد، يتلخص في دراسة صناعة القرار في إطار أوسع من الفرد الذي أصدره في شكله النهائي. وإلى جانب اعتمادنا على الأوامر والقرارات التي أصدرها محمد علي سوف نعتمد على بعض ما وصلنا من مضابط جلسات ديوان الخديوى أو مضابط مجلس شورى الملكية (ديوان المشورة) التي سُجِّلت

(3) لعل الكتابات التي نُشرت في النصف الأول من القرن العشرين هي التي شكلت مجمل هذه الصورة، ويأتي على رأسهم دراسة محمد شفيق غربال التي جاءت تحت عنوان: محمد علي الكبير، سلسلة أعلام الإسلام، دار إحياء الكتب العربية، أكتوبر 1944. وحول تأثير تلك الكتابات على تكوين صورة زاهية في ذهنية الأجيال المتعاقبة، انظر مقالة عاصم الدسوقي: صورة محمد علي باشا بأقلام مصرية، دراسة في تأثير المناخ السياسى على كتابة التاريخ، مجلة الهلال، عدد يوليو 2005، [ص ص 8-10].

(4) عالج عبد الكريم مدون جانب من هذه المسألة في دراسته: فرنسا ونظرية التحديث في مصر، في ندوة "إصلاح أم تحديث؟ مصر في عصر محمد علي" تحرير رءوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة، 2000، [460-447].

بها المداولات والآراء والاقتراحات المختلفة، و تربطها في الوقت نفسه بالقرارات التي استقرت عليها إرادة الباشا وجرى تطبيقها وتعميمها في الواقع، وكذلك المراسلات المتبادلة بين مجلسى المشورة وديوان الخديوى، الأمر الذى يسمح بتحليل مضمون المشاركة الحقيقية التى قُدمت في عملية صنع القرار من قِبَل من عملوا في معية محمد على باشا. وخلال المعالجة سوف نفسح المجال واسعاً للاقتباسات الواردة على لسان محمد على؛ وذلك لأهميتها الدلالية الموحية بكثير من الأفكار التى كانت مختمرة في ذهنه وعند معاونيه في جهاز السلطة.

وفي مقابل ذلك سوف نقلل من اعتمادنا على المصادر الأدبية المعاصرة التى لم تقدم لنا سوى حكماً عاماً، مشوباً بالتحامل الشديد أو اللاموضوعية في التقييم، حتى إننا لا نستطيع معها تكوين صورة واضحة حول الطريقة التى اعتمد محمد على استخدامها في إصدار قراراته وأوامره، وكذا المرجعية الثقافية التى ارتكن عليها عند بلورتها، وشكل العلاقة التى ربطته بكبار المسئولين في إدارته؛ إذ كان بعض المعاصرين ينظرون إلى محمد على من زاوية انطباعاتهم عما كان يصدره من قرارات، على حين كان البعض الآخر وخاصة ممن شاركوا في التجربة نفسها تستوقفهم الطريقة التى يبنى بها قراراته: فالمصادر المحلية (على سبيل المثال الجبرتى ورفاعة الطهطاوى) تقدم رأين متباينين: فنجد الجبرتى يُسجل في موضعين من يومياته رأيه في طبيعة حكم محمد على، جاء في الأول منها: "إن الباشا يجب الشوكة ونفوذ أوامره في كل مرام، ولا يصطفى ويجب إلا من لا يُعارضه في جزئية أو يفتح له باباً يهب منه ريح الدراهم والدنانير أو يدلّه على ما فيه كسب أو ربح من أى طريق أو سبب من أى ملة كان.."<sup>(5)</sup> وفي الموضع الآخر كتب يقول: "إن ولّى الأمر لا يتقرب إليه من يريد قربه إلا بمساعدته على مراداته ومقاصده، ومن كان خلاف ذلك فلا حظ له معه مطلقاً، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب ولو على سبيل التشفع حقد عليه وربما أقصاه وأبعده وعاداه معاداة من لا يصفو أبداً.. وقد عُرِفَت

(5) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، (أربعة أجزاء)، دار الكتب المصرية 1998، ج 4، ص 381.

طباعه وأخلاقه في دائرته وبطانته، فلم يمكنهم إلا الموافقة في المساعدة في مشروعاته، إما رهبة أو خوفاً على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم وإما رغبة وطمعاً وتوصلاً للرياسة والسيادة.."<sup>(6)</sup> ومن الواضح أن الجبرتي، من خلال هذين النصين، حاول إبراز الطبيعة الاستبدادية التي غلفت حكم هذا الباشا وسيطرة أهوائه ونزعاته الشخصية على الانفراد بالقرارات والإطاحة بكل من يعارضه، وأن رجال حكومته أو معيته كانوا يمضون قدماً في الاتجاه الذي حدده لهم، ولم يكن لهم من دور سوى إعانته على تحقيق مبتغاه.

بيد أنه يتعين علينا أن نتذكر أن كاتب الحوليات لم يأت حكمه على التجربة في إطارها الشامل ككل؛ حيث لم يُؤرخ من فترة حكم محمد على التي ربت على أربعة عقود سوى الخمس عشرة سنة الأولى التي تعد أصعب سنوات مر بها محمد على وهو بصدد تصفية خصومه على الساحة (الماليك) لتحقيق سيطرته على البلاد وبسط الأمن في ربوعها، وإعادة هيكلة الاقتصاد وتوجيهه في خدمة المشروعات الكبرى التي استحدثتها بما في ذلك تكوين جيش نظامي فعال. على حين كانت الفترة التي تلت وفاة الجبرتي (والتي تزيد على الربع قرن من حياة محمد على) هي الفترة الأكثر أهمية في تجربة هذا الحاكم؛ حيث بدت سمة الاستقرار واضحة ودافعة إلى تدعيم مؤسسات الحكم بعمل تنظيم جديد للإدارة وإصدار عدد مهم من اللوائح والقوانين التي صارت أساساً للأحكام والتشريعات التالية. ومن ثم يصعب تعميم حكم الجبرتي على مجمل التجربة التي تغيرت قلباً وقالباً بعد وفاته؛ ولذلك يصح اعتبار الجبرتي شاهداً فحسب على الفترة الحرجة التي اعتمد فيها محمد على (وبصورة فردية بالطبع) على ذكائه وحيله في تطويق خصومة والسيطرة على الموارد وتحقيق تراكم مادي يعينه على عمل مشروعاته المستقبلية.

وعلى النقيض من الجبرتي نجد رفاة الطهطاوي الذي كان أكثر قرباً من صناعات القرار وشاهد عيان على التجربة في بعدها الممتد يسترعى اهتمامه أن محمد على لا يتعمد فرض القرارات وتعميمها قبل اختبار مدى جدواها: فهو " إذا أراد ترتيب لائحة مهمة فيها

(6) نفسه، ج 4، ص 419 (حوادث نوفمبر 1816 م).

منفعة للأمة شرع فيها بقصد التجريب شيئاً فشيئاً على طريق الإصلاح والتهديب، فإذا سلكت في الرعية، وصارت قابلة لعوامل المفعولية كساها ثوب الترتيب والانتظام وأخرجها من القوة إلى الفعل في ضمن قانون الأصول والأحكام"، كما أبدى إعجابه الشديد بتحريره العدل والإنصاف في حكم الرعية.<sup>(7)</sup>

كذلك طرحت أقلام المراقبين الأجانب التباين نفسه: فمن ذلك ما ذكره "هامون" الذى نشر في حياة محمد على كتاباً في مجلدين عن مصر تحت حكم محمد على (في العام 1843) قال فيه أن الباشا: "هو السيد الأوحد والأعلى في البلاد، وجميع المديرين بالنسبة له ليسوا سوى سكرتيريه أو مندوبين عنه يمثلون سلطته و ينفذون أوامره، ولا يستطيع أحد منهم أن يتصرف أو أن يأخذ المبادرة دون موافقته والرجوع إليه"<sup>(8)</sup>.

على حين يؤكد "كلوت بك" بأن محمد على كان "أول والى عثمانى استطاع إدراك الأفكار النافعة فيما يتعلق بالحكومة والإدارة، وأنه بالرغم من سلطته المطلقة إلا أنه أحكم

(7) رفاة الطهطاوى: مناهج الأبواب المصرية في مباحج الآداب العصرية، مصر 1912، ص 208.

Hamont, Pierre Nicolas: L'Egypte sous Méhémet-Ali, 2 vols., Paris 1843, t. 2, pp. (8)

ويلاحظ أن العديد من المؤرخين والدارسين الأجانب الذين اعتمدوا على هذا المصدر في دراساتهم تبناوا رؤية هامون، برغم التحامل الشديد والواضح لهذا الأخير على محمد على، وأحياناً نجدهم يتهادون في مبالغتهم في نقد نظام محمد على إلى حد يفوق في الواقع ما ذهب إليه هامون نفسه، ولعل أبرزهم "روبرت هنتر" و"جى فارجيت"، انظر بالنسبة للأول: "مصر الخديوية ونشأة البيروقراطية الحديثة" ترجمة بدر الرفاعى، المجلس الأعلى للثقافة، 2005، ص ص 12، 19، 35-36، 41-44؛ جى فارجيت: محمد على مؤسس مصر الحديثة، ترجمة محمد رفعت عواد، المجلس الأعلى للثقافة، 2005، ص ص 54، 55، 57. وتعد هيلين ريفلين من أول من لفتوا الانتباه إلى أن "هامون" قدم في شهادته "انتهاماً حاداً لمحمد على ويجب تناول الكتاب بحذر". انظر هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى، دار المعارف بمصر 1967، ص 412. كذلك ثمة دراسة حديثة لـ على كورخان، عقد فيها مقارنة بين كلوت بك وهامون وبين أسباب هجوم هامون على محمد على. انظر: Ali Kurhan: Analyse critique du portrait de Méhémet-Ali par Clot bey, [31-58], pp. 51-56.

وقد نشرها في ندوة: إصلاح أم تحديث؟ مصر في عصر محمد على، تحرير رءوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2000.

التدبير بتحاويه عن الحكم الاستبدادي الذي كان مثله أن يجري على خطته؛ إذ شكل لنفسه مجلساً خاصاً اعتاد المداولة فيه مع أعضائه في جميع الأعمال المتعلقة بالحكومة قبل الشروع في تنفيذها " وأنه اعتمد على الإحصائيين الخبراء في كل المجالس التي أنشأها. وأنه لو توافر عنده الوقت الكافي وازداد عدد الأكفاء من خريجي المدارس " لتحتل مصر بنظام دستوري ثابت" (9).

ومن الواضح أن التباين راجع في حقيقة الأمر إلى اختلاف موقع كل منهما من محمد على ومدى احتكاك كل منهم بمؤسسات السلطة، كما توقف الأمر على طبيعة مشاركتهم في تلك المؤسسات، ونسبية درايتهم بوقائع المداولات التي كانت تجري بها. وبقدر ما كان كل من رفاة الطهطاوي وكلوت بك مشاركين في دواوين محمد على، ومتفاعلين بحكم مواقعهم الوظيفية مع النظام، وشهود عيان على مجمل تجربة الحكم والإدارة في تلك الحقبة بقدر ما كان كل من الجبرتي وهامون يرصدان تطور شكل حكومة محمد على من خارج دائرة السلطة، هذا فضلاً عن أن لكل منهما مواقفه الخاصة من الرجل نفسه؛ حيث إن شهادتهما شخصية إلى حد بعيد ومن ثم فهما غير بريئين من التحامل عليه. وإذا نحن أمام رؤيتين، واحدة من داخل النظام وأخرى من خارجه؛ ومن هنا تباين تقييم كل منهما لتجربة الحكم زمن محمد على.

أياً كان الأمر فإن الدراسة تجد أهمية خاصة في الاعتماد على أصول الوثائق المتمثلة في الأوامر والمراسلات اليومية؛ إذ إن تلك الأصول كفيلاً بأن تُطلق لشخص مثل محمد على الإعراب عن نفسه وطريقته في التفكير في بناء قراراته بصورة غير مباشرة؛ لا سيما وأن أوامره وقراراته متوافرة إلى حد يصعب معه وضع حصر لها، وهذه المادة الأرشيفية تبدو من كل جانب ثرية للغاية، إذ تفيض بها كان مكنوناً في نفس هذا الحاكم وبأهدافه وطموحاته التي سعى إلى تحقيقها؛ ومناقشاته وتبادلته الرأي والاقترحات مع رجال

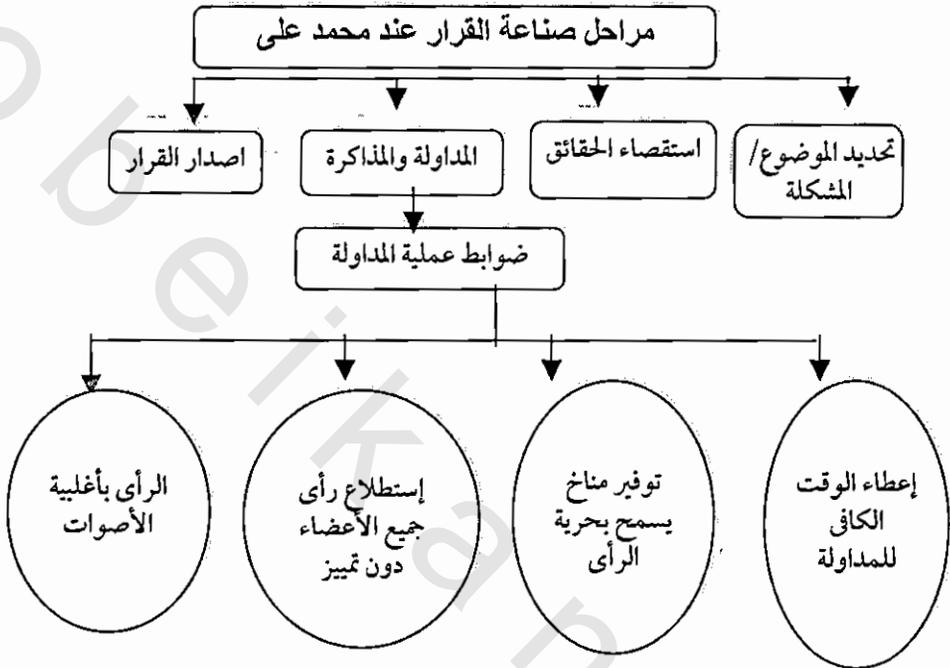
(9) كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، تعريب محمد مسعود، دار الموقف العربي، ج 3، ط 2، 1982، ص 181، 182. ويجب ملاحظة أن كلوت بك كان رئيساً لأحد دواوين محمد على وهو ديوان مجلس شوري الأطباء، وهو ما يُضفي على شهادته أهمية خاصة.

دولته؛ وفضلاً عن ذلك تفوق هذه المادة الأرشيفية في الأهمية ما عداها من المصادر الأدبية: فهي تتسم بالواقعية الشديدة؛ لأنها تأتي في إطار البحث عن حلول لمشكلات أو مواجهة تحديات معينة، ومن ثم فإن "الطابع الذاتى" الذى يظهر بوضوح فى المصادر الأدبية لا نلاحظه فى تلك الأوامر والقرارات؛ إذ ليس من هدفٍ للأخيرة سوى تحقيق النتيجة المتضمنة فى النص؛ ولهذا عادة ما تبدو لغتها جافة ومحددة، إلا أنها فى الوقت نفسه تنطوى على قدرٍ كبير من الشفافية والوضوح؛ لا لشيء سوى أن صاحبها لم يرد بخلده - لحظة إصداره للأوامر أو كتابته لمراسلاته اليومية العاجلة - أن مثل هذه الأصول سوف تصبح مصدراً تاريخياً يُحكّم بها عليه وعلى عصره، أو أنها سوف تكشف عن اتجاهاته وتقديراته وأفكاره وأهدافه ودوره ودور كل من كانوا فى معيته (السنية) وشاركوه فى مواجهة المشكلات والتحديات. ومن ثم سوف نعتمد بشكل أساسى على هذا النوع المتميز من الوثائق، إلى جانب عدد من مضابط الجلسات الخاصة بمجالس ودواوين الإدارات. والجدير بالذكر أنه يمكن من خلال مراسلات محمد على وأوامره الصادرة إلى مديرى الدواوين المختلفة فى إدارته تحليل مضمون المداولات وخلاصات مضابط الجلسات؛ حيث اعتاد محمد على الإشارة إلى مضمونها فى صدر مراسلاته ثم يتبع ذلك بردوده عليها. ومن هنا يمكن بسهولة تحليل نوعية القضايا التى طُرحت للمناقشة والتعرف على الاتجاهات التى مضت فيها تلك المناقشات والمداولات وما تمخض عنها من نتائج. وعلى هذا النحو تتوافر لدينا مجموعات متنوعة من الأوامر والمراسلات والتقارير ومضابط الدواوين التى تكشف دينامية العمل خلف عملية صناعة القرارات.

### مراحل صناعة القرار

إن القراءة التحليلية لمضمون المكاتبات والأوامر اليومية والتوجيهات أو حتى التعليقات التى كان يطرّحها الباشا على ما جاء فى مضابط الجلسات وخلاصة الإفادات - إنها تسمح بإمكانية تمييز مراحل معينة تسبق صدور القرار يبينها الشكل التوضيحي التالى:

شكل توضيحي يبين  
مراحل صناعة القرار عند محمد علي  
(بين عامي 1824 - 1848)



يبين الشكل التوضيحي أن قرارات محمد علي كانت تنتظم - عادة - من خلال أربع مراحل أساسية؛ وذلك بالنسبة إلى القرارات المهمة على وجه الخصوص؛ إذ ليست كل القرارات قد مرت بالضرورة بهذه المراحل الأربع؛ فهناك قرارات مرت بمرحلتين أو ثلاث، وأخرى انفرد فيها بقراره مباشرة؛ وخاصة إذا ما تراءى له أن ليس ثمة حاجة إلى استطلاع رأي أعضاء مجلس المشورة فيها؛ سواء لأن الأمر كان محسوماً بشأنها<sup>(10)</sup>، أو كانت أسباب المشكلة واضحة ولا تحتاج إلى معلومات تفصيلية، أو كان الأمر بالغ الخطورة (كما في النواحي العسكرية) وغير محتمل للتأخير بسبب ضيق الوقت وصعوبة

(10) ومن ذلك على سبيل المثال: تأكيده على ناظر البحرية ألا يجيل على مجلس المشورة موضوع عساكر الدونمة الذين أقدموا على إلتاف أعينهم بالجير؛ لأنه ليس في حاجة إلى تحقيق المسألة؛ فقاراه فيها واضح وهو إعدام كل من يجرؤ على هذا الفعل رمية بالرصاص "جزاء لهم وعبرة لغيرهم". راجع نص الأمر في: الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي، مج 1، أمر رقم 2191، بتاريخ 3 ربيع أول 1251/1835، ص 439.

الموقف؛ مما كان يُحتم التعجيل بسرعة إصدار القرار. أما الموضوعات (وخاصة المشكلات) التي لم يقف فيها على ظروفها وملاساتها؛ سواء لغموضها وتعقد حلقاتها أو لتضارب المعلومات بشأنها فإنه كان يميلها إلى مجلس المشورة، ويطلب دراستها واستجلاء كل ما هو غامض أو غير واضح فيها، واستقصاء كل المعلومات المهمة المتعلقة بها؛ حتى يتسع أمامه مجال رؤية المشكلة في أبعادها الشاملة؛ ومن ثم تتوافر له خيارات وبدائل عدة، تمكنه من مواجهة المشكلة، وحلها حلاً حاسماً، أو تمكنه من التعرف على الاقتراحات الأكثر ملائمة بالنسبة لما كان يعزم على تنفيذه من مشروعات كبرى حيوية واستراتيجية. ومن ثم يتعين أن نضع في الاعتبار بأن ما سوف نحلله من قرارات محمد على إنما يرتبط بهذا النوع الأخير من القرارات.

وبداهة كان لكل مرحلة من المراحل الأربع وظيفة أساسية، ما إن تتحقق حتى يتم سريعاً الدخول في المرحلة التالية؛ وصولاً إلى اللحظة التي يتوفر عندها إمكانية إصدار القرار. ونعرض فيما يلي تحليلاً لكل مرحلة على حده؛ لإبراز الهدف الأساسى في كل منها، وسوف نحاول من خلال القراءة التحليلية للمكاتبات والأوامر والقرارات وضع أيدينا على " الضوابط " التي سعى محمد على إلى تطبيقها؛ لضمان سلامة عملية صناعة القرار على النحو الذى تصوره آنذاك.

ويادى ذى بدء يجب التذكير بأن إحالة أو تحديد الموضوعات القابلة للمناقشة وتداول رأى بشأنها داخل "مجلس المشورة" كان يتم من خلال ثلاث جهات أساسية حددتها لائحة ترتيب "المجلس العالى" (وهو اسم مرادف لمجلس المشورة)<sup>(11)</sup>: الأول منها ما

(11) كثيراً ما نلاحظ تبادل التسمية بين وصف المجلس على أساس وظيفته كهيئة استشارية فيقال: "مجلس المشورة" أو "شورى الملكية" أو بالنظر إلى أنه كان أهم مجموعة تعمل إلى جوار الباشا نفسه، فيجرب وصفه بـ "المجلس العالى" وأحياناً "المجلس الأعلى"؛ ولذلك ليس من الغريب أن ينعكس هذا الخلط بين المسمين في التقارير التي كانت ترصد "حوادث مجلس المشورة" والتي كانت تنشر في العادة بجريدة "الوقائع المصرية"، فداخل تقرير الجلسة الواحدة يجرى استخدام المسمين بمعنى واحد. انظر على سبيل المثال ما جاء في العدد رقم 127 (بتاريخ 25 رمضان 1245)، أو العدد رقم 148 (بتاريخ 5 ذى الحجة 1245). أيضاً أشار أمين سامى إلى أن مجلس المشورة أطلق عليه مسمى "شورى المعاونة" في العام 1833/1249، وأصبح يُعرف بديوان المعية السنية" في العام 1842/1258. راجع أمين سامى: المصدر السابق، ج 2، ص 412.

كان صادراً مباشرة من محمد على نفسه إلى مجلس المشورة، والثاني فيما كان يرفعه نظار الدواوين ومأمورو الأقاليم من إفادات وتقارير لها صلة بتنظيم المصالح العمومية، أما المورد الثالث والأخير فيتمثل في المشكلات التي كانت تُثار داخل الإدارات ولا يستطيع المسؤولون حلها فعندئذ كانوا يجيلونها إلى المجلس، إضافة إلى ما كان الأهالي يرفعونه للمجلس من عرض حالات تأخذ الطابع الجماعي. وما إن يجتمع أعضاء المجلس للمناقشة حتى تبدأ بالفعل دراسة المشكلات والاقترحات، وتبدأ من ثم أولى مراحل صناعة القرار بتحديد المشكلة.

### 1- تحديد المشكلة:

كان محمد على يعي تماماً أن تحديد لب المشكلة هو الخطوة الأولى الرئيسة في صناعة القرار؛ لأن استجلاء كنه الموضوع / المشكلة يُمكن أعضاء مجلس المشورة من التمييز بين الأسباب والأعراض، ومن ثم يصبح واضحاً أمامهم الاتجاه الصحيح نحو تحليل أبعاد المشكلة: فقد شدد في "التعليقات السنوية" الموجهة إلى أعضاء مجلس المشورة على ضرورة أن يهتم "أهل المجلس بالبحث عن العلل والأسباب وأن يتبصروا طرق الخداع والحيل، وأن يدققوا النظر في الحكم بها.. وأن يتذكروا في المصالح التي ترد إلى المجلس من غير إكراه ولا استئقال، ويصرفوا ذهنهم ويبدلوا وجودهم بثبات واستعداد للنظر في الأمور"<sup>(12)</sup>.

ولدينا مضبطة لإحدى الجلسات التي حضرها محمد على بنفسه تقدم نموذجاً للطريقة التي كان يتم بها تحديد المشكلة / الموضوع: فالمضبطة ترصد وقائع الحوار والمناقشة، وتُظهر عناية محمد على وتشديده على دراسة جوهر المشكلة دون الاستغراق في تفاصيلها الهامشية أو الشكلية. وكان موضوع المناقشة دائراً حول مشكلة تأخر وصول "حوافظ أثمان" البضائع الواردة من أوروبا لحساب الميرى المدد طويلة، وصلت في بعض الأحيان إلى عام كامل، وما كان يترتب على ذلك من إرباك في حسابات الخزينة السنوية - فنلاحظ في

(12) راجع نص هذه التعليقات في محمد خليل صبحي: المرجع السابق، ج 5، ص 11؛ عبد الفتاح حسن: ترتيب الإدارة العامة والرقابة على أعمالها في مصر (1805-1848)، مجلة العلوم الإدارية، العدد الأول، القاهرة 1972، ص ص 50 - 52.

المضبطة أنه بعد أن تداول جميع الأعضاء مناقشة التقرير المرفوع بشأن هذه المسألة وتوصلهم إلى قرار معين، بدأ يدخل في حلقة النقاش. لقد أثر أن يترك لهم ساحة المناقشة دون أى مداخلة من قبله؛ حتى لا يُؤثر عليهم برأيه فيسأروه. لكن ما إن انتهوا إلى قرارهم حتى انبرى بتقييم الطريقة التى قادتهم إلى بلورة مشروع القرار ومنتقداً كذلك أعضاء مجلس الإسكندرية الذين ناقشوا الأمر بدورهم من قبل<sup>(13)</sup>: فوجه انتقاده لطريقتهم في بحث الموضوع؛ جراء تركيزهم المناقشة على تناول الجوانب الفرعية من المشكلة، دون الالتفات إلى دراسة الأسباب الحقيقية الكامنة وراءها: فقد أكد لهم أنه "كان من الواجب أن يدرسوا هذا الموضوع الهام دراسة وافية، وأن يقفوا على ما يترتب عليه من نتائج بالغة الأثر، ولكنهم أغفلوا هذا الأمر وخرجوا علينا بهذا القرار دون أن يراعوا واجب الإخلاص للعمل والمصلحة". ولذلك جاء قرارهم - في رأيه - متسرعاً ولم يُبين على دراية كافية بخطورة أبعاد المشكلة. بيد أنه يؤكد لهم من ناحية أخرى بأن قرارهم المتسرع ليس دالاً على ضعف قدرتهم في تحليل الأسباب؛ بل هو من قبيل الاستئفال وقلة مراعاة واجب الإخلاص في المهمة المناطة بهم؛ لأنه على حد قوله: "كان في مقدورهم بحث الموضوع والخروج منه بنتائج منطقية معقولة، لكنهم لم يعمدوا إلى البحث والتدقيق". ولذلك جاء تحذيره لهم من المضى على هذه الطريقة في التفكير؛ لأنها لن تمكنهم من تقدير حجم المشكلة أو إدراك ما يمكن أن يتمخض عنها من نتائج وخيمة طالما أنهم لم يُراعوا فهم الأسباب والعلل.

إن مضبطة هذه الجلسة<sup>(14)</sup> تبدو ثرية للغاية فيما تعكسه من دلالات: فقد جاءت استجابة الأعضاء لتوجيهات الجناح العالى سريعة ومباشرة في الجلسة نفسها؛ إذ انعكست بوضوح على تغير طريقة مناقشتهم للمسألة، وبدا كل عضو بالمجلس متحمساً وحريصاً على تقديم وجهة نظره، مدعومةً بطرح عدد من التساؤلات والاستفسارات،

(13) كانت مضابط مجلس الإسكندرية ترسل تبعاً إلى الديوان الخديوى للتصديق عليها، فإن رأى ديوان الخديوى فيها ما يوجب إعادة النظر أحالها على المجلس العالى الملكى على نحو ما نلحظ في هذه المشكلة. انظر: أحمد فتحى زغلول: المصدر السابق، ص 165.

(14) دار الوثائق: ديوان خديو تركى، دفتر قيد المداولات والقرارات، رقم 772، مضبطة رقم 19، ص 59-66: "صورة محضر المجلس المنعقد بتاريخ 19 جمادى الأولى سنة 1246 (1831).

وهو ما جعل المناقشة تأخذ ملمح الطابع التحليلي الذي كشف ما انطوت عليه المشكلة من مخاطر حقيقية لم تكن صورتها، عند بدء المداولة، واضحة في أذهانهم (بها في ذلك محمد على نفسه)، ويظهر ذلك بوضوح فيما توصلوا إليه في نهاية المضبطة من بلورة قرار يُغيّر تماماً قرارهم الأول الذي ساقوه في بداية الجلسة.

ويلاحظ من المادة الحوارية المسجلة في المضبطة أن محمد على عاد إلى صمته، مؤثراً الإنصات الكامل للمناقشة عندما بدأ الحوار فيها يأخذ المنحى التحليلي. وإذا وضعنا في الاعتبار أن هذه الجلسة تحديداً من الجلسات القليلة التي حضرها محمد على في بدايات عمل المجلس العالى؛ حيث كان من المعتاد أن يرأس الجلسات "الكتخدا بك"<sup>(15)</sup>، فإنه يمكننا الافتراض بأن طريقة الحوار على نحو ما تبينها المضبطة قد قدمت نموذجاً عملياً للكيفية التي ارتآها محمد على مناسبة للإلزام أعضاء المجلس باتباعها عند التعامل مع القضايا المطروحة للمناقشة من أجل بلورة صورة واضحة لمشروع قرار يعتمد في النهاية.

بيد أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن أعضاء المجلس لم يبدوا كل هذا الحماس إلا في حضور الباشا أو تحت تأثير توجيهاته على أية حال؛ فكثيراً ما استحسن الأخير قرارات انتجتها قريحة هؤلاء الأعضاء أنفسهم من دون تدخل منه أو إجراء تعديل ما من جانبه على ما توصلوا إليه.<sup>(16)</sup> وكل ما هنالك أنه حين كان يستشعر درجة ما من تهاون الأعضاء في بدء النقاش بدراسة المشكلة الأساسية وتحديد أسبابها، وعدم إعمال العقل فيها قبل اتخاذهم القرار كان لا يتوانى عن اتهامهم بالتقصير والغفلة، ومن ذلك على سبيل المثال رسالته إلى رئيس مجلس المشورة التي جاء بها: "إن عدم خلو المواد الجارية نظرها والمداولة فيها بالمجلس من الشوائب لا شك ناشيء عن عدم الالتفات أو من عدم

(15) كان كتخدا محمد على هو من يتولى إدارة الجلسات وقد نشر أحمد فتحى زغلول نص الأمر الذي فوض فيه محمد على رئاسة المجلس العالى إلى هذا الكتخدا والنصائح والمبادئ التي أوصاه باتباعها في إدارة الجلسات. انظر "أمر من محمد على إلى كتخدا بك، بتاريخ 5 ربيع آخر 1240" في أحمد فتحى زغلول: المحاماة، القاهرة، 1900، ص ص 161-163.

(16) وعادة ما يشير محمد على في هذه الحالة إلى أنه اطلع على مضبطة المجلس وأنه لا مانع لديه من تنفيذ مشروع قرارهم على النحو الذى حددوه في المضبطة. انظر على سبيل المثال: أمر محمد على إلى رئيس مجلس اسكندرية بتاريخ 27 رجب 1250، في الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، مج 1، ص 406.

مراعاة الأصول. وإنى مستغرب من عدم وجود شخص واحد من أعضاء المجلس يفكر في أسباب تلك الشوائب وإزالتها. ومع تكرار ايقاظى لكم ما زلت أشعر بتكاسلكم وذلك لما شاهدته من مخالفة إجابة المجلس على الأسئلة المقدم بها التقرير.. "ولوح لهم في نهاية رسالته بأنه في حال استمرار إهمالهم لقاعدة المشورة سوف "يُجازيهم بالجزآت العديدة ويعين بدلهم".<sup>(17)</sup> ويبدو أن تهديداته لم تكن مجرد عبارات جوفاء كان يُطلقها من أجل استثارة هميتهم نحو الالتزام بالتعليمات: فقد حدث ذات مرة أن قرر مجازاتهم جميعاً، تاركاً لهم تحديد الجزاء على أنفسهم.<sup>(18)</sup> وبالتحديد لب المشكلة يظهر على السطح أطرافها، وتتضح حلقاتها المعقدة، ويتم التعرف على ما هو غامض فيها وما هو في حاجة إلى المزيد من المعلومات التفصيلية، الأمر الذى يسمح بالدخول إلى المرحلة الثانية القائمة على البحث عن كل الحقائق الممكنة المتعلقة بالموضوع / المشكلة. وقد أولى محمد على عنايته بهذه المرحلة الهامة في عملية صنع القرار.

## 2- استقصاء الحقائق وثيقة الصلة بالمشكلة / الموضوع

إن كل من يتصفح أوامر ومراسلات محمد على يتكشف له من أول وهلة مبلغ عنايته بالبحث عن الوسائل التى تمكنه من الحصول على المعلومات الموثوقة من مظانها. والواقع أن محمد على أبدى مراراً وتكراراً تخوفه من أمرين: الأول منها يتعلق بتسلل الأكاذيب والمعلومات المفلقة، التى لا تمت بصلة للواقع، إلى التقارير المرفوعة له أو لمجالس الدواوين، والأمر الثانى يتصل بعامل الزمن الذى يُعول عليه كثيراً فى صنع القرار المؤثر؛ إذ إن القرار الصادر فى غير ميقاته يبدو كطلقة طائشة فى الهواء، لا تؤدى إلى تحقيق أية نتيجة مرجوة، بل قد تسوء الأحوال وتتفاقم خاصة إذا كان الأمر يتعلق بمشكلة مزمنة أو عاجلة. ويمكن القول بأن هذين الداءين كانا أخطر ما واجهه محمد على فى استقصائه للحقائق المطلوب مناقشتها على طاولة مجلس المشورة.

(17) أمر من محمد على إلى رئيس المجلس، رقم 2187، بتاريخ 23 صفر 1251 / 1835، فى الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، مج 1، ص 438.

(18) على نحو ما فعل بهم فى مشكلة اختلال الموازنة بين الإيرادات والمصروفات فى العام 1259 / 1843، انظر: " الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، دار الكتب، مخطوط رقم 2484 تاريخ تيمور، مج 2: " مكاتبة من محمد على إلى مجلس شورى المعاونة، بتاريخ 5 جماد أول سنة 1843 / 1259.

لقد كان محمد على مؤمناً بأن أى قرار سديد لن يُبنى إلا على أرضية واسعة من الحقائق الموضوعية لا على الرؤى والانطباعات الشخصية التى غالباً ما تكون ناقصة وغير صحيحة أو مزوجة بما يسميه هو نفسه "بالعلل والشوائب والأكاذيب"؛ ولذلك حذر أعضاء المجلس من الانسياق وراء كل ما يصلهم من جورنالات (أى يوميات الموظفين) الموظفين وتقاريرهم أو التسليم بأنها تحوى وقائع وحقائق وحسب؛ إذ من شأن بناء قرار ما على معلومات مغلوبة أو غير مكتملة نسيباً أن "يُضلل المجلس ويُفسد المصالح ويعطل مسيرة العمل والإصلاح"، وقد كتب يوماً رسالة إلى المنكلى باشا (مأمور استكشاف المعادن) يحذره أيما تحذير من إبداء حسن النية التى تقوده إلى التراخي، فتمكن من وصفهم بـ "المزورين ذوى النوايا الفاسدة" أن يُدخلوا عليه تزويرهم؛ ولذلك شدد على ضرورة "التحقق وعدم الإصغاء إلى أقوالهم والتأمل فى عبارات الجرنال بميزان العقل".<sup>(19)</sup>

وحاول محمد على من خلال المجلس العالى أن يضع قواعد وترتيبات معينة تشكل فى النهاية قانوناً يحول - قدر الإمكان - دون تسلل "الأكاذيب والعلل" إلى التقارير، وبشكل مبدئى اقترح على المجلس أن يلزم كل موظف بتقديم تقريره مفصلاً، ثم يتولى المجلس فحصه بعناية: فقد جاء فى إحدى أوامره إلى رئيس المجلس العالى: "إن على كل موظف الاهتمام فى عرض مواد المصالح بالتفصيل لينظر فيها، ومتى اتضح خلوها من العلل والشوائب يأمر بإجرائها، وإلا يصرفها لما فيه الإصلاح.. ولكن بعض من لا شعور لهم، المنهكين فى طمع أنفسهم، يفقدون كل هذه الرعاية، ورواجاً لمقاصدهم الباطلة يستعملون الكذب المؤدى لإيقاع أنفسهم الخبيثة فى ورطة المذلة، الموجبة لفساد المصلحة، وإن من واجبات ذمة أولى الأمر النظر فى إصلاح هؤلاء، وسلوكهم إلى طريق الاستقامة، وإلا مجازاتهم عبرة لغيرهم؛ فبناء على ذلك يشير بالمذاكرة والبحث على طريقة تنزيل هذا الكذب من الوجود وتنظيم قانون مخصوص لذلك يحتوى جزاء [ أى مجازاة ] من يتوقع منه ذلك.."<sup>(20)</sup>

(19) الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، دار الكتب، مخطوط رقم 2484 تاريخ تيمور، مج 2: "أمر من محمد على إلى قيودان منكلى باشا، بتاريخ 15 ذو الحجة 1259 / 1844.  
(20) أمر من محمد على إلى محمود أفندى رئيس المجلس فى 14 رجب 1249 / 1833، فى الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، مج 1، ص 378.

لقد كانت هذه المسألة مثار قلق شديد عند محمد على؛ وهو ما تعكسه بوضوح كثرة أوامره إلى كل مرءوسيه في جميع الجهات بأن يتحروا ذكر الحقائق، وأن يتجنبوا زخرف القول، وأن يقدموا الأفعال على الأقوال "حتى ينقذوا أنفسهم من مهاوى الهلاك وأكون أنا (أى محمد على) بريئاً مما سترتب عليهم عند حدوث أدنى إنحراف"<sup>(21)</sup> وهو ينظر إلى إخفاء الحقائق على أنه نوع من "ازدراء المصلحة العامة"<sup>(22)</sup>.

بل إنه ليصف من يتعمد هذا النوع من التضليل بأنه "عدو للوطن وللحكومة" كما نجده في بعض الأحيان يُجمل الجهة الإدارية الصادر منها التقرير المسؤولية الجماعية عن الأخطاء المتعمدة على نحو ما حدث إبان عملية تعداد النفوس: "وكل من يحصل منه أدنى تراخى من المديرين وخلافهم، وأهملوا في أداء واجباتهم.. يكونوا مسئولين، ويجرى محاكمتهم قانونياً بجزئات قاسية، بحسب درجة جنائيتهم؛ لأنهم هم المسئولين عن ضبط سير الأعمال على الصحة.." <sup>(23)</sup>

إن دقة المعلومة تصبح هدفاً أساسياً في هذه المرحلة؛ من أجل إزالة الغموض والالتباس الناتج عن نقص المعلومات أو اختلاطها بما يتجاوز حدود الواقع. ولما كان محمد على واعياً تماماً بأن وضع قانون عام لضبط هذه المسألة ضبطاً شافياً ليس بالأمر الهين الذى يمكن تحقيقه، فقد وضع نظاماً معقداً لاقتناص المعلومات من أرض الواقع بصورة سريعة وبشكل تفصيلي فاق في بعض الأحيان ما كان يسعى إلى طلبه حتى لقد عين موظفين مخصوصين لعمل ملخصات لها؛ من أجل تسهيل عرضها على المجلس وهى ما عُرِفَت بعد ذلك تحت اسم "ملخصات دفاتر".

(21) الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، دار الكتب، مخطوط رقم 2484 تاريخ

تيمور، مج 2: "أمر من محمد على إلى مأمورى الجفالك والعهد، بتاريخ 20 ربيع آخر سنة 1260.

(22) المصدر نفسه: "أمر من محمد على إلى ديوان الروزنامجى، بتاريخ 27 ربيع الثانى 1256/1840.

ويلاحظ أنه أُنذِر كل من يزدري المصلحة العامة بالفصل من وظيفته العمومية، وبعد بضعة شهور

أصدر بالفعل قراراً بفصل مديرى البحيرة والغربية بسبب ما نُسب إليهما من أعمال التزوير

والإهمال، انظر: دار الوثائق "مكاتبة من محمد على إلى ديوان شورى المعاونة"، دفتر 282، بتاريخ 22

ذى الحجة 1256/1840.

(23) الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، دار الكتب، مخطوط رقم 2484 تاريخ

تيمور، مج 2: "أمر من محمد على إلى عموم الجهات، بتاريخ 13 ذو القعدة سنة 1261.

واستطاع محمد على أن ينوع من مصادر معلوماته: فنجده يكلف مأموري الأقاليم برفع تقارير عن دواثرهم أسبوعياً وشهرياً، ومحذراً لهم في الوقت نفسه من عدم تحريمهم الصدق أو إهمالهم التثبت من صحة ما جاء بها، وضرورة مراجعتها بعد كتابتها؛ لأنها تصبح إما حجة لهم أو حجة عليهم، لا سيما وأنه شكّل لجاناً تقوم بفحص ومطابقة ما يأتي بتقاريرهم على الواقع. <sup>(24)</sup> ومن ناحية أخرى خصص في العام 1248هـ / 1828م إدارة مستقلة عن الدواوين تتبعه رأساً وهي "ديوان عموم التفتيش" الذي أنيط به عمل تقارير بما يجري بإدارات الأقاليم. وكان محمد على دائم التنبيه على مأموري الأقاليم أن يبادروا إلى التعاون مع المفتشين، وأن يردوا على استفساراتهم وتساؤلاتهم "بدون أدنى تردد ولا خلط.. وإلا عاملهم بأسوأ المعاملة" <sup>(25)</sup> وكان ديوان عموم التفتيش يتلقى الجورنالات الدورية التي تعد في الأقاليم على أيدي هؤلاء الموظفين الذين كان يطلق عليهم "جورنالجية"، وبعدها يقوم الديوان تحت رئاسة كتحدا الباشا بعملية تصنيف المعلومات وعمل ملخصات وافية، ليجرى رفعها إلى ديوان الخديوي الذي يعرضها على محمد على أو على مجلس المشورة للمناقشة. <sup>(26)</sup> وتوازي مع ذلك قيام محمد على بعمل جولات تفقدية مفاجئة في جميع الأقاليم التي أنشأ بها من أجل ذلك "استراحات" كان ينزل بها لبضعة أيام يعاين خلالها الأحوال بنفسه، وبطالع الأخبار، ويتلقى عرض حالات الأهالي الذين لم يتجاسروا أو لم يستطيعوا إيصالها إليه، كما أن هذه الجولات أصبحت إحدى أدواته المعرفية في اختبار مدى الالتزام بتنفيذ قراراته، ومعاينة جوانب القصور وأوجه الإهمال على الطبيعة. <sup>(27)</sup>

(24) دار الوثائق: ديوان الخديوي تركي، دفتر 757، ص 79، م 293: من ديوان الخديوي إلى ناظر المجلس 1246 / 1830؛ ديوان معية تركي، دفتر 69، وثيقة 304: "من الجتاب العالی إلى كافة المديرين والمحافظين" بتاريخ 1251 / 1835؛ ديوان المعية السنوية، السجل الأول (1245 - 1246 / 1829 - 1830)، إشراف توفيق أسكندر، القاهرة 1960، ص 29.

(25) الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، دار الكتب، مخطوط رقم 2484 تاريخ تيمور، مج 2: "أمر من محمد على إلى مأموري الجفالك في 4 جماد آخر سنة 1260 / 1845.

(26) هيلين آن ريفلين: المرجع السابق، ص ص 113-114؛ عفاف لطفى السيد: مصر في عهد محمد على، ترجمة عبد السمیع عمر زين الدين، ومراجعة السيد أمين شليبي، المجلس الأعلى للثقافة، الإصدار رقم 554، القاهرة 2004، ص 162.

(27) أمين سامي: المصدر السابق، مج 2، ص 453، في: "الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، مج 1، ص ص 417.

بيد أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن عملية استقصاء الحقائق كانت سهلة أو هينة؛ فالأوامر اليومية تظهر امتعاضه الشديد من تأخر وصول الجورنالات وإهمال المحافظين والنظار ومديرى الأقاليم ومتابعة حركة إرسالها في أوقاتها، وهنا يبرز عامل "قيمة الزمن" باعتباره أحد الضوابط الأساسية التى أولاها محمد على أهمية خاصة فى عملية صنع القرار المؤثر. ولطالما حاول مراراً أن يوضح لمرءوسيه مغزى عامل الوقت والخطورة التى ينطوى عليها بالنسبة للمهمة المناطة بمجلس المشورة: ففى أمر صادر منه ( بتاريخ 1252هـ/ 1836م ) إلى عموم كبار الموظفين والنظار صرح لهم فيه " أنه فى حال عدم تقديم الجورنالات فى أوقاتها فإنه لن يمكنه الوقوف على المصالح؛ إذ إن فائدة الجرائيل هى مطالعتها وتحرير الاستعلامات بها يلزم للإجابة عنها فى وقته، فما هى الفائدة حال عدم تقديمها إليه ؟ وكيف تكون الملاحظة عن مصلحة نظرت وانتهت فيما لو صار تقديمها بعد مضى مدة.. وعليه لا بد من إزالة هذا الضرر وإرسال تلك الجرائيل أولاً بأول فى أوقاتها.. " ويلاحظ أن الأمر تضمن إنزال عقوبة بدنية ( حُدِّدَت بـ 300 نبوتاً ) بكل من يتعمد تأخير إرسال الجورنالات<sup>(28)</sup> وحتى يتمكن من حصر مسئولية التأخير قرر إلزام جميع مأمورى الأقاليم ومرءوسيه من الموظفين فى مختلف الإدارات بضرورة تحرير تاريخ الأمر المرسل واسم الساعى وتاريخ وصوله فى ذيل المكاتبات؛ حتى يتمكن من تخصيص الجزاء على كل من يتسبب إهماله بالفعل فى تعطيل وصول المعلومات أو الأوامر والمنشورات المهمة، وبالمثل أمر جميع المسئولين بالتزام هذه القاعدة عند القيام بإرسال مكاتبتهم الرسمية إلى ديوان الخديوى.<sup>(29)</sup> ومن ناحية أخرى ألزم ديوان الخديوى بتحديد موعد للرد على الأسئلة التى يوجهها المجلس إلى الدواوين والمصالح " فإذا تجاوز أحد الدواوين أو إحدى المصالح ذلك الموعد قيّد تأخيره فى المضبطة لينظر فى أمره " وفى هذا السياق نفهم لماذا ترادفت سلسلة الأوامر والمراسلات التى شدد فيها محمد على على جميع نظار الدواوين والمديرين والمحافظين وأمناء الجمارك والباشوات والمفتشين بعدم التعلل والتأخر فى الرد لأنه لن يقبل منهم أية أعذار.<sup>(30)</sup>

(28) انظر نص الأمر فى أمين سامى: المصدر السابق، ج 2، ص 467.

(29) أمر من محمد على إلى مأمورى الأقاليم المصرية، بتاريخ 19 جماد الأول 1246 / 1830، فى: الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، مج 1، أمر رقم 1487، ص 312.

(30) دار الوثائق: ديوان خديوى تركى، دفتر 18، وثيقة 201: من مجلس الملكية إلى مأمور الديوان الخديوى، بتاريخ 1236 / 1847.

أجل إن البيروقراطية التي نمت في عهده قد عاقته في أحوال كثيرة<sup>(31)</sup>، لكنه بصفة عامة نجح في استغلال سلطته ( ذات الطابع المركزي) في الضغط المتواصل على مرءوسيه في كل مكان؛ ليحصل منهم في معظم الأحوال على المعلومات التي كان في حاجة إليها، ومن ثم تمكن أعضاء المجلس العالى/ المشورة من الإحاطة التفصيلية بالموضوعات المطلوب مناقشتها. وهنا تحديداً تبدأ المرحلة الثالثة في صنع القرار والتي يمكن أن نطلق عليها مرحلة المداولة والمذاكرة.

### 3- مرحلة المداولة والمذاكرة

كانت المرحلتان الأولى والثانية (تحديد المشكلة واستقصاء المعلومات) بمثابة التمهيد لهذه المرحلة التي تعد الأكثر أهمية؛ لأنها المرحلة التي تشهد بالفعل دراسة الموضوع وتشريجه داخل مجلس المشورة الذى كان بمثابة ورشة عمل لاهداف لها سوى بحث المشكلة وإلقاء الضوء على مزاياها وعيوبها وتحديد الإمكانيات المتاحة والبدائل وترجيح اختيار الحل المقترح ثم طرح تصورهم عن كيفية التنفيذ والجهة التي تتولى المتابعة.

والواقع أن محمد على كان قد وضع عدة ضوابط أساسية لضمان سلامة "عملية المداولة" داخل المجلس؛ حتى يطمئن إلى انتاج قرارات "سليمة من العلل والشوائب" على حد قوله، قرارات تُجنبه قدر الإمكان زلل الانسياق وراء الأفكار المتوهم صحتها أو تبني الآراء الخاطئة التي قد لا يدري مبلغ خطورتها. ويمكن استنتاج هذه الضوابط من خلال أوامره وبصفة خاصة مكاتباته إلى "الكتبخدا بك" (رئيس المجلس والممثل لسلطة محمد على في إدارة الجلسات)، ويمكن تحديد تلك الضوابط على النحو التالى:

- 1- حضور ومشاركة جميع الأعضاء في المجلس.
- 2- إعطاء الوقت الكافي للمناقشة والمداولة.
- 3- توفير مناخ يسمح بحرية الرأى دون قيود.
- 4- استطلاع رأى جميع الأعضاء المشاركين دون تمييز.
- 5- بلورة مشروع القرار بأغلبية الأصوات.

(31) يمكن الرجوع حول هذه النقطة إلى دراسة حلمى أحمد شلبى: الموظفون في مصر في عصر محمد على، سلسلة تاريخ المصريين، العدد رقم 30، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1989.

ولعل الرابط الموضوعى بين تلك الضوابط الخمسة يتمثل فى إيهان محمد على بأهمية "العقل الجمعى" فى الوصول إلى إنتاج الآراء السديدة والتبصرة بالنتائج المهمة غير المنظورة أو المدركة، وهو ما يدل على مبلغ تقديره لفكرة الاستشارة وكرهه بالقدر نفسه للإنفراد باتخاذ القرارات اعتماداً على رؤية ذاتية ضيقة الأفق. أجل كان له السلطة المطلقة فى اعتماد القرار أو رفضه برمته فى النهاية، لكن ذلك شىء وإيهانه وتقديره للخبرة وللموهبة التى تزين بها البعض دون الآخر شىء آخر. ويجب ألا ننسى أن الطابع العملى والبرجماتى كانا وراء اعتقاده بضرورة المشورة التى لا تنتقص من نفوذه فى شىء. وهذه نقطة مهمة وأساسية وسوف نعود إليها بعد قليل، لكن من الأهمية بمكان أن نحلل على ضوء تلك الضوابط آراء محمد على فى عملية المداولة والمذاكرة لما تحمله من مغزى لأفكاره حول مفهوم الشورى والقانون وأهميتهما فى تسيير دولاب الحكم والإدارة طيلة فترة عهده.

### 1- حضور ومشاركة جميع الأعضاء فى المجلس

أبدى محمد على عنايته بوجود حضور جميع أعضاء مجلس المشورة؛ معتبراً مسألة الحضور "فريضة" أساسية<sup>(32)</sup>، وأن الالتزام بها من "واجبات العبودية"\*. ولما كان المجلس فى تكوينه قائماً على نظار الدواوين ومديرى الإدارات، فقد شكّل الحضور اليومى للمجلس مساءً بعد انقضاء نهارهم فى العمل فى الإدارات الحكومية عبئاً ثقيلاً. ظهر ذلك من ملاحظة تغيب بعض الأعضاء بين حين وآخر، غير أن محمد على شدد على الأعضاء عدم التخلف عن حضور الجلسات، وعندما كتب أحد الأعضاء إليه يخبره "بعدم إمكانه" المداومة على الحضور إلى المجلس لانشغاله برؤية أمور وظيفته من الصباح إلى المساء "رفض محمد على طلبه، مبدياً اندهاشه؛ لأن المجلس يُعقد ليلاً وليس ثمة شىء يعمل هذا الموظف بالليل، فلماذا يتكاسل عن استكمال واجبه اليومى؟! وأنهى رده على إفادته "إنه يلزم استحضار عقلك إلى رأسك والمداومة على الحضور إلى المجلس كغيرك من الموظفين"<sup>(33)</sup>.

(32) جاء فى نص الأمر المتعلق بترتيب نظر المسائل المعروضة على المجلس العالى: "وتؤدوا فريضة المداولة". انظر ترجمة أمر محمد على إلى كتبخانه فى: أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، ص 161 - 163.

(\*) العبودية: تعنى فى لغة الخطاب فى ذلك العصر الالتزام والمسئولية تجاه تعليمات وأوامر الحكام. (33) أمر من محمد على إلى خزينة دار البحرية، بتاريخ 9 رمضان 1251 / 1835، فى: أمين سامى: المصدر السابق، ج 2، ص 457.

لقد كانت مسألة حضور جميع الأعضاء ضرورية للغاية؛ حتى لا يتسبب تغيب بعض الأعضاء في اختلال "قاعدة المشورة" التي يعول عليها في بناء قراراته، كما كان يخشى أن يؤدي غياب العضو إلى تعطيل أو تأخير عملية المداولة، وخاصة إذا كان الموضوع / المشكلة المطروحة للمناقشة تتعلق بالإدارة التي يرأسها العضو المتغيب أو تدخل على الأقل في اختصاصه. ومن هنا أولى محمد على عناية خاصة بهذه المسألة. وليس أدل على مبلغ اهتمامه بهذا الأمر من تهديده بفرض عقوبة ما على كل مَنْ يتأكد له تكاسله أو تعمده التغيب من قبيل استئقاله للأمر، حتى لقد قنن العقوبة في "لائحة ترتيب مجلس أحكام الملكية" بإيداع العضو المتغيب السجن بعد لفت نظره وتحذيره لمرة واحدة<sup>(34)</sup>. بيد أنه مع ثقل الأعباء المكلف بها هؤلاء المسؤولين في إداراتهم في الوقت الذي تشعبت فيه بمرور الوقت الاختصاصات والقضايا المتنوعة المطلوب منهم سرعة البت فيها بمشروع قرار، فإنهم عجزوا عن الالتزام بحضور جميع الجلسات. وهنا أيقن محمد على ضرورة إيجاد حلٍ ناجع لهذه المشكلة، وهدهد تفكيره هذه المرة إلى تشكيل مجلس آخر يتوازى دوره مع مجلس المشورة، أطلق عليه "مجلس الحقانية" أو "الجمعية الحقانية" (1842 / 1258)<sup>(35)</sup> ونقل إلى هذه الأخيرة بعض اختصاصات مجلس المشورة<sup>(36)</sup>.

وتقرر بأن جميع أعضاء الحقانية ليس لهم الاشتغال في أى مصلحة حكومية أخرى وأن

(34) وحددت اللائحة مدة الحبس بعشرة أيام في المرة الثانية، وعشرين يوماً في المرة الثالثة. راجع: "لائحة ترتيب مجلس أحكام الملكية" بند رقم 3، وبند رقم 9، في: أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، ملحق 1، ص ص 2-4.

(35) أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، ص 182.

(36) Deny, Jean: sommaire des archives torques du Caire, Société royale de Géographie d'Egypte, Publications spéciale, le Caire, 1930, pp. 108, 121, 122.

وليس أدل على تداخل الاختصاصات من أن محمد على نفسه كان يعرض أحياناً على المجلسين (المشورة والحقانية) مناقشة موضوع واحد في أوقات متقاربة للغاية. حدث ذلك على سبيل المثال عند مناقشة مشكلة التسحب، انظر: الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، دار الكتب، مخطوط رقم 2484 تاريخ تيمور، مج 2: "أمر من محمد على إلى مجلس الحقانية، بتاريخ 27 محرم سنة 1260 / 1844؛ أمر من محمد على إلى ديوان الشورى، بتاريخ 17 ربيع أول سنة 1260 / 1844).

ينشغلوا فحسب بالمهام الموكولة إليهم.<sup>(37)</sup> ولا ريب أن هذا الإجراء كان له تأثيره على انضباط أعضاء المشورة في حضور الجلسات.

## 2- إعطاء الوقت الكافي للمداولة والمشورة

وتمثل الضابط الثاني لنجاح المداولة والمشورة من حيث توفير الوقت اللازم لدراسة الموضوع / المشكلة؛ حيث حذر أعضاء المشورة من التسرع في اتخاذ القرارات قبل دراستها من جميع جوانبها: فقد نصَّ في "لائحة مجلس أحكام ملكية" على "أن القضية التي لم يوجد لها وسع وقت لنظرها فلا ينبغي اعطى الجوابات فيها على بركة الله بل يصير ابقاها إلى ثانى يوم"<sup>(38)</sup>؛ حتى يكفل للجميع فرصة المشاركة والتفاعل في إبداء الرأى في غير تعجل؛ كما يضمن الوصول إلى بناء قرار سليم يحقق الغاية المرجوة منه. كما كان يُؤخذ في الاعتبار طبيعة بعض المشكلات المعقدة التي تفرض ضرورة التحقيق أو استطلاع آراء بعض أهل الخبرة والمتخصصين وهو ما كان يتطلب وقتاً إضافياً. إن وثائق محمد على مليئة بالعديد من المشكلات التي كانت محل نقاش طويل، والتي استغرق بعضها عدة أسابيع، ومن ذلك على سبيل المثال مشكلة "توحيد الرسوم الجمركية" على البضائع التي تمر بجميع الجهات التي تقع تحت حكم محمد على، فقد تم مناقشتها في أكثر من جلسة، ودارت حوارات طويلة عبر تبادل المراسلات بين محمد على باشا وباقي بك (ناظر شورى الملكية) وباغوص بك (مدير الأمور الإفرنجية) وذلك على مدار شهر محرم من العام 1253 / 1838 وانتهت مداولاتهم إلى ضرورة تأجيل إصدار القرار حين توفر الظرف المناسب لتعميمه على الولايات الخاضعة لحكم محمد على.<sup>(39)</sup> ويتضح من ذلك

(37) أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، ص 182؛ وحول أهمية دور هذه الجمعية في التشريع القضائى والقانونى انظر:

Rudolph Peters: Administrators and magistrates: The development of A secular judiciary in Egypt, 1842 – 1871, Die Welt des Islams 39, 3, Leiden 1999, [ 378-397], pp. 381-384.

(38) راجع النص في "لائحة مجلس أحكام ملكية"، بند 5، ص 3؛ كذلك انظر تعليقاته إلى الكتبخا حول إدارة المجلس، في: أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، ص 161.

(39) نظر مضبطة المجلس العالى والقرار الذى تمخض عنها ومراسلات كل من محمد على وباغوص بك وباقي بك في: دار الوثائق: محافظ الشام، محفظة رقم (79).

مدى عنايته بأولوية دراسة مشروع القرار دراسة متأنية ومستفيضة بصرف النظر عن النتيجة التي تتمخض عنها المداولات.

### 3- توفير مناخ يسمح بحرية الرأي دون قيود

تلقى التعليقات الموجهة من محمد على إلى كتبخده بشأن "ترتيب المداولة بالمجلس العالى الملكى<sup>(40)</sup> الضوء على طبيعة المناخ الذى كانت تدور فى ظله المناقشات: فقد أكد على ضرورة " أن يكون جميع الأعضاء مطلقى السراح والحرية أثناء المداولة والمذاكرة ليتسنى لهم ما يستتجونه من أبحاثهم بدون أدنى تحاشى ومبالاة؛ إذ إن معاملتهم بهذه الكيفية تزيد اهتمامهم فى إمعان النظر فيها هو محور عليهم وقت المذاكرة..." على أن هذا لا يُعنى أن دور الكتبخدا بك (رئيس المجلس) كان مجرد دور شرفى أو شكلى، فقد عقد عليه محمد على الرهان الأساسى فى ضبط اتجاهات المداولة والمناقشة وإكسابها طابع الجدية وتحفيز الأعضاء وصولاً للهدف المحدد فى نهاية الجلسة: فقد جاء فى التعليقات " تلزم السماع وتعطى الوقت الكافى (للمداولة) وإذا لزم التكلم عند انتهاء الجلسة فلا تنسب الكلام لك بل تخاطب من أصاب رأيه وتقول له رأى يوافق رأيك.. أحسنت فى تدبيرك، أحسنت فى تقديرك". ويتعين على الكتبخدا عندما يلحظ ورود آراء غامضة أو غير واضحة أن يطلب " بيان ما هو مبهم من لسانه، وتوضيح ما هو مجمل من فمه". وفى رأى محمد على أن هذه الطريقة كفيلة بإثارة حماس هؤلاء الأعضاء " فلا يحصل لهمتهم فتور، ولا اجتهدهم وهن وقصور، ليطالعوا كل مسألة كما يجب، ويزيدوا فى بذل مجهودهم.. فتحصل الثمرة المقصودة، ولا يذهب أتعاب أحد سدى..".

ويبين محمد على أن مهمة الكتبخدا ليست سهلة؛ إذ يتعين عليه أن يتخير الكلمات المؤثرة فيهم والتي لا تجعلهم ينفرون منه أو يُهابونه " فيلقى فيهم الألفاظ المناسبة للحالة بالحنو فتقول: يا إخوانى يا زملاء هذا المجلس محال عليهم ومذاكرة المسائل... منوط بكم وإنى مأمور لأتواجد بينكم واتخذ معكم.. وأن لا اتكلم والتزم السكوت بوجودكم". ومن الواضح هنا حرص محمد على على توفير مناخ من الحرية يسمح بتدفق الأفكار

(40) راجع نص تلك التعليقات الصادرة فى 5 ربيع الآخر 1240 / 1824 فى: أحمد فتحى زغلول:

بصورة تلقائية؛ بحيث يتاح لكل المشاركين الإعراب عن أفكارهم بحرية تامة، ومناقشة مزايا كل فكرة وجدواها، الأمر الذى يمكن الكتخدا في النهاية من الحصول على عدة أفكار واقتراحات معينة تسمح له بتكوين رؤية متكاملة للموضوع، والتعرف على الحلول الممكنة، ثم ترجيح أو إعطاء الأولوية للحل الأفضل استناداً إلى "مبدأ المصلحة" الذى كثيراً ما أوصى به محمد على فى أغلب مراسلاته وأوامره اليومية كما سوف نوضح بعد قليل.

ولعل مضبطة مجلس المشورة الخاصة بمشكلة "حواظ الأثنان" التى أشرنا إليها من قبل والتى وصلتنا ترجمة كاملة لكل وقائعها - لعلها تقدم لنا نموذجاً مهماً لشكل الحوار والمناقشة الهادئة التى تؤكد مبدأ حرية إبداء جميع الأعضاء للرأى دون أية مقاطعة من أحد بها فى ذلك محمد على نفسه الذى كان حاضراً فى هذه الجلسة والتى بدا فيها منصتاً أكثر منه مشاركاً فى الحوار والمناقشة: فقد تم تسجيل كلمة كل عضو فى المضبطة على حده، ورغم أن هناك أحياناً تكرار لبعض الآراء المترددة على ألسنة بعض أعضاء المجلس أثناء المداولة إلا أنه كان يتم تسجيلها؛ وذلك وفقاً للقاعدة التى شدد عليها محمد على والتى ارتأى فيها ضرورة إدراج جميع الآراء بصرف النظر عن اتساقها أو مخالفة بعضها لرأى الأغلبية أو للرأى الذى استقر عليه المجلس فى نهاية المداولة<sup>(41)</sup>. وليس يخاف هدفه من رصد وقائع المداولة والمشورة على هذا النحو؛ فقد كان تواقفاً إلى الإفادة من كل الاقتراحات، ومن الوقوف على الطريقة التى تمت بها معالجة المشكلة.

#### 4- استطلاع رأى جميع الأعضاء المشاركين دون تمييز

وأبدى محمد على اهتماماً كبيراً بدفع أعضاء المجلس إلى الأخذ بهذا المبدأ المكمل لما سبقه، بحيث يُسمح لكل عضو، أياً كان موقعه أو درجته، بطرح رأيه بحرية تامة وشفافية وصدق ودون "مراعاة خواطر الكبار"؛ فالكل داخل المجلس سواسية، وهذا تحديداً ما نصَّ عليه فى لائحة المجلس: "ينبغى أن أرباب المجلس من أى ذات كان، من الكبير أو الصغير، ما دام دخلوا باب المجلس فجميعهم يكونوا بمقام جسم واحد، وإذا أحد أعطى

(41) انظر: "لائحة ترتيب الجمعية الحفانية" فى: أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، الملحقات، الباب

جواب بمصلحة، فالآخر لا يعارض له بقصد تصديق رأيه؛ إذ إن المحك الأساسي في تغليب الأخذ برأى أحد الأعضاء دون آراء الآخرين هو "المصلحة وليس مراعاة خواطر الكبار على حساب المصلحة"<sup>(42)</sup>

وكان محمد على مدركاً تماماً أن حرية إبداء الأعضاء لأرائهم ليست بكافية ما لم يُؤخذ في الاعتبار بمبدأ استطلاع رأى جميع المشاركين في المجلس. وفي أحد الأوامر اليومية لمحمد على نجده يشدد على هذه المسألة ويعتبرها أساس "قاعدة المشورة": فذات مرة ساء ارتكان المجلس على الأخذ برأى أحدهم، وتسجيله في المضبطة على أنه رأى مُجْمَعٌ عليه من سائر الأعضاء، فكتب إلى رئيس المجلس يقول: "قد علمت عدم اتباع قاعدة المشورة بالمجلس.. وأن منكم من يصادفه قضية يجاب عنها بمفرده، ويتصدق عليها من العموم بدون تلاوة ومعرفة الصواب من الخطأ.. إن المقصود من تأسيس المجلس هو المداولة والمشورة في القضايا بين الأعضاء علناً، ولولا ما ذكر ما كان أسس المجلس."<sup>(43)</sup> ولذلك نجده يقرر ضرورة تسجيل مسارات الحوار ورأى كل عضو في المضبطة ورصد كل وقائع الجلسة، حتى وإن بدا التكرار واضحاً في بعض الآراء المطروحة<sup>(44)</sup>.

ويبدو أن هذه المسألة ظلت تشغل بال محمد على حتى أواخر أيامه: ففي الاجتماع الكبير الذي حضره كل المسؤولين في مختلف الإدارات (مأموري الأقاليم والنظار والمديرين والمتعهدين) والذي عقد في العام 1847/1263 نجده يوصيهم بهذه القاعدة: "الواجب يقضى إتاحة الرخصة التامة للصغار مثل الكبار في طرح آرائهم" من غير خوف.. لأن هذه نعمة عظيمة لكم، فعلى هذا إذا سلكتم جميعاً هذا المسلك وأجريتكم عليه صغار الدرجة الذين تحت أيديكم وقابلتوهم بالرغبة والتشويق والترية منكم فلا بد لكم من أن تشاهدوا فوائدهم الجليلة.." ويبيّن لكبار المسؤولين في حكومته الذين يتعالون على

(42) راجع: "لائحة ترتيب مجلس أحكام الملكية"، بند رقم 8، في: أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، ملحق رقم 1، ص 3.

(43) أمر من محمد على إلى رئيس المجلس، بتاريخ 23 صفر 1251 / 1835، في: الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، مج 1، أمر رقم 2187، ص 438.

(44) يمكن أن نلاحظ ذلك بوضوح عند مطالعة نموذج المضبطة المسجلة في دفتر قيد المداولات والقرارات، رقم 772، مضبطة رقم 19، ص ص 59 - 66.

الأخذ برأى صغار الموظفين بأن "اشمئزازهم من هذا الأمر ليس إلا تخيل عبث"؛ لأن الجميع بصدد مهمة جليلة وهى التبصرة بالرأى الصائب، ومؤكداً لهم بأن "المحاشاة والموافقة فى الأمور المضرة بالمصلحة والأصول الموضوعه هو من أعظم الجرائم" وضرب لهم مثلاً بنفسه أنه كثيراً ما دعاهم المرة تلو الأخرى لتقديم أفكارهم وآرائهم حتى وإن خالفت إرادته العلية<sup>(45)</sup> والحقيقة أن أوامره طوال الوقت كانت تعكس وصايته للجميع بأن "يستأنسوا بأراء مرءوسيههم"<sup>(46)</sup> ولا ريب أن برجماتية محمد على هى التى قادته إلى تطبيق هذا المبدأ الذى سرى فى جميع قراراته ولوائحه وقوانينه.

### 5- بلورة مشروع القرار بأغلبية الأصوات

وكانت آخر الضوابط التى حرص محمد على عليها هو إلزام مجلس المشورة الأخذ بمبدأ "الإجماع على الرأى بأغلبية الأصوات"<sup>(47)</sup>.

وكانت هذه اللحظة مهمة للغاية لأنها اللحظة التى تشهد طرح مختلف الآراء بما تنطوى عليه من تناقض أو اتساق، كما أنها اللحظة التى تبرز فيها النتائج الأخيرة التى يجب أن تستند إلى المعايير الموضوعية؛ حتى يستطيع "ولى النعم" الاسترشاد بها.

ولعل مبدأ الأخذ بأغلبية الأصوات يعكس بجلاء ميل محمد على إلى الشورى بمعناها الواسع، أى استطلاع مختلف وجهات النظر حول الموضوع الواحد، والحرص على تطبيق قاعدة الترجيح بأخذ أغلب الأصوات، وذلك خشية التورط فى إصدار قرار غير محسوب عواقبه. إن نظرة واحدة على أوامر ومكاتبات محمد على اليومية تعكس رغبة ملححة لديه فى الاستناد فى أحكامه إلى قوة الإجماع على الرأى. ونجده عبر مراحل حكمه المختلفة وحتى آخر أيامه يوصى أولاده بعدم التثبث بأرائهم الفردية فى إدارة شئون البلاد<sup>(48)</sup>. وحين أوكل إلى كتبخده (عباس باشا) بإدارة البلاد خلال الفترة التى غادر فيها مصر -

(45) خطاب محمد على فى أعضاء مجلس المشورة، بتاريخ 30 ذى القعدة سنة 1263 / 1847، فى أمين سامى: المصدر السابق، ج 2، ص 559-560.

(46) دار الوثائق: ديوان خديو تركى، ملخصات دفاتر، دفتر رقم 759، محفظة رقم 25، وثيقة 312، ص 167، بتاريخ 18 رمضان 1246 / 1830.

(47) Deny, Jean:op.cit, pp. 126.

(48) انظر: "صورة التقرير الذى طلب محمد على باشا وضعه متضمناً إسداء النصيح لأعضاء أسرته والمقدمين من رجاله" بتاريخ 11 محرم 1263 / 1846، فى: دار الوثائق: محافظ الأبحاث، محفظة رقم 135، ملف الوثائق والمكاتبات الواردة للترجمة من الديوان.

بناء على رأى الأطباء - كان أهم ما شدد عليه أن " يلزم رؤية أمور ومصالح الحكومة بالاتحاد يداً واحدة"، وكرر التوصية نفسها بعد بضعة أيام في رسالة أخرى بقوله: "يتحتم عليك القيام بهذا المسند ورؤية الأمور بالاتحاد وببذل النفس فيها"<sup>(49)</sup>. والمعنى المقصود بكلمة "الاتحاد" هنا هو عدم تحكيم شهوة الحكم المطلق في نفس الكتخدا الذى آلت إليه آنذاك مقاليد السلطة الكاملة، وأن يلجأ بدلاً من هذا إلى التعاون مع الآخرين في معيته. وبالمثل نجد أعضاء مجلس المشورة يستخدمون كلمة "الاتحاد" بالمعنى نفسه: ففى جميع المضابط المرفوعة إلى محمد على نجد المجلس يتحرى في نهاية المداورات كتابة هذه الجملة " عقدت المذاكرة والمشورة بالاتحاد" أى بالتعاون بين جميع أعضاء المجلس.

والاتحاد أو التعاون لا يعنى بالضرورة الاتساق الدائم فيما كانوا يطرحونه من آراء واقتراحات لإيجاد حلول معينة للمشكلات المعروضة على المجلس؛ فالخلاف والتناقض فى الرأى كان من وجهة نظر محمد على نفسه مطلوباً؛ لأنه كان يتيح له ملاحظة الملامح المركبة للصورة بكل سلبياتها وإيجابياتها، فيتمكن من بلورة قراره على ضوء ما تطرحه أوجه الاختلاف من بدائل عديدة لحل المشكلة/ الموضوع. وقد نصّ على ذلك فى لائحة "ترتيب المجلس العالى" بقوله: "إذا كانت البراهين العقلية والأدلة المقنعة التى قام عليها (الرأى) موافقة لحسن تسوية المسألة المذكورة، فلا بد من تدوين هذه البراهين والأدلة بنصها، متى وقعت من الحاضرين موقع الإقرار والاستحسان.. أما إذا أقر نفر من الحاضرين هذا الرأى واستحسنوه، وراح فريق يعارضه ويؤثر غيره من الآراء، فحينئذ ينبغى على رجال المجلس أن يزنوا الرأين ( ويميزوا أسباب الخلاف بينهما) ثم يرجحوا أصوبها ويختاروه.." أما إذا لم يستطع الأعضاء حسم اختلافهم فى الرأى، لا سيما حول الموضوعات ذات الأهمية، يتعين عليهم حينئذٍ " أن يسطروا أقوال الفريقين، وتعرض على العتبات الخديوية" التى لها حق الفصل والحسم فى النهاية.

وهذا النص يأخذ موقعه من الممارسة بشكل كامل على مدار العقدين الأخيرين من حكم محمد على، والأمثلة جد عديدة، ويمكن أن نسوق من بينها مثلاً يعبر عن تلك القاعدة: فعندما عُرض على مجلس المشورة دراسة مشروع القناطر الخيرية الكبرى،

(49) انظر: الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، دار الكتب، مخطوط رقم 2484 تاريخ تيمور، مج 2: "أمر من محمد على إلى كتخدا الباشا، بتاريخ 7 / 22 ربيع الأول سنة 1263 / 1847.

وشكلت لجنة من المهندسين المتخصصين، قدم المهندسون الفرنسيون والانجليز بعد شهر من الدراسة وجهتى نظر متعارضتين ( الفرنسيون يقودهم لينان دى بلفون أكدوا على أهمية عمل مشروع القناطر ذات الأهوسة، بينما ناهض نظرائهم الانجليز فكرة القناطر وقدموا مشروعاً مضاداً يقضى بعمل سدود على النيل ) وقدم كل طرف حججه المقنعة والمزودة بصور هندسية مثيرة أدت إلى انقسام أعضاء المجلس على المشروعين حتى احتدم الجدل بينهم، فلما رُفِع الأمر إلى محمد على حسم في ضوء المناقشات والأدلة المقدمة العمل بالمشروع الفرنسى. وعلق لينان الفرنسى في مذكراته على هذه الحادثة بقوله: " هنا فحسب انتهى جدل مجلس المشورة بعد صدور توجيهات ولى النعم ولزم الجميع الصمت"<sup>(50)</sup>.

وتظل قاعدة الترجيح بأخذ رأى الأغلبية مبدأً أساسياً يسود جميع المجالس التى أنشئت في عهده: ومن ذلك على سبيل المثال عندما أنشأ "الجمعية الحقانية" نصّ في لائحتها بوضوح أن القرار " بأغلب رأى أرباب الجمعية، وأنه لا يُعطى حكم ولا قرار ما لم يكون ثلثاى أرباب الجمعية حاضرين، وأنه في حال حدوث انقسام في الرأى يُنظر في عددهم فإن وجدوا متساوين في العدد غير ممكن ضم رأيهم فالجهة التى يكون منضم إليها رأى ريس المجلس فيعطى القرار عنها"<sup>(51)</sup>.

يلاحظ أيضاً في قاعدة الترجيح أن محمد على أخذ بمبدأ "عمل القرعة" في بعض الحالات التى كان يُجار فيها المجلس ويجد نفسه حائراً مثلهم في الوصول إلى قرار؛ فعلى سبيل المثال: لما تقدم ثلاثة حكماء لترشيح أنفسهم لشغل وظيفة "حكيمباشى مستشفى البحرية" وأسفر فحص كفاءة كل منهم عن مساواتهم في الدرجة وكذلك فيما عُرف عنهم من أخلاق كريمة لم يجد بدأً من اللجوء إلى عمل القرعة بينهم، فكتب يقول: "لأجل عدم مغدورية أحد منهم يلزم عمل قرعة بينهم وتنصيب من تصادفه"<sup>(52)</sup>.

(50) لينان دى بلفون: مذكرات عن أعمال المنافع الكبرى التى تمت بمصر منذ أقدم العصور وحتى العام 1882، وقد تم ترجمته بوزارة الأشغال العمومية، المطبعة الأميرية سنة 1949، ص ص 272 - 274.

(51) انظر: "لائحة ترتيب الجمعية الحقانية" في: أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، الملحقات، ملحق رقم 3، بند 2 ص ص 29-30. كذلك طبقت هذه القاعدة عند عمل لائحة ترتيب مجلس تجار

اسكندرية (1845 / 1261)، ملحق 4، ص ص 31-42.

(52) أمر من محمد على إلى مطوش باشا، بتاريخ 19 ذى القعدة 1252 / 1837، في: أمين سامى: المرجع السابق، ج 2، ص 481.

## 4- إصدار القرار

وبتوصل الأعضاء إلى بلورة نتائج مداولتهم في شكل مشروع قرار تنتهي مهمة مجلس المشورة، لتصبح المرحلة التالية (مرحلة إصدار القرار) برمتها قاصرة على محمد على بمفرده؛ إذ كانت سلطة إصدار الأمر أو القرار النهائي منوطة بإرادته هو والتي أطلق عليها "إرادة ولي النعم" وأحياناً "إرادة صاحب المجلس". ولطالما أوضح لرجال دولته سواء في أوامره اليومية أم في لوائحه وقوانينه أن حدود المشاركة في صناعة القرار تتوقف عند حد الاستشارة والإرشاد، فنجده مثلاً في أصول ترتيب مجلس المشورة يكتب إلى كتبخانه رئيس المجلس إن "كل مسألة يُجرى المجلس تسويتها، على حسب اجتهاد كل منهم، حتى ان يصير [الأمر] مقبولاً للامضاء منا ويجرى تنفيذه بناء عليه"<sup>(53)</sup>. وفي موضع آخر يقول: إن مشروعية "تفويض التنفيذ واتباع الإجراء إنما بما تقتضيه الإرادة السنوية"<sup>(54)</sup>. ونجده في البند التاسع من قانون "السياسة" يوضح أن ضيق وقت "ولي الأمر" هو ما تسبب في عدم وقوفه على حقيقة كل أحوال مصالح البلاد؛ ومن ثم كان لا بد من "ترتيب الشورى" اعتماداً على رجال اختارهم بعناية؛ إذ يصفهم بأنهم "مجرّبين الاطوار وأصحاب قابلية ولياقة ومفهومية لدى ولي الأمر الذي أذن لهم باعراض وتقديم ما يخطر ببالهم من التدابير والتراتب التي تكون مشتملة على منافع البلاد"<sup>(55)</sup>. وفي تعليماته الخاصة "بأصول أداب المجلس العالی" نجده يصف ترخيصه لهم بالمشورة في صنع القرار بأنه على سبيل الودیعة التي استودعها إياهم والتي عليهم أن يخلصوا في حفظها"<sup>(56)</sup>.

(53) أمر من محمد على إلى كتبخانه بك، بتاريخ 5 ربيع آخر 1240 / 1824، في أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، ص 161.

(54) أمر من محمد على إلى كتبخانه بك، بتاريخ 24 محرم 1263 / 1847، في أمين سامى: المرجع السابق، ج 2، ص ص 541-542. وقد أدرج هذا المضمون نفسه في "قانون المنتخبات"، انظر: فيليب جلاد:

المرجع السابق، ج 3، ص 359، مادة 74 من قانون المنتخبات

(55) قانون السياسة الصادر في 1253 / 1837، بند رقم 9، في: أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، ملحق رقم 2، ص 8.

(56) راجع نص التعليمات الصادرة في 1246 / 1830 في: عبد الفتاح حسن: المرجع السابق، ص 50 -

وإذن فليس ثمة شيء يمكن أن يلزم محمد على بتطبيق ما جاء في مضبطة المشورة؛ إنما هو يسترشد بأرائهم ونصائحهم وخبراتهم الخاصة وحسب، وهو الذى منحهم أو كلفهم بالقيام بهذا الدور. ولطالما توعد المخالفين أو الذين ينحرفون عن أداء هذه المهمة بالعقاب "حتى يقوّم ما اعوج من أحوالهم"<sup>(57)</sup>. وهنا تحديداً يتجلى المفهوم الأيوبى لسلطة محمد على. وهو يعلن لهم أنه قد يأخذ بأرائهم وقد لا يستسبها فيرفضها برمتها، وقد يُعدل في بعض ما أنتجته قريحتهم من أفكار وآراء<sup>(58)</sup> وقد يطلب إعادة النظر فيها ودراستها من جديد أو بطريقة مختلفة<sup>(59)</sup>، وقد لا يجد الظرف مناسباً لتطبيق ما توصلوا إليه، فيعلقه أو يؤجله لأجل غير مسمى<sup>(60)</sup>، كما أن سلطة نشر الأمر أو منع النشر من اختصاصه هو وحده.<sup>(61)</sup>

وعلى ذلك كانت سلطة إصدار القرار برمتها متعلقة بإرادة محمد على وحسب، وحتى ما تعلق بمؤسسة تشريعية متميزة مثل "الجمعية الحقانية" نجده يتعامل معها بالمنطق نفسه؛ فقد نصّ في "لائحة ترتيب الجمعية الحقانية": "ويتقدموا للأعتاب العلية (بصورة القرار) لأجل صدور الأمر، وينبغى عندما تتعلق الإرادة السنوية بإجراء ذلك يصير اعتبار حكم الدعاوى المذكورة قطعى"<sup>(62)</sup>. وإذن كانت جميع المجالس على تنوعها بمثابة هيئات استشارية معاونة يعتمد عليها في دراسة الموضوعات والمشكلات، وفي الإعداد والتحضير والإرشاد له عند اتخاذ القرارات والقوانين.

ويلاحظ أنه في سبيل تحقيق أكبر نقاط إيجابية للقرار كان لا يكتفى بالاعتماد على رأى

(57) وكثيراً ما يهددهم بالضرب بالنبوت. انظر: دار الوثائق: ديوان المعية السنوية، دفتر رقم 39، وثيقة رقم 386، أمر من محمد على بتاريخ 1245 / 1829؛ ديوان خديوى تركى، دفتر رقم 777، وثيقة رقم 55، أمر من محمد على بتاريخ 1247 / 1831.

(58) الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، مج 1، الأمر رقم 1984، ص 401.  
(59) من المعية السنوية إلى حبيب أفندى، بتاريخ 1243 / 1827، فى: دار الوثائق، معية تركى، دفتر رقم 35، ص 12، وثيقة 33.

(60) دار الوثائق: محافظ الشام، محفظة 79 "من الجناح العالى إلى باقى بك"، بتاريخ 1253 / 1838.  
(61) دار الوثائق: معية تركى، دفتر 37، وثيقة 121؛ الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، دار الكتب، مخطوط رقم 2484 تاريخ تيمور، مج 2: "أمر من محمد على إلى ديوان شورى المعاونه، بتاريخ 3 ذى الحجة سنة 1258 / 1842.

(62) أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، الملحقات، ملحق رقم 3، بند 2 ص ص 29-30.

مجلس المشورة، وخاصة إذا كان القرار بالغ الأهمية والخطورة، فنراه يلجأ إلى مطالعة آراء بعض الخبراء المتخصصين في الموضوع محل الدراسة، وحين كانت آراؤهم تأتي مناقضة لرأى أهل المشورة كان لا يتردد للحظة في إلغاء القرار أو على الأقل يطلب إرجائه لحين التأكد من إمكانية تفادى المؤثرات السلبية لمشروع القرار أو لحين تغير الظروف بما يسمح بتنفيذ القرار دونها عوائق<sup>(63)</sup>. وهذا يوضح أن الرجل لم يكن يرتكن على المراحل المتتابعة في دراسة مشروع القرار وحسب، بل إن المرحلة الأخيرة التي تتبلور خلالها نتائج دراسة الموضوع/ المشكلة داخل مجلس المشورة ليست بالضرورة نهاية المطاف في عملية صنع القرار؛ فهو في حاجة إلى إلقاء نظرة فاحصة للآراء المطروحة عليه، وفهم ما بها من تناقضات، واختيار أحد البدائل الأنسب للحصول على النتائج المرجوة، وذلك في إطار الأهداف التي كان يسعى إلى تحقيقها. وإذا كانت سلطته لا حدها في إقرار ما يريد، ولم يكن بالقدر نفسه ثمة قوة ترده عن قراره، إلا أنه من الثابت أنه كان أكثر حرصاً وأكثر حذراً من التورط في اتخاذ قرارات في غير محلها؛ يشهد بذلك تعدد المجالس الاستشارية التي أنشأها وخاصة في السنوات الأخيرة من حكمه. وقد أعرب في أمره الصادر في العام 1848/1263 عن هدفه من إنشاء تلك المجالس وهو: "الوصول إلى النتائج الحسنة.. وقدح الفكر والتروى لما فيه الوصول من تأسيس القواعد الحسنة..". ويلاحظ في هذا الأمر أنه ألزم بتحويل كافة القرارات واللوائح والمواد التي تصدر عن الجمعية العمومية إلى المجلس الخصوصي لينظر فيها ويتداولها مرة أخرى ثم ترفع في النهاية إليه الاقتراحات التي تم استحسانها لينظر فيها<sup>(64)</sup>. ومن هنا كانت المرحلة الأخيرة السابقة على إصدار القرار بالنسبة له مرحلة تأمل وتحليل للنتائج التي تمخضت عن المداولة والمشورة.

وفي الحقيقة كان قلقه وانشغاله خلال هذه المرحلة بدقة القرار وتقليل سلبياته وعوارضه راجع إلى أنه لم يعتبر القرار مجرد أمر يومي يعالج مشكلة آنية مرهونة بوقتها في المدى القصير وحسب؛ وإنما لأنه كان يرمى إلى اتخاذه - على حد قوله - "دستوراً للعمل"؛

(63) دار الوثائق: محافظ الشام، محفظة 79 "من الجناب العالي إلى باقى بك"، بتاريخ 1838/1253.

(64) أمر من محمد على بتاريخ 24 محرم 1848/1263، في: أحمد فتحى زغلول: المصدر السابق،

وهذا يعنى الاستمرارية فى تفعيل القرار حتى ولو أدخل عليه فى بعد تعديلات أو إضافات. لقد كلف المجلس بحفظ قراراته والالتزام بالمضى على هداها: وقد سجل هذا الأمر فى تعليقاته الموجهة لمجلس المشورة بقوله: " وهذا الشئ الذى سميناها أصول واتبناها جميعاً فاتبعوه أيضاً؛ فنحن ساعين فى حفظ هذه الأصول من كل عارضة موجبة لإيقافه، وأنتم أيضاً احفظوه ولا تلمسوه حتى لا تتكبدوا الندامة"<sup>(65)</sup>، أى أنه كان يسعى إلى خلق مرجعية شاملة يتم الاستناد إليها فى كل ما يتعلق بشئون الحكم والإدارة.

على أن مرحلة إصدار القرار لم تكن هيئة أو بسيطة، ويمكننا استنتاج بعض الاعتبارات التى كان يراعيها ويضعها فى حسابه عند إصدار القرار/ القانون؛ وذلك من واقع تحليل مكاتباته وتعليقاته وما أدرجه فى سلسلة تشريعاته المختلفة من تعليقات معينة كان ينبه باستمرار إلى ضرورة أخذها فى الاعتبار. ونوه إلى أن النهاج الذى ندلل بها على آرائه وأفكاره قد روعى عند اختيارها تكررها فى مواقف مختلفة بحيث يمكن القول بأنها تعبر بالفعل عن سمات أساسية فى فكر محمد على ولم تكن مجرد حالات استثنائية عارضة.

ومن البديهي أن المقصود من هذه المرحلة الدقيقة فى عملية إنتاج القرار فى صورته النهائية هو ضمان أكبر عائد إيجابى يمكن أن يحققه مشروع القرار المزمع إصداره، وأيضاً إيجاد حلول عملية لإزالة أى مشكلات محتملة يمكن أن تعيق تفعيل العمل بالقرار وتعميمه. ويمكن تحديد تلك الاعتبارات على النحو التالى:

### أولاً: مراعاة جانب المصلحة

إن أية نظرة على أوامره ومراسلاته اليومية كفيلة بأن تكشف الطابع العملى النفعى فى تفكيره؛ فأغلب قراراته كانت تساير "مبدأ المصلحة" التى تكتسب عنده معنى عام: فهى كل ما يحقق لدولته "الثراء وعمارة البلاد.. وعمران الوطن.. ووقاية حقوق العامة.. ورفاهية الأهلى وحمايتهم من الأضرار..". إلى آخر تلك المعانى والمترادفات التى تعج بها مكاتباته وأوامره والتى تلح بصفة دائمة على ذهنه. وكثيراً ما أكد على أنه لم يعتمد قراراً

(65) أمر من محمد على إلى كتخدا بك بالمجلس العالى، بتاريخ 1829/1245، منشور فى: أحمد فتحى زغلول: المصدر السابق، ص 163.

إلا إذا توافرت فيه - من وجهة نظره - " الفوائد والمزايا للعام والخاص" (66) ولطالما أبدى استعداداه لمواجهة الصعوبات التي يمكن أن تعترض هذا الهدف الذي اعتبره رهاناً أساسياً لكل مشاريعه وإنجازاته: فعلى سبيل المثال، حينما قرر تطبيق نظام الحجر الصحي، ووجد معارضة قوية من قبل العلماء الذين أبدوا امتعاضهم من الإجراءات، وخاصة ما تعلق منها بالنساء المتوفيات؛ حيث كانت حجتهن في ذلك "عدم جواز الكشف على النساء الأموات"، فكان رده عليهن صارماً؛ حيث رفض مسأيرتهن، معلناً لهم أن تخليص البلاد من هلكة الإصابة بالطاعون إنما هو "عين المصلحة" التي يحرص عليها، وأن "جملة ممالك وممالك إسلامية تخلصت من الطاعون المهلك بسبب اعتنائهم بأمر القورنتينه"، وأنه ماضٍ في تنفيذ هذا القرار: "لقد عهدت على نفسي تمشية هذا المشروع بإذلال كل ما يطرأ أمامي من الصعوبات.. وكل من يحصل منه معارضة لي يجرى نفيه إلى فيزاوغلي"، وحتى يسقط حجتهن الشرعية في رفض "القورنتينه" قرر تخصيص حكيمات للكشف على النساء المتوفيات (67).

وكانت مراعاته لـ "مبدأ المصلحة" أولاً وأخيراً ورغبته في تعظيم العائد الإيجابي تجعله حريصاً على الموازنة بين الإيجابيات والسلبيات المحتملة في حال شروعه في تطبيق القرار، وخاصة إذا ما كان مشروع القرار يمس مصلحته ومصالح الأهالي في آنٍ واحد: نذكر مثلاً خلال الأزمة المالية التي مرت بها البلاد في العام 1843/1259 والتي جعلته يطلب المشورة في كيفية وضع ترتيب معين يُقلل حجم المصروفات، عرضوا عليه مشروعاً يقضى بتسريح عدد من الموظفين على غرار ما جرى مع الموظفين في استانبول خلال أزمة مالية مشابهة، فكان تعليقه على ذلك "كيف أبدد شمل الرجال الذين هذبتهم الحكومة والذين خدموها لا لن أوافق على فكرهم هذا.. والذي أعلمه أنه لا يتأتى زيادة الإيراد من توفير رجال المصالح، بل الحصول على ذلك من وفرة وتكثير رجال المصالح وتقديمها، وأن عقل محمد على ليس كأفكارهم في تقليل الموظفين على هذا المنوال" وبين لهم أن

(66) الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، دار الكتب، مخطوط رقم 2484 تاريخ تيمور، مج 2: أمر من محمد على صادر على الاثنية المذكورة، بتاريخ 25 ذى الحجة 1258/1842.

(67) الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، دار الكتب، مخطوط رقم 2484 تاريخ تيمور، مج 2: أمر من محمد على إلى ديوان خديوى، بتاريخ 2 رجب 1259/1843.

تحصيل المتأخرات يمكن أن يغطي العجز في الميزانية، ثم تساعل بسخرية "أليس من باب أولى توظيف الناس ليقوموا بتحصيل تلك المتأخرات بصرف النظر عما يلزم صرفه"؟! ولذلك رفض القرار لمناقضته للمصلحة العامة<sup>(68)</sup>.

كما انعكس إيمانه بمراعاة "مبدأ المصلحة" على طريقته في إيداء المرونة في التراجع عن بعض القرارات التي كان قد أصدرها بالفعل؛ وذلك إذا ما نبهه البعض إلى اقتراح بديل يحقق مزايا وفوائد أكثر أهمية<sup>(69)</sup>. بيد أنه أدرك أن الكثيرين يهابونه بدرجة تخيفهم من تنبيهه، الأمر الذي حاول تداركه بإصدار قرار يقضى بالسماح لهم بالاتصال به مباشرة وإرشاده إلى ما اسماه "المصالح المبرورة" مؤكداً ضرورة أن يعرضوا عليه كل ما يطرأ على أذهانهم من أفكار واقتراحات "دون مراعاة هيئة مسنده"<sup>(70)</sup>. وفي الاجتماع الموسع مع رجال حكومته في العام 1263 / 1847 أعاد التذكير بهذا التنبيه: "إن المحاشاة والموافقة في الأمور المضرة بالمصلحة والأصول الموضوعه من أعظم الجرائم فيجب الاجتناب عن ذلك حتى إذا كنت أمراً أحدكم شفاهاً أو تحريراً بقولى له اجر المادة الفلانية بهذه الصورة وحصل منه اعتراض على وذكرنى وأفادنى شفاهاً أو تحريراً بأن المادة المذكورة مضرة فهذا يكون عين ممنونيتى الزائدة. وقد أثبت لكم مراراً كسب محظوظيتى من الاخطارات الواقعة حتى الآن التى يترتب عليها ممنونيتى فى أعلى درجة وها أنا مرخص لكم فى ذلك الرخصة التامة المرة بعد المرة.. وحيث أجب كل منكم بذلك من غير خوف ولا اكتراث كان مستلزماً لرعاية عين حق المصلحة ووقاية حقوق العامة وكانت هذه نعمة عظيمة لكم..."<sup>(71)</sup>

(68) المصدر نفسه: أمر من محمد علي إلى حكمدار السودان، بتاريخ 4 ربيع الآخر 1259 / 1843.  
 (69) من ذلك تراجع عن قراره بقتل فرع رشيد واعتماده فكرة المهندس الفرنسى لبنان الذى أشار عليه بإنشاء قنطرتين على فرعى النهر. حول تفاصيل هذا المشروع. انظر: على شافعى: أعمال المنافع العامة الكبرى فى عهد محمد على، ص 47.

(70) أمر من محمد علي إلى شورى المعاونة، بتاريخ 17 ربيع الثانى 1259 / 1833، فى أمين سامى: المرجع السابق، ج 2، ص 525؛ وكذلك فى: أحمد فتحي زغلول: المصدر السابق، الملحقات، ص ص 127-128. ومن المثير حقاً أنه حدد جزاء لكل من يتوانى عن تنبيهه إلى الأفكار المقيدة.

(71) خطاب محمد علي فى أعضاء مجلس المشورة، بتاريخ 30 ذى القعدة سنة 1263 / 1847، فى: أمين سامى: المصدر السابق، ج 2، ص 559-560.

## ثانياً - مراعاة جانب الشريعة:

كان الباشا مدركاً تماماً أن أول شرط ضروري يضمن سريان وتعميم قراراته هو أن تكون بعيدة كل البعد عن الاصطدام بالأحكام الشرعية؛ ولذلك أولى هذه المسألة عنايته البالغة: فقد أكد في لائحة "أصول آداب المجلس العالی" (أى مجلس المشورة) على أن ما كان متعلقاً بأحكام الشرع لا يحق للمجلس عرضه أو مناقشته أو البت فيه بكلمة واحدة: فالأمور التى "يتوقف رؤيتها على الشرع الشريف تحال عليه" أما ما كان يخرج عن نطاق اختصاص القضاء الشرعى فيفصل فيها بمعرفة "أهل المجلس"<sup>(72)</sup>. والحقيقة أن محمد على حتى قبل إنشائه لمجلس المشورة كان يراعى هذا الأمر: فقد أشاد الرجى (المتوفى فى سنة 1827/1243) وهو من شيوخ الأزهر بالتزام الباشا برد الدعاوى إلى الشرع "فما حكم به القاضى هو النافذ الماضى" ويين الرجى أن الكتخدا فى بعض الأحيان التى كان يختلط فيها الأمر على مجلس المشورة كان يتحرى دعوة العلماء ومشايخ الإسلام مع القاضى ليفصلوا فى المسائل الخلافية "حتى وإن مكثوا الأيام العديدة يرددون النظر ويدققون فى كتب المذاهب لئتم الأمر على غاية من الصحة والاتقان والإحكام والضبط" وما يستقررون عليه يحكم به القاضى<sup>(73)</sup>. إن نظرة واحدة على مكاتبات محمد على وردوده على العرضحالات والشكاوى التى كان ينظرها يومياً تؤكد ما ذهب إليه الرجى: ففى الأمور التى كانت تقع بين أحكام الشرع وأحكام السياسة كان يعطى الأولوية "بالحكم بما يقتضيه الشرع الأنور" ثم يترك بعدها لمرءوسيه الفصل بأنفسهم فيما خرج عن دائرة الشريعة الغراء فى ضوء القرارات واللوائح القانونية<sup>(74)</sup>.

ومن المعروف أن محمد على عندما وجد قضايا عديدة ترد إلى المجلس العالی ويجرى

(72) راجع التعليقات السنية المشتملة على أصول آداب المجلس العالی "الصادرة بتاريخ 1246/ 1830، فى: عبد الفتاح حسن: المرجع السابق، ص 50 - 52.

(73) خليل بن أحمد الرجى: تاريخ الوزير محمد على باشا، تحقيق دانيال كريسلوس وآخرون، دار الآفاق العربية، طبعة أولى 1997، ص 91-92.

(74) هناك مئات الوثائق التى تؤكد ذلك وأغلبها صادر عن ديوان المعية السنية تركى المودعة بدار الوثائق. انظر على سبيل المثال: تراجم ملخصات دفاتر، محفظة رقم 9، دفتر رقم 8، بتاريخ 1237/

إحالتها على العلماء والقضاة ويتأخر حسمها أو الفصل فيها بقرار، وهو ما كان يلحق الضرر بالمصالح العمومية؛ قرر انتخاب عالين من علماء الأزهر بمساعدة الشيخ حسن العطار الذى كُلف باختيارهما؛ ليحضرا بشكل دائم جميع جلسات المشورة؛ وذلك بقصد الإسراع بعملية إعداد مشروع القرار المطلوب رفعه إليه<sup>(75)</sup>. وفيما بعد وقرب نهاية حكمه أصدر لائحة رسمية (1848/1264) تنظم ما يجب إحالته إلى المحكمة الشرعية وما يمكن عرضه على ديوان المشورة الدورية: فقد لاحظ أن الدعاوى والعرض حالات التى كان يشجع على ورودها إلى الديوان بقصد متابعة تنفيذ قراراته - قد أثقلت كاهل أعضاء المجلس فى الوقت الذى لا يستطيع الأعضاء الحكم فيها بسبب تعقدها من الناحية الشرعية والفقهية؛ ومن هنا قرر وضع ترتيب معين يقضى بسرعة الفصل فى القضايا، فخصص يوم الخميس من كل أسبوع للنظر فى هذا النوع من القضايا المعقدة والمطولة؛ وذلك من خلال لجنة مشكلة من أعضاء المجلس الدورية وبحضور عدد من العلماء وأطلق عليها "المجلس العلمى"<sup>(76)</sup>.

ولعل مما يبين حرصه الدائم على تفادى الصدام بعلماء الشرع فى الموضوعات التى كان يعن له اتخاذ قرار فيها يتعارض من بعض الوجوه مع الآراء الفقهية السائدة، اتجاهاً إلى مخاطبتهم فى الأمر والعمل على استصدار فتاوى جديدة أو إبراز آراء فقهية قديمة (مهملة) وجد بها ما يخدم أهدافه ومصالحه. إن لجوءه هنا إلى طلب الفتوى الشرعية يعكس تصوره للطريقة المناسبة للتعامل مع تراث ثقافى ودينى يحكم شخصية المجتمع الذى يحكمه. وتفهمه الواضح تماماً لهذا المدخل له أيضاً دلالاته على تنوع أدواته فى ضمان تحقيق النجاح لقراراته. ولا يهمننا هنا تقديم بعض الأمثلة، وهى كثيرة بالفعل<sup>(77)</sup>، لكن

(75) كذلك يلاحظ حرصه على الاستعانة بالعلماء والمشايخ من جميع المذاهب فى حضور الجلسات؛ وذلك على نحو ما يظهر من أسمائهم المدرجة فى قائمة أعضاء مجلس المشورة التى نشرها أمين سامى: المرجع السابق، ج 2، ص 350-352.

(76) دار الوثائق: محكمة إسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبيعات، رقم 152، ص 115-116، وثيقة 190: "صورة لائحة واردة من الديوان الدورية بخصوص الترتيب المقضى إجرأه بالمحكمة الشرعية".

(77) انظر على سبيل المثال فتوى منع إيقاف الأملاك والعقارات، وقرار محمد على المستند إليها فى: دار الوثائق: محكمة إسكندرية الشرعية، سجل 149، ص 168، وثيقة 233، بتاريخ 1846/1262؛ كذلك فتوى "المفتى أفندى" فى إقرار حقوق الملكية على الأرض التى لم تكن مقننة من قبل، فى "أمر من محمد على إلى ديوان الروزنامة، بتاريخ 1842/1258، فى: أمين سامى: المرجع السابق، ج 2، ص 516-517.

الأهم في تقديرنا طريقة صياغته للقرار: فهو يقدم نص الفتوى أولاً ثم يطرح قراره المستند عليها ثانياً. إن تقديم نص الفتوى على القرار يدل هنا على أن محمد على قد راعى الشريعة كمرجعية أساسية لبعض قراراته الهامة. وبقدر ما شكلت الفتوى الإطار العام لصياغة هذا النوع من القرارات بقدر ما مثلت المظلة الشرعية التي أعطت له القدرة على إدخال تعديل ما على بعض الممارسات الاجتماعية التي أراد لها التغيير.

### ثالثاً - مراعاة العرف السائد / العادات

كذلك تظهر مكاتباته وأوامره حرصه على مراعاة العادات والأعراف السائدة وهو بصدد إصدار بعض القرارات، وخاصة تلك التي لها علاقة بقضايا النزاع على الأراضي: فلقد شدد على مرءوسيه بضرورة مراعاة ما جرت به "العادة" التي يسميها في أوامره بـ "قانون الأهالي" أو "قانون البلدة"، فيأمر الكشاف في الأقاليم أن يفصلوا في قضايا النزاع على الأراضي "بحسب قانون الأهالي والعادة الجارية". والواقع إن ردوده على شكاوى وعرض حالات الأهالي تظهر حرصه - قدر استطاعته - على أن لا تتعارض قراراته مع الأعراف والعادات التي تشكل أصولاً قوية يصعب تجاهلها أو الالتفاف حولها.<sup>(78)</sup>

ولعل مما له مغزاه ويعكس تقديره للأعراف المحلية ووعيه بطابع الخصوصية الذي يميز المجموعات الاجتماعية حتى داخل المجتمع الواحد، اتجاهاً إلى تسجيل عادات وأعراف قبائل العربان، وذلك بدفع شيوخ القبائل إلى إملاء أعرافهم وعاداتهم لتتحول من نص شفاهي إلى نص مدون لأول مرة. إن هذه الخطوة غير المسبوقة شكلت إقراراً من قبل الدولة بقيمة هذه الأصول كمرجعية أساسية عند التعامل مع مثل هذه المجموعات الاجتماعية: فقد تعهد محمد على أن يحاسبهم بمقتضاها لا بمقتضى قوانينه ولوائحه<sup>(79)</sup>. وفي الاتجاه نفسه نجد رفضه لمشروع ترجمة القوانين الأوربية وتطبيقها بحذافيرها على المجتمع المصري ما يعكس درايته العميقة بعامل الخصوصية الذي تمتاز به المجتمعات بعضها عن البعض: فقد جاء في مقدمة قانون "السياسة" "إن الممالك

(78) تقدم المحفظة رقم 9 (التي تغطي وقائع عام 1821 / 1237) من وثائق المعية السنية تركى نموذجاً بالغ الدلالة على مراعاة محمد على للأعراف والعادات الخاصة بحيازات الأراضي.

(79) أمر من محمد على إلى مدير الأقاليم الوسطى، بتاريخ 23 صفر 1249 / 1833، في: أمين سامي: المرجع السابق، ج 2، ص 413.

الكائنة بأوربا موجود لكل منها قوانين متفرقة بحسب طبيعة وأخلاق ودرجة ترتيب أهلها وجارى إجراء حكم أمورهم الملكية على مقتضاها، غير أنه لما كان عدم توافق مملكة إلى أخرى شيئاً معلوماً صار إجراء أى قانون من قوانين الممالك المذكورة بعينه في هذه الأقاليم شيئاً معدوماً<sup>(80)</sup>. لقد رفض إذاً النقل الحرفي للقوانين الأوربية من منطلق وعيه بالخصوصية الثقافية والاجتماعية للمجتمع الذى قُدر له أن يحكمه. ونجد ذلك واضحاً في رسالته إلى ناظر الجهادية التى يقول له فيها: "لا داعى لجلب كتاب أصول المجالس بأوربا.. لأنه عُمِلَ بحسب طباع وأخلاق وعادات أوربا وأحكامه لا توافق المصلحة"<sup>(81)</sup>. وليس معنى ذلك أنه رفض الطرح الأوربى ( فى مجال القوانين) وإنما نقل منها ما وجده موافق للمصلحة من ناحية، وما وجده ملائماً مع الواقع الاجتماعى والثقافى المصرى من ناحية أخرى.

### تنفيذ القرار: من القوة إلى الفعل

ما إن تستوفى الضوابط والاعتبارات السابقة حتى يدفع محمد على بقراراته إلى حيز التنفيذ. بيد أن ذلك لا يعنى أن عملية صنع القرار قد بلغت شوطها الأخير؛ إذ إن متابعة تنفيذ القرار تشكل امتداداً متصلاً بعملية صنع القرار ككل: ذلك أن اختبار قوة وفعالية القرار في مواجهة التحديات والصعوبات التى تثيرها المشكلة رهن المعالجة أمر بالغ الأهمية في معرفة جدوى محصلة دراسة المشكلة ومدى نجاح عمليات التحضير والإعداد والإرشاد في إنتاج قرار سليم. وكان محمد على واعياً بأهمية هذه الخطوة، ووفقاً لشهادة رفاعة الطهطاوى التى أشرنا إليها من قبل كان الرجل يميل إلى التدرج في تعميم اللائحة؛ فهو يراقب نتائجها "شيئاً فشيئاً على طريق الإصلاح والتهذيب، فإذا سلكت في الرعية وصارت قابلة لعوامل المفعولية كساها ثوب الترتيب والانتظام، وأخرجها من القوة إلى الفعل في ضمن الاصول والأحكام".

وعلى ما يبدو لم تكن مشكلة محمد على في متابعة النتائج المترتبة على قراراته بقدر ما عانى من مرءوسيه في الدواوين والإدارات الذين في كثير من الأحيان كانوا يعتمدون إهمال تطبيق مواد القرارات والقوانين. وفي سياق متابعه من البيروقراطية المعطلة لقوانينه

(80) أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، ص 172.

(81) أمين سامى: المرجع السابق، ج 2، ص 413.

اضطر أن ينشأ وظيفة " القانونجى " وهذا ما نفهمه من أمره الموجه إلى سائر مديرى ومفتشى الأقاليم المصرية (1836/1252) والذي جاء به " كان جارياً طبع ونشر القوانين التى سنت دستوراً للعمل لتنفيذ أحكامها فى حق المستخدمين.. لكن لعدم الاعتناء والالتفات لإجراء مفعولها عند الاقتضاء قد لزم تنصيب واحد قانونى بكل من دواوين المعاونه وسائر الدواوين بمصر والإسكندرية ومجلس الملكية<sup>(82)</sup> " كذلك نجده فى مراسلته إلى محافظ رشيد يبين له امتعاضه من المديرين والنظار ومشايخ القرى الذين لم يحرصوا على تنفيذ القوانين فجعلوها " معطلة منذ صدورها وأنه لذلك قرر تنصيب قانونى تكون مهمته تنفيذ القوانين"<sup>(83)</sup>. وبالفعل جرى تنصيب "قانونجى" فى جميع المجالس الاستشارية والدواوين الإدارية بالمدن والأقاليم.

وفى الحقيقة إننا لا نعرف الكثير عن الدور الذى لعبه "القانونجى"، وكل ما نعرفه من أوامر محمد على أنه كُلف برصد التجاوزات وتنبية كبار المسؤولين فى مختلف الإدارات بنصوص اللوائح وضرورة تطبيقها. وفى تقديرنا أن دوره كان بالغ الأهمية ليس من زاوية التنبية على حوادث خرق القوانين فحسب ولكن أيضاً لدوره فى لفت نظر المجلس إلى القرارات التى صدرت من قبل فى موضوعات كانت تطرح من جديد للمناقشة عن غير قصد<sup>(84)</sup>؛ ومن هنا كان دوره مهماً فى التنبية إلى خطورة إصدار قرارات مختلفة فى موضوع واحد. ولهذا أهميته لثلاث أسباب تناقض فى القرارات، وخاصة أن تعقد بنية الإدارة وتشعب مهامها كان قد أدى إلى حدوث تراكمات كبيرة فى مواد القرارات؛ ومن ثم فإن تخصيص موظف واحد فى كل جهة إدارية يفترض بأنه عمل على الحد من المخالفات والتجاوزات.

ومن المعروف عن الرجل قوة صرامته فى مواجهة كل من كان يتعمد معارضة نظامه

(82) نفسه، ص 480.

(83) من محمد على إلى محمود بك محافظ رشيد، بتاريخ 1836/1252، فى دار الوثائق: محافظ رشيد، محفظة رقم 1، ملف 19، وثيقة رقم 136.

(84) يبدو أن محمد على لاحظ تكرار مناقشة مجلس المشورة لموضوعات متماثلة كان قد أصدر فيها قرارات سابقة، الأمر الذى حدها إلى إدراج مادة فى قانون نامة تنص على أن "المطلوبات المقننة لم يلزم لها المداولة." انظر: أحمد فتحى زغلول: المرجع السابق، الملحقات، ص 173.

أو مخالفة قوانينه<sup>(85)</sup>. لكن من الثابت أيضاً حدوث مخالفات كثيرة واختراقات متعددة لعدد كبير من القرارات حتى من قبل بعض أقاربه. على أنه كان يصبُّ جام غضبه وأسفه على كل من خالف القوانين أياً كانت قرابته منه أو موقعه الاجتماعى أو درجة وظيفته<sup>(86)</sup> ويمكن أن نسوق مثلاً أو مثالين: فمن ذلك عندما مر دولة إبراهيم باشا ابن محمد على من ترعة المحمودية وتجاوز دوره ولم يدفع رسوم المرور عاتبه وبين له خطورة الأمر؛ إذ من المفترض ان يكون قدوة على الامثال للنظام والقانون؛ ولذلك أبلغه أن ما اقترفه كان "مخالفاً للنظام وأنه مضطر إلى منعه أولاً وأخراً من ايقاع الضرر وإخطاره بأنه يجب أن يمر من المحل الذى يمر منه الناس، وأن يدفع رسم المرور الذى لم يدفعه"<sup>(87)</sup> وربما تبدو مراسلته إلى ابن أخته أحمد باشا طاهر أكثر أهمية؛ لأنها تعكس مفهومه لقيمة الامثال لإرادة القانون وإصراره على تعميمه على الجميع؛ فقد زجره على عدم انقياده للقانون قائلاً له: "يا للأسف ألم تدرك أن دواعى رفاهية الأمم مقتبسة من القانون؟ وإنى فى غاية الأسف على عدم إدراك هذا الأمر الذى لا يخفى على أحد، وكنت اتخيل أنك تهذبت نوعاً، ولكن حسن ظنى فىك خاب.. وأنه إذا تراءى للحاكم أن لا سبيل للوصول إلى إزالة الداء إلا بقاء أولاده وأحفاده يسهل عليه ذلك، وما كنت أظن فىك الغباوة لهذه الدرجة، وهو ما أثبتته على نفسك بنفسك، غير أنه لا سبيل لك إلا الخضوع للقانون"<sup>(88)</sup>.

ولقد كان الرجل فى مواجهة مستمرة، وبصرف النظر عن كونه نجح فى بعضها وأخفق فى بعضها الآخر، فإنه من الأهمية بمكان أن نضع فى الاعتبار أن حركة الإصلاحات الإدارية والقانونية كانت تجربة جديدة على المجتمع، ومن ثم كان من المتوقع

(85) معية سنة تركى: تراجم ملخصات دفاتر، محفظة رقم 11، دفتر رقم 9.

(86) سوف ينص على ذلك بوضوح لدى إصداره "لائحة ترتيب الجمعية الحقانية": فالقانون سار على الجميع دون تمييز "الكبير عن الصغير والغنى عن الفقير بل يعاملوا الجميع على سياق واحد" (انظر لائحة ترتيب الجمعية الحقانية، فى أحمد فتحى زغلول: المصدر السابق، ص 30.

(87) من الجنب العالى إلى إبراهيم باشا بتاريخ 3 شعبان 1259 / 1843، فى: دار الوثائق: محفظة رقم 42، ملخصات دفاتر عابدين، ص 36، وثيقة 179.

(88) أمر من محمد على إلى أحمد طاهر باشا، فى 17 شوال 1262، فى: الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد على، إشراف رءوف عباس حامد، دار الكتب والوثائق القومية، المجلد الثانى، القاهرة 2006، (نسخة تحت الطبع).

عدم امتثال الجميع لها في جميع الأوقات؛ لا سيما مع تغير ظروف المجتمع الذي وجد نفسه تحت قبضة حكومة مركزية تدب بقوة في أوصال الحياة اليومية، فيمثل لبعض قراراتها تارة، ويستنكف الخضوع لبعضها الآخر تارة أخرى. وأياً كان الأمر فقد بذل محمد على محاولة جادة في التوعية بقيمة القانون وبأهمية الامتثال لإرادته، وبقدر ما أجهده كثيراً عملية صنع القرار وتنفيذه وما تطلبت من تدخل مستمر من جانبه في جميع مراحلها بقدر ما ساعدته على تحقيق انجازات غير مسبوقه في تلك الحقبة من تاريخ مصر الحديث.

يتضح من الدراسة أنه برغم المركزية الشديدة المعروفة عن نظام محمد على والتي أتاحت له تعميم ما عُرفَ "بالنظام الأبوي" إلا أنه أوجد بالفعل آلية تسمح بالمشاركة في صنع القرار، بشكل يجعل نظامه أقرب إلى ما يمكن أن نطلق عليه "الشورى المحدودة في ظل نظام أبوي". ولذلك لا تتفق هذه الدراسة مع التعريفات غير الدقيقة التي عُممت على نظام حكم محمد على: فهو لم يكن نظاماً استبدادياً كاملاً، كما لا يمكن وصفه بالحكم المطلق غير المحدود على نحو ما هو شائع في الأدبيات التاريخية؛ وإنما كان نموذجاً متميزاً " للحكم الفردي العقلاني الرشيد ". أجل كان الرجل يتعامل بمنطق النظام الأبوي الذي يحتل فيه جميع أفراد المجتمع بالنسبة له موقع الأبناء الذين لا يملكون أمام سلطة الأب (الأخلاقية) المهيمنة سوى الانصياع والطاعة إلا أنه ترك هامشاً كبيراً لاستشارتهم في معظم قراراته ولوائحه وقوانينه، كما أنه رخص لهم تنبيهه إلى الرأى الأصوب إذا ما اتخذ قراراً في غير محله.

ومن غير شك أن برجماتيته ( القائمة على مبدأ المصلحة ) هي التي قادته إلى إقامة مؤسسة صنع القرار على المشورة والمداولة؛ حيث كانت درجة الاستفادة منها كبيرة: فالمجموعة التي عملت معه والتي اختارها بعناية ساعدته على توسيع مجال الرؤية عند تحليل المشكلة ومكنته من الحصول على بدائل عدة يختار من بينها ما يحقق لقراره أكبر نقاط إيجابية. وكان إيمانه " بمبدأ المصلحة " ( العامة ) يمثل لب فلسفة قراراته، ولعل ما جعل من السهولة بمكان تعميم قراراته وتفعيلها بقوة على أرض الواقع هو مراعاته لأحكام الشريعة والأعراف المحلية التي لم يتجاهلها؛ ومن ثم لم تلق قراراته في معظمها ( وحتى ما كان جديداً منها ) صعوبة في التنفيذ.

وعلى الرغم ما بين " المركزية " و " المشورة " من تناقض إلا أن شخصية محمد على وإرادته القوية وبعد نظره قد مكنته من الجمع بينهما: إذ بينما تعهد على نفسه ألا يصدر قراراً حتى يُمرره أولاً على مجلس المشورة الذى يفحصه ويضبطه برأى الاغلبية، فإنه احتفظ لنفسه بالسلطة الكاملة والنهائية فى إصدار القرار. ولم يكن لهذا النظام أن يتم على هذا النحو إلا فى إطار سلطة مركزية نشيطة وفاعلة، يشعر بها الجميع فى كل مكان تقريباً وفى كل وقت. ومهما قيل عن عيوب البيروقراطية التى تخلقت فى رحم المركزية التى أقام بناءها فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر إلا أن التجربة أثمرت عدداً كبيراً من القوانين التى شكلت فى النهاية ركيزة أساسية قامت عليها التطورات اللاحقة فى مجالى الإدارة والتشريعات القانونية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

كما أن تجربته خلقت وعياً جديداً لدى المجتمع بقيمة القانون وأهمية الامتثال لإرادته، وغيرت من شكل السلطة فى عيون الرعية، وجعلت هناك علاقة متداخلة بين السلطة والمجتمع، تنظمها مجموعة كبيرة من التشريعات القانونية والقرارات ذات الطابع العقلانى التى جاءت نتيجة انتشار الأمن العام واستقرار السلطة. وفى هذا المناخ بث محمد على فىمن حوله روح المبادرة وتعويد موظفيه على تقديم الحجج المنطقية والبراهين المؤكدة لصحة آرائهم وأفكارهم الخلاقة فى بناء نهضة المجتمع المصرى فى تلك الحقبة الهامة من تاريخه.

## الثقافة والتعليم فى قرطاجة

الدكتور

عبد العزيز حجازى

oboiikan.com

## الثقافة والتعليم فى قرطاجة

شهدت منطقة شمال غرب إفريقيا فترة من الوقت كانت فيه قرطاجة إحدى صور الثقافة والتعليم فى تاريخ المنطقة القديم من 814 ق.م إلى 146 ق.م. وهذه الدولة التى نحن بصدد الحديث عنها كانت قد تعاملت مع دول البحر المتوسط بأشكال متنوعة على حسب المصالح الاقتصادية والسياسية التى تربطها بهم. وهذه العلاقات كانت تحتاج من قرطاجة أن تكون على نفس مستوى هذه الدول من الثقافة والتعليم حتى تستطيع أن تساير تلك الدول فى جميع المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية، فالتعليم هو مصدر المعرفة التى من خلالها تستطيع الدولة أن تستمر قوية بحق فى جميع المجالات، ويضاف إلى هذا أن الثقافة هى إحدى علامات التقدم الفكرى ومقياس لاغنى عنه لمقدرة الدولة فى وسط محيط من التيارات الفكرية فى الفترة موضع الدراسة.

والباحث عن الثقافة والتعليم فى قرطاجة يجد صعوبة كبيرة قد تكون مختلفة عن صعوبات أى بحث تاريخى. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن البحث متعلق بدولة كانت من أكبر الدول فى حوض البحر المتوسط ولكنها تعرضت للتدمير الشامل على يد الرومان فى نهاية الحرب البونية الثالثة عام 146 ق.م. وهذه هى الصعوبة فأغلب ما كتب عن الدولة وتاريخها قد ضاع مع ما تم تدميره، وكل المعلومات التى توجد فى المصادر القديمة هى مصادر أجنبية عن قرطاجة أو بمعنى آخر هى مصادر كتبها اليونان والرومان وهم خصوم لهذه الدولة؛ ولكن الرغبة التى تلازم الباحث فى التعرف على أسباب قوة هذه الدولة واستمرارها قد يجدها فى أشياء كثيرة من بينها بالضرورة الثقافة والتعليم. وأهم ما فى ذلك أن أغلب الدول التى كانت تصارع قرطاجة كانت حريصة بشكل واضح على

نقل المعارف القرطاجية التي كانت تتعلق بالزراعة والملاحة وهذا مسجل في المصادر التي كتبت عن هذه الفترة وسيأتي ذكره فيما يلي من هذه الدراسة.

وسوف أتناول بالدراسة الموضوعات المرتبطة بالبحث، ومن بينها اللغة الفينيقية التي انتقلت إلى شمال إفريقيا وكانت الأداة القوية التي من خلالها أمكن التعرف على مظاهر الثقافة الفينيقية وأماكن انتشارها في حوض البحر المتوسط، وتأثر الآداب اليونانية واللاتينية بها، كما أتناول بالدراسة نقطة من أهم النقاط التي تلقى الضوء على المكونات الأساسية للثقافة القرطاجية وهي المكتبة، التي ضاعت مع التدمير الأخير للدولة، وسوف أتناول أيضا التعليم بالدراسة طبقا لما توافر عنه من معلومات في المصادر التاريخية اليونانية واللاتينية، والتي وردت على شكل إشارات عن موضوعات قد تكون بعيدة عن التعليم لكنها أفادت في التعرف على مكونات الطابع التعليمي في قرطاجنة.

### اللغة الفينيقية:

كانت الحروف الفينيقية هي الأصل الذي أخذ الإغريق عنه أبجديتهم وعن هؤلاء أخذ الاتروسك، ثم جاءت الحروف اللاتينية التي أصبحت حروف الكتابة لأكثر الدول الأوروبية منذ العصور الوسطى، ولم يكن نشر الكتابة والأبجدية هو الفضل الأوحد للفينيقيين ولكنه كان أهمها<sup>(1)</sup> ومن التراث الأدبي الذي تركه الفينيقيون اقتبس العبرانيون كثيرا من تراثهم وأدخلوه في كتاباتهم المقدسة<sup>(2)</sup>.

وكان من الطبيعي أن تكون اللغة الفينيقية قد انتشرت في شمال غرب إفريقيا وغرب البحر المتوسط بوجه عام منذ نهايات الألف الثاني قبل الميلاد. وتزودنا اللغة البونية وهي المأخوذة عن الفينيقية بالكثير من المعلومات عن انتقال الثقافة الفينيقية من الشرق إلى الغرب، ويمكننا أن نلاحظ قوة كل من الكتابة واللغة والاستقرار بدليل استمرار وبقاء الخط الفينيقى القديم واتساع استخدامه في كافة أنحاء العالم الفينيقى<sup>(3)</sup>. وتجدر

(1) أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، القاهرة 1984، ص 118.

(2) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، بيروت 1984، ص 63.

(3) Harden.D., *The Phoenicians*, London 1950. P 20 Moscati.S., *The World of the Phoenicians* London 1968, p185.

الإشارة إلى أن الرومان كانوا يطلقون على القرطاجيين اسم البونيين وانسحبت هذه التسمية على كثير من الأمور مثل الحروب البونية والثقافة البونية وقد تكون هذه التسمية خاصة بالرومان، أما الإغريق فكانوا ملتزمين بالتسمية المعروفة وهى الفينيقيون سواء للشرقين منهم أو من هم في غرب البحر المتوسط، ومنها كانت اللغة الفينيقية أو الثقافة الفينيقية وهى أشمل وأوسع زمنيا ومكانيا ويدخل مسمى البونى ضمن ما تقصده لفظة فينيقى.

وقد وجدت الكلمات الفينيقية فى الآداب الإغريقية واللاتينية مثلها فى هذا مثل المصرية والاكديية والعبرية<sup>(1)</sup> وظلت الفينيقية تسود فى مدن شمال إفريقيا حتى زمن القديس أوغستين St. Augustine أسقف مدينة هيبو ريجيوس Hippo Regius فى القرن الخامس الميلادى وظلت مستخدمة أيضا حتى القرن السادس الميلادى من جانب البيزنطيين فى شمال إفريقيا<sup>(2)</sup>.

وظلت اللغة البونية استمرارا للفينيقية والفرق بينها هو التطور الذى دخل على اللغة التى ظلت مستخدمة حتى بعد سقوط قرطاج فى عام 146 ق.م على يد الرومان<sup>(3)</sup> تحت اسم اللغة البونية الجديدة<sup>(4)</sup>. ولعل السبب المباشر فى استمرار اللغة البونية باسم البونية الجديدة جاء نتيجة انتشار الفينيقيين فى كل إفريقيا واختلاطهم بالسكان المحليين وبالرغم من أن اللغة كان قد دخلت عليها بعض التغيرات إلا أنها ظلت مستخدمة فى الحفلات الرسمية والطقوس الدينية رغم سقوط الدولة وهذا دليل على قوة اللغة والثقافة الفينيقية فى شمال إفريقيا. ومن بين أسباب استمرار اللغة الفينيقية فى شكلها الأخير<sup>(5)</sup> هو قرار الرومان إقامة مستعمرة فى موضع قرطاج (فترة الأخوين جراكوس)، وعلية فقد عاد للغة والكتابة القرطاجية شيوعا وعرفت كتابتها باسم البونية الجديدة وظلت هذه

(1) Harden.D .op.cit.pp.20,105 .

(2) هارولد لام، هانيال، ترجمة رشدى السيسى، القاهرة 1962، ص 320.

(3) سليمان عبد الرحمن الذيب، الاوجاريتيون والفينيقيون، الجمعية التاريخية السعودية، العدد السابع عشر، الرياض 2004، ص 76.

(4) Desanges.J., *The Proto-Berbers*, General History of Africa.2. Unesco 1981, p.461.

(5) Fage.T.D., *The Cambridge History of Africa.vol.2.*, Cambridge 1973.p203.

الكتابة مستعملة حتى التاريخ الميلادي كما سبقت الإشارة ولكن بعد أن تعرضت لبعض التعديلات البسيطة التي أدخلت عليها في فترات متعاقبة<sup>(1)</sup> يضاف إلى ذلك احد الأسباب وهو أن اللغة البونية ظلت لغة الوظائف في عدد كبير من مدن شمال إفريقيا حتى أثناء القرن الأول الميلادي.

ومن المؤكد أن استخدام اللغة البونية في شمال إفريقيا لم يقتصر على المدن القرطاجية فقط وإنما انتشر في كافة المدن الأخرى تقريبا، إذ كانت لغة الحديث والمعاملات إلى جانب استخدامها في الوظائف الرسمية. وأقبل على تعلمها عدد كبير من السكان فضلا عن النوميديين حتى بعد سقوط قرطاجَة. وتشير المصادر إلى استمرار اللغة القرطاجية حيث استخدمت في الطقوس الدينية والوظائف الرسمية والحفلات العامة في أغلب المناطق التابعة لقرطاجَة داخل إفريقيا<sup>(2)</sup> ولدينا احد النماذج على ذلك عندما تولى احد أفراد أسرة الملك ماسينسا Massinissa<sup>(3)</sup> عرش نوميديا وهو الملك غودة Gauda ثم خلفه ولده همبسال الثاني Hiempsal II الذي خلعه أحد أفراد الأسرة ثم أعيد إلى الحكم من 106-60 ق.م ومن المعروف انه ألف كتبا عن إفريقيا باللغة البونية، وهو لا يختلف في هذا عن الخط الحضاري لأفراد أسرته فجميعهم تقريبا استخدموا اللغة البونية بشكل واضح<sup>(4)</sup> ولعل ما تجدر الإشارة إليه أن كان هناك قدر من الوحدة الثقافية في كل أنحاء المغرب، غير أن كل من اللغتين الليبية والبنونية الجديدة استسلمتا كلغتي كتابة للغة اللاتينية في العصر الروماني واستخدمت صيغة من البونية في الحديث ظلت واسعة الانتشار في العصر الروماني المتأخر، ولكن من الصعب أن نحدد وضع اللغة الليبية ومدى انتشارها كلغة تخاطب<sup>(5)</sup> على الرغم من أن الأبجدية الليبية مأخوذة من

(1) كوتنوج، الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة 1948، ص352

Hardden.D., op.cit.p.68.

(2) Warmington.B.H., op.cit.pp306-307.

(3) الملك ماسينسا: أحد ملوك مملكة نوميديا، ولد في حدود عام 228 ق.م عاش حتى بلغ الثمانين من عمره وكان يتمتع بصحة جيدة، حكم ما يقرب من ستين عاما، ترك عند موته طفلا في الرابعة يسمى سثمبانوس Sthembanus كان من حلفاء قرطاجَة لكنه انقلب عليها وتحالف مع الرومان توفي في عام 148 ق.م. polybius.xxxvi.16.2-10.

(4) محمد بيومي مهران، المغرب القديم، الإسكندرية 1990، ص292.

(5) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص287.

الأبجدية الفينيقية.<sup>(1)</sup> وفي إقليم طرابلس بليبيا عثر على عدد كبير من النقوش المكتوبة باللغة البونية الجديدة ولكن بحروف لاتينية. ولعل اللغة البونية الجديدة كانت إلى حد ما لغة المجتمعات الليبية المحلية في هذه المناطق البعيدة عن الساحل والتي كان يتكون منها سكان أهل الثغور، ومن أبرز المواقع التي عثر فيها على نقوش من هذا النوع جرزة وهي موقع من العصر الروماني في وادى زمزم، ومزرعة محصنة في وادى مردم، وبثر (دريدر) الذى عثر فيه على أربعين نقشا، كان بعضها يعلو بوابات المزارع الحصينة أو الأضرحة، ومن المرجح أن غالبية هذه النقوش يرجع إلى فترة متأخرة عن بداية القرن الثالث الميلادى. والذى يهمننا في هذه الدراسة أن هذه النقوش مكتوبة بأبجدية بونية، وقد يفسر ذلك بأن الكثيرين من الليبيين استمروا يستخدمون اللغة البونية الجديدة التي لا بد قد تأصلت فيهم إلى الحد الذى لم يسمح باستعمال اللاتينية. وإذا كانت بعض العناصر الليبية قد أقبلت على الأخذ بأسباب المدنية الرومانية واستعمال اللغة اللاتينية فإن ذلك لا يعنى أن جموع الليبيين قد تخللوا عن اللغة البونية، ولعل هذه اللغة الفينيقية كانت قد احتفظت بمكانتها في مدن الساحل حتى إن بعض النقوش في لبدة كتبت بالبونوية، وهذه النقوش لها طابع رسمى إذ إنها تتعلق بموظفين رسميين في بلدية المدينة، وهذا يرجح أنها كانت اللغة الرسمية الثانية بعد اللغة اللاتينية على الأقل في عصر أغسطس، وحتى لو فرضنا أن اللغة البونية كانت قد فقدت بعض مكانتها في المناطق الساحلية أمام اللاتينية إلا أننا لا نستطيع أن نسلم باختفائها تماما بعد القرن الأول، وقد يمكن القول إن اللغة البونية استطاعت أن تحتفظ بكيانها في المناطق الداخلية.<sup>(2)</sup>

وليس أدل على قوة تأثير الثقافة المزدوجة من أن استخدام اللغة البونية الجديدة في النقوش قد استمر حتى القرن الثانى الميلادى، وأنه طوال نفس الفترة إنما ظل لقب شوفيت Suffet<sup>(3)</sup> وهو الاصطلاح السياسى القرطاجى الذى نقله لنا الكتاب الرومان،

(1) أندريه ايار وجانين أوبويه، تاريخ الحضارات العام (روما وإمبراطوريتها)، نقله إلى العربية فريد داغر وفؤاد ابوريجان، بيروت 1994، ص 63.

(2) مصطفى كمال عبد العليم، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، بنغازى 1968، ص ص 98-99.

(3) الأصل الفينيقى للكلمة هو سوفيس sophes والشكل اللاتينى لها هو sufes بمعنى القاضى أو الرئيس الأعلى للإدارة في قرطاجة بالذات (الجمع sufetes). راجع عبدالعزيز حجازى البحرية القرطاجية، دراسة في دورها الحربى ومقوماته وعلاقاته دكتوراه غير منشورة، القاهرة 1985، ص



داخلها قدر كبير من الثقافة الفينيقية، فقد كان النوميديون إلى وقت طويل وهذا أمر طبيعي تحت التأثير الفينيقى وذلك أثناء عملهم وخدمتهم في الجيش القرطاجي، وخلال علاقات الزواج بين الحكام النوميديين والأسر القرطاجية حتى أن ماسينسا نفسه كان يتعلم في قرطاجة وظل التأثير الفينيقى عليهم قويا حتى بعد عام 201 ق.م وهي السنة التي انتهت فيها الحرب البونية الثانية (و التي ساهم ماسينسا فيها بجهد كبير حتى هزمت قرطاجة )، وحتى بعد هذا كان يتسرب النفوذ الفينيقى إلى مملكة نوميديا من المدن الفينيقية الساحلية مثل: لبكس ماجنا Lepcis Magna وهيبو ريجيوس Hippo Regius وحتى المدن الداخلية والتي كانت تحت سيطرة القرطاجيين مثل: ثجا Thugga وسيكا Sicca وتسرب نفوذ الفينيقيين إلى المناطق النوميديية أيضا. وعلى سبيل المثال كانت مدن كيرتا Cirta وقفصة Capsa يصاغ دستورها على الطريقة الفينيقية؛ ومما هو جدير بالإشارة أن بعض أسماء العائلة الملكية النوميديية يوجد بها أسماء مثل: ادهربعل Adherbal ومستبعل Mastanabal وهي أسماء فينيقية أو شبه فينيقية تشير إلى عبادة الإله الفينيقى (بعل Baal) كما أن نوميديا كانت تستعمل اللغة الفينيقية في كثير من الأمور الرسمية، وكذلك في النقوش الأثرية وتسك بها العملة.<sup>(1)</sup>

وقد يكون من المؤكد أن كثيرا من النصوص البونية ترجمت إلى اللغة اليونانية واللاتينية، وخصوصا ما سجله هانون Periplus of Hannon عن الرحلة البحرية في المحيط الأطلسي وكشف عن غرب إفريقيا، ورحلة هيملكون الذي كلفته قرطاجة في حدود عام 450 ق.م أن يقود حملة لكشف سواحل غرب أوربا، والتي ورد ذكرها في كتاب بلنيوس Plinius.vii.197 الذي يرجع تاريخه إلى النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، وقد تمكن هيملكون من التعرف على مجموعة من الجزر منها بريتاني وغيرها وكانت هذه الجزر من أهم مناطق تجارة القصدير، ورغم أن هذه الرحلة كانت على نفس المستوى من الأهمية مع رحلة هانون إلا أنها لم تشتهر مثلها بسبب عدم تسجيلها، لكن المعلومات عنها وردت في كتب اليونان والرومان<sup>(2)</sup>، وقسم هانيبعل وبضعة أجزاء من

(1) T.D.Fage.op.cit.,p.148.

(2) جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة ليف من العلماء بإشراف إبراهيم بيومي مذكور وآخرين ج2، القاهرة 1978، ص151؛

أطروحة ماجون عن الزراعة، كل هذا بدون شك يدخل ضمن الأدب القرطاجي ولكنه مفقود، ومع ذلك فنصوص راس الشمرا واورجريت تجربنا عن إمكانية اكتشاف أشياء جديدة ممكنة، وربما يتم الكشف عن الوثائق الفينيقية في قرطاج من نقوش ونصوص وكتب ضمن المكتشفات المتوقعة.<sup>(1)</sup>

وقد كانت رحلة هانون من الأعمال المهمة ولها قيمتها إذ تم التعرف من خلالها على بعض الأقاليم. وما يهنا هو كتابة تفاصيل هذه الرحلة على لوحة بعد عودته وضعها في معبد كرونوس Chronos (Baal Hammon) بقرطاج<sup>(2)</sup> وهذا العمل الأدبي الذي حظى باهتمام واحترام عدد كبير من المثقفين الإغريق والرومان دفع مجلس الشيوخ الروماني إلى إصدار أوامره بترجمة هذه الأعمال إلى اللغة اللاتينية.<sup>(3)</sup> وتشير أغلب الدراسات إلى أن نص الرحلة احتوى على كثير من الحقائق تتفق مع المعلومات الحديثة ولذلك لا يمكن أن تكون من نسج الخيال، ويؤكد ذلك أن النص اليوناني الذي ترجم إلى عدد من اللغات الحديثة به الكثير من المعلومات الدقيقة عن المواضيع والأشكال والشواطئ والحياة البشرية في الأماكن التي وصلوا إليها.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا العمل يعود الفضل فيه إلى الجهود التي بذلتها قرطاج باعتبارها واحدة من أهم المستعمرات الفينيقية، والإشارة إلى نجاح هانون هو نجاح

(1) تم العثور في قرطاج على نص عبارة عن إهداء إلى الإلهة تانيت ينسب إلى العصر البوني: إلى السيدة تانيت Tanit بنية بعل Baal pne وإلى المولى بعل حامون: هذا ما أهدها بود-ملقارت بن عبد ملقارت ابن هيملك Hamilkat لأن الآلهة استجابوا لدعائه، فليباركوه]

ومن العصر البوني الجديد النقش الآتي وقد وجد في معبد مكتار القائم بجوار ثوجا Thugga في شرق نوميديا: [بني المعبد اثر مسكار

Athar-Misker، بناء افطان Iftan، ابن افشار Ifshar وابناه معه بارك Bark بن سليدي Selidi، ومتان بعل بارك، ومتان بعل بن بعل ياتون

..... وكان الرؤساء السفيت القائمون بالعمل يومئذ هم: اومزجوار umzguar بن تتاي، ومندسان Mandsan بن شبتان Shabtan،

ومسيجران M، ص gran بن قفسى Qafsi، وذلك لأن الآلهة استجابت لدعائهم [كونتنو.ج. مرجع سابق، ص 372..145.]. [Maurice Sznycer, op.cit.p.145..372.

(2) كونتنو.ج.، مرجع سابق ص 313؛ Maurice Sznycer, op.cit.p.146.

(3) جورج سارتون، مرجع سابق، ج2، ص 150.

لقرطاجة وقد كانت أعمال هانون وماجون وهمسال وهاميلكار وغيرهم في نظر الرومان من أهم الأعمال القيمة في التاريخ والجغرافيا والزراعة، واعتبرهم الإغريق والرومان من أعظم الكتاب الذين كتبوا في هذه الموضوعات.<sup>(1)</sup>

ونجبرنا لفيوس أن هانيعل قضى صيف عام 218 ق.م تقريبا بالقرب من معبد لاونيا Juno Laconia وسجل في نص طويل الأعمال البطولية مع الشخصيات العسكرية، هذا النص في معبد هيرا تم دراسته بعناية من جانب المؤرخ بوليبيوس واحتوى بشكل خاص على حسابات القوات المتبادلة بين إفريقيا وأسبانيا والتي كانت سابقا مع هسدروبل Hasdrubal عند بداية الحرب عام 219 ق.م.<sup>(2)</sup>

ومن بين النصوص المسجلة في الأدب القرطاجي ما عرف عن هدية قدمت للملك ماسينسا ملك نوميديا من ملك مالطا Malta وهى عبارة عن نابي فيل أخذنا من احد المعابد، وابتهج الملك ماسينسا أولا بالهدية ولكنه رفضها فيما بعد وأمر بإعادتها في سفينة خماسية عندما علم بأنها من المعبد وهذا مسجل في الأدب القرطاجي<sup>(3)</sup> وتؤكد الدراسات على أنه كان لمالطا سيادة مستقلة عن قرطاجة بدليل العلاقة التي تربطها بالملك ماسينسا إلا أن الثقافة القرطاجية كانت سائدة فيها وأن بعض السكان الذين لا يتحدثون اليونانية ولا اللاتينية كانوا يتحدثون لهجة فينيقية ربما كانت البونية، فضلا عن ذلك كان النظام السياسي على النمط القرطاجي من حيث وجود الشوفيت ومجلس الشعب.

وقد أشار بلوتارخوس إلى كتابة دينية ظلت في المعابد لفترة طويلة ورغم أن جسل. S. Gsell يشك في هذا إلا أن الواقع التاريخي يشير إلى وجود الأدب الديني في المعابد القرطاجية. وهناك سجلات تاريخية كثيرة ورد ذكرها في الكتاب المنسوب لأرسطو Pseudo Aristotle وإغريق وآخرين في القرن الثالث ق.م مثل تياكوس Timacus وأيضا في القرن الرابع الميلادي بواسطة سرفيوس هونوراتوس Servius Honoratus؛ كل هذا يقودنا إلى أن قرطاجة كانت قد ضمت عددا كبيرا من المؤرخين الذين سجلوا

(1) Maurice Sznycer, op.cit.p.141.

(2) livy.xxi.lxii.6-11.; Maurice Sznycer., op.cit.pp.142-143.

(3) Harden.D., op.cit.pp.70,105.

تاريخ المدينة وكانوا على صلة بمن هم مثلهم من الأدباء والمؤرخين الذين سجلوا هم أيضا تاريخ قرطاجنة، والمعروف أن القرطاجيين كانوا يسجلون أعمالهم البارزة ويضعوها في المعابد<sup>(1)</sup>.

وتشير المصادر إلى أن الكتاب الرومان مثل: سولينوس Solinus وأميانوس Ammianus كانوا قد اعتمدوا في أعمالهم على معلومات مستمدة من كتب قرطاجنية. ويذكر سولينوس أن النيل ينبع من جبال موريتانيا، ويعتمد في ذلك على كتب قرطاجنية حسبها ذكر الملك يوبا Juba II ملك نوميديا. أما الملك يوبا الثاني Juba II ملك موريتانيا يذكر حسب رواية أميانوس المعتمد على كتب قرطاجنية أن منابع النيل كانت في جبال موريتانيا المطللة على المحيط الاطلسي، وفيما يتعلق بهذه النقطة تحديدا يبدو أن هناك سوء فهم لما كتب عن منابع النيل، ويذكر المؤرخ سالوست أن معلوماته عن سكان شمال إفريقيا وصلته مترجمة عن كتب بونية كتبها الملك همبسال الثاني Hiempsal II (60-106 ق.م) ملك نوميديا ومن بينها تاريخ نوميديا باللغة البونية<sup>(2)</sup> وهذا يؤكد أن اللغة والثقافة البونية كانت منتشرة في أغلب مناطق شمال إفريقيا وأن العلماء اعتمدوا على معلومات تاريخية وجغرافية من قرطاجنة.

وتذكر بعض الدراسات أن القرن الرابع قبل الميلاد شهد بعض الأعمال الأدبية ثنائية اللغة على درجة كبيرة من التقدم والتطور، وربما يكون المقصود بذلك أنها كتبت بلغتين في وقت واحد. واحدة منهم اللغة البونية ظهرت في كتب الإغريق أو الرومان أو البونيين، ومن بينها ما سجله فيلينيوس Philinus من مدينة اجرينتوم Agrigentum عن أحداث الحرب البونية الأولى، وما سجله كل من سوسيلوس Sosylus وسيلينوس Silenus أصدقاء ومعلمي هانيبعل الاسبرطيين وصلتهم سجلات عن معارك هانيبعل قائد قرطاجنة، وكذلك شذرات عن حلمه الشهير والذي ظهرت إشارات عنه في كتبهم، ومن المعروف أن هانيبعل كانت له أعمال كتبت باللغتين اليونانية والبونية<sup>(3)</sup>.

ومن المعروف أن الدستور القرطاجي بلغ حدا من الشهرة لدرجة أنه ظهر في كتابات

(1) Maurice Sznycer.,op.cit.p.142.

(2) T.D.Fage.,op.cit.,p184 Sallust.17.7.(tamen uti ex libris Punicis,qui regis Hiempsalis dicebantur ).

(3) Maurice Sznycer.,op.cit.p.143.

الفيلسوف أرسطو وهو الذى اعتبره مثالا يحتذى به فى دراسة المؤسسات والنظم السياسية والاجتماعية التى نظمت حياة هذه المدينة وإشارة أرسطو للدستور القرطاجى ليست غريبة، فقد كان من بين الإغريق مؤرخون أرخوا باستفاضة للعلاقات اليونانية القرطاجية وللحروب البونية الأولى والثانية بما يظهر أهمية قرطاجة وتبين فضلها، وهناك عدد كبير من القرطاجيين اتخذ من اللغة اليونانية وسيلة تفاهم وأداة طيبة وأحسنوا استعمالها فى أعمالهم التجارية الواسعة، إلى جانب أنها كانت إحدى وسائل الكتابة والتعبير لدرجة دفعت السلطات القرطاجية لتحريم استعمال اليونانية على رعاياها فى بعض الأوقات ولكن دون جدوى. فقد نشأت حالات زواج ومصاهرة بين الإغريق والقرطاجيين وأظهر الناس إعجابهم فى القرن الرابع قبل الميلاد من قوة وبلاغة وفصاحة مجموعة من القرطاجيين فى مدينة سيراكوز Syracuse بجزيرة صقلية، كما أن هانيعل درس اليونانية وهو بعد فى أسبانيا على يد معلم من اسبرطة الذى وضع فيها بعد تاريخا مفصلا لتلميذه<sup>(1)</sup>.

ويذكر القديس جيروم St.Jerome<sup>(2)</sup> طبقا لمصادره أن الشعر الغزلى كان معروفا فى قرطاجة، وكذلك الأدب الشعبى، الذى كان ينتقل بين الناس شفاهة. وهذا الأسلوب فى انتقال المعارف بدون شك يرتبط بالطبقات الاجتماعية ومستوى الثقافة التى كانت تحياها الشعوب القديمة، فالأساطير مثلا كانت أسهل انتشارا عن غيرها بين الطبقات الشعبية.

وتشير الدراسات إلى أن قرطاجة بلغت درجة عالية من الثقافة جعل لديها نوعا من الأدب التعليمى مثل ذلك الذى كان موجودا فى الشرق. وليس لدينا صورة واضحة عن الأدب نظرا لضياح المكتبة القرطاجية وإنما توجد إشارات فى المصادر اليونانية والرومانية تمد الباحثين فى هذا الموضوع ببعض المعلومات التى تفيد فى وجود الأعمال التعليمية. والدليل على ذلك أن من بين الذين تولوا ترجمة دائرة المعارف الزراعية التى وضعها

(1) أندريه إيار وجانين أوبوايه، مرجع سابق، ص 58.

(2) القديس جيروم (342-420 م) من سكان إيطاليا ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية أحد المقربين إلى البابا خلال هذه الفترة أعجب بما كتبه شيشيرون وفرجيل زار فلسطين وأسس دير قرب بيت لحم وهو أحد آباء الكنيسة وعلماء الدين المسيحى المثقفين. راجع Maurice

ماجون القرطاجي أحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني. وقد يفيد هذا النموذج كشاهد على انتشار اللغة البونية، أما الوسيلة التي تعلم بواسطتها عضو مجلس الشيوخ اللغة البونية فهي غير معروفة على وجه الدقة وقد يكون تعلمها من أحد السفراء أو المتعلمين أو التجار وغيرهم.<sup>(1)</sup>

وقد تكون بعض الأعمال الفلسفية في قرطاج غير ظاهرة، ومن بين الشخصيات المهمة بالنواحي الفكرية والفلسفية هسدروبعل وهو من مواليد قرطاج في القرن الثاني قبل الميلاد، ومما هو جدير بالذكر أنه ذهب إلى أثينا للدراسة والبحث وهو في الأربعين من عمره، وأصبح من مشاهير الفلسفة واتخذ اسم كليتوماخوس Clitomachus واستمع إلى كارنيدس Carneades أحد فلاسفة أثينا في هذا الوقت والمولود في مدينة قوريني اليونانية بشمال إفريقيا ذهب إلى أثينا لدراسة الفلسفة بالإضافة إلى دراساته في الأكاديمية درس المنطق مع دياجونيس Diagenes وهو أحد أعضاء المدرسة الرواقية، أصبح رئيساً للأكاديمية في وقت ما قبل عام 155 ق.م. عرف مذهبه الفلسفي من خلال تلميذه كليتوماخوس الذي رأس الأكاديمية بعده وهو الذي رأى في هسدروبعل حماسة كبيرة وجعل منه أحد تلاميذه المقربين، واثمته على رسائله العلمية وقد أنتج هسدروبعل أكثر من سبعين كتاباً وأخذ مكان أستاذه كارنيدس وذيل أفضل نظرياته في كتبه، وساهم بأفكاره في ثلاث مدارس فكرية وكان يعرف بالأكاديمي المتجول، ومن خلال هسدروبعل عرفت أشياء عن فلسفة كارنيدس الذي نجح في عام 129 ق.م على تسجيل ملاحظات على فلسفة دياجونيس ورسائله، ويبدو أن هسدروبعل أضاف إلى احتمالات اركسيلاس Arcesilas وصنع لنفسه مكاناً متقدماً في الفكر والفلسفة. بل إنه أصبح بعد أستاذه رئيس مدرسة ظهرت بعض أفكاره في كتابات شيشرون فيما بعد.<sup>(2)</sup>

وفي مجال انتقال الثقافة القرطاجية إلى مناطق كثيرة، تذكر الدراسات التاريخية أن الليبيين المنخرطين في جيش قرطاج كانوا يحملون معهم عند الرجوع إلى أوطانهم شيئاً من المدنية القرطاجية التي عاشوا فيها، أما الذين يعملون منهم في الوكالات التجارية

(1) اندرية ايهار وجانين اوبواية، مرجع سابق، ص 58.

(2) Gsell.S., *Historie Ancienne de L'Afrique du Nord*, Paris 1972, Tome III, p405.

عبد الرحمن بدوي، خريف الفكر اليوناني ط3 القاهرة 1959، ص 78.

البونية ويعيشون في قرطاجة أو في مملكة نوميديا هم وأولادهم وأحفادهم و الذين أحبوا القرطاجيين وكانوا يتحمسون لهم فإنهم احتفظوا باللغة والثقافة البونية<sup>(1)</sup>. ولم يحمل التجار القرطاجيون معهم البضاعة فقط بل حملوا كذلك جملة من العادات والصناعات والأفكار والمعتقدات استساغها الناس شيئا فشيئا، وكان لذلك أبعد الأثر في عاداتهم<sup>(2)</sup> ليس فقط الإفريقيين وحدهم هم الذين كانوا يذهبون إلى قرطاجة وتأثروا بثقافتها إنما كان الإغريق والإيطاليين والأتروسكان والمصريين الذين ذهبوا إلى قرطاجة لعرض بضائعهم أو مصنوعاتهم. وهؤلاء كانوا قد تأثروا بالثقافة البونية مثلما تأثر المصريون والسوريون وبدرجة كبيرة بالحضارة الإغريقية من خلال العلاقات التجارية.<sup>(3)</sup>

وقد كان تأثير المدينة القرطاجية أقوى بطبيعة الحال في نوميديا. وتشير بعض الدراسات إلى أن الثقافة الرومانية كانت تجد صعوبة في الانتشار في إفريقيا أو نوميديا<sup>(4)</sup>. ويرجع السبب في ذلك إلى أن الثقافة القرطاجية كانت قد بهرت الأمراء النوميديين الذين أقام عدد كبير منهم في قرطاجة وتزوجوا بنات طبقتها النبيلة وسموا أبناءهم بأسماء قرطاجية ومنحوا مدنهم دساتير منسوخة عن دساتير المستعمرات الساحلية وعبدوا الآلهة السامية وشجعوا رعاياهم على العمل بأساليب ماجو الزراعية<sup>(5)</sup>.

واستعان الملوك وكبار القوم بفنيين من قرطاجة، وقد شيد أحد هؤلاء حوالى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ضريحا في مدينه دقة Dougga حيث توجد في نفس الوقت نماذج شرقية وإغريقية عتيقة هي من خصائص الفن البونى. يحتوى هذا الضريح المبنى بحجارة ذات زخارف جميلة عليها كتابات باللغة الليبية والبونية. وتعد هذه الكتابات خير دليل على أن الأرستقراطية النوميديية كانت تستعمل اللغة البونية في النقوش الحجرية وأحيانا

(1) Harden.D.,op.cit.p73.

(2) شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس 1985، ص 125.

(3) Harden.D.,op.cit.,p.73.

(4) Ibid.p.68.

(5) شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ص 125. ؛ T.D.Fage,op.cit.pp175-176.

كانت تنافس بها اللغة الليبية. وتذكر هذه الكتابات أسماء لبناء وعلى رأسهم عبريش الذى كان قرطاجيا بدون شك وأسماء أعوانهم وأسماء التجارين والحدادين.<sup>(1)</sup>

ولعل من الأهمية هنا الإشارة إلى أن ولايتى نوميديا وموريتانيا قد اعترفتا بالسيادة الرومانية وإن تركت مقاليد الحكم فيها لأبناء هاتين المملكتين تحت السيادة الرومانية، وأن التأثير الثقافى القرطاجى إنما قد استمر فى هاتين الدولتين بل ربما قد ازداد عما كان عليه الحال من قبل حيث انتعشت المستوطنات الساحلية القديمة، والتي كان قد هرب إليها العديد من اللاجئين فى سنوات الصراع الرومانى القرطاجتى الأخير، كما انتشرت اللغة الفينيقية فى صورتها الأخيرة والتي عرفت بالبنوية الجديدة على نطاق واسع عن ذى قبل.<sup>(2)</sup>

أما فى موريتانيا فهناك من يذهب إلى أن الملك يوبا الثانى 25 ق.م - 15 م إنما كان مواطنا رومانيا وأنه قد ارتبط بالزواج من الأميرة كليوباترا Selene ابنة الملكة كليوباترا السابعة آخر ملوك البطالمة، ويعد عصره من الناحية الحضارية أقرب إلى الصفة الدولية، فقد كان يعتمد على كافة الثقافات.. كانت القرطاجية واحدة منهم، فضلا عن الرومانية واليونانية والمصرية، وقد دعم هذا الاتجاه بتكوين مكتبة شاملة لمختلف هذه الثقافات فى ذلك العصر، وأنه هو شخصيا على جانب من العلم والأدب حتى نسب إليه تأليف عدد من الكتب بالإغريقية وإن لم يوجد شىء منها الآن.<sup>(3)</sup>

ويشير ورمنجتون Warmington إلى أن مظاهر الثقافة القرطاجية فى شمال إفريقيا استمرت حتى بعد سقوط المدينة بعدة قرون، ويعتمد فى ذلك على ما ورد عند القديس أوجستين (القرن الخامس الميلادى) الذى لاحظ استخدام اللغة البونية وأشار إلى صلتها بالعبرية، كما سجل أيضا إشارات عن قوة الدين البونى، وأن معرفة الناس به سهّل إلى حد كبير تطور المسيحية فى إفريقيا وانتشارها فى أماكن كثيرة، وقد لاحظ أيضا أن أسماء عدد كبير من المسيحيين كانت مركبة وفقا للنموذج القرطاجى القديم فى شكل لاتينى

(1) شارل أندرى جوليان، مرجع سابق، ص 126.

(2) محمد بيومى مهران، مرجع سابق، ص 289.

(3) نفس المرجع، ص 294.

مثل (Baalyaton)=(Deusdedit و Muttumbaal) =Dieudonne فالاسم الأول يبدأ باسم بعل فيصير ( بعل ياتون)، والاسم الثاني ينتهي باسم بعل فيصير ( موتوم بعل). وهنا نلاحظ أن الثقافة القرطاجية ظلت مستمرة في بث مؤثراتها في شمال إفريقيا فترة طويلة من الوقت، بدليل وجود اسم الإله الفينيقي ( بعل) في تركيب بعض الأسماء اللاتينية لبعض سكان شمال إفريقيا في العصر المسيحي.<sup>(1)</sup>

### مكتبة قرطاجنة:

كانت المكتبة موجودة بكل تأكيد منذ عدة قرون، ولا نغالي إذا قلنا إنها كانت موجودة منذ تأسيس الدولة، ومن المعروف أن القادمين من الشرق من مدينة صور وغيرها إلى غرب البحر المتوسط لتأسيس وكالات تجارية أو مستعمرات كانوا يحملون معهم كتبهم المقدسة وأشعارهم الملحمية وأساطيرهم، وتوصف المكتبات القرطاجية بأنها كانت واسعة، وهذا معناه أن المكتبة أعدت لتستوعب أكبر عدد من القراء والمثقفين، ووصول الكتب من الشرق مع التجار يعد دليلاً على تعدد موارد الثقافة داخل المكتبة، فضلاً عن اتساع نطاق الثقافة بعد أن ظهرت بعض الأعمال باليونانية واللاتينية داخل المكتبة، هذا بالإضافة إلى وجود كتب أدبية ثنائية اللغة.

وتذكر بعض الدراسات<sup>(2)</sup> أن المكتبات القرطاجية كانت على طراز مكتبة الإسكندرية بيد أن هناك دراسات أخرى تشير إلى أن القرطاجيين قد أقاموا الكثير من المكتبات على طراز مكتبة الملك الآشوري آشوربانيبال Assurbanibal في القرن السابع قبل الميلاد<sup>(3)</sup>، ورغم التباعد الزمني بين تاريخ الإسكندرية وقرطاج إلا أنه يشير إلى أن مكتبة قرطاج قد حظيت بشهرة واسعة رغم غياب شكل الطراز الذي كانت عليه قبل هدم الرومان للمدينة بالكامل في عام 146 ق.م.

ونجربنا المؤرخ بلنيوس أن مجلس الشيوخ الروماني قدم المكتبات العامة التي نجت من التدمير كهدية إلى أمراء المنطقة<sup>(4)</sup>، منهم مكيبسا Micipsa ملك نوميديا الذي أصبحت

(1) Warmington. B.H., op. cit., p.308.

(2) Maurice Szyner. op. cit., p.142.

(3) Ibid. p.142.

(4) Plinius. xviii.22.

مكتبته بعد قرار مجلس الشيوخ مركزا للمكتبة الثقافية الفينيقية؛<sup>(1)</sup> وهذه المكتبات كانت تحتوي على كثير من الكتب التي كانت على درجة عالية من القيمة العلمية مثل رسالة ماجون عن الزراعة وهانون عن الملاحه والكشف الجغرافي<sup>(2)</sup>. ونخلص من هذا إلى أن المكتبات التي أهديت إلى أمراء نوميديا كانت من القيمة العددية والعلمية ما يصلح أنها تقدم على سبيل الهدية جزاء ما قدموه من معونة ومساعدة في إسقاط المدينة الرئيسة في شمال إفريقيا، ورغم أن أغلب المصادر تتفق حول هذا الإجراء إلا أنها لم تشر إلى أن هذه المكتبات ظلت ذات طابع خاص، والأقرب إلى الواقع أن هذه المكتبات ذابت في مكتبات البلدان التي أهديت إليها بقصد أو بدون قصد.

ومن بين الأمور التي تستحق الذكر في هذا الصدد أن هؤلاء الأمراء الذين وصلتهم كتب القرطاجيين لم يعنوا كثيرا بها رغم أنهم كانوا يستطيعون قراءة اللغة البونية، أما كنوز قرطاجة الغنية فقد حملت إلى روما أو أعطيت للمستحقين من حلفائها الظافرين، أما فلول القرطاجيين الذين ظلوا على قيد الحياة فقد تشتتوا على طول الساحل الإفريقي دون أن يعمدوا إلى تخطيط مدينة أخرى وعلى مر السنين ضاعت تقاليدهم القديمة، وقد استوثق المؤرخون بجانب هذا من أن مادونه كاتما السر الإغريقيان اللذان كانا في معية هانيبعل قد دمر أو فقد ماعدا بعض شذرات اقتبسها كتاب متأخرون.<sup>(3)</sup>

ولا ريب أن هذه المكتبات كما سبقت الإشارة كانت تحتوي على مؤلفات في التاريخ والعلوم الحديثة وسير الفلاسفة والملوك، ووصلت إلى قدر كبير من القيمة العلمية ما دفع الرومان أن ينقلوا إلى اللاتينية بعض البحوث وأفادوا منها زمنا طويلا<sup>(4)</sup>. وتشير بعض الدراسات أن هانيبعل نفسه يذكر أنه كتب عدة أعمال باليونانية والبنونية، أيضا خيرون القرطاجي Charon of Carthage كتب سلسلة من الأعمال عن مشاهير الرجال والنساء في قرطاجة وخارجها مثلها كتب عن طغاة أوروبا وآسيا، ومن المؤكد أن هذه الأعمال

(1) T.D. Fage.,op.cit.,p184,gsell.s.op.cit.,iii.p.403.

(2) Warmington.B.H.,*Carthaginian general history of Africa,II.p.462.* ;Warmington. B.H.,*Histoire et civilization.op.cit.p.306.*

(3) هارولد لام، مرجع سابق، ص ص 4، 5.

(4) نفس المرجع، ص 320.

كانت من بين الكتب التى احتوتها مكتبة قرطاجة أو المدن التابعة لها بدليل الإشارة إليها فى كثير من الدراسات المتعلقة بالمكتبة القرطاجية.<sup>(1)</sup>

## التعليم

توافرت فى قرطاجة الظروف والعوامل المشجعة على وجود تعليم مستقر متعدد الجوانب والأغراض، فالدولة التى نحن بصدد الحديث عنها ذات أصول وتراث سياسى وثقافى فينيقى انتقل معها هذا الموروث إلى شمال إفريقيا عند التأسيس، كذلك كان الاحتكاك بعدد كبير من الدول والشعوب التى تعيش على شواطئ البحر المتوسط من بينها الإغريق والرومان؛ وكان طبيعيا والدولة تحترف التجارة أن تتعامل مع هذه الدول بشكل مكثف أن يكون لديها أصول ثقافية عن الدول محل التعامل ليس هذا فقط وإنما كانت قرطاجة حريصة على أن يرث أبناؤها هذا المخزون الثقافى عن الدول التى سوف يتعاملون معها، وقد تم بالفعل فيما عرف بانتقال الثقافة اليونانية والرومانية إلى شمال إفريقيا؛ كذلك ما تم ترجمته من الكتب والموسوعات القرطاجية وانتقل إلى بلاد اليونان والرومان، كل هذا كان لا يمكن أن يتم إلا إذا كان لقرطاجة إطار تعليمى مستقر فى جميع المجالات، وهذا ما سوف نناقشه فى الصفحات التالية.

وتشير كل المصادر التاريخية إلى حقيقة مؤكدة كانت موجودة فى قرطاجة وهى التعليم، غير أننا فى حقيقة الأمر نفتقد البرامج التى كان عليها، والسبب ذكرته أيضا المصادر وهو التدمير الذى أصاب المدينة كلها عن عمد، وقام به الرومان فى نهاية الحرب البونية الثالثة، ولم يعد أمامنا سوى البحث عن الإشارات الواردة فى المصادر عن التعليم سواء بشكل نظامى أو جهود خاصة لتربية الأبناء. ويجب الإشارة إلى حقيقة أخرى فى هذا المجال هى أن الإشارات التى ترد عن التعليم تأتى فى إطار حديث اليونان عن الثقافة القرطاجية ونقلها أو ترجمة الكتب الفينيقية إلى اليونانية، أو فى حديث الرومان عن شخصيات الصراع الرومانى القرطاجى وأهم شخصية فى تاريخ الحضارة القرطاجية والعالم القديم كانت شخصية هانيبعل، وهو الذى أخرج الرومان فترة من الوقت،

(1) Maurice Sznycer.,op.cit.p.143.

وأربكهم واقترب من أبواب روما، ولذلك فالرومان كانوا من بين الذين كتبوا عنه وهم أعداؤه، ومن خلال هذا كانت معلوماتنا عن التعليم في قرطاجة.

### التعليم العسكري:

كانت أول بيئة يذكرها هانيبعل تتصل بمعسكر مسلح على خلاف غيره من أمثاله ولكن الذين حوله لم يكونوا في العادة يحملون سلاحا بل كانوا يقومون بأعمال تتعلق بالحياة اليومية، ولم يجد الصبي غرابة وهو ابن الخامسة في أن يتخاطب هؤلاء القوم النشيطون بخليط من اللغات، إذ كانوا أجراء من اثني عشر شاطئا أو جزيرة، وقد وفقوا إلى معرفة لغة الإفريقيين الوطنية الجافة ولغة اليونان المهنية، وكان الصبي على استعداد لان يصغى لحديثهم كلما أراد أن يعرف أى شىء خفى، ولذلك كان الأجراء يتركون عملهم ليجلسوا إليه ويوضحون كل شىء لابن السيد هاميلقار، على أية حال أصبح هذا المعسكر مقر حضانة الصبي تحت إشراف أجراء والده الذين كانوا يتقاضون أجورا على خدمتهم له<sup>(1)</sup>.

ومن المناظر التى ظلت عالقة بذاكرة هانيبعل هو منظر حشود من المرتزقة على جانبي الطريق بالقرب من مدخل قصر والده في قرطاجة، وهؤلاء كانوا يحملون أسلحة مصقولة بعناية بواسطة العبيد وبعض الإيطاليين الهاربين من حكم الرومان، وفي هذا الموقف دارت المناقشات حول الصلح مع الرومان بعد الحرب البونية الأولى، كل هذا والصبي يرقب الموقف بعناية<sup>(2)</sup>.

وبعد الحرب البونية الأولى اشتعلت ثورة الجند المرتزقة وحددت إقامة أفراد الأسرة من باب الخوف عليهم وفي قصر المدينة كان يقيم هانيبعل مع شقيقاته وأشقائه الصغار حيث تلقفه المربون واستطاع علماء الرياضيات الإغريق الذين يعلمون أشقائه أن يعلموه بعض المعارف خلال هذه الفترة<sup>(3)</sup>. والحقيقة أن هانيبعل طبقا لإشارة زوناراس Zonaras كان يتدرب على القتال منذ حداثة سنه، ليس وحده فقط وإنما كل إخوته فقد

(1) هارولد لام، مرجع سابق، ص 10.

(2) نفس المرجع، ص 16.

(3) نفس المرجع، ص 17، 20.

رباهم هاميلقار برقة على الشجاعة والجرأة وأن يكونوا مستعدين لحرب الرومان، ولهذا كان دائما يهتم بالإشراف على تدريباتهم العسكرية وبشكل خاص هانيبعل.<sup>(1)</sup>

ويشير المؤرخ لفيوس إلى أن هانيبعل قضى فترة من الوقت تحت التدريب في قرطاجة قبل الانتقال إلى أسبانيا مع أبيه<sup>(2)</sup>. و يروى هانيبعل قائلا: "لقد سكب والدى دم الضحية المقدسة للإله وكنت واقفا قرب المذبح (مذبح الإله بعل حامون Baal Hammon). فلما فرغ من تأدية الطقوس الدينية أمر الجميع أن يعودوا إلى الوراء قليلا ثم استدعانى إليه وسألنى في رفق بالغ عما إذا كنت راغبا في اصطحابه إلى رحلته، وكصبي صغير وافقت بل توسلت إليه أن يسمح لى بذلك، وعندها أخذنى من يدي وقادنى إلى المذبح ثم طلب منى أن أقسم على ألا أكون يوما صديقا للرومان وقد فعلت هذا"<sup>(3)</sup>.

والتصرف الذى قام به هاميلقار برقة يمكن تصنيفه على أوجه كثيرة فهو من جانب يشير إلى مدى عمق العداوة التى يكنها القائد للرومان، ورغم أن السبب معروف وهو الهزيمة التى أصابت الدولة فى نهاية الحرب البونية الأولى إلا أنه يرغب فى أن يزرع فى قلب الطفل الرغبة فى الانتقام، إذا ما وصل إلى الحكم يوما ما وقد حدث بالفعل، ومن جانب آخر ربما أن يكون هذا التصرف شكلا من أشكال التربية العسكرية التى يرغب الأب أن تلازم الطفل منذ السنوات الأولى من عمره وهو محاربة الرومان، وقد يكون هذا القسم الذى أداه هانيبعل بمساعدة والده أساسا للتربية السياسية القادمة، فهو أحد أبناء الأسرة الحاكمة ومن الوارد أن يكون أحد القادة السياسيين فى أسرة برقة، وهنا نلاحظ أن هانيبعل بعد أن أصبح قائدا بيده أمور الجيش لم يلن أبدا فى مهادنة الرومان، مع العلم أن كل تصرفاته كانت منطقية سليمة تعتمد على أوامر من مجلس الشيوخ القرطاجى بخصوص إعلان الحرب أو إبرام هدنة مؤقتة.

والقسم الذى أداه أفراد أسرة هاميلقار لدى نزوحهم إلى أسبانيا فقد أصبح ذا شأن، ذلك لأن تكرار المؤرخين له دون انقطاع أكسبه معنى لم يكن له من قبل، فنحن دائما نطالع

(1) zonaras.8,21.

(2) livy.xxi.2.

(3) هارولد لام، مرجع سابق، ص 23. Brain Caven, *The Punic wars*, London 1980, p.78

أن هاميلقار جعل جميع أبنائه يقسمون على ألا يكفوا عن معاداة الرومان، وأن حياة الأبناء وخاصة هانيبعل كرس منذ ذلك العهد لتنفيذ قسم صباه.<sup>(1)</sup>

كانت عملية التعليم والتدريب في كافة الميادين من الأمور ذات الاهتمام الكبير الذي يستحوذ على فكر جميع أفراد المجتمع القرطاجي وعلى الأخص حكومة الدولة، بل كانت في نظر الأحزاب السياسية من المبررات القوية التي يستغلها الزعماء والمعارضون في تقوية رؤيتهم السياسية، حدث ذلك عندما كانت أمور أسبانيا في مقدمة الأحداث بعد رحيل كل من هاميلقار برقة وهسدروبعل وأخذت الحكومة تناقش أمر القيادة القرطاجية في أسبانيا وطرح حزب برقة اسم هانيبعل ليتولى زمام الأمور، وهنا كان رأى الحزب المعارض بقيادة هانو أن يبقى هانيبعل في قرطاجة للتعليم والتدريب مثل غيره من الشباب<sup>(2)</sup>. ويفهم من هذا النص أن تعليم الشباب في سن هانيبعل من الأمور المعروفة التي يجب أن يلتزم بها مثل غيره وأن تكون القيادة العسكرية في يد قادة أكبر عمرا من هانيبعل، وعليه فالتعليم كان للجميع في مثل هذا السن بالنسبة للشباب، وربما كان يعادل مرحلة من مراحل التعليم المتقدمة في وقتنا الحاضر.

ومن الأمور ذات الأهمية الكبيرة أن هانيبعل كان قد تدرّب على أشياء كثيرة منذ صغره، فقد تثقف بالثقافة الهلنستية وعاش داخل أسرة فينيقية ذات نشاط واسع في البحر المتوسط، ورغم أنه أقسم ألا يحب الرومان إلا أنه لم يحتقرهم فهو ابن هاميلقار وصهر هسدروبعل، تعلم منهم كيف يكون احترام الحضارة، و أن يحسن التعامل مع الأشخاص، ومن هسدروبعل تعلم فن الدبلوماسية، ولذلك كان يعرف كيف يفرق بين الحلفاء والأصدقاء بالنسبة لروما، كما عودته تربيته على أن يحترم واجبه الوطني، أيضا كان ينظر إلى روما على أنها عدو متشدد ضد قرطاجة، وخلال وجوده في أسبانيا رأى بنفسه أن روما حرمتهم فرصة المزج بين نشاطهم الاقتصادي والعسكري في ايبيريا، وعلى هذا كانت مشاعر هانيبعل ضد روما مستندة على ما تدرّب عليه وشهده بنفسه.<sup>(3)</sup>

كان القائد القرطاجي هانيبعل في السادسة والعشرين من عمره، وفي عنفوان شبابه

(1) هارولد لام، مرجع سابق، ص ص 23، 24. Gsell.S.,op.cit.p.252.

(2) livy.xxi.3.

(3) Brian Caven.,op.cit.pp.87,93.

ثابت الجنان يدير الأحداث على حسب استطاعته الطبيعية وكان قد جمع إلى ثقافة السادة القرطاجيين وتمكنهم من لغتى فينيقيا واليونان وآدابها وتاريخها.. جمع إلى هذه الثقافة تدريبا عسكريا دام تسعة عشر عاما، وفي المعسكر الحربى أدب خلالها نفسه أحسن تأديب فعود جسمه شظف العيش وفعالية الصعاب وأخضع شهواته لعقله وعود لسانه السكوت كما عود أفكاره أن تركز فيما يهدف إليه من الأغراض، كما تعود أن يكون مساويا للجميع، يهتم بحل كل مشاكل جنوده<sup>(1)</sup> ولم يكن يضارعه أحد في الحروب أو في سباق الخيل وكان في مقدوره أن يخرج إلى الصيد أو القتال مع أشجع الشجعان ويصفه لفيوس<sup>(2)</sup> وهو من أعدائه بأنه كان أول من يدخل الحرب وآخر من يخرج منها.<sup>(3)</sup> لذلك كان محبوبا من الضباط والسلطات الوطنية في قرطاجة.<sup>(4)</sup>

وكان هانيبعل يميل إلى الضحك والتفكه وهى صفة كان يشاركه فيها سكان الجنوب من أهل أسبانيا، وهم قوم غير منطوين على أنفسهم مرحون، كانت لغة التخاطب عندهم شديدة الشبه فى سرعتها باللغة القرطاجية، وقد قضى هانيبعل فترة صباه وهو مرأهق فى وديان أسبانيا وعرف نساء يبهرن الأنظار تزوج بإحداهن وهى إحدى أميرات كاستيولا من قوم اولاكاد Olcades ولم يعرف التاريخ عنها سوى أن اسمها (اميلي)، ولعل ذلك الزواج كان كزواج هسدروبعل ذا صبغة سياسية، وهو فى كثير من الأمور كان يتفق تماما مع السياسة التى تمارسها أسرته فى أسبانيا<sup>(5)</sup> ذلك لأن قوم اولاكاد كانوا حماة الحدود القائمة بين جبل الفضة الذى يمتلكه الايبيريون والهضبة الوسطى التى يسكنها الكاربيتانيون البرابرة الذين لا يدينون بالولاء لأى عاهل على الإطلاق، ومع ذلك يرى عدد كبير من المؤرخين أن أسبانيا أثرت على خلق هانيبعل وشخصيته التى كانت تحب الخير وتحسن التعامل مع الآخرين وتهتم بالأرض الخصبة التى استحوذت على مشاعره. وكان شديد التواضع فنال إعجاب كل فئات الجيش<sup>(6)</sup>.

استعانت قرطاجة منذ القرن الرابع بالمرتزقة فى جيشها، فقد حارب إلى جوارها ليبيون

(1) Dio's Roman History.xiii.22.3.

(2) livy.xxi.4.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، م 3، ج 1، القاهرة 1972، ص 102.

(4) zonaras.8.21.

(5) Gsell.S.,op.cit.viii.p.249.

(6) هارولد لام، مرجع سابق، ص 36. livy.xxi.4.

وأسبانيون وليجور يون ومن جزر البليار والكلت والسمنيون، وفي القرن الثالث استخدمت قوات من ليبيا وأسندت إلى الأمراء والوطنيين قيادة الخيول النوميديّة التي استطاعت أن تسجل لها أعظم الانتصارات<sup>(1)</sup> أما القبيلة فكان يتم تدريبها بواسطة مختصين من الهنود<sup>(2)</sup> ولم يكن تنظيم هذه الأخطاط من أقوام متباينة العرق واللسان والتقاليد واستخدامهم على الوجه الأمثل والاستفادة من خدماتهم إلى الحد الأقصى بالأمر اليسير، وهذا ما تشير إليه المصادر منها المؤرخ بوليبيوس<sup>(3)</sup> والذي يشيد عالياً بعقريّة القيادة العسكريّة إذ عرفوا كيف يستفيدون من هذا العدد الكبير من الأجناس المتباينة إلى أقصى حد وكان هذا الجيش يقسم إلى وحدات وفقاً لقومياتهم حيث يتولى أمرهم ضابط من جنسهم مدرب التدريب اللازم من جانب ضباط قرطاجيين، ويكلفون بأعمال حسب الأسلحة التي كانت تحت أيديهم وهكذا يتدربون على فنون الحرب حتى يجيدون أصولها<sup>(4)</sup>. هذا فيما يتعلق بالخطط العسكريّة والأمر نفسه على درجة كبيرة من الأهمية عندما يكون متعلقاً بتعليم هؤلاء اللغّة التي سوف يتم تبليغ الأوامر بها وهي بالضرورة لغة القيادة القرطاجيّة التي تصل الكتاب حسب جنسياتها واللغة التي يتحدثون بها وتقع مسؤوليّة هذه النقطة على الضباط المختصين؛ فهل كانت تتم لحظة القتال؟ أم قبلها؟ وهل العدد الكبير من المترجمين يتم إعدادهم في وقت كاف قبل المعركة؟ ورغم غياب الدليل على الخطط التي كانت القيادة تستخدمها إلا أن الواقع يشير إلى أن قرطاجنة كانت بدون شك تدرب هؤلاء في مدارس ليست بالضرورة نظاميّة، وإنما كانت مدارس عسكريّة ملحقة بالمعسكرات يقوم كبار القادة بتدريب الضباط على هذه الأساليب المختلفة لتوصيل الأوامر.

وكان أمر الاستعانة بالأجانب ومنهم اليونانيين في الجيش القرطاجي منذ القرن الرابع مرتبطاً بالظروف التي تمر بها الدولة، ففي القرن الثالث قبل الميلاد وخلال الحرب البونوية الأولى تعرضت إدارة الجيش القرطاجي لهزة عنيفة كادت أن تؤدي لخسارة كبيرة مما

(1) polyb.xv.11.1-2.

(2) شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ص 116.

(3) polyb.xv.xi.;xv.xii.

(4) أندريه إيبار وجانين أو بوايه، مرجع سابق، ص 44.

دفعهم إلى الاستعانة بشخصية يونانية اسبرطية خيرة بالشئون الحربية وهى شخصية اكسانثيوس Xanthippus فقد أبدى هذا القائد اليونانى استعدادة لتدريب القرطاجيين وتعديل خططهم الحربية بدرجة متفوقة تمكنهم من الانتصار فى معاركهم القادمة مع الرومان<sup>(1)</sup>. وهذا الموقف يشير إلى مرونة النظام القرطاجى فى تقبل أن يقوم بتدريب الجيش خبراء أجنبى من اليونانيين أو غيرهم طالما يأتون بنتائج فى صالح الدولة، والتدريب هو جزء من التعليم وله أهميته خصوصا إذا أتى بنتائج مرضية، ومن جانب آخر لم يتردد اليونانيون فى الانخراط فى صفوف الجنود المرتزقة فى الجيش القرطاجى، ولكن كان لهذه القوة خطورتها فى كافة الجوانب التنظيمية والمسائل المرتبطة بالقوميات فضلا عن احتمالية القيام بتدمرات داخلية بسبب تأخر الحصول على الرواتب.

تأثر هانيبعل بتربيته الأولى إلى حد كبير، ذلك الشاب الذى رافق أسرة بارقة إلى أسبانيا منذ صغر سنه وترك زوجته وابنه وبعث بهم من أسبانيا إلى قرطاجنة عندما آلت إليه أمور الحرب فى إيطاليا، فهو يعرف تماما مقدار الأسرة والأبناء لدى الضباط والجنود والمحاربين من الوطنيين وغيرهم، ولذلك كان يحمس الجيش دائما ويأمر ضباطه أن ينبهوا الجنود على ألا ينسوا أولادهم وزوجاتهم وألا يضيعوا ثمار سنوات طويلة من الصراع ضد روما، حدث هذا عند الاستعداد لمواجهة الجيش الرومانى فى إفريقيا، وهنا نلاحظ أن مرافقة هانيبعل لوالده وصهره هسدرو بعل علمه الكثير من أصول التعامل مع الجنود ولبس الجانب النفسى عندهم بتذكيرهم بالأسرة والأبناء. وهنا تكون مهارة القائد والاستفادة من تعليمه وتربيته العسكرية.<sup>(2)</sup>

وكثيرا ما تتردد جملة وأرسل القائد القرطاجى جواسيسه أو أعوانه إلى معسكرات العدو، وكانوا يعتمدون على هذه الطريقة دائما سواء فى إيطاليا أو إفريقيا، وواضح أنها سلاح مهم من أسلحة القتال؛ ويعد هذا دليلا على أن هناك من يقوم على تدريب هذه القوة من أفراد الجيش القرطاجى على وسائل كثيرة منها التخفى والتعامل بحذر ومعرفة لغة القوم الذين سوف يتجسسون عليهم من قوات اليونان أو الرومان، إذن المسألة

(1) رشيد الناصورى، المغرب الكبير، ج 1، بيروت 1981، ص 250.

(2) polyb.xv.ii.5.6.

ليست تكليف أى شخص إنما هى دراسة وتدريب يتم تحت إشراف قيادة الجيش القرطاجى.<sup>(1)</sup>

وتشير المصادر إلى أن ماسينسا كان داهية فى قيادة العمليات الحربية سواء فى التخطيط أو التنفيذ<sup>(2)</sup>. ويعنى هذا أن العمليات العسكرية كانت ذات جوانب متخصصة، كما تشير المصادر إلى أن ماسينسا كان قد تلقى تعليمه فى قرطاجة وحارب إلى جانبها فترة من الوقت، وهذا يبدد إلى حد ما الغموض الذى يحجب المعلومات عن الشكل التعليمى فى قرطاجة، ويعطينا الدليل على أن قرطاجة كان لديها من المعلمين المختصين فى مجال التدريب والتعليم العسكرى، ما يجعل أحد الأمراء النوميديين أن يتفوق فى هذا المجال بشهادة الرومان أنفسهم واستخدموه فى إسقاط قرطاجة.

كان يعاون قائد الجيش أركان حرب من القرطاجيين المتعلمين يدعمه المشاة من الإفريقيين المدربين، ومن بين الأشياء التى كان يحتفظ بها القائد دائما كانت الخريطة التى يوضح عليها مساعده من الكتبة الإغريق علامات الشواطئ والثغور وسلاسل الجبال<sup>(3)</sup>. ورغم أن هانيبل وقت أن كان قائدا للجيش قد تفوق على الكثيرين وتسبب فى شهرة الكثيرين مثل: فايوس وسقبيو وكاتو إلا أنه لم يترك قواعد عامة للتدريب أو توجيهات للاسترشاد بها واتباعها<sup>(4)</sup>. وهنا نعود مرة أخرى إلى ما سبق أن أشرنا إليه (وهو معروف للجميع) وهو أن مكتبة قرطاجة قد دمرها الرومان فى نهاية الحرب البونية الثالثة وقد يكون هانيبل قد ترك مذكراته وملاحظاته الخاصة بالتدريب العسكرى لكن الرومان إما أن يكونوا قد نخلصوا منها أو أحرقت مع المكتبة، ويعزز هذا الاعتقاد أن كل المؤرخين أشاروا إلى أن هانيبل كتب مذكراته بالفينيقية واليونانية.

والمعروف أن قرطاجة استخدمت جميع أنواع الأسلحة مثل السفن الحربية من كل الأنواع والسهام والنبال والخيول والفيلة، وهذه الأسلحة تحتاج إلى التدريب الكافى والمستمر من جانب قادة الجيش والضباط؛ ومن الضرورى أن الأبناء كانوا يتلقون

(1)polyb.xv.v.

(2)Dio's Roman History.xvii;zonaras.9.11.

(3) هارولد لام، مرجع سابق، ص ص 37، 55.

(4) نفس المرجع، ص 3. H.L.Havell B.A..Ancient Rome.London 2003.pp.239,262,311.

التدريب على إتقان صناعة الأسلحة كل مجموعة كانت تخصص في إنتاج نوع محدد، والدليل على ذلك أن الحكومة كانت تطلب كميات محددة من الأسلحة من الصناع لإرسالها إلى الجنود في ميادين القتال وتجد الاستجابة الفورية من المسئول عن هذه الصناعة. أما فيما يختص بالتدريب على السلاح نفسه فهذا من الأمور التي لا بد أن الضباط كانوا يعلمونها، لأنها ضرورية حيث الخبرة التي يكتسبها الجندي من خلال التدريب على السلاح حتى يألف التعامل مع السلاح وقت الحرب.

### التعليم الزراعي:

قامت الزراعة عند قرطاجة على أسس ومناهج علمية مدروسة ومتطورة، إذ كان لقرطاجة مهندسوها وخبرائها الزراعيون الذين عرفوا أن يفيدوا إلى حد بعيد من كتب الزراعة والفلاحة التي وضعها من سبقهم من علماء اليونان، ولعل أشهر هؤلاء المهندسين وأخدهم ذكرا العالمان هاميلقار وماجون اللذان ألفا كتابين في الزراعة وكان لهما في عصرهما شهرة عظيمة. وإن كانت شهرة ماجون أكبر، حيث وضع موسوعة زراعية من 28 كتابا بلغ من ذبوع شهرتها ما حمل مجلس الشيوخ الروماني على اتخاذ قرار بنقلها إلى اللغة اللاتينية، كما تم نقلها إلى اليونانية وتولوها بالشرح والتعليق والتبسيط، وبقيت هذه الموسوعة واسعة الشهرة طوال العصور القديمة إذ كثيرا ما رجع إليها علماء الزراعة من الرومان واغترف منها مهندسوها وعولوا عليها في تقنياتهم وتحقيقاتهم أمثال: كاتو Cato وبلينيوس<sup>(1)</sup> ويبدو أن ما ورد في هذه الموسوعة من معلومات عن الزراعة وتربية الحيوان كان يفوق إلى درجة كبيرة المعلومات التي يعرفها اليونان والرومان بدليل الاهتمام بها ونقلها إلى لغتهم. وهناك أمر آخر مرتبط بكتابة الموسوعة ذاتها ربما كان المقصود به تسجيل المعلومات وحفظها لتكون مرجعا للمزارعين وأصحاب الأراضي الزراعية في قرطاجة يرجعون إليها وقت الحاجة، وقد تكون واحدة من الكتب التي كانت تدرس للشباب من المهتمين بأمر الزراعة، وعلى كل الأحوال يمكن القول إن موسوعة ماجون في الزراعة كانت على درجة من الأهمية بدليل نقلها إلى اللغات الأجنبية.

(1) اندريه ايبار وجانين أوبوايه، مرجع سابق، ص 56؛ كونتنوج، مرجع سابق، ص 305؛

وكان أغلب سكان قرطاجة يمتلكون مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية التي يعمل فيها العبيد وأسرى الحروب، وخصوصا خلال الفترة التي خاضت فيها قرطاجة حروبا كثيرة في حوض البحر المتوسط، وهذه الأراضي كانت تنتج كثير من المحاصيل على حسب وصف المؤرخين من الزيوت والحبوب والنبذ وغيرها،<sup>(1)</sup> وقد تكون هذه إشارة إلى تطبيق الأساليب الزراعية الجيدة التي كانت تعرفها قرطاجة، أو التي كانت تدرس في المدارس، أو ربما منقولة من الموسوعة الزراعية التي وضعها ماجون، والبيانات التي سجلها عدد كبير من الباحثين تشير إلى تزايد في نسبة إنتاج الاراضى الزراعية فى قرطاجة<sup>(2)</sup> وهذا ما دفع عدد كبير من ملاك الأراضي إلى المحافظة على أراضيهم.

وقد ذكر فارو Varro في رسالته عن الزراعة ثبنا حافلا بأسماء المؤلفين الإغريق زاد عددهم عن الخمسين، ختمه بقوله: إن كل هؤلاء يفوقهم شهرة ماجون القرطاجى الذى جمع فى ثمانية وعشرين كتابا كتبت باللغة الفينيقية كل الموضوعات التى عاجوها مستقلين؛ وقد أطلق كولوميليا Columella على ماجون أبو الزراعة، وليس غريبا أن تفقد النسخة الفينيقية الأصلية، ولكن العجيب حقا ألا توجد أية بقايا من الترجمة اللاتينية. أما القليل الذى نعرفه عن أعمال ماجون إنها هى ترجمة ثانية باليونانية يرجع تاريخها إلى عام 88 ق.م ترجمها كاسيوس ديونيسيوس، ولا نعرف هل نقلها كاسيوس عن اللاتينية التى يرجع تاريخها إلى ما بعد 146 ق.م أو نقلها عن الفينيقية وليس الفرض الثانى مستحيلا، فمن المحتمل أن يكون كاسيوس قد عرف الفينيقية أو لعله كان متصلا بطلاب فينيين ساعدوه على ذلك. على كل حال فإن كتب ماجون هى نصوص مكتوبة بالفينيقية ترجمت إلى اليونانية واللاتينية<sup>(3)</sup>.

ولابد أن القرطاجيين بدأوا بعض المشروعات الرامية إلى التحكم فى مياه الأمطار وتجميعها واستغلالها، وقد استكمل الرومان تلك المشروعات فى مرحلة لاحقة ودلينا على ذلك ما ذكره استرابون عن وجود سد فينىقى على مصب وادى كعام<sup>(4)</sup>. والحقيقة

(1) Maria.E.A., *The Phoenicians and the West*. Cambridge. 2001. p229.

(2) Ibid. pp.229-230.

(3) جورج سارتون، مرجع سابق، ج 5، ص ص 300 — 301.

(4) عبد اللطيف محمود البرغوثى، التاريخ اللبى القديم بيروت 1971، ص 310.

أن القرطاجيين رغم أنهم تجار من الطراز الأول إلا أن اهتمامهم بالزراعة دفعهم إلى تعلم الأساليب الزراعية ومعرفة مواقيت الزراعة والحصاد والري، وهذا ما دونه ماجون في كتابه، فقد قدم نصائحه لمن يشتغل بالزراعة خاصة فيما يتعلق بغرس الأشجار ونظام سقيها ثم الأماكن الصالحة لزراعة كل نوع منها، كما شرح ماجون الطرق الكفيلة بتربية الحيوانات<sup>(1)</sup> وقد يكون المضمون العلمي لكتاب ماجون ومعرفة القرطاجيين به هو أشبه بدروس تعليمية في مدارس متخصصة في الزراعة قائمة على أسس علمية بدليل اهتمام اليونان والرومان بهذه الموسوعة الزراعية وأوامر مجلس الشيوخ بترجمة الكتاب في روما، أما فيما يتعلق ببناء السدود فلا بد أن القرطاجيين كان لهم خبرة واسعة في هندسة بناء السدود وتحديد الأماكن الصالحة لهذا، وتوافرت لديهم معلومات زراعية كثيرة علموها لأبنائهم ليتوارثوها جيلا بعد جيل.

وتحدثنا المصادر عن مملكة نوميديا أنها كانت من المناطق القاحلة والتي اعتاد سكانها عدم الاستقرار فيها، أما في عهد ماسينسا فقد أصبحت مملكة غنية وعلى درجة عالية من الثراء، فأولاده من بعده ورثوا مساحات واسعة من الأراضي الزراعية التي تنتج كل أنواع المحاصيل وأصبحت من أهم مصادر الغلال في حوض البحر المتوسط؛ وهنا تجدر الإشارة إلى أن الملك النوميدي كان قد أتم تعليمه في قرطاجة وتشبع بثقافتها، فهل كانت مسائل الزراعة ضمن أهداف ماسينسا وهو يدرس في المدينة؟، من الطبيعي انه يدرك كواحد من أبناء الملوك النوميديين أهمية الزراعة ولذلك عمل على تطويرها بعد أن آلت إليه أمور الدولة. وهذا أمر مستحب منه، ثم إنه يدرس في قرطاجة فلا يستبعد أن تكون الدروس في الزراعة من الموضوعات المطروحة للدراسة، وخصوصا في المدينة التي بها موسوعة ماجون عن الزراعة والتي اهتم بها اليونان والرومان، ومن الوارد أيضا أن ماسينسا ربما يكون قد أرسل إلى قرطاجة بعض أبناء النوميديين لدراسة العلوم الزراعية في قرطاجة على شكل بعثة تعليمية إذا جاز التعبير خلال الفترة موضع الدراسة، وهذا غير مستبعد أيضا، وخصوصا أن الرومان

(1) محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غرب البحر المتوسط، بيروت 1982، ص 116.

واليونان كانوا قد أظهروا اهتمامهم بهذه النوعية من الموسوعات في قرطاجة وحصلوا على نسخ مترجمة منها.<sup>(1)</sup>

### تعليم الأجنبي:

كان ماسينسا شخصية قوية البنيان متعددة المواهب جمة النشاط وقد كان من عشاق مدينة قرطاجة وتشجيع بمبادئ حضارتها، وقضى فترة من شبابه فيها حيث تلقى تعليمه، وقضى فترة أخرى مع أبناء قرطاجة في المعسكرات وقاتل في سبيلها، فقد كان يقدر أهمية الإفادة من الحضارة القرطاجية في إقليمه الخاص<sup>(2)</sup> وظل هكذا إلى أن أُلقت به ظروف الصراع السياسي في شمال إفريقيا في أحضان الرومان وأصبح من أعداء قرطاجة وقاتل جيوشها غير أنه ظل متعلقا بالحضارة القرطاجية.<sup>(3)</sup>

وقد احتل التعليم مكان الصدارة بين كل القبائل الليبية وبالأخص النوميدية، والمهم في هذا الأمر أن تعليم أبناء الملوك كان دائما يتم في مدينة قرطاجة ومدارسها؛ وهنا تشير المصادر إلى أن ماسينسا أتم تعليمه في قرطاجة، ظهر ذلك في الرسالة التي بعث بها هانيعل إلى ماسينسا وهو يطلب منه التوسط بينه وبين سكيو (القنصل الروماني في الحرب البونية الثانية)، في هدنة عسكرية مذكرا إياه بتربيته الأولى في قرطاجة.<sup>(4)</sup>

وبقدر ما كان الملك يريد موت المدينة الفينيقية من حيث هي قوة سياسية بقدر ما كان متشعبا بثقافتها ومتشباها، ولعله كان ينوى حمل القبائل الإفريقية على استيعاب الحضارة القرطاجية كما استوعبها هو نفسه؛ من ذلك أنه اتخذ لغة قرطاجة لغة رسمية وقد تعلمها وأتقنها منذ صغر سنه، وهذا معناه أن ماسينسا كان يدرس اللغة ويعلم الصبية والأطفال في مدارسها التي ربما كانت نظامية أو قريية من ذلك، خصوصا أبناء الأمراء.<sup>(5)</sup>

(1) polyb. xxxvi. 16.2-10., Diodorus. xxxii. 16.1., pliny. xviii. xv; xviii. 80. ,T.D.Fage. op.cit.p182.

(2) محمد بيومي مهران، مرجع سابق، ص 28.

(3) محمد فطر، يوغرطه، تونس 1984، ص 90. Jamil M.Abun-Nasr,op.cit.p29

(4) Appian.viii.37.

(5) محمد فطر، مرجع سابق، ص 93. Warmington.B.H.,Histoire...,op.cit.p292

وفى إفريقيا كان إشعاع مدينة قرطاجة واضحا إلى درجة كبيرة ويرجع ذلك إلى أن اتصال القبائل الليبية بقرطاجة كان مستمرا، والقسم الداخلى منهم وقع تحت السيطرة القرطاجية وأصبح من مستعمراتها يؤمه التجار لجمع وتوزيع السلع دون أن يخشوا بأسا فقد أمد الليبيون قرطاجة بالعمال كما قدموا الكثير من المرتزقة، وهذا يسهل إلى حد كبير فرص التعليم ونقل المعارف على كل المستويات الاجتماعية، فقد حرص أمراء نوميديا على أن يوفروا لأبنائهم تربية عالية فى قرطاجة وأن يتخلقوا بأخلاق القرطاجيين، ويتطبّعوا بطبائعهم فتقلوا عنهم وتعلموا منهم استخدام أشياء كثيرة مثل استخدام الملابس الفاخرة وأخذوا عن نسائهم استعمال الطيوب ولبس الحلى والمجوهرات، كما استقدموا من قرطاجة مهرة المهندسين والرسامين ليتولوا الإشراف على بناء منازلهم وتشييد الأضرحة الجميلة ونقشها<sup>(1)</sup>.

### التعليم والصناعة:

بالرغم من المنافسة الشديدة التى تعرضت لها قرطاجة إلا أنها استطاعت أن تحافظ خلال الأجيال المتعاقبة على عدد من الصناعات علمتها أولادها منها صناعة السجاد وبعض الوسائد التى كانت تستأثر بذوق الإغريق، وعموما يمكن القول بأن ما عثر عليه المنقبون يدل على وجود صناعة وطنية نشطة ومتنوعة منذ القرن السادس ق.م<sup>(2)</sup>. وبناءً عليه نقول إن أصحاب الحرف القرطاجية بجميع أنواعها بصرف النظر عن القدرة على المنافسة، استطاعوا أن يعلموا أبناء قرطاجة كل الوسائل التى تمكنهم من المحافظة على حرفة الصناعة وبقائها فى أيديهم.

كان المتوقع أن نرى أن قرطاجة قد سكّت عملتها فى وقت مبكر من تاريخها التجارى المحموم، ولكن ما حدث هو أنها اعتمدت على مستعمراتها فى هذا الأمر حتى القرن السادس قبل الميلاد، ثم ظهرت عملات من النحاس والذهب<sup>(3)</sup>. وعندما استقر رأى قرطاجة على استخدام النقد بانتظام اختارت قاعدة النقد البطلمى لنقدها، فقد كانت

(1) اندريه ايبار وجانين أوبوايه، مرجع سابق، ص 63.

(2) نفس المرجع، ص 54.

(3) نفس المرجع، ص 55.

حتى غزو اجاثوكليس Agathocles (311ق.م) لها لا تضرب عملتها للتداول خارج حدود المدن البونية التي كانت تسيطر عليها، لذلك كانت تصنع في صقلية على النظام الايتيكي وتدفع كرواتب للجند، ومنذ عام 300ق.م وجدت قرطاجه نفسها في حاجة إلى تغيير نظام النقد المعمول به ليمشى مع تزايد العلاقات بينها وبين مدن شمال إفريقيا، ولم يكن أمامها أنسب من ضرب عملتها على النظام البطلمي وأخذت في صنعه في مدينة قرطاجه نفسها<sup>(1)</sup>. وظهرت عملات من الفضة ضربت في قادس وابيزا تنتمي إلى القرن الثالث أيضا وعليها علامات بونية مثل: الفيلة أو النخيل أو الخيول أو صور لقادة من أسرة برقة مثل هاميلقار وهسدروبل وهانيبل أو صور الآلهة القرطاجية وبعض القطع التي اكتشفت في قادس كان على الوجه صورة الإله ملقارت وعلى الظهر صورة فيل،<sup>(2)</sup> إلا أنها خشنة الصنع، والظاهر أن قرطاجه استعملت في أسواقها إلى جانب عملتها عملة يونانية أيضا كما تدل على ذلك قطع المسكوكات التي عثر عليها بين الأنقاض، مع أنها لم تكن لتفتقر للمعادن الصالحة لسك العملة مفضلة استعمال السبائك في المقايضات التجارية، خصوصا إذا كانت المعاملات مع قبائل أقل تطورا. والأمر مرتبط بحرفية الصناعة التي تختص بصناعة النقد القرطاجي الذي هو من أهم الصناعات لدى الدولة، وهنا من الضروري أن قرطاجه كان لديها ورش لصناعة العملة فيها أمهر الصناع وبالضرورة كان يعاونهم عدد غير قليل من الصبية يمتازون بالأمانة والذكاء وهذه بعض صفات من تكون حرفته صناعة العملة. ومن المؤكد أيضا أن كبار الصناع كانوا قد علموا الصبية حرفية هذه الصناعة، وقد تكون مصنفة ضمن الصناعات التي كانت على درجة كبيرة من الأهمية تجعل الشباب والصناع يعطونها الكثير من الانتباه في التعليم والصناعة.<sup>(3)</sup>

ويشير ابيانوس إلى الميناءين التجاري والحربي لهما مدخل واحد من البحر يغلق ويفتح حسب الحاجة، وهناك أرصفة الميناء وأحواض السفن وورش صناعة الحبال والنجارة،

(1) إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطلمة ج3، القاهرة 1988، ص 46.

(2) Harden.D. op. cit, p 159.

(3) Pirenne.j., *The tides of History*, vol.1, London 1962. p.207.; Warmington. B.H., op. cit. p. 450.; Seltman.G., *Greek coins*. p.249.

ثم في الخلف كانت المنازل والحراس<sup>(1)</sup> وهذا يعنى أن هذه الورش كان بها مجموعة من الصبية يتعلمون الحرف المتصلة بصناعة السفن والجمال وغيرها، ويمكن أن تكون هذه الورش أشبه بمدارس صناعية أو فنية لأنها متخصصة في صناعة الصواري والأشعة وأخشاب السفن وكل ما تحتاجه البحرية القرطاجية.

ظهرت أهمية التعليم الصناعى في قرطاجه عندما تعرضت الدولة لظروف قاهرة تتعلق بقرار مجلس الشيوخ الرومانى بإعلان الحرب عليها في عام 149 ق.م ولما فشل مجلس الشيوخ القرطاجى في إقناع سقبيو قائد الجيش الرومانى وقنصل روما بالعدول عن القرار الخاص بالحرب، خصوصا أنهم كانوا قد استجابوا لطلب الرومان بتسليم كل الأسلحة تفاديا للحرب، وعندما شعر سكان قرطاجه بأنهم خدعوا من الرومان وأن الحرب لا مفر منها تحولت المدينة إلى مجموعة من الورش لصناعة 100 ترس و 300 سيف و 500 رمح و 1000 سهم وعدد كبير من قذائف المنجانيق كل يوم، وبعض القوارب الصغيرة من بقايا الأخشاب التى كانت مخزنة في الميناء وكانت محل اتهام من ماسينسا وقنصل الرومان على أنها من أجل صناعة السفن الحربية، كل هذا لمواجهة الرومان، والأمر هنا متعلق بالتعليم الصناعى الذى كانت قرطاجه تدرسه لأبنائها لدرجة أن الكل كان له عمل مخصص يقوم به خلال هذا الوقت الحرج، وقد يتبادر إلى الذهن أن الدولة كانت كلها في حالة دفاع عن النفس وأن هذا أمر طبيعى، نعم إن الكل كان يساهم في أمر الدفاع ولكن هل صناعة الأسلحة ممكن أن يقوم بها أى شخص غير مدرب التدريب الكافي؟ الأقرب إلى الواقع أن الكل قد شارك، ولكن هناك على الأقل مجموعة متخصصة في مثل هذه الصناعات الهامة، ومرة أخرى يفرض التساؤل نفسه، هل تم هذا بدون تعليم سابق في قرطاجه في شكل مدارس لتعليم هذه الحرف أو الورش الفنية المتخصصة؟ الجواب على هذا في ضوء غياب الدليل المادى للمدارس بعد هدم المدينة، أن هذه المدارس أو الورش كانت موجودة بدليل استمرار الدوله في استخدام هذه الصناعات طوال تاريخها.

(1) Appians viii, xiv.96.

أمد مهرة الصناعات وأرباب الحرف في مدينة قرطاجة أسواق البحر المتوسط بالمنتجات وكانت لهم جمعياتهم المهنية التي يتلاقى أعضاؤها في اجتماعات عامة ويدلون بأرائهم في كل ما يتعلق بشؤون المدينة<sup>(1)</sup>، ومن المحتمل أن هؤلاء الصناعات كانوا يجربون الصببية أو صغار الصناعات بما يدور أو بما تم في هذه الاجتماعات، وعليه تتم عملية التعلم من خلال نقل الأفكار من جيل إلى جيل، والتربية على هذا الشكل ممكن أن نسميها التربية المهنية إن صح التعبير حيث تدور المناقشات حول الحرف والسوق والنقل وربما الأجور، والأمر بالضرورة ينتقل إلى الصببية الملازمين للصناعات يتعلمون الحرفة ويتدربون على رعاية مصالحهم.

### تعليم اللغات الأجنبية:

كان سكان قرطاجة رجال أعمال همهم الوحيد الأرباح المادية وقد كانوا يحسنون لغات كثيرة بحكم الضرورة من غير أن يتظاهروا بذلك في بعض الأحيان، وكان بيثوس Boethos واحدا من أمهر النحاتين.. قرطاجي المولد إغريقي النسب<sup>(2)</sup>.

وقد أحسن عدد كبير من القرطاجيين استعمال اللغة اليونانية وأجادوها واتخذوا منها أداة طيعة في أعمالهم التجارية الواسعة وكانت لغة كتابة وتعبير وتفاهم، لدرجة حملت السلطات القرطاجية المسئولة على تحريم استعمال اليونانية على رعاياها، وقد يكون السبب هو الخوف على اللغة الفينيقية من الإهمال من جانب الرعايا في مناطق التجارة خارج إفريقيا، كما أظهر الناس إعجابهم من أحد الخطباء القرطاجيين في مدينة سيراكوز في جزيرة صقلية، وساعدت حالات الزواج والمصاهرة بين الإغريق والقرطاجيين على تعلم اللغة اليونانية، ولدينا عدة أمثلة على رغبة القرطاجيين في تعلم اللغة اليونانية منها أن هانيبعل درس اليونانية وهو في أسبانيا على يد معلم اسبرطي يسمى سوسيليوس وضع فيما بعد تاريخا مفصلا لتلميذه، وكذلك كانت الطبقات الثرية في قرطاجة متأثرة بالثقافة الهلينية قبل الإسكندر بكثير، وهي التي غزت المدن الفينيقية وتغلغلت فيها<sup>(3)</sup>.

(1) هارولد لام، مرجع سابق، ص 18.

(2) شارل أندري جوليان، مرجع سابق، ص 117.

(3) أندريه إيبار، جانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، مرجع سابق، ص 58.

وتشير المصادر إلى أحد الأمور المرتبطة بالتعليم والثقافة في قرطاجة وهى الترجمة ونستدل عليها من عدة أمور أهمها ما حدث في رحلة هانو البحرية التى أشارت إليها المصادر ومنهم بلىنى<sup>(1)</sup> الذى يذكر أن الرحلة تمت في وقت كانت قرطاجة فى قمة ازدهارها فى القرن الخامس قبل الميلاد، وخلال الرحلة احتاجوا للمترجمين فأخذوهم من ليكسوس، وتجدر الإشارة هنا إلى أن ليكسوس واحدة من المدن الفينيقية التى تسبق قرطاجة فى الوجود على ساحل شمال غرب إفريقيا، فلماذا أخذوا الترجمة منها؟ هل لأنها أسبق فى التعامل مع القبائل الإفريقية وبالتالي تعلمت لغتهم؟ والمترجمين الذين أخذهم بحارة الرحلة لم تفصح المصادر عن جنسياتهم، هل هم فينيقيون يعرفون لغات إفريقية؟ أم هم أفارقة يعرفون اللغة القرطاجية؟ ورغم صمت المصادر فيما يخص جنسية المترجمين إلا أن قيادة الرحلة تصرفت حسب احتياجاتها فى المشروع الذى تقوم به.<sup>(2)</sup>

والأمر متعلق بنوع الترجمة أو بالأحرى اللغة المراد ترجمتها ويبدو أن الاهتمام بتعلم اليونانية واللاتينية أنساهم إلى حد ما تعلم لغات أخرى مثل اللغات الإفريقية أو بعض اللغات الخاصة بقبائل أوربية، فقد كان هانيبل القائد القرطاجى كثيرا ما يحتاج إلى المترجمين وهذا أمر منطقي، وخصوصا انه يقود أعدادا هائلة من الجنود من جنسيات كثيرة ومتنوعة، لكن لا يوجد أى إشارة إلى وجود مدارس لتعليم اللغات الأجنبية غير اليونانية واللاتينية.

مناسبة أخرى تبين إلى أى مدى كان تعلم اللغات الأجنبية على درجة كبيرة من الأهمية، فالظروف التى كانت فيها قرطاجة فى الحرب البونية الأولى وانتقال الحرب إلى أرض قرطاجة دفعها إلى الاستعانة بالقائد اليونانى اكسانثيوس Xanthippus لتدريب

(1)Pliny.II.169.

(2)(Et Hanno Carthaginis potential florente circumvectus a Gadibus ad finem Arabiae navigationem eam prodidit scripto,sicut ad extera Europae noscenda missus eodem tempore Himilco).Pliny.II.169.

والنص يشير إلى أشياء كثيرة منها الدوران حول إفريقيا للوصول إلى الجزيرة العربية ولكن الرحلة وصلت فقط إلى السنغال أو خط الاستواء، كما يشير النص إلى خروج هيميلكون فى الوقت ذاته لكشف شاطئ أوروبا على المحيط.

الجيش<sup>(1)</sup>. والأمر هنا مرتبط بالترجمة التي يجب أن يستمع إليها الجنود، وتشير الدراسات إلى أن قرطاجة كانت تهتم بهذه النقطة وقد تكون هناك مدارس لتعليم اللغات الأجنبية من بينها اليونانية فالقائد المدرب لغته يونانية فهو اسبرطى والجيش الذى يدربه خليط من أجناس كثيرة فكان من الضروري أن يكون هناك من يترجم للجنود؛ و عندما تكرر الموقف واستعانت قرطاجة بالأجانب فى تكوين جيوشها فى أسبانيا كان لدى القيادة العسكرية مجموعة من الضباط ترافق الجيش تنحصر مهمتهم فى أنهم يكونوا متأهين دائما للعمل كما أنهم كانوا يعملون كترجمة لهذا الجيش متعدد اللغات<sup>(2)</sup>، والموقف بهذا الشكل يشير إلى ضرورة وجود مدارس لتعليم اللغات الأجنبية فى دولة تعتمد على الأجانب فى جيوشها بشكل أشارت إليه كل المصادر التاريخية.

وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أن تعلم اللاتينية كان من الأمور الواضحة التى نتعرف عليها فى مناسبات كثيرة نظرا للعلاقة بين روما وقرطاجة ففى أحداث الحرب البونية الثانية حدثت محاولة من جانب هانيبعل لإنهاء الخلاف وأن يتنازل سكيو (الذى عرف فيما بعد بسكيو الإفريقى بعد هزيمته لهانيبعل) عن فكرة الحرب لكنه رفض، وتم اللقاء وألقى هانيبعل التحية على عدوه وتقبل منه التحية عند حديثه أيضا، لكن بوليبيوس الذى أرخ للحروب البونية وكان مرافقا لسقيو وصديقه لم يشر إلى أن الحديث كان قد تم بواسطة مترجم، وهذا لا يعنى غياب المترجم وربما يكون بوليبيوس قد أغفله، ومع ذلك من الوارد وربما يصل إلى درجة التأكيد أن كل طرف كان قد تعلم لغة الآخر نظرا لطول مدة التعامل بينهما<sup>(3)</sup>.

وكان يوجد فى قرطاجة أعداد كبيرة من الأجانب ليس فى مجال الجندية فقط وإنما فى مجال التعامل التجارى فقد كان يأتيها التجار من كل المناطق تقريبا من المصريين والإيطاليين والأتروسك فضلا عن الليبيين بمختلف قبائلهم والقادمون من الصحراء وغيرهم، وهؤلاء جميعا يتعاملون فى أسواق المدينة، والتساؤل هنا عن كيفية التعامل فيما بينهم، وخصوصا أن عدد اللغات كبير على حسب المتعاملين بها، الأقرب إلى الواقع أن

(1) Warmington.B.H..op. cit.p.228.

(2) هارولد لام، مرجع سابق، ص 69.

(3) Polyb.xv.5.4.;xv.8.1-14.

القرطاجيين كانوا يعرفون بعض اللغات بحكم التعامل الدائم مع القبائل الليبية والنوميديّة، أما باقى اللغات فقد يكون انتقالها إلى التجار بواسطة مترجمين احترّفوا هذه المهنة وهذه تحتاج إلى خبرة ودراية باللّغة، وربما يكون تعلم هذه اللغات قد تم على يد مجموعة من المعلمين من أصحاب اللّغة ذاتها استعانت بهم الدولة أو يكون طول إقامتهم أعطاهم الفرصة لاحتراف الترجمة أو تعليم التجار اللّغة المراد تعلمها<sup>(1)</sup>.

### تعليم البنات:

أشارت المصادر إلى الأميرة صافونيسبا<sup>(2)</sup> Saphonisba ابنة هسدروبعل بن جسكو<sup>(3)</sup> التي كانت مخطوبة لماسينسا ثم تبدل الحال وتزوجها سيفاكس وعلى أثر ذلك انحاز ماسينسا إلى الرومان ضد قرطاجة، وتجدر الإشارة إلى أن المصادر اهتمت ببيان الأحوال الثقافية لها على اعتبار أنها واحدة من الشخصيات التي شاركت في صنع الأحداث في شمال إفريقيا خلال هذه الفترة، وقد يكون حال الكثيرات من بنات الأسر الأرستقراطية مشابه لما تمتعت به صافونيسبا ولكن لوضعها المتميز في أحداث هذه الفترة اهتم المؤرخون بالكتابة عنها أكثر من غيرها، ولو حدث وتناول العلماء حالات كثيرة في المجتمع القرطاجي لتعرفنا على شريحة من شرائح التعليم عندهم وهو تعليم البنات ربما كان بشكل أكثر وضوحا عما نحن أمامه، وتشير المصادر إلى أن الأميرة كانت على قدر عال من الجمال ورشاقة الجسم، ولما كانت في ريعان شبابها تلقت تعليما ممتازا في الموسيقى والأدب، وكانت مليحة الوجه لدرجة كبيرة وكان صوتها يكفى لسحر أى شخص<sup>(4)</sup>.  
وجدير بالاهتمام هنا ما أشارت إليه المصادر عن عدة مجالات تعليمية على درجة كبيرة من الأهمية تخصصت فيها كليات في وقتنا الحاضر، أول هذه الأمور هي الرشاقة التي أشارت

(1)Jamil M.Abun-Nasr,*Ahistory of the maghrib*,Cambridge.1971.pp17,21.; Harden. D. op.cit. p: 70.

(2) وردت صيغة أخرى لاسم صافو نسبا عند ورمنجتون على هذا الشكلSafanbaalالذى يشير إلى وجود اسم الإله بعل كقطع من اسم الأميرة، وتجدر الإشارة إلى أن ورمنجتون ربما يكون استند في هذا على مصادره التي رجع إليها راجع: Warmington.B.H.op. cit.273

(3)Poblyb.xiv.1.

(4) Dio's Roman history.xvii.Zonaras.9.11.

إليها المصادر و تعطى فكرة عن التعليم الرياضى أو كما تسمى الآن التربية الرياضية وربما كانت تمارسه بنفسها ولا يستبعد أن تكون قد تلقت فيه تعليما منتظما على يد مدرسين أو مدرسات وهى ابنة الطبقة الحاكمة فى الدولة،المجال الثانى من مجالات التعليم هو الموسيقى وهى التى تعد من مفردات الثقافة الراقية. أما الأدب وهو العنصر المكمل للثقافة داخل القصر الملكى يعطينا صورة صادقة عن مستوى التعليم عند الأسر القرطاجية الحاكمة،لكن يبقى أمامنا السؤال:هل المعلمون من القرطاجيين أم من الإغريق؟.. لم تذكر المصادر عن ذلك شيئا، ولكن هناك إشارات فى مواضع أخرى وهى فترة التربية فى مرحلة الطفولة و التى تلقاها أبناء هاميلقار بارقة فى القصر الملكى القرطاجى كانت على يد معلمين من اليونانيين،ويبدو أن الطبقات الراقية كانت تستعين بالأجانب ومنهم اليونانيين فى تعليم الأبناء القراءة والكتابة.

### التربية الدينية:

حرصت قرطاجة على إقامة مجموعة من المعابد لنفس الآلهة الموجودة فى مدينة صور حيث كانت المدينة الأم لقرطاجة كما هو معروف. وكانت أخص عبادة بها هى عبادة بعل حامون وتانيت واشمون وملقارت، وكانت فى العصر الرومانى تعرف بأسماء رومانية: فكان بعل حامون Ball Hammon هو ساتورن Saturn وتانيت Tanit هى كاليستس Caelestis واشمون Eshmun هو اسكولابيوس Aesculapius وملقارت Melqart هو هرقليس Hercules، وما لا شك فيه أن قرطاجة تركت أثارا عميقة فى إفريقيا من حيث الدين، وهذا واضح حتى فى العصر الرومانى حيث عرفت الآلهة القرطاجية بأسماء رومانية لكنها احتفظت بخصائصها الأصلية<sup>(1)</sup>.

كانت قرطاجة حريصة على تربية الأبناء تربية دينية منذ السنوات الأولى من أعمارهم ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال أسماء بعض المشاهير فى الأسر القرطاجية، وكانت أسماء الرجال والنساء فى هذا الأمر سواء، فاسم هسدرو بعل يعنى (حليف بعل) وهانبيعل يعنى (محبوب بعل) وهاميلقار يعنى (خادم ميلقارت). أما اسم باتبعل Batbaal يعنى

(1) Jamil M.Abun-Nas.,op.cit.p22. كونتنوج مرجع سابق ص127؛ شارل أندرى جوليان،مرجع

سابق ص 126؛ Harden.D: op. cit. p. 68.

(ابنة بعل)، وهذه الأسماء تشير إلى قوة التيار المتدين عند القرطاجيين الذين حرصوا على تربية الأبناء تربية دينية من خلال ارتباط أسمائهم باسم الآلهة.<sup>(1)</sup> وهذه الآلهة سالفة الذكر في قرطاجة وغيرها من البلاد محل التعامل كان الصغار والكبار على دراية بها، فنص الرحلة البحرية التي قام بها هانون لكشف سواحل غرب إفريقيا تم وضعه في معبد كرونوس Chronos والنص كان معروضا للاطلاع عليه داخل المعبد<sup>(2)</sup>. وبالتالي يمكن تفسير ذلك التصرف من جانب الدولة على أن الرحلة كانت محل تقدير كبير ولم يكن أمامهم أفضل من المعبد ليضعوا نص الرحلة فيه، والأمر هنا مرتبط بقدسية المكان التي يقدرها كل من يدخل المعبد من الصغار والكبار، والقسم الذي حرص القائد هاميلقار بارقة أن يسمعه من ابنه هانيعل وهو في مرحلة الطفولة والخاص بعداوتة للرومان كان قد تم في معبد ملقارت<sup>(3)</sup>، ولما تحمل الابن المسئولية وقاد الجيش كان ينتقل إلى أماكن كثيرة حسب ظروف القتال ومعه ذخائره الدينية وصنم الترانيم<sup>(4)</sup>. أما الأضاحي التي كانت تقدم إلى الآلهة في المعابد فكان الأطفال يرون الطقوس المقامة داخل المعابد أثناء تقديم هذه الأضاحي، وبدون شك كانت مثل هذه الأمور تغرس في نفوس الأطفال نوعا من العادات الدينية التي كانت تصاحبهم في حياتهم، وهو ما يسمى بالتربية الدينية في الوقت الراهن.

### الخاتمة :

كانت قرطاجة إذن واحدة من أهم الدول في غرب البحر المتوسط، واستطاعت أن يكون لها علاقات قوية مع اليونان والرومان، تغيرت أشكال هذه العلاقات مع تغير الظروف السياسية والاقتصادية في المنطقة ولكنها في الوقت ذاته كانت صاحبة صفة ثقافية في حوض البحر المتوسط، فالثقافة القرطاجية كانت معروفة لدى دول العالم القديم في الفترة التي عاشت فيها قرطاجة وما بعدها. ويلاحظ أن النقوش البونية كانت قد أمدت الباحثين بالكثير من المعلومات عن الثقافة القرطاجية، كذلك كانت كتب

(1)Herm.G.,op.cit.pp.196-197.

(2)Harden.D.op.cit.p.78.

(3)Livy.xxi.2.;Gsell.G.op.cit.viii.p.252.

(4) هارولد لام، مرجع سابق، ص 69.

الموسوعات البونية والمصادر التاريخية اليونانية منها والرومانية هي أهم مصادر المعلومات عن التعليم في قرطاجة، وحقيقة الأمر أن الثقافة والتعليم في قرطاجة من الأمور المتلازمة فكانت الإشارات عن التعليم والمكتبات ودور الدولة في التعليم والتدريب والتعليم البنات والترجمة والنشاط الثقافي كلها أمور مترابطة لا يمكن الفصل بينها، وقد تكون ظروف الدولة وندرة المصادر الوطنية القرطاجية هي السبب في هذا.

وقد أشارت المصادر إلى مناسبات كثيرة ظهرت فيها كتب بونية سواء كتابات سجلها أشخاص من قرطاجة أو من الدول المجاورة، كذلك كانت هناك الموسوعات العلمية التي كتبت باليونانية والفينيقية وتمت ترجمتها إلى اليونانية واللاتينية، وهذه الترجمة من اللغة البونية إلى غيرها من اللغات كانت بإشراف حكومي بل بإشراف أعلى جهاز سياسي في الدولة مثل مجلس الشيوخ الروماني مثلا، وهذا يؤكد على أهمية الموضوعات التي تمت ترجمتها، ومن جانب آخر تأكيد على أهمية الثقافة القرطاجية.

كذلك كانت المكتبات البونية التي أهديت إلى أمراء شمال غرب إفريقيا بعد تدمير قرطاجة في عام 146 ق.م من أهم الأدلة على ارتفاع قدر الثقافة في قرطاجة في الفترة موضع الدراسة فلم يبق الرومان على شيء إلا المكتبات، وهذا دليل على ذلك فهم الذين يعرفون قيمة كتب قرطاجة فعندهم ترجمة لكتب ماجون في الزراعة، وعندهم رحلة هانون في الملاحة والكشف البحري، وعندهم كتب همبسال عن تاريخ وجغرافية إفريقيا وأشياء كثيرة في هذا المجال، فقدروا قيمة الكتب وما فيها من معلومات.

أما عن التعليم فالواضح أن قرطاجة كانت تهتم بهذا المجال ولكن الفرصة أمامنا غير كاملة لدراسته دراسة مستفيضة، والسبب معروف وهو غياب المصادر الأصلية القرطاجية، فمن خلال الإشارات التي وردت هنا وهناك في مصادر الفترة تبين أن الدولة كان لديها اهتمام بالطفولة من حيث تعليم القراءة والكتابة والثقافة الفينيقية واليونانية، كما كان لديها اهتمام كبير بالتربية الدينية، أما التعليم العسكري أو التربية العسكرية فكانت القطاع الكبير الواضح لدى حكومة الدولة وهذا لا يعنى أنها أهملت باقى الفروع وإنما ما فرض على الدولة من ظروف عسكرية ضاغطة لمواجهة اليونان والرومان لسنوات طويلة أجبرها على الاهتمام بالجانب العسكري حتى تستطيع أن تدفع عن نفسها الخطر، ومن

أجل ذلك نراها تعلم الأبناء الصغار وتدريبهم على حمل السلاح وتستعين بالخبرات العسكرية الأجنبية.

وفيما يتعلق بالتعليم الزراعى فكانت الصورة واضحة من خلال ما قدمه ماجون في موسوعته عن الزراعة والتي نقلها اليونان والرومان، وقد كان من الطبيعى أن يتدرب الأبناء ويستفيدوا من خبرة الآباء ومنهم ماجون الذى سجل لهم خبرته العلمية في مجال الزراعة وتربية الحيوان، وما أسفرت عنه جهود الملك النوميدي ماسينسا من تقدم في المجال الزراعى بعد أن تولى قيادة المملكة يشير إلى أن ماسينسا كان قد استفاد بدون شك من علوم قرطاجة في الزراعة أثناء فترة تعليمه فيها.

استطاعت قرطاجة أن يكون لديها فريق كبير من الصناع في حرف كثيرة تفى بحاجة الدولة في أى وقت وفي كل المجالات، وتشير السنوات الطويلة التي خاضتها قرطاجة في حروب ضد اليونان والرومان وما قدمته طبقة العمال والحرفيين من أدوات وأسلحة إلى الجيش وإلى كل السكان يدل بدون شك على القدر الهائل من المنتجات التي شهدتها الدولة، ورغم أهمية ما سبق الإشارة إليه إلا أن الأهم منه هو تعاقب الأجيال على مر السنين في التدريب والتعليم للشباب والصغار الذين سدوا احتياجات الدولة من كل الأغراض ولولا أن قرطاجة كان بها مدارس لتعليم الصبية والشباب على مثل هذه الأشياء لما استطاعت أن تصمد أمام الدول المنافسة لها.

وعموما يمكن القول إن قرطاجة كانت تمتلك مقومات الفكر الثقافى الذى ظهر عند عدد من الشخصيات المثقفة وفي شكل عدد هائل من المكتبات والكتب والرسائل العلمية والأساليب التربوية في مختلف فروع المعرفة.

## المصادر والمراجع

### المراجع العربية والمعربة:

- إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطالمة، القاهرة 1988.
- أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، القاهرة 1984.
- أندريه ايمار وجانين أوبوايه، تاريخ الحضارات العام، روما وإمبراطوريتها، ترجمة فريد داعر وفؤاد أبو ريحان، بيروت 1994.
- جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة لفييف من العلماء بإشراف إبراهيم بيومي مذكور وآخرين، القاهرة 1978.
- رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ج 1، بيروت 1981.
- سليمان عبد الرحمن الذيب، الاوجاريتيون والفينيقيون، الجمعية التاريخية السعودية، العدد السابع عشر، الرياض 2004.
- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزال والبشير بن سلامة، تونس 1985.
- عبد الرحمن بدوي، خريف الفكر اليوناني، ط 3، القاهرة 1959.
- عبد العزيز حجازي، البحرية القرطاجية دراسة في دورها الحربي ومقوماته وعلاقاته، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة 1985.
- عبد اللطيف البرغوثي، التاريخ الليبي القديم، بيروت 1982.
- كونتنوج، الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة 1948.
- محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، بيروت 1984.
- محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غرب البحر المتوسط، بيروت 1982.
- محمد بيومي مهران، المغرب القديم، الإسكندرية، 1990.
- محمد فنطر، يوغرطة، تونس 1984.
- مصطفى كمال عبد العليم، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، بنغازي 1986.
- هارولد لام، هانيبال، القاهرة 1962.
- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، م 3 ج 1، القاهرة 1972.

Loeb Classical Library:

Aristotle.

Appianus.

Dio Cassius.

Diodorus Siculus.

Livius.

Plinius.

Polybius.

Sallustius.

Zonaras.

### المراجع الأجنبية:

Brian Caven ,*The Punic wars* ,London 1980.

Desanges.J.,*The Proto-Berber. General history of Africa.2.* Unesco 1981.

Gsell.S.,*Historie de L'Afrique du nord.*Paris 1972.

Harden.D.,*The Phoenician.*London 1980.

Herm.g.,*The Phoenicians, Translated by Caroline Hillier.* London 1975.

H.L.Havel.B.A.,*Ancient Rome.*London 2003.

Jamil M.Abun-Nasr,*A History of Maghrib,*Cambridge 1971.

Maria.E.A.,*The Phoenicians and the West.*Cambridge 2001.

Maurcie Szyncer,*La Litterature Punique Carthage, Archeologie Vivante,* Paris 1969.

Mazard.j.,*Corpus Nymmorvm Nymidian Mavretaniaeqve,* Paris 1958.

Moscatti.,*The world of the Phoenicians.*London 1968.

Pirenne.J.,*The tides of history.vol.1.*London 1962.

Seltman.G.,*Greek coins.,*Cambridge 1954.

T.D.Fage.,*Cambridge history of Africa vol.2.*Cambridge 1973.

Warmington.B.H.,*Historie et civilization de Carthage* Paris 1961.,*The Carthaginian., General history of Africa vol.2.*Unesco.1981.

## المحتويات

- 9 صدى حوادث السودان عام 1924 في البرلمان المصري.  
- د. عايذة السيد إبراهيم سليمة
- 53 الخلفية التاريخية والتشكيلة القبلية للنزاعات في إقليم دارفور (حتى نهاية الحكم الثنائي 1956).  
- د. زكى البحيرى
- 101 الضربة الجوية الإسرائيلية في حرب الخامس من يونيو 1967 - دراسة وثائقية تحليلية.  
- د. فطين أحمد فريد على
- 169 مدخل إلى المواقع المهمة بالحروب الصليبية على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).  
- أ. محمد فوزى مصرى رحيل
- 209 البلغار وحركة التمرد والعصيان المسلح في مقدونيا على الدولة العثمانية عام 1903 م في ضوء الوثائق الأمريكية.  
د. إبراهيم العدل المرسي

273 سياسات الأرض تجاه الإفريقيين في جنوب إفريقيا (دراسة وثائقية للفترة من 1894 إلى 1910).

د. أحمد عبد الدايم محمد حسين

335

"الشورى الأبوية"

صناعة القرار عند محمد على باشا.

- د. ناصر أحمد إبراهيم

379

الثقافة والتعليم في قرطاجة.

د. عبد العزيز حجازى

\* \* \*